دون بوسكو

ملاذ المشرّدين ومربّي المهملين
ومؤسِّس الجمعيّة الساليزيّة

أديب مصلح

سلسلة النوابغ

١٤

دون بوسكو

ملاذ المشرّدين ومربّي المهمَلين
ومؤسّس الجمعيّة السَاليزيّة

أديب مصلح

٢٠٢٢

طبعة أولى

٢٠٢٢

* * *

حقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

إهداء

إلى جميع الذين يحيَون ويعمَلون

بروح القدّيس فرنسوا الساليزيّ!

والذين يعطفون على الأولاد المهمَلين،

ويربّونهم بروح القدّيس جان بوسكو!!

ولكلّ كاهنٍ يمارس كهنوته،

بمثل وفاء وخصب ممارسة الكاهن

جان بوسكو لمهامّه الكهنوتيّة!

تقديـم

الأب الياس زحلاوي

في إحدى المحطّات الهامّة من القدّاس الإلهي، يقف الكاهن أمام الإيقونسطاس، رافعًا بيدَيْه الإنجيل المقدّس، وهو يُنشد:

"خلِّصنا يا ابنَ الله،

يا مَن هو عجيبٌ في قدّيسيه،

نحن المرنّمين لك: هللويا!"

أجل، هذا هو بعينه، النشيد الذي وجدتُني تلقائيًّا، أردّدُه في قلبي دونما انقطاعٍ، في شكرٍ واندهاشٍ متواصلَيْن، منذ أن بدأتُ أقرأ مخطوط هذا الكتاب المذهل: "دون بوسكو"... وحتّى الآن، بعد أن طويتُ صفحتَه الأخيرة، منذ أيّامٍ!

هل مِن عجبٍ في ذلك؟

ولكنْ، هل في جوهر المسيحيّة الصرف، ما ليسَ بعجيبٍ؟!

هل في الإيمان بتجسّد "كلمة الله" بشرًا سَوِيًّا، وفي موته على صليبٍ، حبًّا بجميع البشر، وفي انبعاثه حيًّا من القبر، وفي بَعثِه روحَه المُحيي في حفنةٍ من صيّادين أُمّيّين، ما إن غادروا الأرض، شهودًا بدورهم، حتى كانوا قد غزوها بروحه ومحبّته، وقد قهروا كيْدَ اليهود وبطشَ الرومان... أقول: هل في كلّ ذلك ما ليس بعجيبٍ؟

إنّ كلّ ما في يسوع، سيرةً وقولاً وفعلاً، عجيبٌ.

والعجيبُ الأعجب، ما آتى بعضَ الناس من بعدِه، أن يكونوا، ويقولوا، ويفعلوا!

في هذا الشأن، يجدر بنا أن نُطيلَ التأمّل في ما كَتَب فيه وفيهم، أحدُ كبار المفكّرين المعاصرين، وهو الفيلسوف الفرنسي "جان غيتّون" (Jean Guitton)، في كتابٍ له بعنوان "يسوع"، صدر في باريس عام ١٩٥٦، وقد قال في تكثيفٍ خارقٍ:

"لا بدّ لنا من اتّباع خطٍّ آخر من الاختبار والتأمّل، في المتصوّفين والروحانيّين الذين ينتمون إلى يسوع. وهنا أيضاً سوف يتبيّن لنا أنّ يسوع يتميّز بأقصى تفرّدٍ. ذلك بأنّه كان أبدًا حاضرًا في الآلاف من الضمائر. فلقد استثار في كلّ جيلٍ أُناساً آثروه على ذواتهم، وجعلوا منه مبدأً حياتهم. ولنُطلقْ على هؤلاء الناس، وفق المصطلح المألوف، كلمة "قدّيسين". وإنّي لأرى أنّه يجوز لنا أن نقول إنّ يسوع كان عبر التاريخ كلّه، الكائنَ الأوحد الذي تفرّد بإنجاب قدّيسين".

وإنّ الإنسان لَيَحار حقًّا في انتقاء نماذج من هنا وهناك، تشهد على مثل هذا الاستنتاج الصائب، لا سيّما في القرون المسيحيّة الأولى، التي تميّزت بإيثارٍ مطلقٍ ليسوع، قاد عشرات الألوف إلى مواجهة صنوفٍ من الموت، لا أبشع ولا أقسى، من أجل الظفر بيسوع.

حسبي الاستشهاد على مثل هؤلاء الشهود، ببعض ما جاء في رسالةٍ كتبها أحدُهم، وهو القدّيس إغناطيوس، مطران أنطاكية سورية، إلى مسيحيّي روما، يرجوهم فيها عدم التدخّل لمنع استشهاده. وكان، يومَها، في الثمانين من العمر. قال:

"أنا أكتب لجميع الكنائس، وأبلّغ الجميع أنّي سأموت برضاي التامّ، في سبيل الله، إن لم تَحولوا دون ذلك. فأتوسّل إليكم، لا تكنّوا لي شفقةً غير لائقةٍ. دعوني أصبح مضغةَ الوحوش: سوف تساعدني هي، كي أبلغَ الله. فأنا حِنْطتُه. وإن طُحِنتُ تحت أنياب الوحوش، فسأصبح الخبزَ الطاهر للمسيح.

"ابتهلوا إلى المسيح، كي تجعلَ هذه الوحوش منّي، أضحيةً مقدَّمةً لله. ما الذي يمكن لإغراءات العالم، وإمبراطوريّات الأرض، أن تقدّمه لي؟ إنّ الموت في سبيل المسيح يسوع، أجمل من أن أحكمَ حتّى أقاصي الكون. فأنا أشتهيه هو، هو الذي ماتَ من أجلنا، هو الذي قهرَ الموت من أجلنا. إنّ ميلادي يقترب. أرجوكم يا إخوتي، لا تحرموني الحياة، ولا تدبّروا موتي. لا تسلّموا للعالم، ولا لإغراءات الأرض، مَن يريد أن يكون بالكلّيّة لله، دعوني أقبّل النورَ الكلّيّ الطهر. وأنا، عندما أحقّق ذلك، أصبح إنساناً. ارتضوا بأن أقتدي بعذابات إلهي..."

قد لا يكون الكثيرون ممّن اختاروا الحياة مع المسيح وللمسيح، طوال قرونٍ وقرونٍ، اقتدوا بالقدّيس إغناطيوس في ما كتب. إلاّ أنّ الذين، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، اختاروا الحياة مع المسيح وللمسيح، فقد كانوا أبدًا كثيرين واستثنائيّين، وكان كلٌّ منهم نسيجَ وحده!

والعجيب الأعجب، أنّهم كانوا من الكثرة، والانتشار، والتنوّع، بحيث أنّهم لم يدعوا موقعًا من مواقع حياة الناس، بيتًا كان أو كوخًا، خيمةً أو قصرًا منيفًا، ديرًا أو مرسمًا، كنيسةً أو شارعًا، مطبعةً أو مغارةً في صحراء، مشفًى أو محلاًّ تجاريًّا، ثكنةً أو مدرسةً، معملاً أو حقلاً، مكتبًا أو ساحةَ حربٍ، عيادةً أو سجنًا، إلاّ وكان لهم فيه أو فيها، حضورٌ لا حدود لتأثيره الفعّال والإنسانيّ.

ولَكَم ألهمَ الكثيرون منهم، من حيث لا يدرون، كتّابًا وشعراء، ورسّامين ونحّاتين، وموسيقيّين ومسرحيّين، وسينمائيّين، بل وأناسًا عاديّين من مختلف شرائح المجتمعات، في كلّ زمانٍ ومكانٍ. وإذ بأرواحهم الحيّة تنبثّ هنا وهناك، في شتّى ميادين الفعاليات البشريّة، المُعلَنة منها والخفيّة، مثلما ينبثّ النور في العتمة، والخميرة في العجين، والملح في الطعام، بل والحياة في جثّةٍ هامدةٍ!

وتلك كانت حال صديقي أديب مصلح، واضع هذا المؤلَّف الجديد، مع الكثيرين والكثيرات ممّن زُلزِلوا، في مختلف الأزمنة والمجتمعات، بمثل هذه الخبرات الروحيّة والإنسانيّة الاستثنائيّة، إثرَ اكتشافهم الأخّاذ حتّى العِشْق، ليسوع المسيح!

وكان أن طَلَع على العالم العربيّ، بمسيحيّيه ومسلميه، بدءًا من عام ١٩٨٤، بسلسلةٍ مدهشةٍ من مؤلّفاتٍ رحبةٍ، فائقة الغنى، فكرًا، وروحًا، ونموذجًا، ولغةً، تناول فيها سيرة العديد من رجالٍ ونساءٍ، من مختلف الأزمنة والأمكنة، أُخِذوا بعشق المسيح، فعاشوه ضمنَ مجتمعاتهم، وفق طريقةٍ قُيِّض لهم فيها، شيئًا فشيئًا، أن يبثّوا فيها روحَه وفكره، وحضوره، وحبّه، وعمله، كلّ وفق ما أُعطيَ من مدًى وتأثيرٍ، محلّيَّين أو عالميَّيْن، آنيَّيْن أو دائمَين، ليس مَن ينكرهما!

حسبي أن أذكرَ أسماء مَن كَتَب أديبُنا هذا، سِيرَهم، وفق تاريخ صدورها، ليتبيّن كلّ قارئٍ أمرَين حاسمَيْن، أوّلهما استمرار قوّة حضور يسوع وتأثيره العظيم في مختلف الأزمنة والأمكنة، وثانيهما حرص يسوع على تفعيل شخصيّة عُشّاقِه هؤلاء، ومعاونيهم، وفقَ حاجات كلّ زمانٍ ومكانٍ.

وإنّي لأذكرُ بعض هذه المؤلّفات بعناوينها، وفقَ تسلسلها الزمنيّ، وأترك لقارئي أن يسرح بفكره وروحه:

مؤلّفات متفرّقة:

- "على درب الحياة مع ألكسي كاريل" (مطبعة الأديب – دمشق) – ١٩٨٤
- قدّيسةٌ من بلادنا: مريم يسوع المصلوب – ١٩٩٠
- يسوع في إنجيله – ٢٠٠٦
- يسوع في حياته – جزءان – ٢٠٠٦
- أمّ الله أمّنا – ٢٠٠٩
- مختاراتٌ مريميّةٌ – ٢٠٠٩

– أمّ الرحمة – ٢٠١١

– باقاتٌ من حدائق رابندرانات طاغور – ٢٠١٦

سلسلة النوابغ

١. السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – ١٩٩٢

٢. فرنسيس... أصلح كنيستي – ١٩٩٢ و ٢٠٠٨

٣. صوتُ مَن لا صوتَ لهم: الأب پيير – ١٩٩٧

٤. حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – ١٩٩٨ و٢٠٠٣

٥. أنا الأخت إيمانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦. بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٧. جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣

٨. سيرة المسيح (مترجم عن جيوڤانّي پاپّيني) – ٢٠٠٣

٩. البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني – ٢٠١٥

١٠. الكاهن القدّيس جان ماري ڤيانّي "خوري أرس" – ٢٠١٩

١١. عملاق المحبّة القدّيس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠١٩

١٢. معجزة العناية الإلهيّة "البيت الصغير" (القدّيس جوزيف كُتّلينغو) – ٢٠٢١

١٣. راوول فولّيرو رسول البرص ومتشرّد المحبّة – ٢٠٢١

سلسلة الظهورات – ٢٠١١ – ٢٠١٢ / ١٣ كتيّبًا.

سلسلة "صفحاتٌ روحيّةٌ" / ٥ كتبٍ.

إلاّ أنّ في سيرة "دون بوسكو" هذه، ما يفاجئ حقًّا، من حيث نمط تعامل يسوع مع مختاره الجديد، في سيرته كلّها، بدءًا من طفولته وحتّى لحظة وفاته!

فهنا كلّ شيءٍ يبدو وكأنّ قوّةً خفيّةً هادفةً، قاهرةً وخلاّقةً، تحرّك الطفل "يوحنّا بوسكو"، وفق خطٍّ مغايرٍ وجديدٍ، لنمط تعامل يسوع مع مختاريه السابقين. وإذ بهذا الطفل، اليتيم والفقير وغير المتعلّم، يدخل بفضل رعاية أُمٍّ فقيرةٍ، ولكن مؤمنةٍ،

ومُحِبّةٍ بكلّ جوارحها، ليسوع والعذراء أُمّه، في علاقةٍ مع يسوع، تتخلّلها وتوجّهها أحلامٌ غريبةٌ، واعدةٌ، وإبداعاتٌ تربويّةٌ مبكّرةٌ، ومبادراتٌ عمليّةٌ وإنسانيّةٌ سبّاقةٌ، بأساليب غير مألوفةٍ بالمرّة، في البيئة المسيحيّة والكنسيّة المحلّيّة، قادته في سنٍّ مبكرةٍ، وبسرعةٍ خاطفةٍ، إلى الاهتمام الحصريّ، والمبدع والمنظَّم، مع أمّه الأرملة، بفئةٍ من الأطفال المحرومين، الفقراء، والمشرّدين، في إحدى المدن الإيطاليّة، على نحوٍ تحوّلوا به إلى جماعاتٍ متحابّةٍ ومتعاونةٍ، في فرحٍ وصدقٍ وجرأةٍ، اتّضح شيئًا فشيئًا أنّ المجتمع الإيطاليّ كلّه كان في أمسّ الحاجة إلى مثلها، على ما كان يسوده آنذاك من عداءٍ للدّين المسيحيّ وللكنيسة.

تلك كانت بداية مَن أصبح في ما بعد، وعلى مدى الأرض كلّها، يُعرَف باسم "دون بوسكو"، في عمله التربويّ، الإنسانيّ، والمسيحيّ، الذي فاق بمرور سنواتٍ قليلةٍ، بإبداعاته وإنجازاته، كلّ تصوّرٍ وتوقّعٍ، والذي ينتشر اليوم في مائةٍ وثلاثةٍ وسبعين بلدًا، بواسطة مؤسّساته التربويّة، والتعليميّة، والصناعيّة، التي تطال عشرات الملايين، في ترحابٍ وفرحٍ.

أجل، إنّ الله لعجيبٌ حقًّا في قدّيسيه!

أَوَلم يقلْ يسوع منذ ألفَي عامٍ:

"**إنّ مَن يؤمن بي، يعملُ الأعمال نفسها التي أعملها أنا، بل يعمل أعظمَ منها**"!؟

هنيئًا لمن سيُتاح له أن يقرأ هذا الكتاب الفريد!

كلّي ثقةٌ بأنّ نشوةً روحيّةً عظيمةً ستنتابه، في كلّ سطرٍ من سطوره!

الأب الياس زحلاوي

دمشق في ٢٠٢٢/٥/١٧

الفَصْلُ الأَوَّلُ

نشأة فقرٍ، ويُتمٍ، وكفاحٍ

جَان بوسكو

فرنشيسكو بوسكو فلاّحٌ بسيطٌ، مقتصدٌ، كان يسكن في قرية "موريالدو" (Murialdo)، مع أمّه وزوجته وابنه أنطونيو المولود عام ١٨٠٨، من زواجٍ سابقٍ. كان قد ورث رقعة أرضٍ صغيرةً لا تتعدّى مساحتها ٦٢٥ مترًا مربّعًا، ولا تكفي مواردها لإطعام أربعة أفواهٍ، فارتبط بعقد مزارعةٍ مع أسرة "بيليوني" (Biglione)، كي يُكمل مستلزمات عيش الأسرة. غير أنّ المنيّة اختطفت زوجته، وهي ما زالت في الثامنة والعشرين من سنيها يوم ١٨١١/٢/٢٨. فأعاد فرنشيسكو تأليف أسرةٍ يوم ١٨١٢/٦/٦، بزواجه من فتاةٍ من قريةٍ مجاورةٍ تُدعى "مرغريتا أوكيينا" (Marguerita Occhiena)، وهي ابنة أسرةٍ فلاّحيّةٍ ميسورةٍ نشيطةٍ، منيعة العزيمة، راجحة العقل والحكمة، شديدة التديّن والاستقامة، أنجبت منه ابنهما الأوّل "جوزيبـــي" (جوزيف) يوم ١٨١٣/٤/١٨، ثمّ ابنهما الثاني "جيوڤـــانّي" (جان) يوم ١٨١٥/٨/١٦. وقد عُمِّد في اليوم التالي وكان عرّابه جدّه لأُمّه وكانت عرّابته عمّته. وهو الذي نروي سيرته.

كان الأب يجهد في عمله ويقتّر كي يكبّر رقعة أرضه، ويحلم بامتلاك كرومٍ وحقولٍ يزرعها قمحًا وذرةً وخضرواتٍ، ويؤمّن للأفواه الستّة كفايةً غذائيّةً. وكان قد دفع عربون بيتٍ صغيرٍ في دسكرة "بيكّي" (Becchi)، وكان هذا البيت يدعى "المغارة"، وإلى جانبه زريبةٌ ومستودع علفٍ.

غير أنّ أحلامه قد تحطّمت دفعةً واحدةً. فقد عاد من العمل، ذات مساءٍ، وهو يسبح في عرقه، فلجأ إلى قبوٍ ينـــزّ برودةً، وبعد أن تلمّظ جرعة نبيذٍ ونعِم بلحظات انتعاشٍ، انتابه شعورٌ بأنّ طوقًا من الجليد يقبض على صدره، ويضيّق

أنفاسه، وبنخزاتٍ موجعةٍ في رئتيه. وفجأةً ارتفعت حرارته ارتفاعًا مقلقًا ألزمه الفراش، وشخّص الطبيب التهابًا رئويًّا حادًّا أودى بحياته في اليوم التالي. وفي لحظات احتضاره أسرّ لزوجته بالأحلام التي كانت تضجّ في رأسه، وقال: "كم الله كريمٌ معي، فهو سيأخذني إليه في يوم الجمعة، أي في يوم عودته إلى عرشه السماويّ". ولاحظ أنّ عمره كان آنذاك ثلاثًا وثلاثين سنةً على غرار المخلّص، وأوصاها بالاتّكال على الله، وبالعناية بصغيرها جوڤانّي الذي لم يكن بعدُ قد أكمل السنتين من عمره. وغادر الدنيا ممسكًا بيد زوجته، تحت أنظار أُمّه، وأبنائه.

حدث ذلك في شهر أيّار ١٨١٧، وكان جوڤانّي الطفل في شهره الثاني والعشرين. وقد سجّل لاحقًا ذكرياته عن ذلك اليوم المشؤوم فدوّن: "لم أكن قد بلغتُ، بعدُ، السنتين، حين توفّي والدي. ولست أذكر ملامح وجهه. أذكر فقط قول أُمّي لي: "ها أنت بلا أبٍ، يا "جوانينو" (تصغير جوڤانّي). وفيما خرج الجميع من غرفة المتوفّى، أصررتُ على المكوث فيها مردّدًا، بإصرارٍ: "إن لم يأتِ أبي معي، فلن أخرج". وأجابت أمّي: "لم يعدْ لك بابا. تعال". وحينئذٍ انفجرتْ أُمّي بالنحيب، وبكيتُ، أنا أيضًا، لأنّها كانت تبكي. ولم أُدرك ما كان يحدث، ورسخ في ذاكرتي قولها: "لم يعد لديك أبٌ".

هذا هو الحدث الأوّل الذي احتفظ بذكراه. والأمر الآخر الذي ظلّ يذكره هو الجوع الذي فرض ذاته على العالم من جرّاء الكوارث الطبيعيّة التي حلّت بالمنطقة. فقد عقب الجليدَ الذي أتلف النباتات وزهور الثمار، والجفاف المتمادي الذي أجهز على كلّ ما تبقّى من مواسم. وحلّت في القرى الزراعيّة مجاعةٌ مريعةٌ وتكدّست في الحفر جثثُ الفلاّحين وفي أفواههم أعشابٌ كانوا يجهدون في ابتلاعها، أملاً بمقاومة الموت. وغزت تورينو مواكب المحرومين، شاحبي الوجوه، وخائري القوى، بأسمالهم الزريّة، واحتلّوا الكنائس وقصور الأغنياء، متسوّلين لقمةً

تبقيهم أحياءً. وتعيّن على مرغريت بوسكو، بمفردها، إعالة حماتها المشلولة وابن زوجها أنطوان الذي كان قد بلغ التاسعة من عمره، وطفليها جوزيّي وجوڤانّي، وكان أحدهما في الرابعة والآخر في الثانية. وقد أثبتت تلك المرأة الأُمّيّة، في تلك الظروف المأساويّة، صلابة عزيمتها.

وروى جوڤانّي، لاحقًا، ما حدث حينذاك: "لقد استمرّت أُمّي تقدّم لنا الطعام طالما توفّر منه لدينا شيءٌ، وعندما نفد مخزوننا أعطت صديقًا للأُسرة مالاً يبتاع أيّ طعامٍ يجده، وانتظرنا عودته حتّى الليل، ولكنّه لّما عاد، أعاد المال لأُمّي لأنّه لم يجدْ ما يبتاعه، مع أنّه كان مستعدًّا لدفع أضعاف ثمنه الطبيعيّ. ومع ذلك لم تفقد أُمّي رباطة جأشها بل قالت: "لقد أوصاني فرنشيسكو، وهو يحتضر، أن أثق بالله، فلنركع ونصلِّ". وعملاً بالمثل القائل: "الحالات القصوى تقتضي الوسائل الكبرى"، قصدتِ المعلف مع صديقٍ للأُسرة، وذبحت العجل الذي كنّا نسمّنه، وأنقذت قوانا الخائرة". ومن المعلوم، في القرى، أنّ تسمين عجلٍ هو الضمان لمواجهة الحالات الطارئة كالمرض، وهو الاحتياطيّ الذي لا يمكن الاستغناء عنه. وما ذبحُ عجلٍ إلاّ دليل بلوغ مرحلة اليأس.

وفي اليوم التالي استقدمت حبوبًا، بأسعارٍ باهظةٍ كي تصنع منها خبزًا. ولكم استقى عِبَرًا من مثال تلك الأُمّ نادرة المثال، من سيصبح أبًا لجماهير غفيرةٍ من الأيتام، وسيتكفّل بإطعام فتيانٍ فقراء جياعٍ لا يُحصى لهم عددٌ!

تبيّن أنّ ما خلّفه فرنشيسكو لعائلته كان مغرقًا في الضآلة. فبعد تسديد ديونه لم يبقَ لورثته سوى الزهيد. فتولّت زوجته مقاليد الأمور. وبما أنّ مالكي الحقل الذي كان الفقيد قد أبرم عقد مزارعةٍ معهم، طالبوا بتوظيف لا أقلّ من عاملَيْن لكيلا تُهمل حقولهم، فقد بادرت إلى إلغاء عقد المزارعة، وغادرت البيت الذي كانوا يسكنونه، والذي يخصّ مالكي الحقل. وانتقلت بجميع أفراد الأُسرة إلى "المغارة"

التي كان قد ابتاعها الفقيد، فأكملت شراءها وأجرت أعمالاً بسيطةً حتّى أعدّتها للسكن. ففوق الطبقة الأرضيّة الممتدّة على مساحة ١٢ مترًا طولاً وأربعة أمتارٍ عرضًا، والذي جعلت منه مطبخًا ومستودعًا للعلف والعدّة الزراعيّة وزريبةً، أوجدت من المطبخ سلّمًا يفضي إلى غرفةٍ للأولاد الثلاثة، ومن خارج الطابق الأرضيّ أقامت درجًا خشبيًّا يقود إلى غرفةٍ لها ولحماتها. وتحت هذا الدرج بنت، من قرميد، قنًّا للدجاج، ومكانًا للدواجن، وفي الأعلى بنت مستودعًا للتبن كان يوفّر للبيت شيئًا من الدفء.

لقد تخطّت مرحلة المجاعة بالتقتير والحساب الدقيق، وبالإجمال بحياة مشقّةٍ وتضحيةٍ، وبالصلاة المشتركة، صباحًا ومساءً. وبعد أن نالت أسرتُها شيئًا من الاستقرار عمدت إلى استثمار بقرتين، وكانت تطعم بجزءٍ من حليبهما أفراد الأُسرة، وبجزءٍ كانت تصنع جبنةً تبيعها في مدينةٍ مجاورةٍ مع بعض ما خزنته من بيض دجاجاتها، وتعود بلوازم طعام أسرتها.

مربّيةٌ مثاليّةٌ

بعد إثبات قدراتها الإداريّة، برهنت مرغريتا عن سموّ فضائلها. فقد استحوذ حبُّ أبنائها على كلّ كيانها، وحاولت ألاّ تفرّق بين ابنيها جوزيـــپّي وجوڤانّي، وابن زوجها أنطونيو، الذي كان يُتمُه المزدوج قد عمّق جراح نفسه، وقد ضاعف غمُّه على فقدان والده كلومَ خسرانه السابق لوالدته. وحرصت مرغريتا على وقف طاقاتها على تنشئة أولئك الأيتام الثلاثة، فرفضت كلّ طلبات الزواج التي قدّمت لها كي تكون بكلّيّتها لهم، وكانت لثلاثتهم الأبَ والأمّ.

كانت جميع طاقات مرغريتا الأخلاقيّة والجسديّة تنبع وتتغذّى من الإيمان الراسخ الذي تلقّنته من والديها وحرصت على بثّه في نفوس أولادها، فدأبت إلى الإشادة بروائع الخليقة التي تمجّد الخالق، مرسّخةً في أذهانهم وجود الله في كلّ مكانٍ، وعلمه بكلّ شيءٍ، حتّى بأسرار النفس الدفينة، وبخواطر القلوب، ولكي لا يعيشوا في الخوف من عقابه كانت تطلعهم على كلّ ما ضحّى به حبًّا للبشر، ورغبةً في خلاصهم وسعادتهم الأبديّة، كي يتلوّن موقفُهم من الآخرين بمثل حبّ الله لهم، وعطفه عليهم.

وكانت تجمعهم، كلّ صباحٍ وكلّ مساءٍ، أمام صليبٍ، مع جدّهم، كي يجدّدوا إيمانهم، بترداد قانون الإيمان، وتشرح لهم كلّ فقرةٍ منه، وكانوا يتلون معًا "أبانا" ملتمسين الخبز اليوميّ، وطالبين الصفح عن أخطائهم، ومكرّرين العزم على الصفح عمّن يُسيء إليهم، ثمّ يتلون "السلام"، ويعتادون الاعتماد على أُمٍّ سماويّةٍ تفيض حنانها على جميع أبنائها، وأَلِفت أن تروي لهم، كلّما طلبوا منها، إحدى عجائب المخلّص، أو حادثةً طريفةً من سِيَر القدّيسين.

وكانت تدعوهم إلى تنفيذ ما علموه من عطف الله في حياتهم اليوميّة في ما بينهم، وفي علاقاتهم مع رفاقهم، وبذلك كانت تُشيع جوًّا من الوئام والمحبّة في أسرتها وفي محيطها.

وكانت هي القدوة في كلّ شيءٍ، فلا تضنّ، مع فقرها، بمنح كلّ جائعٍ يقرع بابها شيئًا من الطعام المتوفّر لديها، ولا تبخل على متشرّدٍ بافتراش قشّ مستودعاتها، بعد مشاركته أفراد أسرتها ما يعرفه من صلوات.

وكانت تُثبت، كلّ يومٍ، تفوّقها في ميدان التربية، محتفظةً، في كلّ الظروف، بتوازنٍ مُحكَمٍ ومدهشٍ بين الرقّة والصرامة. فكانت تقبّل أطفالها برقّةٍ عند يقظتهم وقبل رقادهم، وأيّام الخميس قبل انطلاقها إلى المدينة المجاورة لبيع ما جمعته من بيض دجاجاتها، ومن الجبنة التي صنعتها من حليب بقرتَيها، وتعود بما ينقصها من أطعمةٍ، وبحلوى للأولاد وبخبزٍ مقدّسٍ تقسمه بينهم بالتساوي.

وكانت تقيس بالقسطاس الأشغال التي تفرضها على كلٍّ منهم، وفقًا لما تقتضيه من وقتٍ ومن قدرةٍ، ووفق طاقة كلٍّ منهم. وكانت أوامرها دائمًا واضحةً بكلّ حذافيرها. وكانت تقتضي تنفيذها بلا تلكّؤٍ، وعلى خير وجهٍ، ولا تتوانى عن إبداء رضاها عن كلّ إتقانٍ في العمل، أمّا إذا كان التنديد بخطأٍ لا بدّ منه فكانت تعبّر عنه بهدوءٍ ورقّةٍ، وترشد إلى طريقة تجنُّبه. لم تتوقّف عند الأخطاء الطفيفة، ولكنّها لم تكن تتغاضى عن كذبٍ أو خلافاتٍ بينهم قد تقود إلى العراك.

وبرهنت عن كونها، مربّيةً بالفطرة، فراعت ميول كلٍّ من أبنائها الثلاثة وطاقاته، وساعدته على النجاح في ما يهواه. وسرعان ما تبيّنت التباين في ميول كلٍّ منهم. فيُتمُ أنطونيو المزدوج ولّد فيه القسوة والتمرّد. وفارقُ السنّ بينه وبين إخوته غير الشقيقين أغراه بفرض سلطته عليهم، فعاملته بالحسنى ما استطاعت، إلى أن اختار العصيان والتمرّد والعنف، حتّى ضاقت ذرعًا، وآثرت إبعاده حؤولاً دون إيذاء صغيرَيها.

أمّا جوزيـــبّي فكان سلس القياد، متواضع المطامع، واختار العمل في الزراعة بمفرده. فساعدته أمّه بقدر استطاعتها. واستشفّت في ابنها الأصغر جوڤانّي ميولاً روحيّةً ورسوليّةً فغذّتها وواكبتها حتّى نمائها.

وفي هذه الأثناء حرصت على أن تبني في جميعهم ضمائر مستقيمةً قائمةً على قِيَم الفضيلة والصدق، والعمل المُتقَن، واحترام الواجب، ومحبّة الآخرين، والعطف على المحرومين، ونبذ الكذب، والتخاذل، وقسوة القلب. ولا ريب أنّ الجوّ السائد آنذاك، الحافل بالمشقّات والتضحيات، كان مصنعًا للعزائم والإرادات الفولاذيّة وتربةً خصبةً لمجتمعٍ متكافلٍ، فاستفادت منه.

بهدوءٍ كانت تخاطب ضمائر أبنائها كي يروزوا عواقب أخطائهم وتخاطب قلوبهم بإبداء استيائها. لم تعاقب قطّ. بل بأعصابٍ هادئةٍ كانت تدعوهم لتقييم عواقب كلّ سلوكٍ سيّئٍ، داعيةً إلى الندم على الإساءة وإلى قصد تجنّب تكرار الخطأ.

بالإجمال كانت تلك الفلاّحة الأمّيّة تمتلك حدْسًا تربويًّا يصلح قدوةً للمربّين المتهنين، مبنيًّا على محبّةٍ متبادلةٍ، وعلى إيمانٍ راسخٍ بإلهٍ شديد الاقتضاء في تنفيذ تعاليمه، وهو في الآن عينه أبٌ عطوفٌ رحومٌ، يجعل جهودنا الشخصيّة أيسر إذا أدّينا كلّ عملٍ بدافع المحبّة.

عمليًّا كانت مرغريتا بوسكو تمقت، فوق كلّ شيءٍ، البطالة. وكان ابن زوجها أنطوان قد بلغ العاشرة، وعزف عن الدراسة فأوعزت إليه أن يشرع بالمشاركة بالمهامّ الزراعيّة وبمؤازرة العمّال في تنظيف الإسطبل والزريبة، وفي استثمار بستان البقول. أمّا أخواه الأصغران، فكلّفتهما بالمهامّ الطفيفة، مثل جلب الزُغُف والأحطاب الصغيرة التي تساعد في إشعال النار، وتنسيل قشور أغصان القنّب، التي كانت تنسج منها بعض لوازم البيت، وفرط حبوب الذرة، وانتزاع أعشاب

البستان، والتكنيس، وكان الأخ الأصغر الذي ما زال في الثانية يساعد جوزيـــپّي بقدر ما يستطيع، ولّما ترعرعا قليلاً كلّفتهما باقتياد الأبقار إلى المرعى، وباستقاء الماء من النبع، وقطف الثمار وحملها إلى البيت، ومراقبة نضج الخبز في الموقد. وبالإجمال كانت ترسّخ في صغارها حبّ العمل والحرص على إتقانه، وكانت دائمة السهر على عدم تحميلهم أكثر من طاقتهم، وتفسح لهم الوقت الضروريّ للراحة.

وحرصت على تنـــزيههم من كلّ شعورٍ ذميمٍ. فقد عاد صغيراها، يومًا، إلى البيت وقد أخذ بهما الظمأ كلّ مأخذٍ، وبما أنّهما كانا غير قادرين على رفع الإبريق طلبا من أمّهما أن تسقيهما، فملأت كأسًا وقدّمتها لجوزيـــپّي فابتلعه في لحظاتٍ وأبدى ارتياحه. ولكنّ جوڤانّي الذي اعتاد أن يُخدَم أوّلاً بسبب صغره، فقد عبّر عن امتعاضه، ولّما قدّمت له أمّه كأس ماءٍ، رفضه، فما كان من الوالدة إلاّ أن أبعدت الكأس والإبريق، فالتمس أن تسقيه، وأجابته: "لقد ظننت أنّك غير عطشان". فهتف عفويًّا: "عذرًا يا أمّاه، عذرًا". وطُوِيت تجربة الحسد.

وكانت تنتزع من كلّ حدَثٍ يبدو تافهًا عبرةً لنفسها ولأبنائها.

من أمثلة انفتاحها التربويّ، أنّها في يوم خميسٍ، إذ كانت في المدينة تبيع منتجاتها وتبتاع لوازم البيت كان جوزيـــپّي وجوڤانّي يلعبان بخشبةٍ مستديرةٍ معروفةٍ في تلك القرية، وفقدا تلك الخشبة بضربةٍ خاطئةٍ، وذكر جوڤانّي أنّ في أحد خزائن المطبخ خشبةً مماثلةً فتسلّق كرسيًّا ودأب بحثًا عنها غير محتاطٍ لوجود إناءٍ خزفيٍّ مليءٍ بالزيت فأوقعه، واندلق كلّ محتواه على الأرض. فدعا أخاه، وجهدا في لَمّ الحطام ومسح الزيت عن الأرض. ولكنّ الزيت كان قد خلّف على البلاط أثرًا تصعب إزالته. وأدرك جوڤانّي أنّ عليه تحمّل مسؤوليّة خطئه، فاقتطع من شجرةٍ في الحقل عصًا وقشرها وزيّنها. ولّما عادت والدته، هرع إليها وقدّم لها العصا، بلا كلامٍ ولم تحتجْ هي إلى استفساره، وأدركت من نظراته الخجلى أنّه اقترف ذنبًا

ويريد التكفير عنه. فوضعت مرغريتا سلّتها أرضًا، محتفظةً بهدوئها، وبنظرةٍ متسائلةٍ دفعته إلى الإفصاح عن سبب فعلته، فعبّر، من خلال صوته المرتجف، عن مدى ندمه. فحدّقت في عينيه معبّرةً عن صفحها قبل أن تُلِمّ بكامل القصّة، وبعد أن استمعت إليها، اكتفت بنصحه توخّي الحيطة من الإضرار بمقتنيات العيش التي لا قدرة للأسرة على هدرها.

كان جوڤانّي أكثر إخوته نباهةً وطموحًا ونهمًا إلى العلم، فاعتاد الاختلاف إلى كاهن القرية وتعلّم منه القراءة والكتابة، وتميّز بهذه الميزة عن سائر أترابه وأبناء قريته. وأكملت والدته تعليمه. فقد كانت تلك المرأة الأُمّيّة تحفظ، عن ظهر قلبها، كلّ موجز التعليم المسيحيّ، وكلّ أسئلته وأجوبته. وأكّد جوڤانّي أنّه تعلّم كلّ شيءٍ من أمّه. تعلّم رسم الصليب قبل كلّ عملٍ، وتعلّم أن يضع نفسه تحت أنظار الله من خلال صلاة أبانا، الأب الذي يهب أبناءه خبزهم اليوميّ ويغفر لهم ذنوبهم. وأعدّته والدته للاعتراف في سنّ الثامنة.

وسرعان ما أصبح جوڤانّي ظاهرةً فريدةً بين أترابه وقد دوّن في كتاب ذكرياته:

"كان أترابي يرهبونني ويحبّونني، في آنٍ، وكلٌّ منهم يريدني صديقًا وحَكَمًا. وأنا، من جهتي، كنت أفعل كلّ ما أستطيعه من خيرٍ لكلٍّ منهم، ولم أُسِئْ قطّ، لأيٍّ منهم. أحبّني رفاقي كي أذود عنهم في حال عراكهم مع آخرين، فمع قصر قامتي كنت أملك من القوّة والجرأة ما يخيف حتّى مَن هم أكبر منّي".

وقد ضاعفت قدرته على اجتذاب الآخرين وافتتانهم مَلَكةُ فراسةٍ كانت تتيح له قراءة كلّ ما يجول في خواطر الآخرين بمجرّد التحديق في عيونهم، واستكشاف كلّ ما تنطوي عليه قلوبهم من خصالٍ وعيوبٍ. وكان رفاقه جميعهم، بعد أن خبروه، يقدّرون استقامته، ونزاهته من كلّ خبثٍ، ويرضون بحكمه، وكلٌّ منهم يؤثر اللعب في فريقه لا في فريق خصومه.

خريف ١٨٢٤، لمست والدته رغبته العارمة في تعلّم القراءة والكتابة، وبما أنّ أعمال الحقول كانت تأخذ هدنةً في هذا الفصل، وكانت الأبقار تبقى في زريبتها طول مدّة الشتاء، وبما أنّ المدرسة البلديّة الوحيدة كانت في مدينة "كستلنووڤو" (Castelnuovo) البعيدة عن بيكّي، فقد اختارت والدته قرية "كپريليو" (Capriglio) القريبة، حيث كانت أختها تعمل لدى كاهن قريتها ومعلّم أطفالها. فقد طلبت من الكاهن قبول جوڤانّي في مدرسته خلال فصل الشتاء، وأُعجب الكاهن بمواهب الفتى الخارقة، وبمعرفته لمبادئ التعليم المسيحيّ التي لقّنته إيّاها والدته. وبعدئذٍ تابع الفتى مطالعة ما عثر عليه من سِيَر قدّيسين وروايات شيّقةٍ. واعتملت فيه الرغبة في إشراك أترابه الذين لم يتلقّوا تربيةً دينيّةً، فكان يجمعهم ويسرد لهم ما تعلّمه عن قدماء القدّيسين، بارعًا في تقليد أصواتهم وحركاتهم. وطالما كان يمثّل، كانوا يستمعون إليه بمتعةٍ وهدوءٍ، ولكن ما إن ينتقل إلى وصايا الله وتعاليم الكنيسة حتّى تفتعل فئةٌ منهم الشغب، ولم يكن يتورّع عن ضربهم، أحيانًا، ومعاركتهم.

ومع ذلك كان يكسب تقدير المهذّبين منهم، ويزيدهم به تعلّقًا.

ورأته أمّه، يومًا، عائدًا إلى البيت ممزّق الثياب، مضرّج الوجه بالدماء فلامته بسبب لعبه مع أولاد أشقياء عنيفين. وكان يحاول تبرير لعبه معهم بقوله: "لقد تضاءل عنفهم وشرّهم بسبب لعبي معهم، وأقلعوا عن التجديف والأقوال البذيئة".

ولم تلبث أن أرشدته الأُمّ السماويّة العذراء إلى السبيل السويّ. فقد كانت السماء، منذ صغره، تبلّغه دعوته من خلال أحلامٍ ترسم له أهدافه والطريق إليها. وفي نحو سنّ التاسعة رأى حلمًا، رواه كالتالي:

« حلمتُ أنْ كانت قرب بيتنا فسحةٌ رحبةٌ تجمّع فيها جمهورٌ غفيرٌ من الأولاد

الذين كانوا يلهون، ويصيحون، ويلعبون، وبعضهم كانوا يجدّفون. واستفزّني سماع تجديفهم. فاقتحمت جماعتهم مهدّدًا بصوتي وبقبضتي، لكي أسكتهم. وفي تلك اللحظة ظهر إنسانٌ مهيبٌ، كهلٌ متلفّعٌ بمعطفٍ أبيض يلفّ كلّ جسمه. وكان وجهه مشعًّا، فلم أقوَ على التحديق إليه. ودعاني باسمي وأهاب بي أن أكون على رأس هؤلاء الأولاد، ولكنّه أضاف: "ليس بالضربات، بل بالرفق والمحبّة عليك أن تجعل منهم أصدقاء. فابدأ، في الحال، بإظهارك لهم بشاعة الخطيئة، وروعة الفضيلة".

"خجلتُ وارتعبتُ، وقلتُ إنّي ولدٌ صغيرٌ جاهلٌ عاجزٌ عن التحدّث إلى الأولاد بأمور الدين. وسألته "من أنت الذي يأمرني بما يستحيل عليّ فعله؟" في هذه الأثناء كان الأولاد قد أوقفوا عراكهم وصياحهم، وتجديفهم وأحاطوا بالرجل الذي كان يكلّمني. وهو أجابني: "لأنّك تجد ما أطلبه منك مستحيلاً، عليك أن تجعله ممكنًا بالطاعة والتعلّم". فسألته: "أين، وبأيّة وسيلةٍ أستطيع اكتساب العلم؟" فأجاب: "سأعطيك المعلّمة التي ستصبح حكيمًا تحت قيادتها، والتي بمنأًى عنها كلّ حكمةٍ تنقلب حماقةً".

– ولكن من أنت كي تكلّمني على هذا النحو؟

– أنا ابن تلك الأمّ التي علّمتك والدتُك تحيّتها ثلاث مرّاتٍ كلّ يومٍ.

– لقد حظرت عليّ أمّي مخالطة غرباء، بلا إذنها، فقل لي ما اسمك.

– اسأل أمّك عن اسمي.

في تلك اللحظة شاهدتُ إلى جانبه سيّدةً مهيبةً، مرتديةً معطفًا يتألّق بكلّ جوانبه. ولمّا لحظت هي ارتباكي في أسئلتي وأجوبتي، أشارت لي بالاقتراب منها، وأمسكت بيدي وقالت: "انظر". فرأيت أنّ جميع الأولاد قد فرّوا، وحلّت

محلّهم جماعةٌ غفيرةٌ من الأحصنة، والكلاب، والهررة، والدببة، ومن شتّى الحيوانات. وقالت: "هوذا ميدان عملك، حيث يجب أن تعمل. كن متواضعًا، ومتينًا، وقويًّا. وما ستشهده الآن يحدث للحيوانات عليك أن تعمله من أجل أبنائي. والتفتُّ حينئذٍ، فرأيت أنّ بدل الحيوانات المريعة حلّت حملانٌ رقيقةٌ تثغو وتتراكض في كلّ صوبٍ، وكأنّها تحتفل بذلك الرجل وبتلك السيّدة.

وحينئذٍ بكيتُ، في نومي، والتمستُ أن أخاطَب بلغةٍ مفهومةٍ لأنّني لم أدرك ما كانا يبلّغاني إيّاه. فوضعت السيّدة يدها على رأسي، وقالت: "ستفهم كلّ شيءٍ في وقته". وحينئذٍ أيقظني صوتٌ، فأفقت وتوارى كلّ شيءٍ؟.

ولبثتُ مذهولاً. وشعرتُ بوجعٍ في يديّ بسبب اللكمات التي سدّدتها للمجدّفين، وبألمٍ في وجهي من الصفعات التي تلقّيتها. ثمّ إنّ ما سمعتُه من ذلك الكائن المهيب ومن تلك السيّدة قد طرد عنّي النوم، في تلك الليلة ».

ولّما روى الحلم لذويه في الصباح كانت ردود الفعل شديدة التباين. فأخوه غير الشقيق أنطونيو علّق: "هذا يعني أنّك ستكون راعي ماعزٍ أو رئيس عصابةٍ". وجدّته قالت: "ينبغي ألاّ نولي الأحلام شأنًا". أمّا والدته، الأعمق نفاذًا إلى بواطن الأمور فقالت: "ربّما ستكون كاهنًا".

وقد أثبت المستقبل صواب حدْس أمّه، والتزامه، هو، بتوجيهات السماء، بترويضه الأولاد الجانحين، وتهذيبه المهملين لا بعنفه الفطريّ، بل بالحلم والعطف والإقناع والمحبّة، وبالحزم والصلابة.

واستمرّ جوڤانّي يستقطب أصدقاء كانوا يلتفّون من حوله ويستمعون إلى حكاياه، والأمثلة التي تعلّمها، وإلى مبادئ التعليم المسيحيّ التي تلقّنها من أمّه ومن الكاهن. ويومًا فيومًا كان يؤكّد قدرته على اجتذاب المستمعين والتأثير عليهم،

وكان عددهم يتضاعف في فصل الشتاء، حيث تتعطّل أعمال الحقول، وتطول الليالي، وغالبًا ما كان ينضمّ كهولٌ إلى الأولاد، ويجلسون على القشّ في إسطبلٍ، ويقضون الساعات متمتّعين بالإنصات إلى رواياته وأحاديثه الشيّقة.

ولكي يُحكِم قدرته على استقطاب مستمعين ومشاهدين، أتقن الألعاب البهلوانية، وأعمال الخفّة والخداع، فدأب على مراقبة عرض هذه الألعاب في القرى المجاورة، واصطياد أسرارها وخفاياها، ثمّ كان يعود إلى البيت ويتدرّب عليها حتّى برع فيها، وأضحى من أبطالها. وبعد ظهر أيّام الآحاد الصاحية وأيّام الأعياد، كان يُعِدّ عرضًا لمواهبه في حفلٍ يقصده أبناء القرية وغرباء من القرى المجاورة. وكان يستهلّ عرضه بتلاوةٍ جماعيّةٍ للمسبحة، وبتراتيل، وبعظةٍ يُلقيها من فوق منضدةٍ واطئةٍ، ثمّ يتلو صلاةً قصيرةً قبل بدء العرض، حيث يتحوّل الواعظ إلى بهلوانٍ. وبعد انتهاء العرض، يتلو أيضًا صلاةً قصيرةً. وفي أثناء عودة الحاضرين إلى بيوتهم، يُلقي بعضٌ منهم دُريهماتٍ في قبّعة البهلوان الصغير الجاثمة على الأرض.

وما انفكّ يطوّر قدراته البهلوانيّة حتّى غدا يتحدّى أبطالاً في هذا الميدان كلّما برّرت غيرته الرسوليّة هذه التحدّيات.

في هذه الأثناء كان الأخوان جوزيـــبّي وجوڤانّي ينموان معًا بسكونٍ ووئامٍ، وينفّذان، معًا، رغبات أمّهما، ويبادلانها أطهر حبٍّ وأصدقه.

عام ١٨٢١ كان الأخوان، أحدهما في الثامنة، والآخر في السادسة، فيما كان أخوهما غير الشقيق أنطوان قد بلغ الثالثة عشرة، وزيّنت له نفسه استخدام فارق السنّ كي يفرض عليهما سطوته، على حساب سلطة أمّهما. وكانا كلّما كانت رغباته تتعارض مع توجيهات أمّهما، يرفضانها، ولم يكن، هو، حينئذٍ، يتورّع عن إيساعهما ضربًا، إلى أن هرع مرغريتا استجابةً لاستغاثتهما، وترفع يديه عنهما.

لكَم كانت تتألّم من اعتداء ابن زوجها، الذي كان يحقّرها، ويُسمّيها "زوجة أبي"، مع أنّها كانت تمنحه من الحبّ والرعاية بقدر ما تمنح ثمرتي أحشائها! وكم من جهدٍ كانت تبذل، كي تلجم نزعتها الفطريّة إلى الردّ بالعنف على العنف، وتلتزم بالرقّة والصبر، وتقنع أنطوان بحبّها له، كسبًا لمحبّته لها ولابنيها الصغيرين، مكرّرةً على مسامعه: "لقد دعوتُك دائمًا ابني، لأنّني اعتبرتُك دائمًا ابني، بما أنّك ابن زوجي الحبيب. أنت تعلم قدرتي على مواجهة عنفك بمثله، ولكنّي أربأ بنفسي أن أستخدم العنف مع أبنائي، وأنت ابني، ولن أكون عنيفةً معك". وغالبًا ما كان أنطوان يُدرك خطأه، ويعتذر عنه، ويعد بالعزوف عنه مستقبلاً، ولا سيّما أنّه كان يشهد احترام مرغريتا لجدّته، أمّ أبيه، ورقّة عنايتها بها.

ولم تقتصر مرغريتا على صون سلامة ابنيها الجسديّة، بل كانت أشدّ حرصًا على صون براءة نفسَيهما، ساهرةً على حمايتهما من الكذب، ومن بشاعة نزعات الشرّ الفطريّة، ومن كلّ ما قد يلطّخ نقاءهما. ولهذا الغرض علّمتهما الاعتراف، بين يدي راعي كنيسة "موريالدو" القريبة، كي ترسّخ حبّهما للربّ العطوف الرحوم، وفي سبيل تشجيعهما كانت هي تبدأ بالاعتراف قبلهما، وتوصي الكاهن بهما، ثمّ تشاركهما تلاوة صلاة الشكر.

وكانت تحذّرهما من المرافقات الخطيرة المشبوهة، ومن الأحاديث والعبارات المسفّة، وتعبّر عن استيائها من التجديف، والاستهزاء برموز الدين، سواءٌ إن كانت تسير معهما في الشارع، أو أثناء السهرات الجماعيّة التي تُعقد مداورةً في بيوت الجيران، توفيرًا لوسائل التدفئة والإنارة. وعندما كانت السهرة تُعقَد في بيتها، كانت تنتهز السانحة كي تسرد حادثةً من سِير القدّيسين، أو قولاً ساميًا سمعته، ولا تتوانى عن التنديد الجريء والصريح بكلّ بذاءةٍ تصدر عن شبّانٍ، غير عابئةٍ باتّهامها بالتخلّف، وبضيق الأفق.

ومنذ ربيع ١٨٢٤، كُلِّف جوڤانّي باقتياد الأبقار إلى المرعى. وكان يلتقي فتيانًا رعاةً آخرين يتبادل معهم الأحاديث، ومعهم كان يبحث عن ثمارٍ بريّةٍ، ويكتشف أعشاش العصافير، وأوكار الصراصير. وقد شقّت عليه، يومًا، رؤية راعٍ آخر كان أجيرًا في مزرعةٍ، لا يُخرج من زوّادته، كلّ يومٍ، سوى كسرة خبزٍ أسود جافٍّ، ورغب في تحسين وجبة رفيقه، فأقنعه أنّه يفضّل الخبز الأسود على الخبز الأبيض، الذي تزوّده به أمّه، فيتبادلان زادهما اليوميّ، محتفظًا كلٌّ منهما بكرامته، وبذلك كان جوڤانّي يموّه تضحياته، بعطفه.

وفي تلك المرحلة التي كان جوڤانّي يخرج من طفولته، كانت أمّه قد رسّخت فيه استعدادات دعوته، وزرعت فيه إيمانًا قائمًا على حبّ الله بالصلاة المتواترة والالتزام بالحقوق والواجبات، مستخدمةً الصرامة والتعقّل، والحضور الدائم، والانفتاح على الآخرين عبر علاقاتٍ وديّةٍ، لا مهادنة فيها مع الشرّ ولا مساومة، وبحرصٍ على بناء قلبٍ محبٍّ في ضميرٍ مستقيمٍ.

وكان الحلم الذي أوحى إليه دعوته المستقبليّة، قد شرع يضجّ توقًا إلى انتهاج درب التحقيق.

وكانت والدته، التي انفردت بقراءة حلمه قراءةً صحيحةً عاقدةً العزم على إيصاله إلى الكهنوت بأيّ ثمنٍ.

دعوةٌ تتّضح معالمها

في شهر آذار ١٨٢٥، أنهى جوڤانّي بوسكو العاشرة من سنيه، واتّضحت ملامحه الجسديّة، فهو متوسّط القامة، قويّ البنية، رياضيّ العضلات، وسامته تُكسبه فتنةً. يكلّل رأسه شعرٌ بنّيٌّ كثيفٌ مجعّدٌ، وجهٌ بيضاويٌّ. عيناه كستنائيّتان يعلوهما حاجبان كثيفان، تنطلق منهما نظرةٌ مباشرةٌ ثاقبةٌ، منــزّهةٌ من أيّ تعالٍ أو صلَفٍ، وتنطوي على قدرٍ وافٍ من الحياة الداخليّة السرّيّة العميقة، وتلطّف حدّتَهَا بسمةٌ كتومٌ، تفضح قسطًا ضئيلاً من الفكاهة المرسومة على الشفتين. مجموعٌ جذّابٌ معبّرٌ عن قدرٍ وافٍ من المرح. وجنتان بارزتان ملوّنتان تسفران عن فلاّحٍ طافحٍ بالنشاط، تسفر استدارة الأنف والذقن عن سلطةٍ طبيعيّةٍ، حافلةٍ بالطيبة والعطف.

ولم يكن جاذبه ناجمًا عن مظهره الخارجيّ، وتكوينه الطبيعيّ، بقدر ما كان ثمرة عذوبة علاقاته الإنسانيّة التي مكّنته منها قدرته الفراسيّة النادرة، فقد كان حسبه التحديق في عيون الآخرين حتّى يقرأ كوامن نفوسهم. ولم تساور أحدًا من رفاقه، الذين اختبروه، ريبةٌ في نصاعة استقامته، وخلوّه من كلّ نيّةٍ سيّئةٍ حيال الجميع.

وقد توطّد لدى الجميع يقينٌ بأنّه رغم صغر سنّه، وقصر قامته، يمتلك من القوّة والسيطرة، ما يردع عنه وعن الذين يذود عنهم، حتّى الأكبر منه سنًّا، والأضخم عضلاً.

وفضلاً عن ذلك، تميّز جوڤانّي ببراعته في سرد الحكايا، وفي التعليم المسيحيّ. فقد ورث عن والدته حفظ التعليم المسيحيّ عن ظهر قلبٍ، وبراعةً في رواية أحداثٍ بارزةٍ من سِيَر القدّيسين، منذ تعلّم القراءة، وأدمن المطالعة، كان قد ادّخر كنــزًا من هذه الحكايات الشيّقة التي يتمتّع الصغار والكبار بالتسمّع إليها. وكان

مجرّد سيره على دروب "كستلنووڤو" (Castelnuovo) كافيًا للمّ جموعٍ توّاقةٍ إلى استماع المزيد من قصصه. وكان هو نجم ليالي الشتاء الطويلة، حيث كان يحيط به جمهورٌ متعدّد الأعمار والمستويات الثقافيّة والاجتماعيّة، وهو جاثمٌ على منضدةٍ واطئةٍ، ينثر على مسامعهم كلّ ما يمتعهم، ولا يطلب، لقاء ذلك، سوى إشارة صليبٍ وتلاوة السلام الملائكيّ لمريم، في بدء السهرة وفي نهايتها.

وجاءه ربيع عام ١٨٢٦، وهو على عتبة ذكرى ميلاده الحادية عشرة بنعمةٍ طالما تمنّاها، فقد أُتيح له نيل مناولته الأولى، على يد راعي كنيسة كستلنووڤو، الذي كان يلقّنه المبادئ المسيحيّة، وكان يعرّفه منذ سنواتٍ، وأُتيح له تقدير الكنوز الروحيّة التي طفحت بها نفسه، فأتاح له استقبال الربّ في نفسه قبيل عيد الفصح من تلك السنة. وقد دوّن جوڤانّي، بأمانةٍ، نصيحة والدته له في تلك المناسبة، والتي أوجزها بهذه العبارة: "يا ابني، لديّ ثقةٌ عذبةٌ بأنّ الربّ قد امتلك قلبك، في هذا الصباح. فأكثر من المناولة، ولكن احذر الرجاسة وانتهاك المقدّسات، ولذلك واظب على الاعتراف، اعترافًا صادقًا. وكن مطيعًا، واحضر طوعًا التعليم المسيحي، وواظب على استماع الوعظ، واتّقِ رفاق السوء، مثل اتّقائك داء الطاعون".

ويضيف جوڤانّي قائلاً: "وقد جهدتُ في تنفيذ هذه التوصية، فاتّضح لي، منذ ذلك اليوم، أنّ سلوكي اليوميّ يتحسّن وتعلّمتُ، خاصّةً، الطاعة، فيما كنت سابقًا أقاوم النصائح والأوامر بنـــزواتي".

لقد نمّت تلك المناولة الأولى لدى جوڤانّي مزيدًا من حبّ الربّ الحيّ فيه، ومزيدًا من الرغبة في اجتذاب النفوس إليه، ونمّت مواهبه المتعدّدة الكفيلة بتوسيع رقعة رسالته وبسطها نحو جمهورٍ أوسع. وإذا صدق حدْس أُمّه، وتأكّدت دعوته إلى الكهنوت، فعليه البدء بالتأقلم مع مهمّة الرسول.

وتراءى له أنّ براعته في الألعاب البهلوانيّة كفيلةٌ باجتذاب جمهورٍ واسعٍ، فدأب على جمع ما يأتيه من دريهماتٍ من والدته، ومن خدماتٍ صغيرةٍ، يؤدّيها لآخرين، مثل مزارعين يساعدهم في جني مواسمهم، ومن بيع عصافير لمن يطلبونها منه، فيأتيهم بها من أعشاشها، وكان يحيك جوارب وستراتٍ ويبيعها، وهكذا تمكّن من التزوّد بعدّةٍ كاملةٍ لعروضٍ بهلوانيّةٍ كان قد أتقنها.

وفي مناسباتٍ عديدةٍ أثبت جرأةً نادرةً، مع صغر سنّه، في مواجهة ما كان يُرعب الآخرين، الأكبر منه سنًّا.

وكان كثيرون يقدّرون، أرفع تقديرٍ، مواهبه، وسلوكه. ولكنّ الشخص الوحيد الذي لم ترُق له هذه المواهب ولا استساغ توجّهاته، كان أخاه الأكبر غير الشقيق أنطوان، الذي كان قد شارف سنّ العشرين عام ١٨٢٨، وكان قد أخضع لسلطته ولرغباته أخاه جوزيـــبي، الذي لم تكن مطامعه تُغريه بأكثر من أن يكون فلاّحًا ناجحًا، فاختار العمل تحت إمرة أنطوان، الذي كان يمقت حتّى رؤية كتابٍ في يد الأخ الأصغر جوڤانّي. وقد انفجرت العاصفة يوم فاجأت مرغريتا أنطوان الهائج يهجم على أخيه الأصغر، وينتزع كتابًا من يده، ويمزّقه مهدّدًا صارخًا: "مئة مرّةٍ قلتُ لك إنّي لا أطيق رؤيتك حاشرًا أنفك في هذه التفاهة، لقد وُلدتَ لتكونَ فلاّحًا مثلي. وإيّاك أن يغيب ذلك عن بالك".

يومَها، تيقّنتْ مرغريتا أن لا أمل في حسم الخلاف بين ابن زوجها وابنها الأصغر، ودفعها خوفها على هذا الأخير إلى حلٍّ حطّم قلبها، دفعها إلى إبعاد صغيرها عن البيت، وتوظيفه أجيرًا في إحدى مزارع الجوار، بعيدًا عن أذى أخيه الظالم الذي قرن ببغضٍ واحدٍ زوجة أبيه وأخاه الأصغر.

وفي صباح يومٍ شتائيٍّ باردٍ، ضمّت مرغريتا إلى قلبها الدامي صغيرها، ابن الاثني عشرة سنةً ونصف السنة، مزوّدًا بمتاعٍ يضمّ قميصين ومنشفتين والقليل من الأقمصة الداخليّة، وبعض الكتب.

وراح الفتى يقرع بيوت أصحاب المزارع، طالبًا قبوله خادمًا يُعنى بالأبقار. ولم يسمع من جميع مَن قرع بيوقم، سوى جوابٍ واحدٍ وهو أنّهم لا يوظّفون أجراء إلاّ بعد شهر آذار، ففي أشهر الشتاء لا أعمال زراعيّة، ولا مراعي، والأبقار تلتزم زرائبها. وكانت والدته قد أوصته، إن لم يلقَ عملاً في الجوار أن يمضي إلى قرية "مولكوكو"، التي تبعد نحو ثمانية كيلومتراتٍ، وأن يقابل، من قِبَلها، أسرة "موليا"، فمضى إليها، وللوهلة الأولى كان جواب ربّ الأسرة هو جواب جميع المزارعين الآخرين، أن لا مبرّر لإيواء وإطعام فتًى لا عمل له، بلا مقابل، ولكنّ الفتى لكيلا يخيّب ظنّ أمّه، رفض الانصراف وجلس أرضًا، منتحبًا، ثمّ أخذ يلمّ قضبان القنّب المنتشرة هنا وهناك. ورقّ قلب ربّة البيت، فطلبت من زوجها إبقاءه، حتّى تحين الحاجة إليه، إكرامًا لوالدته التي كان كلّ الجوار يقدّر فضائلها وعطفها على المحتاجين. وسرعان ما اكتسب جوڤانّي محبّة جميع أفراد الأسرة، التي منحته غرفةً وسريرًا، وطعامًا، ووعده ربّ الأسرة بالاتّفاق مع والدته على أجرٍ قدره ليرا إيطاليّةٌ في الشهر، وهو أجرٌ يفوق أجر سائر الأجراء المألوف. وكُلِّف جوڤانّي أوّلاً، بتنظيف زريبة الأبقار، ثمّ في الربيع تولّى قيادها إلى المراعي، أو اقتياد فدّان الحراثة. وقد لاحظ مستخدموه شغَفه بالمطالعة، فإذا كان يراقب الأبقار في المراعي كان مزوده يحتوي إلى جانب طعامه الزهيد كتابًا يلتهمه فيما هو يراقب بعنايةٍ تحرّكات الأبقار، وإذا كان عليه اقتياد فدّان الحراثة، كان يقبض على الرسن بيمناه، وبيُسراه يمسك كتابًا يطالعه وهو يسير مع الفدّان على طول الأثلام.

ولاحظ مستخدموه، أيضًا، التزامه الدينيّ الوطيد، ففي أيّام الآحاد كان يستأذنهم بالذهاب إلى الكنيسة، وكان ذلك يقتضي منه ساعة سيرٍ، عبر أزقّةٍ مبهمةٍ، وفي الكنيسة كان يعترف ويتناول، ويصغي باهتمامٍ، إلى أقوال الإنجيل وعظة الكاهن.

وكان مستخدموه راضين ملء الرضى عن عمله، ومعجبين بسلوكه وبرغبته في مشاركة أترابه الفتيان إيمانه، وعقائده الدينيّة، فكان يجمع في مستودع التبن، صبيان الجيران وفتياتهم، ويجثم فوق كومة تبنٍ مرتفعةٍ، ويُلقي عليهم دروسًا من التعليم المسيحيّ ومن مقتطفات تاريخ الكنيسة، ومن العظة التي سمعها صباحًا في الكنيسة، ويروي لهم أمثلةً عن سيَر القدّيسين.

وإذا سُئل عن دوافعه إلى هذه الغيرة الرسوليّة، كان يوضح أنّها رغبته في أن يصبح كاهنًا، وإذا استُوضح عن وسائله إلى بلوغ هذا الهدف، مع مقاومة أخيه أنطوان الشرسة وعجز والدته الماليّ، والنفقات الباهظة التي تقتضيها الدروس الطويلة حتّى الوصول إلى الكهنوت، فكان يكتفي بالقول إذا شاء الله أن أصبح كاهنًا، فهو سيمهّد لي السبيل.

وهكذا مكث سنتين لدى أسرة "موليا"، التي كانت راغبةً في الاحتفاظ به إلى أن التقاه خاله ميشيل. ويعلم الله هل كان هذا اللقاء عفويًّا، ومجرّد صدفةٍ، أو مدبّرًا من قبل أمّه التي كلّفت أخاها باختلاقه. أيًّا كان الدافع استفهم "ميشيل أوكيينّا" ابنَ أخته عن رضاه بعمله، وأشاد جوڤانّي بمعاملة مستخدِميه له، ولكنّه شكا من كون عمله يحول دون تحقيق رغبته في العلم، الذي يمهّد له سبيل الكهنوت. وأخذ الخال على عاتقه تفسير أسباب تركه العمل لدى مستخدِميه، في الحال. وكان الوداع مبلّلاً بدموع الخادم والمستخدِمين على السواء، وبوعود محبّةٍ متبادلةٍ دائمةٍ. وتعهّد الخال بتسوية الأمور مع الأخ الكبير أنطوان. وتواعد الخال

وابن أخته على التلاقي في بيت مرغريتا، على ألاّ يظهر جوڤانّي في البيت إلاّ بحضور خاله. وبما أنّ الفتى وصل باكرًا، فقد مكث متخفّيًا خارج البيت. ولّما سمع وقع خطوات خاله قادمًا، مع هبوط الليل جرى نحوه مرتعدًا بردًا وخوفًا. وبادر ميشيل إلى فرض سلطته على أنطوان وإكراهه على تقبّل عودة جوڤانّي إلى البيت، وتفرّغه للدراسة، علّه يستعيض ما فاته أثناء عمله أجيرًا في مزرعةٍ أخرى. شقّ على أنطوان أن يعلوَ صوتٌ آخر على صوته فسكت. ثمّ سعى الخال، عبثًا، في العثور بين معارفه من الكهنة عمّن يقبل تلقين جوڤانّي الدروس التي فاتته، قبل تمكّنه من متابعة الدروس الطبيعيّة بانتظامٍ.

غير أنّ العناية الإلهيّة كانت حاضرةً، وتجلّت في شخص كاهنٍ كان مكلّفًا بتقديم رياضةٍ روحيّةٍ على مدى أسبوعٍ في قريةٍ قريبةٍ، وكان سكّان "بيكي" يقصدونها سيرًا على الأقدام صباحًا ومساءً، كي يسمعوا عظتين قبل الظهر، وعظتين بعد الظهر. وكان أحد المثابرين على الاستماع إلى هذه الإرشادات الروحيّة، الكاهن "كالوسّو" (Calosso)، الذي تخطّى السبعين من سنوات عمره وأُعفيَ من الخدمة الرعويّة، ولكنّه حرص على إنفاق سنواته الأخيرة في النشاط الرسوليّ، مع تطوّعه لخدمة رعيّة "موريالدو" الصغيرة المهجورة. وذات مساءٍ إذ كان عائدًا إلى مقرّه مع العائدين الآخرين، لفت نظرَه خشوعُ الفتى بوسكو، فسأله من أين هو آتٍ، وعُقِد بينهما حوارٌ، فسأل الفتى:

« – **هل فهمتَ، على الأقلّ، شيئًا من عظة هذا المساء؟**

– **بل فهمتُها كلّها.**

– **كلّها؟ هذا كثيرٌ. فهل لك أن تذكر أربع جُملٍ منها فأعطيك أربعة فلوس؟**

– **لن أسرد لك أربع جملٍ من إحدى عظات بعد ظهر اليوم، بل العظتين بكاملهما.**

وانطلق يشير إلى النقاط الرئيسة من كلٍّ منهما، مكرّرًا حرفًا حرفًا أقوال الواعظ. حيال هذه الذاكرة الاستثنائية، لم يكتفِ الكاهن بمنحه الفلوس الأربعة، بل عبّر عن أعظم إعجابٍ، وعن رغبته في معرفة اسم الفتى وأسرته، وعنوانه، ومستوى دراسته. واكتفى الفتى بالقول:

– اسمي جوڤانّي بوسكو. فقدتُ والدي قبل بلوغي الثانية من سنواتي، وأُلمّ بالقليل من القراءة والكتابة.

– وهل أنت راغبٌ في الدراسة؟

– أجل، بالتأكيد.

– ولمَ لا تحقّق رغبتك؟

– لأن أخي أنطوان يعارضني.

– ولمَ ترغب في الدراسة؟

– كي أصير كاهنًا. »

هذا الجواب غير المتوقّع كان كافيًا، كي يمدّ له دون "كالوسّو" يد المعونة بلا تحفّظٍ، ولكنّه إمعانًا في استقصاء دوافعه، وأسباب دعوته، سأله:

« – ولمَ تريد أن تصير كاهنًا؟

– لكي أجتذب الأولاد، وأعلّمهم مبادئ الدين، وأحول دون انزلاقهم في الشرّ. فأنا أرى أنّهم يتحوّلون إلى الشرّ، عندما لا يجدون من يهتمّ بهم. »

كانا، حينئذٍ، قد وصلا إلى المفرق الذي يقود إلى بيكّي، وهمّ جوڤانّي بوداع الكاهن الطيّب، الذي ما انفكّ تحت أثر ما سمعه؛ فذلك المراهق ذو الشعر المجعّد الفوضويّ، كان يُدرك بعمقٍ حجم الكهنوت، المتمثّل في مساعدة الإنسان على

إكمال كلّ ما هو إنسانيٌّ فيه، وعلى إتيانه بالمسيح كي يؤلّهه. وكان قد عقد العزم على تنمية هذه النــزعة الرسوليّة النبيلة، ومؤهّلات الذاكرة والفهم لديه. وقبل وداعه دعاه إلى العودة صباح الغد، كي يخدم له القدّاس. ولبّى جوڤانّي الدعوة، وتسنّى للكاهن طرح المزيد من الأسئلة التي أكّدت حكمه الإيجابيّ، فأعرب عن رغبته في إبرام اتّفاقٍ مع والدته بشأن تعليمه، وطلب أن تأتيه يوم الأحد القادم لهذه الغاية. وتمّ التوافق على أن يأتيه جوڤانّي كلّ صباحٍ، فيُكمل تعليمه، ويعود ظهرًا إلى بيته، كي يستأنف العمل المعتاد في الحقل.

كانت سعادة الفتى بالتعلّم، وبردم هوّة تخلّفه في إتقان قواعد اللغتين الإيطاليّة واللاتينيّة، تشيع البهجة في صدره، وتمكّنه من مواجهة البرد، والريح، والمطر، والتعب، وهو عائدٌ إلى البيت بعد الظهر.

وكانت أجواء بيت بوسكو تهدأ مع بدء الخريف، عندما تهادن أعمال الحقول، وتُقفر الأرض من المراعي، وترتاح الأبقار في زرائبها، وتنتفي الحاجة إلى سواعد الكبار والصغار، ويقضي جوڤانّي مع دون كالوسّو، مستكملاً ما فاته من دروسٍ تمكّنه من متابعة دراسته الثانوية.

ولكن مع عودة الربيع، ودعوة الأرض إلى سواعد تحرثها وتبذرها وتشجب أشجارها، كانت الأجواء تتوتّر من جديدٍ. إذ كان جوڤانّي يقضي فترة قبل الظهر متابعًا دراسته لدى دون كالوسّو، ويعود إلى البيت سعيدًا بردم هوّة تخلّفه. ولكن كان يشقّ عليه الانفصال عن كتبه، فيأتي إلى الحقل حاملاً مجرفةً بيدٍ، وكتاب قواعد باليد الأخرى. وكان يحفر التربة، ويسوّيها، وينتزع الأعشاب، وهو يتذاكر دروسه في ذهنه. وكان يُضحّي ببعض ساعات نومه كي يكمل دراسته.

ولم يُطِق أنطوان هذا الهوس بالدراسة، ولا سعي أخيه الأصغر إلى أن يصبح أستاذًا، فيما هو يهلك نفسه في مصارعة التربة كي يطعم الأسرة كلّها. وألِف

التعبير عن امتعاضه من هذا الوضع الذي كان يراه شاذًّا. وقد تفجّرت العاصفة ذات يومٍ، عندما قرّر أنطوان بصق البحصة العالقة في حلقه، معلنًا غيظه: "كفى! طفح الكيل. لم أعدْ أطيق رؤية هذه الكتب التافهة في كلّ زوايا هذا البيت. فنحن لسنا بحاجةٍ إليها كي نعيش. ها قد كبرتُ وقوي عودي، مع أنّي لم أحشر، قطّ، أنفي في كتابٍ". ولم يقوَ جوڤانّي على حبس الجواب الذي أملاه عليه شغفه بالعلم، وضيق أفق أنطوان، فأجابه: "إنّ حمارنا هو أكبر منك وأقوى منك مع أنّه لم يغشَ مدرسةً، يومًا، فهل أنت راغبٌ في التمثّل به؟".

ولولا قدرته على الجري السريع لكان تلقّى يومها درسًا مدمّرًا!

وحينئذٍ، وحسمًا للنـــزاعات المتكرّرة، تطوّع دون كالوسّو، لاستقبال جوڤانّي في مقرّه ليل نهار، وإكمال دراسته، وتأمين إقامته على نفقته، وتحت أنظاره اليقظة الزاخرة محبّةً وعطفًا. ومنذئذٍ عهد جوڤانّي أشهرًا عذبةً، عبّر عنها لاحقًا، من خلال مذكّراته حيث دوّن: "لا أحد يستطيع تخيّل حجم سروري. فقد كان كالوسّو مثالي الأعلى وملاكي الحارس، وقد أحببته محبّة ابنٍ لأبيه. وكنت أصلّي من أجله، وأسدي له طوعًا كلّ ما يحتاج إليه من خدماتٍ. ولم أكن أتوانى عن بذل حياتي في سبيل إرضائه. كنت أُسعَد بالتعب من أجله. وكنت أُحرِز من التقدّم، في يومٍ واحدٍ، عنده، أكثر ممّا أحرز، مدى أسبوعٍ كاملٍ في منـــزل ذويّ". وكان الكاهن، من جانبه، يحيط الفتى بأرقّ عنايةٍ، ولا يضنّ بجهدٍ أو بتضحيةٍ، في سبيل إيصاله إلى هدفه الرسوليّ.

كان دون كالوسّو قد اكتسب قلب الفتى جوڤانّي، بخصاله الإنسانيّة، وبكنوز قلبه وعقله، وبعطفه الأبويّ الصادق، وبسداد نصائحه الروحيّة الكفيلة بجعله كاهنًا مثاليًّا. فقد كان "كالوسّو" متحرّرًا من التعنّت الجانسينيّ الشائع، ومشجّعًا لتناول الإفخارستيّا باطّرادٍ، فهي نبع نِعَمٍ، ووسيلة حياةٍ حميمةٍ مع الربّ يسوع.

وكان يحضّه على وقف وقتٍ كافٍ للصلاة، وأعمال إماتة الذات، ولدقائق تأمّلٍ، ومطالعةٍ روحيّةٍ، وحذّره من ترداد صيَغ الصلوات الطويلة الرتيبة التي تُتلى آليًّا، ولا تنبع من القلب والوعي. ورسّخ لديه اليقين بأنّ الصلاة الحقّة هي، في المقام الأوّل، اتّحادٌ حميمٌ ودائمٌ، في كلّ لحظةٍ، مع الله.

لقد وجد جوڤانّي في دون كالوسّو كاهن أحلامه، كاهنًا يقرن الطيبة بالبساطة، والعطف الأبويّ، والورع، ورجاحة الحكم وسداده، والإدارة المحكمة.

ومع كرّ الأسابيع كانت تتوثّق العلاقات بين المعلّم والتلميذ. ومع ذلك لم يقطع الفتى علاقته مع أخيه جوزيـــبي ووالدته، التي كان يأتيها كلّ أسبوع بغلالاته، ويسترجع تلك التي كان أتاها بها الأسبوع الفائت مغسولةً، مكويّةً، مضمّخةً بالحبّ الأموميّ. وذات مساء، إذ كان يقوم بزيارةٍ من هذا النمط لوالدته، لحِق به قومٌ من رعيّة موريالدو وزفّوا إليه نبأً فاجعًا. فقد أُصيب دون كالوسّو بجلطةٍ دماغيّةٍ، شلّته. وهو راغبٌ في حضور تلميذه في الحال. وكان الهلع والقلق للفتى جناحين طار بهما إلى معلّمه الحبيب الذي كان في هذه الأثناء قد فقد القدرة على النطق، ومع ذلك تمكّن، بالإيماء، أن يُفهمه أنّ تحت وسادته مفتاح درجٍ في مكتبه، وأنّه يهبه كلّ موجودات الدرج، كي يساعده على نفقات دراسته حتّى الكهنوت. وفي مساء ٢١/١١/١٨٣٠، لقي دون كالوسّو وجه ربّه.

كان دون كالوسّو، تعاطفًا مع رغبة جوڤانّي بوسكو في تحقيق دعوته الرسوليّة، وإدراكًا منه لأوضاع أسرته المادّيّة الهشّة، وإلمامًا برفض أخيه المتسلّط إنفاق ليرا واحدةٍ على دراسة أخيه الصغير، قد طمأن هذا الأخير قائلاً: "لا تقلق، يا صغيري جوڤانّي، فأنا أتكفّل بإيصالك إلى غايتك، وطالما بقيتُ حيًّا سأبقى إلى جانبك، وإذا استدعاني الله فقد اتّخذت التدابير اللازمة لإيصالك إلى غاية دعوتك".

واستنادًا على هذا الوعد راح جوڤانّي يلتهم الدروس، ويتخطّى العوائق، ويحرق المراحل.

موت الكاهن المفاجئ ألقى الفتى البالغ خمس عشرة سنةً، في بحرٍ من حيرةٍ قاتلةٍ، وطرح عليه تساؤلاً قاسيًا حول تدبّر أمور دراسته.

الدرج الذي أعطى الكاهن المحتضر مفتاحه، كان يحتوي على مدّخراته البالغة ستّة آلاف ليرا، وكانت كافيةً لتغطية قسطٍ كبيرٍ من نفقات سنوات دراسة بوسكو الكهنوتيّة. وكان دون كالوسّو قد منحه هذا المبلغ وهو بكامل وعيه وإرادته وبحضور شهودٍ، وكان قد سبق أن عبّر، في صراحةٍ، لا لَبسَ فيها عن هذا الوعد وهذه الإرادة. ولم تكنْ على الفتى غضاضةٌ، لو هو استعمل هذا المبلغ بكامله، ووفقًا للغاية التي ابتغاها الواهب، ولكنّه تحسّبًا لكلّ خصامٍ، أو ادّعاءٍ كاذبٍ، أو تبكيت ضميرٍ، لّما حضر ورثة الكاهن، أعطاهم مفتاح الدرج، وترك لهم حرّيّة العمل بمحتوياته كما يشاؤون، فأخذوا كامل المبلغ ومضوا.

تحطّم، بغتةً، الحلم الساحر الذي كان جوڤانّي ينتشي به، أثناء إقامته لدى دون كالوسّو، وتبدّدت سعادة شعوره بتقدّمه السريع في اكتساب المعارف الضروريّة، برحيل ذلك المعلّم الغيور، والأب العطوف. ربّما لم تؤلمه كارثة فقدان والده، فقد حال صغر سنّه دون شعوره بهولها، ولكنّ رحيل الأب كالوسّو أصاب من قلبه مقتلاً، عجز عن تخطّيه. فكان يشغل فكره وهو مستيقظٌ، ويحوّل نومه كابوسًا. ولكن لم يكن بوسع أحدٍ، أن ينسيه أنّ صفحة أسعد أشهر حياته، قد طويت إلى الأبد.

وعاد يتخبّط في بحر المستقبل المجهول. بيد أنّ والدته كانت في هذه الأثناء، حسمًا للخلافات الدائمة بين أنطوان وسائر أفراد الأسرة، وسعيًا إلى إشاعة السلام، والحفاظ على مصالح طفلَيْها، وتسهيلاً لانصراف صغيرها جوڤانّي، بحرّيّةٍ وبلا عائق، على درب الكهنوت، قد حصلت من المحاكم المدنيّة، متخطّيةً اعتراض

أنطوان، على اقتسام إرث زوجها، وتخصيص كلٍّ من الورثة بحقّه. وبنتيجة هذا الاقتسام احتفظ أنطوان بالأرض الزراعيّة، ونأى عن بيت الأسرة. وكان قد تعرّف على فتاةٍ من القرية، وخطبَها، فألهته عن تكدير عيشة زوجة أبيه وابنيها. وكان جوزيـــبي قد استأجر مزرعةً، وانصرف إلى استثمارها بحرّيّةٍ، ملبّيًا ميله الطبيعيّ إلى الزراعة. ولم يبقَ ما يُعيق مرغريتا، عن مساعدة صغيرها جوڤانّي على بلوغ الكهنوت، بعد أن أزاحت عن نفسه وقرًا ساحقًا، وأعادت له حرّيّته.

وبعد انقضاء أعياد الميلاد، كانت مضت شهورٌ دراسيّةٌ في مدرسة "كييري"، التي كانت مرغريتا راغبةً في إلحاق جوڤانّي بها، فاكتفت بتسجيله في مدرسة "كستلنووڤو"، التي كانت تبعد نحو أربعة كيلومتراتٍ عن "بيكّي". وكانت تلك المدرسة مُعدّةً، لتعويض الطلاّب الذين تخلّفوا عن الدراسة المنتظمة، عمّا فاتهم من معارف، وكان جوڤانّي بسبب وفاة كالوسّو، وما تلاها من فراغٍ وحيرةٍ وتخبّطٍ، قد راكم قدرًا كبيرًا من التخلّف في الدراسة النظاميّة. وكان يتجاور في تلك المدرسة طلاّبٌ من مستوياتٍ شديدة الاختلاف والتنوّع، يستعيدون فيها ما فاتهم، كي يستأنفوا دراسةً نظاميّةً في مدارس نظاميّةٍ.

وساعد شغَفُ جوڤانّي بالدراسة، على تحمّل أربعة مشاوير، ذهابًا وإيابًا، من بيكّي إلى كستلنووڤو، إذ كان يعود، ظهرًا، ليتناول غداءه، ثمّ يرجع إلى كستلنووڤو، لمتابعة الدروس التي تلقّاها قبل الظهر. وغالبًا ما شوهد وقد ربط فردتي حذائه، وعلّقهما في عنقه، اتّقاءً لسرعة اهترائهما. ولم يشكُ، قطّ، لا تعبًا ولا أنواء الطقس، إلى أن بادرت والدته إلى تزويده بغذائه في حافظة طعامٍ، يصطحبها معه كي توفّر عليه، مسيرة ثمانية كيلومتراتٍ من أجل الغداء في البيت. ثمّ وجدت له بمساعدة أخيها، سقفًا يأوي إليه مساءً في كستلنووڤو، ويغنيه عن الرواح والمجيء، لدى خيّاطٍ، ارتضى أن يوفّر له ملجأً للنوم، وقصعة حساءٍ كلّ

مساءٍ، ولقّنه مبادئ الخياطة البسيطة، لقاء أجرٍ عينيٍّ متمثّلٍ في مؤونة حبوبٍ ونبيذٍ وبيضٍ. وقد أعدّ إلمام جوڤانّي بالخياطة، على غير علمٍ منه، لتأسيس مصانع خياطةٍ يوظّف فيها الشبّان، الذين سيتولّى رعايتهم. وإكمالاً لمعارفه المهنيّة التي ستكون له عونًا في مستقبله الرسوليّ مع الفتيان، كان جوڤانّي يستغلّ ساعات فراغه كي يختلف إلى محترف حدّادٍ، حيث ألمّ بطريقة استخدام المطرقة، وتطويع الحديد.

وبالإجمال، مع أنّ تلك السنة في كستلنووڤو لم تؤتِه من التقدّم الدراسيّ، ما كان يطمح إليه، إلاّ أنّها أكسبته مهاراتٍ مهنيّةً، ستكون له عونًا على افتتاح مصانع مهنيّةٍ، تُبعد الفتيان المهملين عن الضياع والجنوح، وأكسبته الزهيد من المال، الذي استعان به على العيش وابتياع الكتب والأقلام والدفاتر.

وكان قد نفّذ نصيحة أمّه، بالنأي عن رفاق السوء، وتمرّس بنبذ إغراءاتهم، ولكم منهم من حرّضوه على سرقة المال، من حيثما يعثر عليه، حتّى من أمّه، أو من مضيفٍ له، من أجل التمتّع به!

ولّما حلّ أوان العطلة الصيفيّة ودّع، بلا ندمٍ، المدرسة التي خيّبت رجاءه، وودّع، بغصّةٍ، الخيّاط روبيرتو، وأمضى الصيف كلّه في قرية "سوسّامبريّو" (Sussambrio)، حيث كان أخوه جوزيبّي قد استأجر مزرعةً، مقدّمًا له ولأمّه، كلّ ما استطاع تقديمه من خدماتٍ.

صحيحٌ أنّه كان قد فقد سنةً دراسيّةً عبثًا، ولكنّه أجاد الترتيل الكنسيّ، والاحتفال بالمناسبات الدينيّة، وتزوّد بمهاراتٍ مهنيّةٍ بدائيّةٍ، ستصبح له عونًا في رسالته المستقبليّة.

ومع أنّه لم ينسَ الحلم الذي خطر له، عندما كان في التاسعة من عمره، ذكّرته به السيّدة العذراء، فقد أعادته إلى ذاكرته، فرآها في إحدى ليالي شهر آب، ترعى قطيعًا كبيرًا، وقد اقتربت منه، ودعته باسمه، وأوكلت إليه القطيع، ولّما احتجّ بأن لا

كلأ عنده، يأخذ القطيع إليه، وعدته بعونها، وبقدراتها. وتأكّد له أنّه سيصبح كاهنًا، ورأت والدته في هذا الحلم تأكيدًا لدعوته الكهنوتيّة، ودعوةً إلى أن توفّر له دراسةً جادّةً. ولم تكن تلك الدراسة ممكنةً، إلاّ في مدرسة مدينة "كييري" (Chieri) الرسميّة.

وبغية ابتياع ما يحتاج إليه من ثيابٍ وكتبٍ وأقلامٍ ودفاتر، لم يتورّع جوڤانّي عن قرع أبواب قرية موريالدو، مستجديًا حسناتٍ زهيدةً. ثمّ تنامى إلى علمه أنّ مهرجانًا، يقام حينئذٍ في قرية "مونتافيا"، بمناسبة عيد شفيعها، وقد أُقيمت مسابقةٌ تقتضي بتسلّق عمودٍ معدنيٍّ شاهقٍ مطليٍّ بالشحم، وعُلّق في قمّته ظرفٌ يحتوي على عشرين ليرا إيطاليّةً، وهدايا أخرى يحصل عليها مَن ينجح في بلوغ تلك القمّة. فقصد جوڤانّي تلك القرية، وبعد أن فشل كثيرون من أبناء القرية في بلوغ القمّة، انبرى، هو، بكلّ جرأةٍ، لتحقيق ما فشلوا فيه، وكان الوحيد الذي بلغ هدفه بنجاحٍ، فأثار عاصفةً من التصفيق، وعاد بالظرف، وزجاجة نبيذٍ، وبقطعة نقانق بين أسنانه، وباشر سنته الدراسيّة بتفاؤلٍ.

الفَصْلُ الثَّاني

مسيرةٌ شاقّةٌ صوب الكهنوت

الطالبُ في كييري[١]

حان، إذن، أن يباشر جوڤانّي بوسكو تعليمه الجدّيّ، والتمكّن من اللغة اللاتينيّة، التي كانت تُعَدّ شرطًا لا معدى عنه لكلّ تعليمٍ راقٍ، وشرطًا أساسيًّا لممارسة الكهنوت.

كان قد بلغ السادسة عشرة، وللمرّة الأولى أقام في مدينةٍ حقيقيّةٍ، تختلف عن كلّ ما عرفه سابقًا، تنعم بتاريخٍ مجيدٍ، وتفخر بوجود عشرين كنيسةً فيها، وبآثارٍ تاريخيّةٍ شهيرةٍ، فضلاً عن قربها من مدينة تورينو، التي لا تفصلها عنها سوى مسافة نحو عشرة كيلومتراتٍ.

كانت تضمّ مدرسةً ثانويّةً رسميّةً، ولكنّ الانتساب لها كان يقتضي أن يكون الطالب من سكّانها. فاتّفقت مرغريتا بوسكو مع أرملةٍ صديقةٍ لها من قرية "موريالدو"، تُدعى "لوشيّا متّى"، كانت قد استأجرت في كييري بيتًا يحتوي بضع غرفٍ، كي تقيم فيه، ريثما يُنهي ابنها دراسته، وارتضت أن يسكن جوڤانّي معهما لقاء أدائه لها ولابنها الخدمات المنــزليّة اليوميّة، فضلاً عن بدلٍ عينيٍّ. وفي الواقع ما لبثت أن حضرت مرغريتا بوسكو في عربةٍ تُقلّ أكياس حبوبٍ، وموادّ غذائيّةٍ متنوّعةٍ، وقالت: "ها قد أدّيت ما تعهّدت به، وأرجو أن يقوم جوڤانّي بما يرضيكِ".

ثمّ كانت تأتي كلّ نهار سبتٍ حاملةً رغيف خبزٍ كبيرًا يكفي لأسبوعٍ، وبمؤونةٍ من الذرة والطحين والكستناء.

كان البرد قارسًا في تلك المنطقة الجبليّة، وليس ما يدفئ الفتى المقرور، فكان

---

[١] جديرٌ بالتذكير أنّ "كييري" هي المدينة التي اختار القدّيس كُتُّلينغو الموت فيها، والتي كان أحــد أخوَيــه الكاهنين خادم رعيّتها.

ينفخ فوق أصابعه كي يسرّب إليها شيئًا من الدفء، ويذرع الطرقات بسرعةٍ قارعًا الأرض بقدميه كي يحرّك دماءهما، ويطرد الصقيع الذي يكاد يجمّدهما، قبل أن يعكف على كتبه.

وكان عليه أن يحصل على أثمان الدفاتر والكتب والأقلام بعرق جبينه، بأعمالٍ وضيعةٍ، وخدماتٍ متنوّعةٍ، وبدروسٍ خصوصيّةٍ، يساعد بها أبناء الميسورين.

ولا ريب أنّ هذه المشقّات، وضروب الحرمان هي التي تصوغ الرجال الأقوياء، والإرادات الفولاذيّة، والعزائم الشمّاء، التي لا تخشى الصعاب والعوائق التي كانت غذاء حداثتهم، ونالوا منها حتّى الامتلاء.

قدم جوڤانّي إلى كييري يوم ١٨٣١/١١/٤. ولم يكن يعهد، من قبلُ، سوى الحقول والغابات، ومدارس القرى الصغيرة، وتعليمها البدائيّ، الذي تحكمه متطلّبات الحقول، وتقلّبات الفصول. وأُصيب بالدهشة والضياع في مناخٍ جديدٍ، حيث كلّ شيءٍ كبيرٌ، ومُحكم التنظيم. وكانت رثاثة هندامه، والخجل المرافق لكلّ حركاته، يبرزان اختلافه مع مجتمعٍ اعتاد الأناقة والثقة بالذات.

ولم تؤهّله نُتَف المعلومات التي اكتنزها في المدارس الريفيّة للانتساب سوى إلى الصفّ السادس، مع بلوغه السادسة عشرة، فبدا شيخًا بين أترابٍ يصغرونه سنواتٍ.

غير أنّ كاهنًا معلّمًا، يدعى "پلاشيدو ڤاليمبيرتو" (Placido Valimberto)، كان قد استشفّ، من خلال منظر جوڤانّي الريفيّ، وارتباكه، كنوزَ مواهب عقليّةٍ وأخلاقيّةٍ نادرةٍ، فأوصى به مدير المدرسة والمعلّمين الآخرين، وكلّفه بخدمة قدّاسه، كلّ صباحٍ، وأغدق عليه النُصح. وتولّى معلّمٌ شابٌّ تيسير الأمور له، وأقلمتَه مع محيطه. وأبدى الفتى استعدادًا لاهبًا لاستيعاب كلّ جديدٍ، وتذليل كلّ عائقٍ. ولكأنّ ذهنه الذي بقي مقفرًا، بورًا، منذ سنوات الحداثة، قد أخذ يجود بكلّ خمائر

الذكاء والخصب، التي لبثت راقدةً في عقمٍ قسريٍّ مدى سنواتٍ. وكان وجود الأب "ڤاليمبيرتو" إلى جانبه يزوّده بالثقة والعزيمة والإقدام.

بعد شهرين من الدراسة أثبت الفتى بوسكو تفوّقه على رفاق صفّه، فرُقِّي إلى الصفّ الخامس، واتّفق أنّ معلّم ذلك الصفّ كان الأب "ڤاليمبيرتو"، وكانت هذه الصدفة له دفعًا متينًا، وخلال شهرين أثبت، مرّةً أخرى، تفوّقًا واضحًا على جميع رفاق صفّه، فرُقّي إلى الصفّ الرابع. وكان معلّم ذلك الصفّ طالب لاهوتٍ، شابًّا متعجرفًا، فظّ الطباع، ولم يرُق له ذلك الطالب الذي كاد يدانيه سنًّا، فبادره بسؤالٍ فجٍّ، قائلاً: "تُرى، هل هذا الشيء الماثل أمامي خُلدٌ ضخمٌ، أو موهبةٌ كبرى؟". وفاجأ السؤال الطالب فأجاب عفويًّا: "بل إنّه شيءٌ بين هذا وذاك!" وأفحم الجواب المعلّم.

وبعد أشهرٍ، حدث ما لفت أنظار كلّ المدرسة إلى قدرات ذاكرة الطالب بوسكو الجبّارة. فقد كان أستاذٌ يشرح حياة "أجيزيلاس" Agésilas، الملك والقائد الحربيّ الإغريقيّ، كما دوّنها المؤرّخ "كورنيليوس نيپوس" (Cornélios Népos)، واتّفق أنّ جوڤانّي كان قد نسي استصحاب كتاب التاريخ، ففتح كتاب القواعد اللاتينيّة أمامه، وأغمض عينيه، وأصغى باهتمامٍ إلى شرح المعلّم. ولاحظ رفاق صفّه، القريبون منه، حيلته، فأغرق أحدهم في الضحك، ثمّ ضحك آخر، وما لبث أن عمّ الضحك الصفّ كلّه. وسأل المعلّم: "ما الذي يحدث؟ أريد أن أعرف". وبما أنّ جميع الطلبة كانوا يشيرون بأنظارهم إلى الطالب بوسكو، طلب منه المعلّم إعادة شرحه بالترتيب، فوقف جوڤانّي، وأمسك بكتاب القواعد، وأعاد، من ذاكرته، شرح المعلّم، حرفيًّا، وبالترتيب. فدوّت عاصفة تصفيقٍ، عدّها المعلّم إخلالاً بالنظام يحدث للمرّة الأولى في صفّه، وأهوى بصفعةٍ على وجه جوڤانّي الذي تفاداها بخفض رأسه. وحينئذٍ استفسر المعلّم عن السبب الحقيقيّ للفوضى التي نشبت.

فأوضحوا له الأمر، حينئذٍ انتشل المعلّم كتاب القواعد من الطالب بوسكو، وأمره بإعادة ذكر جملتين تلفّظ هو بهما، فأعادهما بحذافيرهما. وحينئذٍ، قال له المعلّم: "تقديرًا لذاكرتك المدهشة أصفح عن نسيانك كتاب التاريخ. ولكن أنصحك باستخدام معجزة ذاكرتك خير استخدامٍ".

وفي نهاية السنة الدراسيّة، تُوّج بوسكو بأرفع العلامات، ورُقّي إلى الصف الثالث، في العام الدراسيّ ١٨٣٢–١٨٣٣، تحت رعاية الأب الدومينيكيّ "جوستو جيوسّاما" (Giusto Giussama).

ولم يُدهِش بوسكو مدرسته بذاكرته الجبّارة، فحسب، بل كانت الأحلام تمكّنه من أمورٍ غريبةٍ، وأحيانًا تنذره من أخطارٍ محدقةٍ. فذات يومٍ طلب معلّمٌ من طلاّب صفّه كتابة موضوعٍ، وفرغ جوڤانّي من كتابته بسرعةٍ لا تصدّق وذُهل المعلّم، فأراد التأكّد من مسوّدته، وإذ به يقرأ عليها موضوعًا آخر كان المعلّم يعتزم طلبه في درسٍ سابقٍ، ولكنّه عزف عنه، في اللحظة الأخيرة، لأنّه عدّه مفرط الطول. فسأله: "أين اصطدت هذا الموضوع؟". فأجاب:

– "لقد حلمتُ به".

وكنّا قد رأينا، آنفًا، أنّه كان يطّلع على مستقبله، ويتلقّى توجيهاتٍ تُرشده إلى حسن تنفيذه، من خلال أحلامٍ يرى فيها يسوع وأمّه.

ولا بدّ من التنويه بأنّ أحلامًا أخرى، كانت تُريه أخطاء الفتيان التابعين لرعايته، والمخاطر التي كانت تهدّدهم، والمستقبل الزاهر المُعَدّ لبعضٍ منهم، مع أنّ لا شيء كان يُنبئ بهذا المستقبل، أو يشير إليه.

وكانت السنوات الأربع التي أمضاها في مدرسة "كييري"، قد علّمته التعامل الملائم مع مختلف أترابه. وقد تعلّم النأي عن رفاق السوء، الذين لم يردعهم نظام

المدرسة المسرف في صرامته عن ميولهم الشرّيرة، وقد حاول بعضهم جرّه إلى المخازي، وارتكاب موبقاتٍ من كلّ نوعٍ. وبالمقابل أتاحت له مواهبه الطبيعيّة الخارقة التأثير على عددٍ منهم، من خلال مساعدتهم على تمثّل الدروس التي أخفقوا في فهمها فهمًا كافيًا، وكان بعضهم يطلبون منه إعطاءهم دروسًا خاصّةً، ويسعد ذووهم بالتقدّم الذي يحرزونه بفضل هذه الدروس، فينفحونه مكافآتٍ ماليّةً، تساعده على تأمين قسطٍ من مقتضيات عيشه.

وكان قد فرز رفاقه إلى ثلاث فئاتٍ:

– السيّئين المسيئين إلى الآخرين، والذين لم يجد سبيلاً إلى إصلاحهم. هؤلاء اعتزم النأي بنفسه عنهم، ودعوة أصدقائه إلى النأي عنهم.

– اللامبالين بخيرٍ أو بشرٍّ، فكان يكتفي بالتعامل معهم تعاملاً مهذّبًا سطحيًّا، عند الاقتضاء.

– أصحاب الاستعدادات السليمة، والنوايا الطيّبة، ولا سيّما ممّن كانوا يستشيرونه في أمور حياتهم ويلتزمون بوصاياه. وممّن كانوا يتبنّون مثل مبادئه، ويسلكون سلوكًا لائقًا لا غبار عليه، ولا مأخذ. ومن هؤلاء عقد حلقةً سمّاها "جماعة الفرح"، كان من أهمّ مبادئها نبذ الحزن والكآبة، وكلّ ما يخالف تعاليم الربّ. فكان يُقصي عنها كلّ مجدّفٍ، والمتلفّظين باسم الله بلا احترامٍ، أو الذين يتبادلون أحاديث سفيهةً ومُسِفّةً، وبذيئةً.

ثلاثة بنودٍ بسيطةٍ، كانت تحكم سلوك كلّ من يبتغي الانضمام إلى "جماعة الفرح". وهو، بذلك، كان ينفّذ على غير علمٍ منه، نصيحة القدّيس فرانسوا الساليزيّ: "توادّوا في قلب الله، إله السلام، حيث يمكن التنعّم بكلّ شيءٍ، ولا سيّما بالفرح الذي يؤتيه ضميرٌ مستقيمٌ".

– تجنّب كلّ عملٍ، أو خطابٍ، يُخجل المسيحيّ.

– أداء الواجبات المدرسيّة والدينيّة بانتظامٍ.

– الفرح الدائم.

كان الفرح هو ديدن جوڤانّي بوسكو، والفرح كان هوسَه، ولا بدع إن أعلن، لاحقًا، ألمعُ تلاميذه، بل تلميذه الأثير، القدّيس "دومنيك ساڤيو" (Dominique SAVIO): "إنّنا نعمل على أن تكمن القداسة في الفرح. ولذلك نجهد في تجنّب الخطيئة التي تسلبنا فرح القلب". وكان دون بوسكو موقنًا، أنّ الفرح هو الرضى العميق الناجم عن اللطو بين يدي الله الآمنتَين. وأنّه تعبيرٌ عن كنـــزٍ ثمينٍ: "الرجاء المسيحيّ".

وعن تلك المرحلة دوّن دون بوسكو في مذكّراته:

"عام ١٨٣٢، كنت قد أصبحت، بين رفاقي، مثل قائد جيشٍ صغيرٍ. كانوا يمارسون مختلف الألعاب، وعندما ينال منهم التعب كان قائدهم بوسكو يُمتعهم بألعاب خفّةٍ تدهشهم وتفرحهم. فكان يُخرج من كأسٍ عشرات الكرات الملوّنة، ومن إناءٍ صغيرٍ كان يُخرج عشرات البيضات، وينتزع من آناف الحضور كراتٍ كثيرةً. وكان يتنبأ بكمّيّة المال في جيب كلٍّ منهم. وكان يطحن أيّة عملةٍ معدنيّةٍ ويحوّلها رمادًا بمجرّد وضع إصبعه فوقها."

وكانت كلّ جلسةٍ تُختَتم بصلاةٍ. وفي كلّ عيدٍ كنسيٍّ، كانت "جماعة الفرح" تقصد كنيسة القدّيس أنطوان، حيث يقدّم اليسوعيّون تعليمًا مسيحيًّا رائعًا، زاخرًا بأمثلةٍ، وكان الفتى بوسكو يختزنها في ذاكرته الجبّارة ويزيّن بها أحاديثه، في مناسباتٍ أخرى.

وذات يوم أحدٍ، كان عدد حضور أفراد "جماعة الفرح" ضئيلاً، واتّضح لجوڤانّي، أنّ السبب هو وجود بهلوانٍ بارعٍ، يتحدّى أيًّا كان في الجري وفي الخفّة

البهلوانيّة، في الوقت الذي اعتادت "جماعة الفرح"، الاجتماع في الكنيسة. وباح لرفاقه: "إذا استمرّ هذا البهلوان في تقديم عروضه، كلّ يوم أحدٍ، في هذا التوقيت. فقد يبدّد فريقنا، ولا بدّ من الردّ على تحدّيه والتغلّب عليه.

كان جوڤانّي حينذاك في السابعة عشرة، وفي مَيْعة قوّته البدنيّة وواثقًا من قدرته على التغلّب عليه في سباق الجري. وسارع أحدٌ إلى تبليغ البهلوان بالأمر، وأُعلِن في كلّ كييري: "طالبٌ يتحدّى بهلوانًا محترفًا". ولم يعد بوسع بوسكو التراجع، واختير ميدان السباق من حدود ساحة كييري حتّى باب تورينو. وحُدّد الرهان بعشرين ليرا إيطاليّةً. وبما أنّ بوسكو لم يكن يملك هذا المبلغ، فقد تكاتف أعضاء "جماعة الفرح" على جمعه. واحتشد جمعٌ غفيرٌ لمراقبة السباق. وبما أنّ البهلوان كان أكثر خبرةً، فقد سبق في الدقائق الأولى، ولكن ما إن أطلق جوڤانّي لقدراته العنان، حتّى اضطرّ البهلوان إلى منحه الفوز في منتصف الشوط، ولكنّه طالب بفرصة الثأر لهزيمته، وفرضت قواعد اللعب على جوڤانّي، أن يهبه هذه الفرصة. وعرض البهلوان المنافسة في القفز، وحدّد الرهان بأربعين ليرا. وحُدِّدت المنافسة بالقفز من حافّة نهرٍ إلى الحافّة المقابلة التي كان يعلوها سورٌ. وقفز البهلوان بكلّ عزيمته ولكنّ قدمه ارتطمت بالسور. وقدّر بوسكو أن تخطّي السور متعذّرٌ، فلجأ إلى حيلةٍ، ولّما بلغ السور استند عليه بيديه وقدماه إلى الأعلى ثمّ هبط بهدوءٍ، وأعلن الجمهور فوزه.

وأُصيب البهلوان بخيبةٍ ذريعةٍ، فقد خسر نقود الرهان، وفقد هيبته، وأضحى محطّ استهزاء الحضور. ولكنّه لم يستسلم، وراهن على أعمال خفّةٍ، كان واثقًا من الغلبة فيها. وراهنه على ثمانين ليرا، وعمد جوڤانّي إلى وضع قبّعته على رأس عصًا، وأجلس العصا على راحة يده ثمّ تنقّل بها على أصابعه ومنها إلى مرفقه، وشفتيه وأنفه ورأسه، ثمّ أعادها إلى راحته عائدًا بمراحل المشوار مرحلةً مرحلةً، بيُسرٍ مطلقٍ، وببراعة ساحرةٍ.

وحاول البهلوان التفوّق عليه فكرّر حركاته كلّها بدقّةٍ مهنيّةٍ مدهشةٍ، ولكنّه لّما حاول نقل العصا من الأنف إلى الذقن، ارتطمت بأنفه الذي كان بارزًا جدًّا، وكادت تهوي أرضًا لو لم يتدارك سقوطها بيده. وأُعلنت خسارته.

ولكي يغسل البلهوان عار الخيبة، راهن، بالمئة ليرا المتبقّية معه، على بلوغ أرفع مستوًى من قمّة شجرة دردار، ملساء الجذع. وخلع سترته وقميصه وعانق الشجرة، وتسلّقها بسرعةٍ، وخفّةٍ مدهشتين، وفي غضون دقائق معدوداتٍ كان جاثمًا على أرفع غصنٍ من الشجرة، ومال الغصن حتّى كاد أن ينكسر، فسارع إلى الهبوط تحت رعدٍ من التصفيق. فهمس أحد الرفاق في أذن بوسكو: "أخشى أن تخسر هذه الجولة"، غير أنّ جوڤانّي الذي كان يقرن إلى المهارة البدنيّة براعة الحيلة، اكتفى بقول: "سنرى".

وبمثل رشاقة البهلوان وسرعته تسلّق قمّة الشجرة، وانتهى إلى أعلى غصنٍ كان البهلوان قد بلغه، وحينئذٍ بحركةٍ شديدةٍ من جذعه، انقلب فبات رأسه إلى أسفل وتخطّت قدماه قمّة الشجرة، وحبست الحشود أنفاسها لّما شاهدت جرأة حركته الخطرة، هلعًا وخوفًا عليه، وحينئذٍ تعالت هتافاتٌ مدوّيةٌ، مرحّبةٌ بعودته إلى الأرض، متوّجًا بالنصر في كلّ السباقات.

غير أنّه ورفاقه كانوا منــزّهين من نزعة استغلال فشل الآخرين، وكانت تسكن نفوسَهم سماحةٌ قصوى، فاكتفوا بدعوة الحضور إلى عشاء قشفٍ، حيث لم تتخطَّ كلفة كلّ ضيفٍ بضعة فلوسٍ، وأعادوا للبهلوان المتعجرف معظم ماله. وهو حيال خساراته المذلّة وكرم خصومه، جمع عدّته وهجر المكان إلى غير رجعةٍ، واستأنف جوڤانّي بوسكو ورفاقه نشاطاتهم الروحيّة بلا عائقٍ، ولا إزعاجٍ.

وإلى جانب هذا النجاح الباهر، أنعم الله على بوسكو، بالعثور على زهرة

صداقةٍ مسيحيّةٍ فوّاحةٍ، عطّرت مسيرته، وزيّنتها وشذّبت كلّ ناتئٍ في طباعه. ففي أسبوعٍ سابقٍ كان قد دار، في مقرٍّ للطلبة في كييري، حديثٌ عن تميّز بعض الطلاّب بفضائل ساميةٍ. وروى صاحب المقرّ، أنّ بين هؤلاء شابًّا قدّيسًا حقًّا، هو ابن أخت خادم رعيّة "شينـــزانو" (Cinzano). ولكنّ جوڤانّي بوسكو كان، حينذاك قد عدّ وصف طالبٍ بالقدّيس مبالغةً، فهو لم يألف رؤية قدّيسين يطوفون الطرقات. ولكنّ صاحب المقرّ لم يتنازل عن صحّة وصفه، وأكّد أنّ سكّان الجوار، حتّى مسافاتٍ بعيدةٍ، يلهجون بقداسة خال الشابّ ويكرّمونه.

ومنذئذٍ لم يعدْ جوڤانّي بوسكو يتمنّى أكثر من التقاء ذلك الشابّ القدّيس. وقد تحقّقت رغبته بمناسبة افتتاح السنة المدرسيّة. فمن المعهود أنّ الأساتذة يتلكّأون في الحضور، خلال أيّام الدراسة الأولى، ويستغلّ الطلاّب فرصة غياب الأساتذة، كي يُفرغوا من فيض النشاط الذي خزّنوه أثناء العطلة الصيفيّة، ويملأوا الصفوف شغبًا وشيطنةً. وذات صباحٍ تخطّى الصخب كلّ مألوفٍ، واتّفق أنّ أحد أشرس المشاغبين اكتشف طالبًا منتحيًا زاويةً داسًّا رأسه في كتابٍ، فاعتزم إكراهه على المساهمة في الشغب السائد، وقال له: "هيّا، دع كتبك، وانضمّ إلينا". وردّ الطالب: "شغبكم لا يروق لي، فضلاً عن كوني عديم القدرة على هذه الأعمال".

– "ومع ذلك يجب أن تنضمّ إلينا، وإلاّ سأُكرهك عنوةً!".

– "افعل ما يحلو لك. فأنا لا أريد ولا أقدر أن أنضمّ إلى شغبكم".

وقبل أن يكمل قوله كانت صفعتان فظّتان قد ضرّجتا وجنتيه بالاحمرار وأنزلتا بهما ألمًا حارقًا، وبه إهانةً جارحةً، وأشاعتا في القاعة صمتًا رهيبًا. وسيطر الشابّ المهان على مشاعره، وبجرسٍ رقيقٍ قال للمعتدي:

– "هل أنت راضٍ الآن؟

– "أجل"

– "إذن دعني وشأني، وأنا قد سامحتك".

ذلك الموقف البطوليّ خضّ أحشاء جوڤانّي بوسكو الذي كان شاهدًا على الحدث. فاستفسر:

– "من هو هذا الشاب الذي لم أعرفه من قبل؟"

– إنّه ابن أخت خادم رعيّة "شينـــزانو"، ويدعى "لويجي كومولو".

وغمرت جوڤانّي سعادة العثور على من طالما تمنّى التقاءه، ومنذ ذلك اليوم وُلدت صداقةٌ ساميةٌ بين نفسَيْن فريدتَين، بين طالب إنسانيّاتٍ وطالب بلاغةٍ.

عوامل مشتركةٌ عديدةٌ وجوهريّةٌ، لم تقوَ الأيّام على فضّها، بل زادتها، كلّ يومٍ توثّقًا ومتانةً، كانت تجمعهما التقوى، والرغبة العارمة في التعلّم، وحبّهما للسيّدة العذراء، واندفاعهما إلى عمل الخير ومساعدة الآخرين، وروح التضحية. وكان تباين طباعهما يشدّ أحدهما إلى الآخر.

كومولو كان هادئًا، خشوعًا، شغوفًا بالوحدة، هشًّا، خجولاً، فيما كان بوسكو مندفعًا، مقدامًا، متين البنية، لا يخيفه شيءٌ، ولا أحدٌ، ولا يخطر ببال أحدٍ التعرّض له بأذًى. ومع ذلك لم تُعقَد يومًا صداقةٌ، أوثق توافقًا، وأوفر خصبًا من صداقتهما. وقد أقرّ بوسكو نفسه بأنّه كان الأكثر استفادةً منها. فوداعة كومولّو، وهدوؤه، وسلام نفسه، قد أكسبته سكونًا ورقّةً، وسيطرةً محكمةً على الذات. وبالإجمال، قد صاغت تلك الصداقة التي اقترنت بتأثير مرغريتا بوسكو وعطف الأب كالوسّو، نفس جوڤانّي في الأعماق.

هنيئًا لمن ينعم في فجر حياته، بتأثير أمٍّ حكيمةٍ ورعةٍ، وكاهنٍ كبير القلب، وصديقٍ قدّيسٍ.

وفي أثناء فترة دراسته الثانويّة الأخيرة عقد جوڤانّي صداقةً من نمطٍ آخر. فقد كان يسكن، آنذاك، في مقهًى واقعٍ في شارعٍ رئيسٍ من كييري، واستأجر فيه

ملحقًا متواضعًا، يُصار إليه بواسطة سلّمٍ متحرّكٍ صغيرٍ. وكان المؤجّر يقدّم له الطعام الزهيد والمنامة، وهو كان يخدم في المقهى خلال أوقات فراغه، ولا سيّما أنّه لم يكن يحتاج إلى كثيرٍ من الوقت من أجل استذكار الدروس، التي كانت تنحفر في ذاكرته الجبّارة. وفي غضون ستّة أشهرٍ كان قد أتقن صنع القهوة، والشوكولا، والمشروبات، والمربّيات.

وكان في الجوار حيٌّ يهوديٌّ، يضمّ مكتبةً اعتاد بوسكو استعارة كتبٍ منها، يطالعها ويعيدها لقاء أجرٍ زهيدٍ. وذات يومٍ التقى في تلك المكتبة شابًّا عذب الصوت، وكان يختلف إلى صالة البيليار في المقهى، الذي كان هو يعمل فيه. كان يهوديًّا من أسرة ليڤي يُدعى "جوناس"، وقد شدّ تشابه الأذواق أحدهما إلى الآخر، فتوثّقت أواصر الصداقة بينهما. فكان جوناس يقضي ساعاتٍ في غرفة جوڤانّي الوضيعة، يغنّيان، ويعزفان على البيانو، ويتبادلان الأحاديث في شتّى المواضيع.

كان بوسكو في سريرة نفسه يأسف لكون صديقه يهوديًّا، وقادهما الحديث يومًا إلى أمورٍ دينيّةٍ، كالمعموديّة والاعتراف، واعتزم جوناس مشاركة بوسكو دينه، وفي غضون أسابيع تعلّم منه رسم إشارة الصليب، وتلاوة "أبانا" و"السلام" وقانون الإيمان، وبنود المسيحيّة الأساسيّة. ولاحظت والدة جوناس تحوّله الروحيّ، فأخبرت الحاخام، الذي استنكر الأمر، وطالبها باستعمال التهديد والعنف، وحتّى السفاهة حيال ابنها والداعمين له. فجاءت إلى جوڤانّي وأفرغت جعبتها من المسبّات المسفّة بلا طائلٍ. وإزاء إصرار جوناس على موقفه، ومطالبته صديقه بوسكو بدعمه، تدخّلت جماعة التآخي في الروح القدس، وتولّى كاهنٌ يسوعيٌّ إعداد جوناس للمعموديّة التي تمّت يوم ١٠/٨/١٨٣٤.

مِحنةٌ قاسيةٌ

حتّئذٍ كان جوڤانّي، بفضل مساعدات والدته العينيّة، وبفضل جمٍّ من الحرمان، والتضحيات والخدمات، قد تمكّن من تأمين نفقات دراسته الثانويّة. غير أنّه عند عتبة دخوله الإكليريكيّة الكبرى، وسنوات دراستها الطويلة، ونفقاتها الباهظة التي لا طاقة لابن فلاّحين فقراء على احتمالها. وحيث لا نفعٌ لتقادم والدته العينيّة، ولا فراغٌ للقيام بخدماتٍ خارجيّةٍ توفّر بعض المال، استغرق جوڤانّي بحثًا عن حلٍّ ملائمٍ لمعضلته. من المؤكّد أنّ التزامه بخدمة رعيّةٍ كان كفيلاً بإعتاقه من النفقات، ويزيل همّ نفقات الدراسة والمعيشة. ولكن كان يُريعه العجز عن إرضاء شعبٍ كان ما برح شديد التعبّد، ويقتضي من الكاهن قداسةً لا تشوبها شائبةٌ، وتفوّقًا في العلم، والخبرة، والحكمة، وهاله افتقاره إلى القدرة على إتمام كلّ هذه المقتضيات، وعلى حلّ جميع هذه المشاكل. وخُيّل إليه أنّ الانتساب إلى ديرٍ رهبانيٍّ، هو السبيل الأمثل إلى الانعتاق من الهمّين الماليّ والروحيّ. فالدير سيستقبله مع فقره، ورفاقه الرهبان سيساعدونه، على قهر عيوبه، وأوهانه الروحيّة بكتمانٍ ومحبّةٍ. وكان النظام الفرنسيسكانيّ يجتذبه، ولا سيّما أن كان في "كيبري" ديرٌ اعتاد قضاء وقتٍ فيه، وقد اجتذبته حياة الرهبان البسيطة المتقشّفة، وورعهم ومثابرتهم على الصلاة، والمحبّة الأخويّة التي كانت تجمعهم. وقد أبدوا رغبةً في احتضانه والترحيب به.

ولكنّه قبل الإقدام على الخطوة الحاسمة، آثر استشارة معرّفه الذي تحفّظ في إسداء أيّ نصحٍ له. فلجأ إلى خادم رعيّة قريته، وكان ذلك الكاهن معارضًا لسلوكه درب الرهبنة، ونأيه عن خدمة الرعايا، ومنافعها المادّيّة، بدليل أنّه لم يلبث أن استدعى والدته التي قاربت الشيخوخة، وليس لها من يعيلها ويرعى أيّامها

الأخيرة سوى صغيرها جوڤانّي، فهو، بمواهبه الخارقة في كلّ الميادين، مُعَدٌّ لمستقبلٍ مجيدٍ، سيوفّر لها الفخر والبحبوحة. وفيما احتفظت مرغريتا برأيها، ولم تناقش الكاهن بل شكرت له نصحه، وفي صبحة الغد كانت في "كييري" حيث صارحت ابنها: "لقد زارني خادم الرعيّة، وأطلعني على رغبتك في الانتساب إلى الرهبنة الفرنسيسكانيّة"، فأجاب:

– أجل يا أمّاه، وأرجو أنّك لا تعارضين رغبتي هذه.

– فلْيَحمِني الله من ذلك. بل إن كلّ ما أتمنّاه هو تحقّقك من صحّة دعوتك، وعندئذٍ قرّر ما تشاء. كلّ ما يهمّني هو خلاص نفسك. لقد طلب منّي الكاهن صرفك عن هذه الخطوة، رأفةً بمستقبلي وأيّامي الأخيرة. ولكن أرجوك ألاّ تقلق بشأني، ولا تظنّ أنّي أتوقّع منك دعمًا مادّيًا، ولا يغربنّ عن بالك أنّي وُلدت فقيرةً، وعشت فقيرةً، وأنا متأهّبةٌ للموت فقيرةً. وأريد أن تتيقّن أنّك إذا اخترت خدمة الرعايا، واغتنيت فلن أدوس بيتك، يومًا. لا تنسَ هذا أبدًا".

وفي الواقع، لم ينسَ دون بوسكو، يومًا، هذا الإنذار الذي أكّدته ودعمته نظرة تلك الريفيّة، ذات القلب الكبير، ووقفتُها، وصدقُ قولها وعزمها ونبرة صوتها الواثقة والحازمة.

وبعد أيّامٍ قليلةٍ، وفي فترة عيد الفصح، أجرى جوڤانّي بوسكو امتحان الابتداء في الرهبنة الفرنسيسكانيّة التي قبلته بإجماع الأصوات. ولكان انضمّ نهائيًّا إلى تلك الجمعيّة لو لم تقلب العناية الإلهيّة مخطّطاته رأسًا على عقبٍ. فقد قدم إلى خادم رعيّته في "شاتونوف" (Chateauneuf)، بغية توديعه والحصول منه على شهادة حسن سلوك، وسلامة أخلاق طلبها منه الفرنسيسكانيّون. والتقى، صدفةً، ببيطريّ تلك المحلّة الذي استفسره عن غاية زيارته، فأطلعه عليها، ولكنّ البيطري الحكيم قال له:

– "أخشى أن يكون قرارك متسرّعًا، ومُبتَسَرًا. لو كنت أنا مكانك لاستشرت دون كافاسّو. صحيحٌ أنّه ليس شيخًا مثقلاً بالخبرة، ولكنّه قدّيسٌ".

كان دون كافاسّو مواطنًا لبوسكو، يكبره بأربع سنواتٍ، حديثًا في الكهنوت، ولكنّه كان ينعم منذ كونه إكليريكيًّا بسمعة قداسةٍ، تستقطب نحوه نفوسًا قلقةً وحائرةً. كان يعيش، حينذاك، في معهد القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ الكهنوتيّ في تورينو، حيث يكتسب المزيد من العلوم المقدّسة، ويتمرّس بالأعمال الرسوليّة، دائبًا على منح التعليم المسيحيّ لمرضى المستشفيات، وموقوفي الإصلاحيّات، وإرشاد السجناء. وما إن تسنّى لجوڤانّي يوم فراغٍ حتّى قدِم إليه التماسًا لنصحه. وكانت ساعةً مباركةً، قام عليها مصيرٌ فذٌّ، فقد نصحه ذلك الكاهن الشابّ القدّيس الذي لم يتخطَّ الثالثة والعشرين من سنواته، بلا تردّدٍ: "أنهِ دروسك، وادخل إلى الإكليريكيّة الكبرى، ثمّ التزم بإرشادات السماء".

عقب انقضاء خمسة عشر شهرًا على هذا اللقاء الحاسم، لبس جوڤانّي الثوب الإكليريكيّ، بيد خادم رعيّته في "شاتونوف" (Chateauneuf)، حيث كان قد عُمِّد لعشرين سنةٍ خلت. وقد تمّ ذلك يوم ١٨٣٨/١٠/٢٥. وبعد خمسة أيّامٍ ودّع والدته في "بيكّي"، وفي المساء، عقب ارفضاض جميع الرفاق والأصدقاء الذين جاؤوا مودّعين، انتحت به أمّه، وغرست عينيها في عينيه، وأسمعته هذه النصيحة التي انحفرت في نفسه، وتلاها حرفًا حرفًا وهو على عتبة الموت: "ها قد ارتديت الثوب الإكليريكيّ، ولا يخفى عليك كم يغمر هذا الحدث قلبي من فرحٍ وعذوبةٍ. ولكن اذكر دائمًا أنّ ما يكرّم المرء ليس ثوبه، بل ممارسته الفضائل التي يقتضيها هذا الثوب. فإن اتّفق، يومًا، أن خامرك شكٌّ بصحّة دعوتك، أتوسّل إليك، ألاّ تدنّس هذا الثوب. بل انتزعه في الحال. فإنّه لأحبُّ عليّ أن أرى ابني فلاّحًا فقيرًا، من أن أراه كاهنًا يخون رسالته. يوم رأيتَ النور كرّستُك للسيّدة العذراء، وعندما

باشرتَ دروسك، أوكلتُك إلى عنايتها، والآن أتوسّل إليك أن تكون بكلّيّتك لها وأحبَّ من يحبّونها، وإذا قُيّض لك أن تصبح كاهنًا فانشر تكريمها". وكان التأثّر قد أخذ بها كلّ مأخذٍ، فأطلقت العنان لفيض دموعها.

يوم ١٨٣٥/١١/٣٠، اجتاز جوڤانّي بوسكو بوّابة إكليريكيّة "كييري" الكبرى، حيث سيمكث ستّ سنواتٍ، على نفقة المحسنين الكُثر. وشرع بتحيّة رؤسائه، برفقة زميله "غيّوم غارليانو"، الذي دخل هو أيضًا الإكليريكيّة في ذلك اليوم عينه، وتعرّفا على المكان الذي سيقضيان فيه ستّ سنواتٍ، وتفقّدا قاعات النوم، والتدريس، ولمّا انتهيا إلى الملعب، طالعهما شعارٌ باللاتينيّة يطول: "تبدو الساعات طويلةً للحزانى، ولكنّها تكرّ بسرعةٍ للفرحين". وكان بدهيًّا أن يتبنّى هذا الشعار رئيس "جماعة الفرح"، وهمس في أذن زميله: "هذا هو برنامجنا، فلنكن فرحين، وسيمرّ الوقت سريعًا".

وبما أنّ السنة المدرسيّة كانت ستُفتتح بعد ثلاثة أيّامٍ، أقام خلوةً روحيّةً، والتمس من أستاذ الفلسفة نصيحةً، تؤهّله ليكون إكليريكيًّا مثاليًّا، فاكتفى بإيصائه تنفيذ جميع واجباته تنفيذًا دقيقًا.

كان نهار الإكليريكيّة يمتدّ من الخامسة صباحًا حتّى الثامنة مساءً، تتعاقب فيه، تعاقبًا متوازنًا، صلواتٌ ودروسٌ، وصمتٌ، وتأمّلٌ، واستراحةٌ ونقاهةٌ.

وكان النهار يُستهلّ بقدّاسٍ، ولكن بتأثير "الجنسينيّة" المتزمّتة، التي وسمت فترةً سابقةً، لم يكن التناول مألوفًا أثناء الأسبوع، بل كان متاحًا، فقط، يوم الأحد لمن هم مستعدّون له استعدادًا لا غبار عليه. غير أنّ جوع جوڤانّي بوسكو إلى دعم الإفخارستيّا، كان يدفعه إلى التضحية بوجبة الإفطار والتسلّل، خلسةً، إلى كنيسةٍ ملحقةٍ بالإكليريكيّة، من أجل تناول الأسرار، ثمّ كان يندسّ بين رفاقه الخارجين من قاعة الطعام، ويمضي معهم إلى الدرس وهو على الطوى.

وما عتّم أن أضحى هو نجم فسحات الاستراحة في الملعب، إذ كان الرفاق يتحلّقون من حوله كي يتمتّعوا بحكاياه، ونكاته، وتقليده الآخرين، وببهلوانيّاته أحيانًا.

وكان، أيضًا، نجم ما دعاه الإكليريكيّون "الحلقة"، التي كانوا يعقدونها في قاعة الطعام، ويطرح أحدهم موضوع درسٍ، لم يُحسَن فهمه، فيتناقشون بشأنه وبشأن قضايا استعصى عليهم حلّها، وغالبًا ما كان بوسكو هو حلاّل كلّ مستعصٍ.

كانت المحبّة قد زوّدته بكلّ ثيابه الإكليريكيّة: إذ تبرّع وجيهٌ من قريته بالرداء الكهنوتيّ الأسود، وتبرّع عميد القرية بالقبّعة، وخادم الرعيّة قدّم المعطف، وقدّم الحذاء أحد أبناء الرعيّة.

ودفع نفقات سنته الدراسيّة كاهنٌ من تورينو مشهورٌ ميسورٌ، هو الأب "غوالا" (Guala)، مدير المعهد الكهنوتيّ. ثمّ حصل، كلّ سنةٍ تاليةٍ، على جائزة الستّين ليرا، التي كانت تُمنح للطالب الحاصل على أعلى علامات الجهد والسلوك. وفي سنة الفلسفة الثانية أُعفي من نصف القسط، وعُيّن مسؤولاً عن السكرستيّا، لقاء راتبٍ قدره ستّون ليرا أكمل به قسطه الدراسيّ.

وفي الإكليريكيّة الكبرى اكتشف لمسات الكاهن، الذي دفع مصيره إلى هدفه الصحيح، وتنسّم عطر فضائل "دون كافاسّو"، الذي ما برح، منذ أربع سنواتٍ، يطوف في المكان، متجلّيًا في محبّته لرفاقه، وصبره على احتمال عيوب بعضهم، وشغفه بأداء الخدمات لهم، ولامبالاته بقسوة المعيشة، وأحوال الطقس. وغيرته على تثقيف الصغار دينيًّا، ومواقفه المنـــزّهة، دائمًا، من كلّ شائبةٍ، وتوغّله في الدرس والوَرع. كلّ هذه الفضائل التي ازدهرت أثناء وجوده في الإكليريكيّة، قد خلّفت وراءها مثل سحابة عطرٍ. وبالإجمال كانت كلّ سيرته ثورةً على "الجنسينيّة" المتزمّتة الشائعة في عهده، التي تفرض صرامةً قصوى على تناول الأسرار، في حين

أنّ كافاسّو ونظراءه وتلاميذه كانوا يرون في هذه الأسرار غذاءً للقداسة، ودعمًا للدعوة. وقد دأب جوڤانّي على ممارسة تلك الأسرار، في كلّ مراحل مسيرته الإكليريكيّة والرسوليّة.

وفي الإكليريكيّة الكبرى، أيضًا، عانى الإكليريكيّ بوسكو افتقار الرؤساء إلى مشاعر الأبوّة والمواكبة، ونأيهم المقصود عن التلاميذ بادّعاء الحفاظ على هيبتهم، مُغفلين مقتضيات نفوسٍ شابّةٍ ملتهبةٍ، نابضةٍ، مفتقرةٍ إلى الخبرة، عطشى إلى التواصل والاستدلال. غير أنّ هذه المعاناة لم تحبط جوڤانّي بوسكو، بل سعّرت فيه الرغبة في الوصول إلى الكهنوت، وفي إحداث انقلابٍ في هذه الممارسة، وعزمًا على الاختلاط بالطلاّب، والسعي إلى معرفة مشاعرهم واحتياجاتهم النفسيّة عن كثبٍ، والإصغاء إلى نجاواهم، وعقد تواصلٍ وثيقٍ معهم، ومساعدتهم على تجنّب دروب الضياع.

وكانت الصداقة المقدّسة التي جمعته بكومولّو، الذي تبعه، بعد سنةٍ، إلى دخول الإكليريكيّة الكبرى، عونًا له على تخطّي الصعاب والتغلّب على كلّ نقصٍ نفسيٍّ أو روحيٍّ. لقد اتّكأ كلٌّ منهما على الآخر، ومعًا صعدا نحو الكمال، بخطًى ثابتةٍ، مكمِلَين أحدهما الآخر.

كان كومولّو يقدّم لبوسكو مثالاً في طاعةٍ، لا تعرف وهنًا ولا تخاذلاً، وفي وفاءٍ صارمٍ لكلّ وقائع الواجب، وفي محبّةٍ تتجنّب جرح أيّ شخصٍ آخر، حتّى بكلمةٍ نابيةٍ، وفي التقوى الكثيفة المتشدّدة حتّى المغالاة، وفي ترويض الذات، والتضحيات، وبسلوكٍ لم تَشُبْهُ، يومًا، شائبةٌ. وكان بوسكو يقدّم لصديقه أنوار ذكائه، وسرعة بديهته، وفرحه المنـــزّه من كلّ إسفافٍ، ومزاجه دائم الفرح، وقدرته الفذّة على إقامة التوازن في كلّ أمرٍ، ونأيه عن التصنّع، وتلاؤمه مع كلّ حالٍ.

ولكنّ رحيل ذلك الصديق كان مؤلمًا وصاعقًا، ففي نهاية العطلة الصيفيّة التي سادها طقسٌ سيّئٌ قضى على موسم الكروم، كان الصديقان يراقبان، من تلّةٍ، وينعيان ضياع الموسم، فقال بوسكو المتفائل:

– لا بأس، ففي العام القادم، سيكون الجنى أفضل.

ودار بينهما الحوار التالي. فقال كومولّو:

– أرجو ذلك، وأغبط من سيتذوّقون الخمرة الجديدة. وستكون أنت، أحدهم.

– وهل أنت ستستمرّ في ارتشاف الماء الصافي، الذي ألِفتَه في الإكليريكيّة؟

– بل سأتذوّق، في العام القادم، خمرًا أطيب.

– هل أنت عازمٌ على المضيّ إلى الفردوس؟

– لست جديرًا به. غير أنّ عطشًا إلى الخيرات السماويّة، يستحوذ عليّ منذ فترةٍ، بحيث ينتابني الشعور بأنّ أيّامي على الأرض لن تطول، بعدُ.

وصدق حدسُه. فبعد نحو ستّة أشهرٍ، وفي صباح عيد البشارة، ٢٥ آذار، انتابته حمّى شديدةٌ ألزمته الفراش، وشخّص الأطبّاء داءً خطيرًا. ثمّ، في يوم سبت النور، أخذه الهذيان، ورافقه حصرٌ نفسيٌّ شديدٌ، أحدث تشنّجاتٍ، اقتضت تضافر ستّة أشخاصٍ من أجل تهدئته، مع وهن عضلاته، ثمّ سكن كلّ شيء، فاستعاد جسده سكونه، واستعادت نفسه سجوّها، وسلامها وزُوِّد بمسحة المحتضرين، والزاد الأخير، وأعاد إلى الله نفسًا احتفظت بنصاعة معموديّتها، ويده بيد صديقه جوڤانّي، المنتحب.

حدث ذلك يوم ١٨٣٩/٤/٢، ودُفن كومولّو مساء اليوم التالي. وكان المتوفّى، أثناء حياته، قد تواعد مع صديقه بوسكو على أن يزور من يصل، أوّلاً، إلى السماء، رفيقه ويطمئنه بشأن خلاص نفسه. وليلة اليوم التالي، جفا النوم بوسكو.

وعند منتصف الليل أرعب العشرين إكليريكيًّا، الراقدين في قاعةٍ مشتركةٍ، دويٌّ يحاكي مرور قطارٍ سريعٍ أو إطلاق العديد من القذائف في آنٍ واحدٍ. وبغتةً ساد مثل صمت القبور، وغاص الإكليريكيّون في أسرّهم رعبًا، وشدّوا أغطيتهم عليهم، وتألّق نورٌ لم يُعرَف مصدره، وكرّر صوتٌ، سمِعَه معظمهم، ولم يفهمه سوى بوسكو الذي سمع، قول: "بوسكو، لقد خلُصتُ"، الذي تكرّر ثلاث مرّاتٍ. وحينئذٍ تألّق نورٌ باهرٌ، وتعالى الضجيج ثانيةً بعنفٍ متجدّدٍ، حتّى خشي الجميع انهيار البناء. ثمّ نأى كلّ شيءٍ، وغشى الصمتُ الليل.

وهبّ الإكليريكيّون من أسرّهم، مضطربين، وتجمّعوا عند غرفة المناظر، يمسكهم الخوف عن الحركة والكلام. وجهد بوسكو في تهدئة روعهم، زافًّا لهم بُشرى خلاص كومولّو. ولكن لا شيء كان قادرًا على إنقاذهم من رهبة اقتحام السماء المدوّي لقاعة نومهم.

ولم يكن ذلك هو ظهور كومولّو الوحيد بعد وفاته، فبعد مضيّ نحو ثماني سنواتٍ على هذا الحدث سمعت مرغريتا بوسكو والدة جوڤانّي، ليلاً، ابنها يتبادل حوارًا طويلاً مع مجهولٍ. ولّما استفسرته، صباحًا، عن هويّة محاوره، قال: "إنّه لويجي كومولّو"، ولكنّه لم يكشف لها عن محتوى حواره معه.

كان على بوسكو أن يُمضي، في الإكليريكيّة الكبرى ستّ سنواتٍ، يقضي منها سنتين في دراسة الفلسفة، وأربع سنواتٍ في دراسة اللاهوت. ولكن كان يرهقه، باستمرارٍ، شعوره بتقدّمه في السنّ، وتخلّفه عن زملاء له، من جرّاء سنوات دراسته الثانويّة غير المنتظمة، وانتابته رغبةٌ ضاغطةٌ في اختزال الوقت، وتقصير المدّة التي ما زالت تفصله عن مباشرة عمله الرسوليّ. ولّما أنهى، بنجاحٍ، سنة دراسة اللاهوت الثالثة، طلب من أسقفه أن يسمح له بدراسة موادّ السنة الثانية بمفرده، أثناء العطلة الصيفيّة، التي كانت تمتدّ على أربعة أشهرٍ، على أن يباشر بعدها السنة النهائيّة.

وبعد أن اطّلع الأسقف على مسيرة دراسته، في السنوات السابقة، وافق على طلبه، ولكنّه شرط ألاّ يُسمح له بالانتقال إلى السنة النهائيّة، إلاّ بعد الخضوع لامتحان لجنة معلّمي لاهوتٍ، يُعيّن هو أعضاءها. ولّما أُجري الامتحان دُهشت اللجنة الفاحصة من قدرات استيعابه العجيبة، وفتحت له أبواب السنة النهائيّة.

وبالإجمال، خلّف جوڤانّي بوسكو طوال إقامته في الإكليريكيّة الكبرى أثرًا عطرًا، لم يتدنَّ نفاذُ فوحه عن الأثر الذي خلّفه زميله الأكبر، القدّيس "دون كافاسّو". وكان تقييم معلّميه ورؤسائه له: "أكثر من متفوّقٍ، إنّه زاخرٌ بالغيرة الرسوليّة. نجاحه في عمله الكهنوتيّ مضمونٌ".

كان مثاليًّا في جميع المجالات: وفيًّا حتّى الهوس لأدقّ تفاصيل واجبه، طائعًا، بلا خلّلٍ لدقائق النظام، سريعًا في تنفيذ ما يُطلَب منه. بفضل جهده وطاقاته العقليّة النادرة، كان يحفظ بسرعةٍ دروس النهار، ويستخدم الوقت السانح لدرس اللغات، ولالتهام كتابات علماء اللاهوت، وتاريخ الكنيسة، ومع كلّ ذلك ظلّ دائم الجاهزيّة لكلّ خدمةٍ يحتاج إليها رفاقه، سواء كانت في ميدان إفهام طالبٍ ما عجز عن فهمه من درسٍ، أو شدّ أزر طالبٍ جديدٍ خجولٍ مرتبكٍ، أو حلاقة شعرٍ أو إصلاح لحيةٍ، أو رتق رداءٍ، أو قبّعةٍ أو حتّى خُفٍّ. وكان موغلاً في التواضع، والبساطة. ورَعه متينٌ ومتّزنٌ، بعيدٌ عن المظاهر، ولكنّه زاخرٌ بالإيمان والحبّ. وقد حافظ، طيلة حياته، على توازن طاقاته، وكان أكثر رفاقه مرحًا وحيويّةً، جعبته طافحةٌ بالطُرَف والحكايات المرحة، صاحب خيالٍ خلاّقٍ ماهرٍ في اختلاق ما يُشيع الحركة والنشاط، محقّقًا لشعار ساحة اللعب: "الساعات تكرّ بطيئةً على المكتئبين، ولكنّها تعبر سريعًا على الفرحين".

غير أنّ مرحه لم يقُدْه، قطُّ، إلى تشتّت الفكر والشرود. بل كان يتخلّى عنه حالما يحين وقت الجدّ، والصمت، والخشوع، بفضل سيطرةٍ على نفسه، نادرة

المثال. فهو لم يخضع يومًا لسَورة غضبٍ، ولا شكا من نظام المكان ومعيشته، بل كان يواجه كلّ صعوبةٍ، وكلّ محنةٍ يوميّةٍ ببسمةٍ، وكانت المحَن تُكسِب إرادته صلابةً، كما يُسقى الفولاذ المحميّ بالنار بغمسه في الماء البارد.

لم تتكوّن فضائله تلقائيًّا، بل تكوّنت بمقاومته اليوميّة والصلبة للنـــزعات الفطريّة، ولكلّ استسلامٍ لردود الفعل الطبيعيّة. فالقداسة هي ثمرة كفاحٍ شاقٍّ وعنيدٍ ويقظٍ. ولكَم شقّ على جوڤانّي بوسكو التخلّي عن ميولٍ راسخةٍ، ورغباتٍ بريئةٍ.

وفي كلّ الظروف كان يحيا من أجل الشبيبة الفقيرة، التائهة، ويقدّم لكلّ شابٍّ ما يحتاج إليه من معونةٍ، وإرشادٍ. وكانوا هم سعداء بإظهار عرفانهم لجميله. فعندما كانت صفوف الإكليريكيّين تجتاز الدرب من الإكليريكيّة إلى الكاتدرائيّة للمشاركة في القدّاس الرسميّ يوم الأحد، كانوا يحتلّون مواقع على الطريق لكي يحظوا منه بنظرةٍ تُسعدهم.

وفي إحدى أخريات عُطله الصيفيّة خطر له حلمٌ، أرشدته من خلاله السماء إلى دعوته. فخُيّل له أنّه كان في مزرعة أخيه جوزيـــبّي، التي تنتهي بسفحٍ، اتّخذ، في الحلم، هيئة مدينةٍ غاصّةٍ بالسكّان. وقد تراصّت في شوارعها وساحاتها حشودٌ من الشباب المهملين، يلهون، ويملأون الجوّ صراخًا وتجديفًا. فهجم على المجدّفين، وأمرهم بالإقلاع عن التجديف، ولكنّهم لم يرعَووا، فهدّدهم بالضرب، بلا طائلٍ. حينئذٍ ظهر له شخصٌ سرّيٌّ، وقدّمه لسيّدةٍ مهيبةٍ، قائلاً: هذه أمّي، استشرها". وغمرته السيّدة بعذوبة نظراتها، وهمست: "إذا كنت حريصًا على اكتساب هؤلاء الفتيان الرهيبين، فلا تأخذهم بالضرب والركل، بل اكسب قلوبهم بالرقّة والإقناع".

في شهر أيلول ١٨٤٠، نال رتبة شمّاسٍ رسائليٍّ، وفي ربيع عام ١٨٤١، يوم سبت النور، تلقّى رتبة شمّاسٍ إنجيليٍّ. ثمّ يوم ٢٦ أيّار، باشر في تورينو خلوةً روحيّةً

استعدادًا للسيامة الكهنوتيّة، وقد دوّن حينئذٍ على دفترٍ صغيرٍ وضيعٍ، ظلّ يحتفظ به، المقاصد التي أملتها عليه النعمة، وهذه هي ترجمتها الحرفيّة:

"لا يدخل الكاهن بمفرده، لا إلى الفردوس ولا إلى الجحيم. بل إذا كان وفيًّا لدعوته يأتي إلى السماء برفقة النفوس التي خلّصها بمثاله الصالح. وإذا أساء السلوك، وعثّر إخوته، فيهبط إلى جهنّم، مع النفوس التي سبّب دينونتها بسلوكه المشين. هذه الفكرة ستقود جهودي إلى الالتزام بالمقاصد التالية:

- لن أقوم بأيّة نزهةٍ لا ضرورة لها.

- سأشغل كلّ وقتي بدقّةٍ، وحذرٍ شديدين.

- الحرص على خلاص النفوس سيجدني، دائمًا، متأهّبًا للألم والعمل والتواضع.

- فلتثِر محبّة القدّيس فرنسوا الساليزيّ ورقّته كلّ مسعًى من مساعيّ.

- سأرضى دائمًا بالطعام الذي يُقدّم لي، ما لم يكن ضارًّا بصحّتي.

- سأشرب دائمًا نبيذًا مخلوطًا بالماء، فقط، بصفته دواءً، أي فقط عندما تقتضيه صحّتي.

- بما أنّ العمل سلاحٌ فعّالٌ ضدّ أعداء نفسي، لن أُعطي النوم سوى خمس ساعاتٍ كلّ ليلةٍ. وأثناء النهار، وخاصّةً بعد الغداء، لن أنال أيّة راحةٍ إلاّ في حالة المرض.

- سأقف كلّ يومٍ وقتًا للتأمّل والمطالعة الروحيّة. وخلال النهار سأقوم بزيارةٍ قصيرةٍ للقربان المقدّس، أو أتلو صلاةً أمامه. ويستغرق كلٌّ من تأهّبي للقدّاس وصلاة شكري ربع ساعةٍ.

- خارج كرسيّ الاعتراف، إذا اقتضت الضرورة، لن أتبادل حديثًا مع امرأةٍ.

الفَصْلُ الثَّالِث

جان بوسكو الكاهن وأوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ

الكاهن الجديد

يوم الخامس من حزيران ١٨٤١، منح رئيس أساقفة تورينو، المطران "فرنسوني" (Fransoni)، الشمّاس الإنجيليّ جوڤانّي بوسكو، رتبة الكهنوت. حينذاك لم يكن رئيس الأساقفة يعرف الكاهن الجديد معرفةً شخصيّةً، ولكنّه كان مطّلعًا على تقييم رؤسائه له، ومعجبًا به. غير أنّه كان بعيدًا عن تخيّل مدى الخير الذي سيقدّمه للكنيسة وللمجتمع.

وفي اليوم التالي، احتفل دون بوسكو بقدّاسه الأوّل، على مذبح سيّدة الحبل بلا دنسٍ، في كنيسة القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، وساعده صديقه ومرشده دون كافاسّو، في حرصٍ على أن يندرج القدّاس ببساطةٍ مطلقةٍ، وخشوعٍ سحيقٍ، وبمنأًى عن كلّ هرجٍ ومرجٍ، كي يشكر الله نعمة إيصاله إلى قمّة أحلام صباه. وخلال ذلك القدّاس، لم تغِب عن ذهن الكاهن الجديد خرافه التي ما زال يجهلها، والتي ما برحت تنتظره.

وفي اللحظة التي يطلب فيها الكاهن النِعَم لذاته، ولأحبابه، توسّل اللهَ أن يهبه الكلمة البنّاءة الفاعلة. وقد لبّى الله طلبه خير تلبيةٍ، فوجدت أقواله الخاصّة والعامّة سبيلها إلى قلوب كثيرين، ولا سيّما قلوب الشباب الذين افتتنهم واقتادهم إلى جادّات الخلاص.

وفي صلاة الكاهن الخاصّة المتعلّقة بذكر الأموات، طغت على ذاكرته ذكرى الكاهن الشيخ الطيّب "كالوسّو"، الذي أغدق عليه الإحسان، وكان أوّل مَن علّمه اللغة اللاتينيّة، وأتاح له الإقامة لديه، كي يقف وقته كاملاً على الصلاة، واستذكر السعادة الغامرة التي غاص في لجّتها، باكتشافه في ذلك الكاهن الشيخ

صورة الكاهن الحقّ المثاليّ، الذي كان يحلم به، والذي كان، فوق كلّ ذلك، قد اتّخذ التدابير الكفيلة بتغطية معظم نفقات دراسته الإكليريكيّة.

قدّاسه الثاني أقامه في مزار "سيّدة العزاء"، في تورينو، الذي طالما حجّ إليه التماسًا للنِعَم والعون، وشكرَ لتلك الأُمّ السماويّة فيض النِعَم، التي استمدّتها له من ابنها.

وفي يوم الخميس التالي، حيث كان يُحتفَل بعيد الجسد، حقّق رغبات ذويه، وأبناء قريته، وترأّس التطواف في كنيسة "شاتونيف" (Chateauneuf). وبهذه المناسبة أقام خادم الرعيّة مأدبةً دعا إليها ذوي الكاهن الجديد، وكهنة الجوار، وشخصيّات البلدة.

غير أنّ الكاهن الجديد، خلال كلّ مظاهر الاحتفال والتكريم تلك، لم يكن يتوق إلاّ إلى الاستفراد بوالدته، واستذكارهما، معًا، كلّ أحلامهما وتضحياتهما، وكلّ ما ساهم في إيصالهما إلى الغاية التي تاقا وسعيا إليها، وكم عانيا في سبيل ذلك الحلم وقبلَ اقتسام السعادة برؤيته محقّقًا.

ولّما وقف، في "بيكّي"، أمام البيت الذي رأى فيه الحلم الذي أرشده إلى دعوته، في سنّ التاسعة، لم يقوَ على حبس دموعه، وتفجّرت من أعماقه هذه الصلاة: "ما أعجب تدابير العناية الإلهيّة، التي انتشلت من التراب صبيًّا فقيرًا، وارتقت به إلى أسمى مرتبةٍ!".

وبعد أن أشعلت مرغريتا شمعةً، وأعدّت للنوم، تصاعدت صلاة المساء من قلبين ينبضان تأثّرًا وفرحًا، ثمّ أمسكت الأمّ يدي ابنها، وبنبرةٍ تفيض خشوعًا وعذوبةً، باحت له:

"ها قد أصبحت كاهنًا، يا صغيري جوڤانّي، وغدوت تحتفل، كلّ يومٍ، بالقدّاس. فاذكر أنّ الشروع بإقامة القدّاس يعني الشروع بالألم. قد لا تتبيّن ذلك، في

الحال، ولكنّك، مع الأيّام، ستتأكّد أنّ أمّك كانت على حقٍّ. أنا موقنةٌ بأنّك ستذكرني، كلّ يومٍ، في صلاتك، وأنا لا أطلب منك سوى هذه الصلاة. وبعد الآن لا يشغل بالك سوى خلاص النفوس. ولا تبالِ بي".

كان التأثّر قد أخذ بكلّ نفس أُمّه، فقال لها، والعبرات تخنق صوته:

"أشكر لك، يا أُمّاه، كلّ ما قلتِ وما فعلتِ من أجلي. وثقي بأنّ لا شيء منها سيُهدر، بل إنّي سأجعل منها كنزًا لحياتي كلّها".

استعدادًا لمستقبل رسالته، أمضى دون بوسكو عطلةً صيفيّةً منعشةً، مع أمّه، وأخيه جوزيبي... وحينئذٍ تعيّن عليه الخيار بين المواقع المعروضة عليه:

– مُرَبٍّ لأبناء أسرةٍ نبيلةٍ، في مدينة جنوى، لقاء راتبٍ يساوي ألف ليرا في السنة، فضلاً عن السكن والطعام.

– تولّي خدمة مدينة "موريالدو" الشاغرة، تلبيةً لرغبة مواطنيه التابعين لها، مع وعدٍ بزيادة راتبه.

– نيابة خادم رعيّة "شاتونيف"، تلبيةً لرغبة صديقه "دون شنزانو"، خال صديقه "لويجي كومولّو".

غير أنّ دون بوسكو الذي كان دائم الحرص على ألاّ يُقدم على عملٍ، إلاّ بموجب ما تمليه المشيئة الإلهيّة، استشار مواطنه "دون كافاسّو" الذي نصحه: "دع عنك كلّ هذه العروض، وتعالَ إلى تورينو، وأكمل ثقافتك الكهنوتيّة، في "المجمّع الكهنوتيّ"، المعروف باسم "الكونڤيتّو إكّليزياستيكو" (Il Convetto Ecclesiastico). هذا المجمّع، أو المعهد، كان قد أسّسه كاهنٌ متميّزٌ من تورينو، يدعى الأب "غوالا" (Guala)، اتّضح له، إثر التحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة التي سبّبتها الاضطرابات الفوضويّة التي نشبت في البلاد، أنّ المهمّة الأشدّ إلحاحًا كانت تزويد المجتمع

المسيحيّ بإكليروس، يقرن الثقافة والعلم بالورع والغيرة الرسوليّة، ويقوى على إعادة إحياء العمل بالمبادئ الخلاصيّة، وممارسة الفضائل المنسيّة، وتبديد التأثير الوبيل الذي خلّفته "الجنسينيّة" المتزمّتة.

هذا المجمع كان يُكمل معارف الكهنة الجدُد اللاهوتيّة، ويوفّر لهم سقفًا واحدًا، ونظامًا واحدًا، ويتيح للمعلّمين، على امتداد السنتين أو السنوات الثلاث التي يقضيها الكهنة الشباب في ذلك المجمّع، مراقبة مواهب كلٍّ منهم، وميوله، كي يرشدوه إلى المهمّة الأكثر إسهامًا في مجد الله، والأكثر تنميةً لمواهبه، واستثمارها الاستثمار الصحيح... وكان الكهنة الشباب يستمعون، كلّ يومٍ، إلى محاضرتين يقّدم إحداها، قبل الظهر، الأب غوالا، ويقدّم الأخرى، بعد الظهر دون كافاسّو. وفي الوقت المتاح، خارج المحاضرتين كان الكهنة المتدرّبون ينصرفون إلى مختلف النشاطات الرسوليّة: إدارة الصلوات في الرعايا، وزيارة المستشفيات والسجون، وتلقين التعليم المسيحيّ...

وكان نظامٌ ليّنٌ يصوغ نفوسهم على السلوك الكهنوتيّ: صلوات الصباح والمساء، وزيارة القربان المقدّس، وتلاوة المسبحة. وخلوة تأمّلٍ مدى نصف ساعةٍ، ومطالعةٌ روحيّةٌ مدى ربع ساعةٍ، يوميًّا، اعترافٌ أسبوعيٌّ، تضحياتٌ خفيفةٌ يوم الجمعة، التزام الصمت خارج أوقات الاستراحة. دروسٌ جماعيّةٌ، خلوةٌ روحيّةٌ شهريّةٌ، نزهةٌ يقوم بها، مساءً، كاهنان معًا، بعيدًا عن الأماكن المطروقة والمكتظّة، تجنّب الوجود في أماكن لهوٍ عامّةٍ، أو الجلوس في مقاهٍ.

أمضى دون بوسكو في ذلك المجمّع ثلاث سنواتٍ، على نفقة الأب غوالا، ولم يكتسب من تلك الإقامة مؤونةً فكريّةً فقط، بل هي أغنت ذهنه وقلمه، وأتاحت له الاطّلاع على أوصاب المجتمع، اطّلاعًا هيّأه ليكون رسول الشبيبة. ولحظ مرشدوه لديه ميلاً إلى الاهتمام بالشبيبة المهملة التائهة، فنصحوه بقضاء فترات

تدرّبٍ، في ضواحي تورينو، وبالتحديد في منطقة "ڤلدوكّو"، حيث التقى القدّيس "جوزيف كُتُّلِنْغو"، وقدّم بعض الخدمات لــ "*البيت الصغير*". والتقى اللاهوتيّ "بوريل" الملقّب ببوريلّي (Borelli)، الذي كان يتولّى مهمّة مرشدٍ روحيٍّ لمشروع "الملجأ"، ويُعدّ لبناء مستشفى أطفالٍ، مكرّسٍ على اسم القدّيسة "فيلومينا"، ومساهمًا في أحد أعظم المشاريع الاجتماعيّة في تورينو، التي كانت تموّلها المركيزة "جيوليا دي بارولو" (Giulia di Barolo)، التي أسّست في توينو وجوارها مجموعةً من المشاريع الاجتماعيّة الرائدة، ولا سيّما تلك الهادفة إلى إنقاذ فتياتٍ من الجنوح والضياع، مؤمّنةً لهنّ الملجأ والرعاية. ثمّ أسّست جمعيّات راهباتٍ لهذه الغاية.

وكان اللاهوتيّ "بوريل" جنديًّا باسلاً في خدمة الكنيسة، لا يفتر له سعيٌ إلى إنقاذ النفوس، ولم يتخلّف، قطّ، عن أيّ عملٍ رسوليٍّ، حتّى إذا كانت كلّ دقيقةٍ من وقته محجوزةً، سلفًا. فكان يراكم سهرًا على سهرٍ، ولم ينعم، يومًا، بعطلةٍ أو بنقاهةٍ. وفضلاً عن ذلك كان يتقن اللهجة "الپييمونتيّة"، ولا يتحرّج من استخدامها في الوعظ، كي يكون أقرب إلى فهم الناس.

ووجد "بوريل" عونًا سماويًّا في دون بوسكو، الذي تولّى عنه بعض المهمّات، مثل إرشاد الراهبات، وتعليم فئةٍ منهنّ الترتيل، وتلقين الحساب للّواتي كنّ يتأهّبنَ للتدريس. وكان يعظ ويُلقي محاضراتٍ في الكمال الرهبانيّ، ويزور السجون.

منذ أسابيع إقامته الأولى المؤقّتة في ضواحي تورينو، تسنّى لدون بوسكو أن يلمس لمسَ اليد الإهمال الأخلاقيّ الذي تتعفّن في مستنقعاته الآسنة أعدادٌ وفيرةٌ من الشبيبة الشعبيّة.

كانت تورينو، آنذاك، تجتاز طفرة ازدهارٍ عمرانيٍّ جسيمةً، وتستقطب جموع الشبّان العاطلين عن العمل، الذين يتكدّسون في أقبيةٍ، أو أبنيةٍ مهجورةٍ قذرةٍ،

ويعيشون عيشةً لا تليق بالبشر. أمّا الذين لا يجدون عملاً، لأنّهم لا يحسنون عملاً، فكانوا يمتهنون التسوّل، والسرقة، والرذيلة.

ولطالما شاهد دون بوسكو في ملحقات أبنيةٍ زريّةٍ، وفي أقبيتها المعتمة أُسرًا، يربو عدد أفرادها على الاثني عشر فردًا، مكدّسين في حجرةٍ ضيّقةٍ، يتنفّسون هواءً موبوءًا، ويعيشون في اختلاطٍ وبيلٍ، ويدفعهم فقرهم المريع إلى أبشع الشرور، ويُنبت منهم بذورًا تُزرَع في السجون، أو تنتهي إلى ملاجئ "*البيت الصغير*"، التي أقامها القدّيس كتُّلِنْغو.

ولكم حزّ في نفسه وآلمها مشهد شبّانٍ مهملين بلا دليلٍ، ولا راعٍ، ضحيّة عالم أهواء جامحةٍ، ومجتمعٍ غير عابئٍ بهم، وأُسَرٍ متنكّرةٍ لواجباتها حيالهم. وإذا حاول هو التقرّب منهم، فكان بعضهم ينأون عنه، وبعضهم يشتمونه، وآخرون يواصلون أفعالهم المشبوهة، غير آبهين. وحينئذٍ كان يتوقّف الكاهن خائبًا حزينًا. ولكن غالبًا ما كان يومض في ذهنه أملٌ، ينير نفسه، ويتوهّج في ذاكرته الحلم الذي رأى فيه تحوّل الوحوش المخيفة إلى قطيع حملانٍ وديعةٍ، ويرجو تحوّل الحلم إلى واقعٍ.

بدء تحقيق حلمٍ

حلم دون بوسكو شرع يتحقّق يوم عيد الحبل بالعذراء بلا دنسٍ، في ١٨٤١/١٢/٨. إذ كان مرتديًا حلّته الكهنوتيّة، ينتظر في سكرستيّا كنيسة القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ، من يخدم قدّاسه. وحال استغراقه في التخشّع دون مشاهدته فتًى في نحو السادسة عشر ربيعًا، مهلهل الهندام، كان الفضول قد دفعه إلى ولوج الموهف (السكرستيّا). ولّما حضر خادم الكنيسة، استنكر وجود ذلك الغريب، ونهره بعنفٍ قائلاً:

– ألا ترى أنّ الكاهن ينتظر من يخدم له القدّاس؟ هذا هو الكتاب فأدِّ المهمّة.

– ولكنّي لا أعرف القراءة.

فاستشاط خادم الكنيسة غيظًا، وأهوى على الفتى بممسك المنفضة ضربًا، وطرده خارجًا. وأخرجت هذه الجلبة الكاهن من خشوعه. ولّما عاد خادم الكنيسة وهو ما برح ينتفض غيظًا، لامه الكاهن بحزمٍ قائلاً:

– أنا لا أرضى أن يُهان أصدقاء لي على هذا النحو!

– أهذا الوغد صديقك؟

– كلّ مَن يُهان ظلمًا هو صديقي! لا شكّ أنّه ما زال قريبًا، فامضِ وعُدْ به إليّ.

لم تستلزم عودتهما أكثر من دقيقةٍ. كان الفتى ما زال يرتجف خوفًا، أمام خادم الكنيسة المرتبك. فدعاه دون بوسكو، وطرد عنه الخوف، واستفسره عن اسمه وموطنه، ومهنته، وعلم أنّه عامل بناءٍ، يُدعى "برتيليمي غاريلّي" يتيم الوالدين،

أُمّيٌّ. لم يكن قد نال المناولة الأولى بعدُ، ونسي رسم إشارة الصليب، ولا يعرف من أمور الدين سوى أقلّ من القليل. مع ذلك كان يحضر القدّاس أيّام الأحد، ولكنّه يخجل من المشاركة في التعليم المسيحيّ، بسبب جهله كلّ شيءٍ، مع تقدّم سنّه. فسأله دون بوسكو: "هل ترضى أن ألقّنك، أنا، أُمور الدين؟". واتّفقا على الشروع بهذا التلقين مباشرةً بعد القدّاس.

وبعد نصف ساعةٍ جلس الكاهن والفتى في حجرةٍ صغيرةٍ ملحقةٍ بالموهف. وقبل أن يغادر بيرتيليمي، كان قد أتقن، مجدّدًا رسم إشارة الصليب. وطلب منه الكاهن أن يعود، مستصحبًا رفاقه الراغبين في استذكار التعليم المسيحيّ.

ويوم الأحد التالي، اجتمع، من أجل الظفر بالتعليم المسيحيّ، تسعة فتيانٍ، منهم ستّةٌ جاء بهم برتيليمي، واثنان أرسلهم دون كافاسّو. وأصغوا، جميعهم، بشغفٍ واهتمامٍ ومتعةٍ، إلى حديث دون بوسكو،[1] البسيط، الودّيّ، والقادر على النفاذ إلى مركز الاقتناع في الأذهان.

وبعد مضيّ بضعة أسابيع، فيما كان دون بوسكو يجتاز الكنيسة، أثناء عظة كاهنٍ آخر، لمح ثلّةً من عمّال البناء قد انتحوا زاويةً، واستسلموا للنوم، في الظلّ على درج هيكلٍ جانبيٍّ. فسألهم: "ماذا تفعلون هنا، يا أصدقائي؟". وأجابه أكثرهم جرأةً:

– "لا نفهم شيئًا من هذه العظة. ويبدو أنّ الواعظ غير معنيٍّ بأمرنا، فنعسنا". فدعاهم إلى السكرستيّا، وأقنعهم بالعودة يوم الأحد القادم، والانضمام إلى رفاقٍ لهم يتابعون دروسًا في التعليم المسيحيّ. وما هي سوى أسابيع، حتّى ارتقى عدد العمّال المتابعين دروس دون بوسكو إلى مئةٍ. وكانوا، جميعهم شديدي التعلّق بهذا

---

(1) بالإيطاليّة يدعون الكاهن باسم دون، كما ندعوه بالعربيّة بـ الأب، وبالفرنسية بـ Père، وقد شاعت تسمية القدّيس جان بوسكو بدون بوسكو.

الصديق، بل الأخ الأكبر، الذي أيقظهم على قيمة نفوسهم، وأولاهم أرقّ عنايةٍ، وأشدّها إنقاذًا لأرواحهم، وخيرًا لحياتهم.

ومنذئذٍ، واجهت دون بوسكو، بحدّةٍ، قضيّة مكانٍ يمكنه أن يقتاد إليه أولئك الفتيان المتدفّقين طاقةً، بعد القدّاس والتعليم المسيحيّ، من أجل الترويح عن عناء أسبوع عملٍ وكدٍّ. فهو لا مكان له سوى الحجرة الضيّقة التي سمح له المجمّع الإكليريكيّ بالإقامة فيها، ولا دخلَ له سوى الدريهمات التي ينالها من أجل نفقاته الشخصيّة الطارئة. فأنّى لمئة فتًى ضاجّين نشاطًا، أن يروّحوا عن أنفسهم، تحت نوافذ طلّاب لاهوتٍ، في باحةٍ بحجم منديل جيبٍ؟

مشروعٌ واعدٌ يلبّي تطلّعات الكاهن الجديد، كاد يرى النور بين يديه، ولكنّه عجز عن منحه مساحةً للنموّ والتوسّع والانتشار. وظلّت هذه المعضلة تواكبه منذ عام ١٨٤١، حتّى عام ١٨٤٤، موعد انتهاء فترة اكتمال إعداده الكهنوتيّ.

وشقّ على دون كافاسّو، أن ينهار مشروع صديقه بوسكو الوليد، الذي كان يراه زاخرًا بوعود الخير للمجتمع والكنيسة، ولمصير الكاهن الجديد، الباحث عن دربٍ يوصله إلى تحقيق رسالته. فنصحه بالنأي عن منصب نائب خادم رعيّةٍ، أو عن منصب خادم رعيّةٍ في الريف أو المدينة. وحصل له على منصب معاون مرشدٍ روحيٍّ لميتمٍ كانت قد أسّسَتْه، حديثًا، المركيزة "بارولو"، التي ستلعب دورًا أساسيًّا في سيرة دون بوسكو.

تلك السيّدة كانت سليلة أُسرةٍ فرنسيّةٍ نبيلةٍ، واعتادت أن توقّع باسم "جولييت دي كولبير". وكانت والدتها ومعظم ذويها، قد أُعدموا بالمقصلة، ونجح والدها بالنجاة مع أبنائه. ولمّا بلغت جولييت الثانية والعشرين ربيعًا، سنة ١٨٠٧، تزوّجت نبيلاً إيطاليًّا من منطقة "البييمونت" (Piémont)، يدعى المركيز "تانكريدو

دي بارولو" (Tancrédo de Barolo). ولم يُرزقا أولادًا، فاتّخذا من الأولاد المحرومين أُسرةً، وأنفقا عليهم ثرواقما الطائلة.

وفي عام ١٨٣٨، أطاحت حمّى عنيفةٌ بالمركيز، وأمست جولييت وحيدةً، في سنّ الثالثة والخمسين، ومالكةً لثروةٍ كبرى، استخدمتها أفضل استخدامٍ، خلّد ذكراها، في كلّ زاويةٍ من زوايا تورينو، حيث خلّفت آثارًا تمجّد الله، وتمجّد آل "بارولو".

عام ١٨٤٤، انضمّ دون بوسكو إلى اللاهوتيّ "بوريل"، المرشد الروحيّ لملجأ القدّيسة فيلومينا، الذي سيُسدي لأخيه الأصغر دون بوسكو خدماتٍ جلّى في مجال رسالته. وكانت أولى تلك الخدمات السماح للشبّان، الذين يتلقّون تعليمه وإرشاداته الانتشار في الفسحات بين أبنية الملجأ، وتحويل حجرتين من المبنى إلى "كابيلاّ" مكرّسةٍ على اسم القدّيس فرنسوا الساليزيّ. وقد دُشِّن ذلك المعبد الساليزيّ الأوّل، يوم عيد حبل العذراء مريم بلا دنسٍ، في الثامن من كانون الأوّل. يومذاك، كان الثلج ينهمر بكثافةٍ نادرةٍ، ولكن، في الداخل، بين الجدران الأربعة، حيث تراصّ أكثر من مئةٍ وخمسين شابًّا، ساد الدفء، وكانت حرارة الخشوع كثيفةً.

وقد روى دون بوسكو، في مذكّراته، أنّ حلمًا خطر له، آنذاك، ذكّره بالحلم الذي رآه في سنّ التاسعة، وزوّده بشحنةٍ من العزيمة المستجدّة. ففي ذلك الحلم دعته سيّدةٌ، ترتدي ثياب راعيةٍ إلى رعاية قطيعٍ هجينٍ يضمّ ذئابًا، وماعزًا، وجداءً، وحملانًا، وغنمًا، وكلابًا، وطيورًا. وعند كلّ استراحةٍ، كان عددٌ من البهائم يتحوّل إلى حملانٍ. وكان رعاةٌ يظهرون، ويواكبون القطيع، ثمّ يختفون. وكانت حملانٌ تتحوّل رعاةً صغارًا، يمضون نحو قطعانٍ أُخرى.

ثمّ رأى، وسط حقل خضراواتٍ، كنيسةً كبيرةً، رائعةً، تحمل واجهتُها لافتةً دُوِّن

عليها: "هذا هو منـــزلي، وهنا يتألّق مجدي". فاستفسر الراعية عمّا يعنيه هذا كلّه، فأجابته: "ستدرك معناه، عندما ستشهد بعيني جسدك، ما تراه الآن في ذهنك".

ولا ريب أنّ الذين اطّلعوا على هذا الحلم، في حينه، ذهلوا برؤيتهم تحقيقه، بندًا بندًا، منذ نشوء "أوراتوار فرنسوا الساليزيّ"،[1] حتّى نهوض كنيسة "مريم المساعِدة" الرائعة.

بيد أنّ فتيان دون بوسكو لم ينعموا طويلاً بهذه الفسحة السانحة للهوهم، والترويح عن نفوسهم، وعن أجسامهم المكدودة. فمكان لهوهم ذاك كان ممرًّا ضيّقًا بين ديرَيْ راهباتٍ، قسمٌ منهنّ يرعينَ أمراضًا جسديّةً، وقسمٌ آخر لراهباتٍ يرعَيْن مرضى نفسيّين. وجميعهنّ ضقن ذرعًا بالضجيج الجهنّميّ، الذي كان يصدره ذلك الجيش من الفتيان المتدفّقين حيويّةً. وما لبثت أن تكدّست الشكاوى على مكتب المركيزة، التي اضطرّت إلى طلب إخلاء جوار الديرين، من صخب فتيان دون بوسكو. وتعيّن على دون بوسكو البحث عن مكانٍ بديلٍ، ومنذئذٍ، انخرط في سلسلةٍ متماديةٍ ومقلقةٍ من التنقّلات بفتيانه، الذين ارتقى عديدهم إلى ما يربو على ثلاث مئة فردٍ، من مكانٍ إلى مكانٍ، بلا استقرارٍ.

وفيما كان يطوف، ذات يومٍ، مجترًّا هذه المعضلة، توقّف أمام مقبرةٍ محاطةٍ بحقلٍ تغطّيه الأشواك، وتتوسّطه كنيسةٌ فسيحةٌ، وتوسّم في ذلك الموقع ضالّته المنشودة. وسارع إلى استئذان الكاهن المسؤول عن ذلك المكان. وكان ذلك الكاهن في الثانية والستّين من العمر. وللوهلة الأولى رحّب بأخيه الشابّ، وبشبيبته الذين سيُسّرّ برؤية فرحهم.

وفي نحو الساعة الثانية، بعد ظهر يوم الأحد التالي، انتشرت في ذلك الحقل

[1] الأوراتوار، هو، أصلاً، مكان صلاةٍ وتأمّلٍ، كما يدلّ اسمه. ولكن شيئًا فشيئًا، أُضيفت إلى الأوراتوار مهامّ اجتماعيّةٌ أخرى، وأصبح الأوراتوار يعني مركز رعايةٍ وإرشادٍ، للمفتقرين إلى رعايةٍ وإرشادٍ.

الفسيح طغمة شبّانٍ من مختلف الأعمار، استهواهم الانعتاق من ضنك الممرّات الضيّقة، ومن خشية إزعاج سكّان الجوار، فأطلقوا العنان لنـــزوات عبثهم المجنون، وأمعنوا في ضروب الصخب، تعبيرًا عن فرحهم وحرّيّتهم. ولا سيّما أنّ الكاهن المسؤول عن ذلك المكان كان، حينذاك، غائبًا.

ولكن لسوء طالعهم لم يحسبوا حسابًا لخادمة الكاهن التي ظهرت بغتةً، ويداها على خصرها، متأهّبةً للقتال، وأطلقت لسانها بالشتيمة. فقد كان تقاذف الشبّان الكرة، وتراكضهم وراءها، في صخَبٍ كفيلٍ بإنهاض الأموات من قبورهم، قد جفّل دجاجةً للخادمة حاضنةً لعدد من البيضات، ففرّت بلا عودةٍ، وأشعل فرارها نيران غيظ الخادمة، التي أنزلت وابلاً من أبذأ الشتائم بدون بوسكو، واصفةً إيّاه بمربّي الأوغاد، ومنذرةً بمنعه، هو وزعرانه من وطء ذلك المكان مرّةً أُخرى.

وردّ عليها دون بوسكو برقّةٍ وهدوءٍ: "وهل أنت واثقةٌ، يا سيّدتي الطيّبة، من وجودك هنا يوم الأحد القادم. فنحن جميعنا، بين يدي الله". وكان تحذيره لها، في الواقع، نبويًّا، ففي غضون أيّامٍ معدوداتٍ أودت بها سكتةٌ دماغيّةٌ إلى القبر. غير أنّ دون بوسكو، تهدئةً للأجواء، التفت نحو الشبّان، قائلاً: "حسبكم، اليوم، لعبًا. وهيّوا إلى التعليم المسيحيّ، وتلاوة المسبحة".

ولّما خرجوا من المعبد، التقى دون بوسكو بالكاهن المسؤول عن المكان الذي كان قد عاد، وأوسعته خادمته لومًا وتنديدًا، فرجا دون بوسكو ألاّ يعود بشبّانه ثانيةً.

بالإجمال، لم ينعم فتيان دون بوسكو سوى بسوَيعاتٍ في ذلك المكان، الذي كان محطّ أحلام الكاهن الشابّ. ورأى، مرّةً أخرى، العشّ يسقط أرضًا، والعصافير حيرى، باحثةً عن ملعبٍ لجوانحها، وعن مسرحٍ لحناجرها الجذلى.

وسعى اللاهوتيّ بوريل إلى تهدئة روح الجميع، فأعاد على مسامعهم ما سبق أن قال القدّيس كتّلِنغو لرفاقه، عندما أُغلق المستشفى الأوّل الصغير الذي كان قد أسّسه في تورينو، بشأن الملفوف الذي لا ينمو ولا يطيب، إلاّ بعد اقتلاعه من تربته، وإعادة غرسه في تربةٍ أُخرى.

قال لهم بوريل، إذن: "في كلّ مرّةٍ انتقلتم من مكانٍ إلى آخر، سمنتُم، وتضخّم عددكم، وازدادت رغبتكم في أن تكونوا مسيحيّين جيّدين. فتشجّعوا، ولا تقلقوا، وثقوا بأنّ الله ساهرٌ عليكم، وهو مهتمٌّ بإيجاد عشٍّ جديدٍ لكم، فسلّموه أمركم!".

وظلّ أوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ، يتنقّل من مكانٍ إلى آخر. وفي كلّ مكانٍ ينتقل إليه، كان السكّان يفقدون الراحة والهدوء، أيّام الآحاد، إذ إنّ صخب مئات الفتيان المتفجّرين طاقةً، وحاجةً إلى الترويح عن نفوسهم، وأجسامهم المكدودة، كان يشوبه افتقار فئةٍ واسعةٍ من الذين انضمّوا حديثًا بمجموعات دون بوسكو، إلى تربيةٍ أساسيّةٍ، في الصغر، تفرض عليهم احترام حقوق الآخرين وممتلكاتهم، والنأي عن كلّ قذارةٍ، وسلوكٍ نابٍ. وكان بعضهم لا يتحرّجون من إفساد وتخريب كلّ شيءٍ، ومن نشر قذاراتهم في كلّ مكانٍ. فيُسارع سكّان البيوت المجاورة إلى تقديم الشكاوى، غير مكتفين باستنكار إقلاق راحتهم، وخراب أجزاء من ممتلكاتهم، بل كانوا يضيفون، افتئاتًا، اتّهام الفتيان والكهنة المشرفين عليهم، بتأليف عصاباتٍ تشيع الرذيلة، وتفسد الأخلاق، وتهدّد الأمن.

وغالبًا ما تحرّى المسؤولون المحلّيّون صدق هذه الاتّهامات، فعثروا على آثار أضرارٍ مادّيّةٍ سطحيّةٍ، ولكنّهم عجزوا عن وجود أيّ دليلٍ على الرذيلة، والخلل الأخلاقيّ، أو على نوايا ثوريّةٍ مريبةٍ. فكانوا يُثْنون على جهود الكهنة في سبيل انتشال فتيانٍ مهملين وتائهين من دروب الضلال والشرّ، وتهذيبهم، وضبطهم،

وتأمين مستقبلٍ كريمٍ لهم، ومع ذلك كانوا يُضطرّون إلى أمرهم بالرحيل، إراحةً للسكّان، ولذواتهم.

وفي غمرة دأبه على تثقيف أولئك الفتيان، كان دون بوسكو حريصًا على نشر ثقافةٍ مسيحيّةٍ فسيحة الآفاق. فعكف على وضع كتاب تاريخ الكنيسة، لاستخدام المدارس. هذا الكتاب لم يكن كتابًا علميًّا، بل كان بمتناول الشعب، يتلاءم مع مستوى معارف تلاميذه المحدودة، يتناول أعمال الكنيسة البنّاءة، ويرسم صور القدّيسين، الذين تميّزوا بأعمال المحبّة الإنجيليّة في شتّى العصور. وقد اختلف هذا الكتاب عن العديد من الكتُب الأخرى، التي وُضعت في هذا الموضوع عينه، فجاءت مملّةً، مفرطةً في الضخامة، أو ميّالةً إلى تمجيد اتّجاهٍ سياسيٍّ معيّنٍ، أو إلى التغنّي بأبطال دولةٍ على حساب الأُخريات. وقد صدر هذا الكتاب في غروب عام ١٨٤٥، في أقلّ من أربع مئة صفحةٍ، يصلح لكلّ اتّجاهٍ وكلّ قطرٍ، محرَّرًا من كلّ انحيازٍ وتمييزٍ، وأهداه إلى صديقه رئيس جمعيّة إخوة المدارس المسيحيّة، تسهيلاً لتوزيعه على مختلف المدارس.

بعد أن طُرِد أفراد أوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ من الفسحة المحيطة بالمقبرة، عادوا يلتقون، بعد ظهر أيّام الآحاد، في أروقة "ملجأ" المركيزة، التي غضّت الطرف، في حينه، غير أنّها أنذرت دون بوسكو بأنّ مستشفاها الصغير سيُفتَتح قريبًا. وعندئذٍ سيُحظر على فتيانه الدخول إلى المكان، اعتبارًا من ١٨٤٥/٨/١٠.

وفي ٧/١٧، بلّغت البلديّة دون بوسكو أنّها، بناءً على توصية رئيس الأساقفة، ستسمح باستخدام كابيلاّ طواحين المدينة من أجل التعليم المسيحيّ، بين الظهر والساعة الثالثة عصرًا، على أن يُمنعوا من الانتشار في فسحات الأبنية المجاورة.

ثلاث ساعاتٍ لم تكن منحةً كبرى، ولكنّها كانت حلاًّ مؤقّتًا، يحول دون القضاء على مشروع الأوراتوار. وسارع الفتيان إلى جلب الإيقونات، واللوحات، والمقاعد إلى المقرّ الجديد المتاح لهم.

وسرعان ما اتّضح أنّ الحلّ لم يكن مهيّأً لتلبية تطلّعات دون بوسكو، فهو لا يتيح إقامة القدّاس المسائيّ، والنشاط الروحيّ الذي كان جوهر العمل الساليزيّ. ولا يوفّر للفتيان سويعات لهوٍ وانتعاشٍ. ولم يكن يوفّر للهوهم سوى الشارع الضيّق المزدحم بالعربات والمخاطر.

ومع ذلك، لم ينعم دون بوسكو وفتيانه طويلاً، بهذا الحلّ السيّئ. فقد وردت إلى البلديّة رسالةٌ من أمانة الطواحين، حافلةٌ بالافتراءات الباطلة المغرضة، تدّعي أنّ فتيان دون بوسكو يُلحقون أضرارًا بالغة بالكنيسة وبالبناء كلّه، ويؤلّفون "مشتل رذيلةٍ"، وتجمّعًا يمكن استغلاله للثورة. فأمر عمدة المدينة بإيفاد لجنة تحقيقٍ، فعثرت على هناتٍ مادّيّةٍ بسيطةٍ، أخطرها حفر خطوطٍ سطحيّةٍ على جدران الواجهة بمسمارٍ، ولكن لا أثر لرذيلةٍ أو لثورةٍ. واتّضح أنّ أساس الشكوى هو انزعاج سكّان المنطقة من ضجيج الفتيان، الذي كان يفسد قيلولتهم بعد ظهر يوم الأحد. وبناءً على ما شوهد لم تأمر البلديّة بإخلاء المكان، ولكنّها طلبت الإحجام عن تجديد الرخصة في مطلع السنة القادمة.

شقّ على دون بوسكو أن تُساق بحقّه وبحقّ فتيانه افتراءاتٌ لئيمةٌ خطيرةٌ. فهي، حتّى إذا أثبتت تحقيقات السلطات بطلانها، كانت كفيلةً ببثّ سمومها في أذهان الناس. ومنذئذٍ اكتفى باستخدام كنيسة الطواحين مكان لقاء. ومنها كان ينطلق إلى كنائس في الجوار يقيم فيها القدّاس، ويشرح الإنجيل، ثمّ يمضي مع الفتيان إلى حقولٍ مبوّرةٍ غير مزروعةٍ، حيث يلقي، في المساء دروسًا في التعليم المسيحيّ،

ويروي قصصًا بنّاءةً، ويُنشد الجميع تراتيل، ويقومون بجولاتٍ حتّى يحين موعد عودة الفتيان إلى منازلهم.

وربّما خُيّل إلى متشائمين، أنّ ذلك المآل سيُفضي إلى تبدّد الأوراتوار. ولكن خلافًا لما تخيّلوا، ما انفكّ عدد القادمين الجدُد يتنامى، تناميًا مدهشًا، وكأنّه كان يُخلَق من جديدٍ.

ففي منطقة الطواحين اكتشف دون بوسكو واحدةً من أجمل وأثمن اكتشافاته. فذات يومٍ، إذ كان صبيانٌ يتزاحمون من حوله من أجل الحصول على ميدالياتٍ، لمح ولدًا، في نحو الثامنة من عمره، منــــزويًا جانبًا، وقد لفّ ذراعه اليُسرى وشاحٌ أسود يشير إلى الحداد. وكانت جيوب الكاهن قد خوت من كلّ شيءٍ. ومع ذلك دنا من الفتى باسمًا، وكان اسم الصبيّ "ميشيل روا"، وقال له: "خُذْ، يا صغيري ميشيل! وتظاهر باقتسام شيءٍ، ومدّ له يده الفارغة. ورفع إليه الصبيّ نظراتٍ متسائلةً مستفسرةً، حينئذٍ قال له الكاهن: "بعد الآن، سنقتسم كلّ شيءٍ بيننا نحن الاثنين". لم يبُحْ دون بوسكو بما رأى حينذاك في هذا اليتيم الصغير، الذي أصبح، لاحقًا، مساعده الوفيّ، وساعده اليمنى، وخليفته الأوّل على رئاسة الجمعيّة الساليزيّة.

كان والد ميشيل موظّفًا في مصنع الأسلحة الملكيّ، يسكن مع أسرته في ذلك المصنع؛ وكان له أربعة أولادٍ، توفّي ثلاثةٌ منهم في سنٍّ مبكّرةٍ. وبقي ميشيل وحده على قيد الحياة، ولكنّه كان هشًّا، ولذلك لم تسمح له والدته أن يغشى الأوراتوار، خشيةً عليه من خشونة أترابٍ أقوى بنيةً منه. ولكنّه كان يشاهد دون بوسكو، كلّما زار مدرسة الإخوة المسيحيّة، التي كان ميشيل يتابع فيها دراسته الابتدائيّة. وقد كتب "ميشيل روا" عنه لاحقًا:

"عنـدما كـان دون بوسـكو يـأتي إلـى مدرسـتنا، مـن أجـل الاحتفـال بالقـدّاس والوعظ، ومنذ دخوله إلى الكاپيلاّ، كان تيّارٌ كهربائيٌّ يخترق جميع الطلاّب. فكنّا نـنهض، ونـهجـر أماكننـا، ونتـراصّ مـن حولـه، ويصـعب علـى الإخـوة الطيّبـين، المسؤولين عن المدرسة، منع هذه الفوضى التلقائيّة. ولم يكن يحدث أيّ شـيءٍ شبيهٍ بذلك عند قدوم كهنةٍ آخرين".

ثلاث غرفٍ في بناء "موريتّا" (*Moretta*)

تبلّغ دون بوسكو قرار البلديّة بمنع تجديد رخصة استخدام كنيسة الطواحين، في شهر تشرين الثاني، حين لم تعُد أحوال الطقس تسمح بالنـــزهات والرحلات، في الهواء الطلق، خارج المدينة. فاستأجر، بالتعاون مع صديقه اللاهوتيّ "بوريل"، ثلاث غرفٍ، في الطبقة الأرضيّة من بناء "موريتّا"، القريب من "ملجأ" المركيزة "بارولو".

صحيحٌ أنّه لم ينعم هو ونزلاؤه، بالبحبوحة في تلك الغرف الضيّقة، ولا بحرّيّة الحركة. ولكن على الأقلّ، تمكّن من استقبال الفتيان، وتثقيفهم، وإفساح لهم إمكانيّة الاعتراف. وفي المساء، كان يستقبل المتخلّفين في دروسهم – وما أكثرهم! – كي يعطيهم دروسًا إضافيّةً تكمل ما فاتهم تعلّمه، وتساعدهم على اللحاق بأترابهم.

ولكي يعوّضهم عن ضيق المكان، والافتقار إلى الفُسَح الخارجيّة، كان يخالف، بين حينٍ وآخر، الوعد الذي قطعه على نفسه، قبل سيامته الكهنوتيّة، بالعزوف عن التظاهرات البهلوانيّة، فيقوم بألعاب خفّةٍ، تدخل إلى نفوسهم البهجة والمتعة.

وسرعان ما شكا القاطنون في بناء "موريتّا" من ضجيج الفتيان، الذي تخطّى عددهم الثلاث مئة، فمنعهم دون بوسكو من اللعب بين الأبنية، والمساكن المأهولة، وذلك خشيةً من أن يلغي مالك البناء عقد الاستئجار. لكنّه وعدهم برحلاتٍ بعيدةٍ وممتعةٍ بين فترةٍ وأخرى.

وكانت رحلتهم الأولى إلى مزارٍ جاثمٍ على قمّة المدينة، امتدّت على نهارٍ كاملٍ، امتزجت فيه الصلوات بالأناشيد، تخلّلتها فترات صمتٍ وتأمّلٍ، وغداءٌ جماعيٌّ شهيٌّ قدّمه خادم الرعيّة، ومدير المدرسة.

تلك الرحلات كانت تملأ نفوس الفتيان جزلاً، وأذهانَهم ذكرياتٍ عذبةً، وتوثّق علاقاتهم بمرشديهم، وتدعم عزيمتهم على تنفيذ إرشاداتهم.

وفي هذه الأثناء لم يغرب عن بال المرشدين، أنّ مهمّة الأوراتوار الأساسيّة هي التثقيف الدينيّ، ورعاية النفوس، فكانوا ينتحون مع الأولاد في حقلٍ خالٍ، ويعتلي كلّ كاهنٍ كومة ترابٍ مرتفعةً، ويستمع إلى اعترافاتهم. ويُختَم اللقاء بإرشادٍ مقتضبٍ، تليه تراتيل وأناشيد.

ولكن المعضلة التي واكبت مولد الأوراتوار، هي أنّ عدد الفتيان المنضمّين إليه كان على تكاثرٍ مطّردٍ، وكانت فئةٌ من الوافدين الجدد من المهمَلين الذين لم يتلقّوا، قطّ، تربيةً اجتماعيّةً، وكان صخبهم الذي يصعب ضبطه، يستثير ضيق سكّان كلّ مكان يجتمعون فيه، ويضطرّ دون بوسكو إلى ارتحالٍ دائمٍ بهم، لا يعرف إلى الاستقرار سبيلاً.

ومع ذلك كان عليه مواجهة حملات افتئاتٍ وافتراءٍ من كلّ نوعٍ، ومن كلّ جهةٍ. ومن المألوف أن يواجَه كلّ مشروعٍ رائدٍ جريءٍ بالمقاومة والمعارضة.

فقد كان مسؤولون حكوميّون، يتوجّسون ريبةً من طواف ذلك الكاهن، بزُمرٍ من الفتيان المفتقرين إلى تربيةٍ وثقافةٍ، عاطلين عن العمل، يأتمرون بإشارةٍ من إصبعه، أو بغمزةٍ من عينه، ويستطيع، إذا شاء، أن يشعل ثورةً أو فتنةً. وكانوا يتعامون عن جهوده في سبيل تثقيفهم، وضبطهم، وإيجاد عملٍ لهم، وتوجيههم إلى درب الاستقامة والنظام، وإبعادهم عن كلّ ما يسبّب أضرارًا لذواتهم ولمجتمعهم.

وكان أشدّ المتحاملين عليه، عنفًا ومقاومةً، الكونت "كافُور"، عمدة تورينو آنذاك، الذي استدعاه إلى مقرّه، وحذّره بقسوةٍ. وأوضح الكاهن للكونت، أنّ لا غاية له ولا مطمح، إلاّ إصلاح أحوال أبناء الشعب المهملين، المساكين، الفقراء، وجَمْعُهم في

مكانٍ آمنٍ، وتوفير استراحةٍ لهم من عناء عملهم الأسبوعيّ، وتلقينهم مبادئ الدين والتهذيب، والسلوك الاجتماعيّ السليم، حؤولاً دون تسكّعهم في شوارع المدينة، بلا قيدٍ، وبالتالي تقليل عدد الأشرار الذين يملأون السجون.

ولكنّ الكونت رفض الإصغاء إلى حجج الكاهن المنطقيّة الزاخرة بحسن النوايا، فقاطعه قائلاً: "أنا لم أستدعِك كي أتناقش معك، بل لكي أبلّغك عدم ارتياحي إلى أوراتوارك، ورغبتي في إقفاله". ولّما تبيّن دون بوسكو عبثيّة المضيّ قدمًا في النقاش وتبادل الحجج، وحسمًا للمقابلة، قال للكونت: "أنا حصلت على موافقة رئيس الأساقفة لتعليمهم مبادئ الدين، ورعاية أخلاقهم وسلوكهم. ولا أتلقّى أوامري إلاّ منه".

ومع ذلك استمرّ الكونت في مراقبته، سرًّا وعلنًا، ولكنّه فشل في التقاط مأخذٍ أمنيٍّ واحدٍ عليه أو على فتيانه. ولم يكفّ، مع ذلك، عن تكليف عَسَسه وعيونه بالانتشار في أماكن صلاة الفتيان ولهوهم، والإصغاء إلى كلّ همسةٍ وكلمةٍ، والتحديق إلى كلّ حركةٍ مشبوهةٍ. غير أنّهم لم يروا ويسمعوا إلاّ كلّ مطمئنٍ ومريحٍ، حتّى إنّ أحدهم أقرّ:

« إذا كُلِّفنا، على مدى ثلاثة أسابيع، بمراقبتهم، لغدونا أتباعًا لدون بوسكو، وتلاميذ له، ولأمسينا، مثلهم، نعترف بخطايانا، ونتناول مثلهم.

يا لدون بوسكو من متآمرٍ ومشاغبٍ غريبٍ! ».

ولئن كان من الطبيعيّ والمفهوم أن ينتاب مسؤولين حكوميّين عن الأمن، خشيةٌ من تجمّعات فتيانٍ، إلاّ أنّه من المذهل والأنكى، أن يناوئه كهنةٌ زملاء. فقد شنّ عليه كهنة رعايا كُثُرٌ حملاتٍ شعواء، واتّهموه بسلبهم رعاياهم، مع أنّ الفتيان الذين لجأوا إلى أوراتوار دون بوسكو لم يطأوا، يومًا، عتبة كنائس رعاياهم، ولم يسأل رعاتهم عنهم، يومًا، ولا أحاطوا علمًا بوجودهم. وإذا هم سُئلوا، يومًا، إلى

أيّة رعيّةٍ ينتمون، لما فهموا حتّى معنى السؤال. وإذا هم أُبعدوا عن الأوراتوار فلن يلجأوا إلى أيّة رعيّةٍ، لأنّهم لن يجدوا رعيّةً توفّر لهم مثل التثقيف والعناية اللذين يقدّمهما لهم دون بوسكو. فأعمار معظمهم تتراوح بين ١٦ و١٨ سنةً، فهل يجلسون مع أطفالٍ في سنّ الثامنة حتّى يطّلعوا على مبادئ دينهم؟ ودون بوسكو كان يجتذبهم بألعابٍ ونزهاتٍ، ومكافآتٍ، ودروسٍ ليليّةٍ تمحو أمّيّتهم. وأين الرعايا المستعدّة لتقديم مثل هذه المغريات؟ وهل من كاهن رعيّةٍ ينبري للاضطلاع بهذه المهمّة، وبهذه الأساليب، ويرحّب كلّ يومٍ، بوجهٍ غريبٍ جديدٍ؟

ولطالما نصح دون بوسكو أصدقاؤه، رأفةً بصحّته، أن يكتفي بعشرين فتًى يزوّدهم بثقافةٍ متميّزةٍ، وأن يزهد في التطلّع إلى مئاتٍ، ينقذهم من براثن الضياع. ولكنّه، في الواقع، كان يعيش الأحلام التي رآها، والتي غذّته بأمل رعاية مؤسّسةٍ كبرى، تضمّ مئات الفتيان المهملين المعرَّضين للجنوح والتيه، وتنتشر فروعها في المعمورة جمعاء. وكان يسترسل في وصف تفاصيل تلك المؤسّسة وكأنّها واقعٌ يشاهده بعينيه، حتّى خيّل إلى فئةٍ من عارفيه أنّه أُصيب بمسّ جنونٍ. وسرت شائعة جنونه، فتلقّفها، ببهجةٍ، كهنةٌ مناوئون له، ومستاؤون منه. وزاره اثنان منهم، وحدّثاه عن مؤسّسته العتيدة، فأكّد لهما وجودها، وتأكّدا هما من فقدانه الرشد. واتّفقا مع مصحٍّ عقليٍّ على الإتيان به، من أجل حجزه ومعالجته. ثمّ عادا إليه، وقالا له: "ما رأيك بنــــزهةٍ نقوم بها معًا؟ ههنا عربةٌ تنتظرنا عند الباب". ولم يخفَ على حدْسه ما كانا يضمرانه، وهبّ لمرافقتهما. ولمّا انتهوا إلى العربة دعياه إلى الصعود، ولكنّه أصرّ على استقلالهما العربة، أوّلاً. وما إن اتّخذا مكانهما فيها، حتّى أغلق بابها بسرعةٍ وحزمٍ، وأمر السائق باقتيادهما إلى المصحّ حيث من ينتظرهما، وامتثل السائق في الحال، وانقلب السحر على السحرة. وأفقد الغيظ الكاهنين رشدهما واتّزانهما، وصارا يتخبّطان تخبّطًا مأفونًا. وفوجئ معالجو المصحّ

الذين كانوا ينتظرون مجنونًا واحدًا، بمجنونين بلغا أقصى مراحل الجنون. وكان أوّل من راقب ذلك المشهد مرشد المصحّ، الذي سرعان ما أدرك واقع ما جرى. فتساءل من هو المختلّ حقًّا، في واقع الأمر. وطُوي أمر اختلال دون بوسكو.

ولكنّ همومه لم تنتهِ. فهو كان، أيّام الأحد، يستقبل الفتيان صباحًا. ويستمع إلى اعترافات الراغبين في تطهير ضمائرهم ونفوسهم، ثمّ يمضي بالفتيان إلى كنيسةٍ قريبةٍ يحضرون فيها القدّاس، ويتناولون، بعده، إفطارًا مجّانيًّا، ثمّ يقضون فترة بعد الظهر في حقلٍ، كان قد استأجره لهذه الغاية، فينفقون فيه طاقاتهم الحبيسة في اللهو والعبث. ثمّ يدعو بوقٌ الجميع إلى التوقّف عن اللعب، وينقسمون إلى أربع فئاتٍ، حسب أعمارهم، ومستوى ثقافتهم الدينيّة، ويتلقّى الصغار الجدُد دروسًا دينيّةً. بعدئذٍ، يرتقي دون بوسكو تلّةً ترابيّةً، ويبيّن ملاحظاته على أحداث الأسبوع، ويلقي عظةً موجزةً، ويُنشد الجميع تراتيل تكريم للسيّدة العذراء.

لكن حتّى هذا الهناء البسيط لم يدُم. فقد أُبلغ الإخوة فيليبّي، أصحاب الحقل، أنّ ألعاب فتيانه قضت على المرج، وكادت تقتلعه من جذوره، بحيث لن يلبث أن يضحي بورًا، وترابًا مطروقًا، وطريقًا عامّةً. فطلبوا منه التوقّف عن استخدامه، حتّى إنّهم أعفوه من مبالغ الإيجار المستحقّة، وأمهلوه خمسة عشر يومًا، كي يكمل إجلاء الحقل.

صعقه إنذار المالكين، ولكنّه رجا أن تؤتيه العناية الإلهيّة حلاًّ، خلال المهلة المتاحة له. وكرّ أسبوعان، ولم تلُحْ فيهما بارقةُ حلٍّ.

وفوق تلك المتاعب والهموم، كان يوجعه تراكمُ غيومٍ قاتمةٍ في سماء مسيرته. فقد سرت شائعاتٌ منكرةٌ، تصف دون بوسكو بعصيان السلطات، والجنون، والهرطقة. وشكّك كهنةٌ بسلامة تعليمه المسيحيّ.

تلك المعاكسات المتكاثفة، المتراكمة، المستمرّة، كانت كفيلةً بهدّ صحّة أعتى العتاة. وهذا ما حلّ بدون بوسكو.

التعب ينال من صحّة دون بوسكو

في مطلع شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٨٤٥، حلّ التعب بأوصال دون بوسكو. ونصحه أصدقاؤه بقضاء بضعة أيّام نقاهةٍ في مسقط رأسه. فاستصحب سبعةً من الفتيان المستعدّين للرقاد في مخزن تبنِ بيتِ ذويه. ولكنّه انهار قبل بلوغه البيت، وحُمِل إلى فراشٍ داخل البيت، حيث غرق في نومٍ عميقٍ حتّى اليوم التالي. واستمرّ خَوَر قواه أربعة أيّامٍ، وضاعفه شوقٌ مضطرمٌ إلى زملائه الكهنة في "الملجأ". بيد أنّ صخب الفتيان الذين واكبوه وأغانيهم كانت له ترياقًا زوّده بشحنة همّةٍ، فسارع إلى تدبيج رسالةٍ إلى زميله دون بوريل جاء فيها: "اهتمامي الآن هو الغناء، والطعام، والنوم، والضحك، والجري...". ثمّ التمس من زميليه في الملجأ، الكاهنين بوريل وكافاسّو أن يزوراه، مؤكّدًا أنّ زيارتهما كفيلةٌ بشفائه. ولكنّه عجز عن متابعة الكتابة، فدوّن، بمشقّةٍ: "لقد أُسقط بيدي. وعجزت عن المتابعة... للرسالة صلةٌ". ولم يستطع توقيع الرسالة.

بعدئذٍ انتابته نوبة زحارٍ وإسهالٍ، حرمته القدرة على الحركة، وكان عليه التريّث، بضعة أيّامٍ، قبل تمكّنه من إقامة القدّاس اليوميّ، ولكن في ساعةٍ متأخّرةٍ.

لّما عاد إلى تورينو كان ما زال متعبًا، وشرع يبصق دمًا. فأطلع الأب بوريل على حاله المركيزة بارولو، التي كانت، حينذاك، في روما تتابع أمور تأسيس دير راهبات القدّيسة حنّة. فأوعزت إلى دون بوسكو وجوب الانقطاع التامّ عن كلّ عملٍ، حتّى استعادته كامل قواه، واعدةً باستمرارها في دفع راتبه كاملاً طوال فترة نقاهته. غير أنّه، مع وَهَنه، لم يستطع التخلّي عن الفتيان، الذين وجدوا فيه ملجأهم.

واستمرّ يرهق نفسه بمهمّاتٍ متعدّدةٍ يضطلع بها، في آنٍ واحدٍ. فإلى جانب الأوراتوار، ومئات الفتيان الذين تولّى أمر مصيرهم، كان مرشدًا روحيًّا للمستشفى الذي أسّسته المركيزة بارولو، للعناية بفتياتٍ صغيراتٍ تتراوح أعمارهنّ بين ثلاث سنواتٍ واثنتي عشرة سنةً.

وكان يساعد دون كافاسّو في زيارة السجون، وإرشاد المساجين، ويقدّم خدماتٍ لـ"*البيت الصغير*" الذي أسّسه جوزيف كتُّلِنْغو، ولمؤسّساتٍ تربويّةٍ مختلفةٍ في تورينو. وكان يعطي دروسًا مسائيّةً للأمّيّين، وللمحتاجين إلى مزيدٍ من التعليم. وفوق كلّ ذلك كان يراقب أوضاع فتيانه العمّال في مواقع عملهم.

وعادت المركيزة من روما، وهي شديدة القلق على صحّة دون بوسكو، فخيّرته، بحزمٍ بين فتيانه ونقاهةٍ حتميّةٍ، لا غنًى عنها. ووعدته بزيادة راتبه إذا شاء، ودعته إلى السفر حيثما يشاء، والاستراحة كلّ الوقت الذي يحتاج إليه، شهرًا أو شهرين، أو خمسة أشهرٍ. وعندما يستعيد عافيته، فليعدْ إلى "الملجأ"، الذي سيُرحّب به. أمّا إذا رفض عرضها، فستضطرّ إلى الاستغناء عن خدماته.

فأجابها أنّ الرسالة التي أوكلتها إليه السماء، هي حماية الشبيبة المهملة، وإنقاذها من الضياع، وهو ملتزمٌ بهذه الرسالة. وليس مستعدًّا لخيانتها. فلتُمهله ثلاثة أشهرٍ، وبعدها، فلتوكل خدمات مستشفاها الروحيّة إلى أيّ آخر، إذا شاءت.

وعاد يبحث عن مكانٍ، يستقرُّ فيه مع مئات الفتيان، الذين لم يعد لهم ملاذٌ سواه. ولمّا حلّ يوم الأحد الذي حُدِّد موعدًا لإخلاء الحقل قُبِض قلبه لمّا توافدت مواكب الفتيان المندفعين نشاطًا. ولكنّ إيمانه بالعناية الإلهيّة ظلّ صامدًا. وبعد استماعه إلى اعترافات الراغبين في الاعتراف، قال لهم: "هيّا بنا إلى مزار سيّدة الحقول، فإنّي بحاجةٍ إلى نعمةٍ ألتمسها منها، وأرجوكم مشاركتي في التماسها".

ومضوا إلى المزار القديم، وصلّوا بحرارةٍ، بعد أن لمسوا حاجة أبيهم الحارقة إلى نعمةٍ، لم يفصح عنها.

وعند الساعة الثانية عادوا إلى مسرح ألعابهم المعتاد، وهم غافلون عن المصيبة المحيقة بهم وبمرشدهم. وفي الموعد المألوف ألقى الكاهن الدرس الدينيّ، ورُتِّلت الأناشيد. ثمّ انطلقت الألعاب باندفاعٍ. وفي هذه الأثناء، كان دون بوسكو يتنـــزّه وحيدًا، حزينًا، مسحوق القلب، عند حواشي الحقل. وقد دوّن، لاحقًا، في مذكّراته: "فيما كنت أراقب هذا الحشد من الفتيان، متخيّلاً الحصاد الوفير الذي يعِدُ به عملي الكهنوتيّ، كان قلبي ينـــزف، كنتُ وحيدًا، بلا معينٍ، خائر القوى، حائرًا متسائلاً، أين يسعني جمع صغاري المساكين أولئك، كنت أجهد في إخفاء همّي. وربّما للمرّة الأولى أحسست بالدموع تملأ عينيّ، اللتين رفعتهما إلى السماء، وهتفت: "ربّاه، أرشدني إلى المكان الذي أقتادهم إليه الأحد القادم، أو قل لي ما عليّ أن أفعل!".

وكان لا بدّ أن يستجيب الله لهذه الصرخة الجريحة، التي مزجت الإيمان بالثقة والحبّ. وما كاد يطلق صرخته هذه حتّى دخل الحقل رجلٌ، ودنا منه وبادره بالسؤال: "هل صحيحٌ أنّك تبحث عن مكانٍ؟ إنّ لي صديقًا يدعى "ييناردي" (Pinardi)، يملك عنبرًا يودّ تأجيره. فهل ترغب في رؤيته؟".

وكان العنبر مَتبنًا واطئ السقف، مهترئًا، ومتداعيًا في أماكن عديدةٍ. ولكنّ الوسيط طمأنه: "لا عليك، فسنحفر تربة الأرضيّة، ونبلّطها وسنصلح السقف ونرفعه. وسيكون بمكنتك استخدام الفسحة المحيقة بالمكان. وكلّ ذلك بثلاث مئة فرنكٍ سنويًّا.

ودفعت ذكريات التجارب السابقة دون بوسكو إلى طرح سؤالٍ:

– وهل سيثبَّت ذلك بعقدٍ نظاميٍّ؟

– سيثبّت بعقدٍ نظاميٍّ، وسيكون كلّ شيءٍ جاهزًا يوم الأحد القادم.

وهُرع دون بوسكو إلى الحقل، حيث أضاءت الشمس الغاربة منظرًا مؤثّرًا. فلمّا زفّ الكاهن إلى الفتيان، بشرى أن بات لهم مكانٌ ثابتٌ، لن يقوى أحدٌ على طردهم منه، لم يستطيعوا كبح فرحهم. وأخذوا يرقصون وينشدون، ويهتفون لصديقهم، الذي دعاهم، في الحال، إلى تلاوة مسبحة شكرٍ.

أخيرًا رسا مشروعه على أرضٍ ثابتةٍ صلبةٍ، بعد سنةٍ ونصف سنةٍ من الترحال الموجع، والقلق الدائم، في بناء "پيناردي"، الذي ستنبثق من حوله، سنةً فسنةً، وعقدًا فعقدًا، المؤسّسة الساليزيّة الكبرى، التي روت تربتها دموع كاهنٍ متواضعٍ قدّيسٍ، بذل صحّته، وتضحياته في سبيل مؤسّسةٍ ناشئةٍ، إلى أن اشتدّت جوانحها، وطارت إلى بقاع المسكونة حيث ابتنت أعشاشًا.

صحيحٌ أنّ بناء پيناردي كان في ضواحي تورينو، في منطقة تدعى "ڤلدوكّو"، حيث سبق للقدّيس "كتُّلينغو" أن أنشأ مدينةً طبّيّةً، سمّاها "*البيت الصغير*"، ووصفها الدكتور ألكسي كاريل بأنّها "أكبر مشفًى لجميع الأمراض في العالم".

من قبلُ، كانت تلك المنطقة ملاذًا للمجرمين والقتلة، ومتنــزّهًا للمتسكّعين الماجنين، واحتفظت، طويلاً بشيءٍ من تلك السمعة المريعة. ولكن دون بوسكو، في إثر أخيه الأكبر جوزيف "كتّلِنغو"، حوّلاها موئلاً للمحبّة، ومشتلاً للفضيلة، ومعبدًا لتمجيد الله.

وكان هادي دون بوسكو إلى ذلك ودافعه، حلمٌ قرأ فيه على واجهة البناء، ما دوّنته يد العذراء: "هذا هو بيتي، ومنه سيشعّ مجدي".

وكان محيط بناء پيناردي، ذاته، غير مريحٍ. فإزاءه كان ملهًى غدا مرتعًا للرذيلة، وطاحون ضجيجٍ لا يصمت ليلاً ولا نهارًا. وإلى جانب البناء كان نزلٌ يستقطب، في نهاية كلّ أسبوعٍ، أرتالاً من طلاّب المتعة والسهر، والعربدة.

وتغاضى دون بوسكو عن تلك السيّئات والمنغّصات، مدعومًا بوعد السيّدة العذراء، واثقًا بتبدّل كلّ شيءٍ تدريجيًّا.

ظفر أوراتوار دون بوسكو بمكانٍ استقرّ فيه. ولكنّ هموم دون بوسكو الشخصيّة لم تنتهِ. فقد كانت المركيزة بارولو قد عيّنته مرشدًا معاونًا في مؤسّسة القدّيسة فيلومينا، براتبٍ وافٍ، فضلاً عن توفير السكن والطعام له. ولكنّ المركيزة كانت تقتضي، مقابل ذلك، أن يقف دون بوسكو كلّ جهوده، ووقته كلّه على رعاية فتيات مركزها، ولا يقتسمه مع أيّة فئةٍ أخرى. ولّما اتّضح لها أنّ وقته مشتركٌ بين مركزها وأوراتوارٍ يُعنى فيه بنحو أربع مئة فتًى، يشغلون كامل وقته أيّامَ الأحد، اقتحمت غرفته، ذات يومٍ، وقد ارتسمت على محيّاها معالم قرارٍ خطيرٍ، وقالت:

- "أبت العزيز، أنا شديدة الإعجاب بما تسديه من خيرٍ لنفوس فتياتي الصغيرات، في مركز القدّيسة فيلومينا. ولا غبار على ما تفعله فيه.

- لا تشكريني، فأنا لا أفعل سوى القيام بما أوكلتِه إليّ.

- هذا بالضبط ما أودّ الإشارة إليه. فأنا لا أرى كيف تستطيع الجمع بين هذه المهمّة، ورعاية مئات الأولاد الذين يشغلون كلّ وقتك، كلّ يوم أحدٍ.

- لا تقلقي، يا سيّدتي، فالربّ الذي أعانني على كلّ ذلك حتّى اليوم، لن يتوقّف عن إعانتي.

- ولكنّك، بذلك، تنتحر، يا أبت العزيز، وهذا ما لا أطيقه، لأنّ مشروعي هو الذي سيعاني من جرّاء ذلك. ولذلك جئتُ، ناصحةً.

- وما هي نصيحتك؟

- التخلّي عن مشروعي أو عن مشروعك. فكّر في الأمر، وبلّغني القرار الذي سيستقرّ عليه رأيك.

– لا يحتاج قراري إلى تفكيرٍ طويلٍ. فأنتِ، بفضل ثروتك ومركزك، تستطيعين بيُسرٍ، إيجاد لا كاهنٍ واحدٍ، بل عشرات الكهنة القادرين على احتلال مكاني. ولكن، إذا انكفأتُ، أنا، عن رعاية هؤلاء الصغار الفقراء المهملين، فلن يهتمّ بهم أحدٌ. والقرار لك.

– ولكن أين ستقيم، وبِمَ ستعيش؟

– هذا شأن العناية الإلهيّة.

– ولكنّ صحّتك تعاني، وحتّى عقلك متعبٌ، حسب ما قيل لي. فتعقّل. إذهب ونَل النقاهة التي تحتاج إليها سنةً، أو سنتين، أو ثلاث سنواتٍ، إذا اقتضى الأمر، ثمّ عُدْ إلى عملك في "الملجأ".

– هذا مستحيلٌ، يا سيّدتي. أكرّر قولي. إنّ حياتي بكاملها مكرّسةٌ لخدمة هؤلاء الصغار الفقراء. ولن يقوى أحدٌ أو شيءٌ على إبعادي عن الدرب الذي رسمه لي الربّ.

– أنت تفضّل مشرّديك على يتيماتي الصغيرات. اعتبر ذاتك، إذن، منذ الآن معفًى من عملك عندي. وسأسعى لاستبدالك بآخر".

بعد هذه العبارة القاطعة، أدارت المركيزة ظهرها، وأضحى دون بوسكو، أُسوةً بأبنائه، على الحضيض.

هذه المحنة القاسية حلّت بدون بوسكو، وهو في أسوأ حالاته الصحّيّة، وكانت المركيزة قد رأت، بوضوحٍ، أنّ نشاط ذلك الكاهن المحموم، مدى سنتين، قد انتهى به إلى مرحلة انهيارٍ تامٍّ. فتنقّله المستمرّ بمئات الفتيان من مركزٍ إلى آخر، وجَوْبه المدينة بحثًا عن عملٍ للعاطلين منهم عن العمل، وجلساته التي لا تنتهي في كرسيّ الاعتراف، وترحيبه بكلّ ضالٍّ، تائهٍ، مهملٍ، معرّضٍ لجميع المخاطر، وسعيه إلى

تثقيفهم، وتشغيلهم، وإطعامهم، وإكسائهم، وإيوائهم، وبحثه عن مصادر مالٍ لتغطية نفقاتهم. هذا، فضلاً عن خدماته الروحيّة لفتيات ملجأ المركيزة ورعايتهنّ، وخدماته لمركز كتُّلنغو. كلّ هذه الخدمات كان يؤدّيها بغيرةٍ، لا تعرف تحفّظًا أو حدودًا، فهدّت صحّته المتينة التي أمست عاجزة عن المقاومة، ووقع ضحيّة التهابٍ رئويٍّ حادٍّ، سبّب نفث دمٍ كثيفٍ.

حدث ذلك مساء أحدٍ مرهقٍ، إذ فيما كان عائدًا إلى منـــزله أُغمي عليه، فوقع أرضًا، واعترته حرارةٌ ما انفكّت تواصل ارتفاعها إلى أن أفضت به، خلال ثمانية أيّامٍ، إلى عتبة القبر.

يوم الأحد التالي هرع الأب بوريل، وأكبر الفتيان سنًّا، منتحبين انتحابًا وجيعًا، حاملين إليه الزاد الأخير، وفي اليوم التالي مُنح مسحة المحتضرين، بوجود أُمّه وأخيه.

وسرعان ما ذاعت هذه الأخبار الفاجعة، ناشرةً الهلع في قلوب عالَم دون بوسكو، واعترى كلاًّ من "أبنائه" خوفُ خسارة الأب، والمرشد، والمربّي، والصديق الأمثل، وسادهم حزنٌ يتعذّر وصفه. وتناوب كثيرون على مواكبة ساعاته الأخيرة، ولو دقيقةً واحدةً لكلٍّ منهم، عند سرير من كان لهم كلّ شيءٍ في الدنيا.

لقد نظّم أولئك الشبّان أروع مهرجان إيمانٍ، فتألّفت منهم أفواجٌ، تتناوب، ساعةً فساعةً، في مزار سيّدة العزاء. وكانت توسّلاتهم تبدأ في الصباح الباكر، وتتواصل حتّى ساعاتٍ متأخّرةٍ من الليل، وتتواصل في البيوت. وكثيرون منهم التزموا بصومٍ على الخبز والماء مدى أسابيع كاملةٍ، مع متابعة أعمالهم الشاقّة منذ مطلع النهار حتّى غروبه. ونذر بعضهم تلاوة المسبحة مدى شهرٍ كاملٍ، وآخرون مدى سنةٍ كاملةٍ. فاستجابت السماء لصلواتهم وتوسّلاتهم.

كان الموت يحبو نحو سريره، والصلوات المتصاعدة من قلوبٍ وجيعةٍ كثيرةٍ تطلق صرخة إيمانٍ واثقٍ، وأحرزت الصلاة النصر. وأقرّ الأطبّاء المذهولون أنّ الليلة التي توقّعوا أن تكون ليلته الأخيرة، كانت فجر حياةٍ جديدةٍ.

وكان الأب بوريل الساهر عليه قد همس في أذنه، في لحظةٍ حرجةٍ:

– "تقول كتبنا المقدّسة: في علّتك ادعُ الربّ وهو يشفيك...

وردّ دون بوسكو:

– فلندع مشيئة الله تتحقّق، يا صديقي.

– ردّد على الأقلّ: "يا ربّ، إذا شئت، اشفني". هذا ما أسأله منك، باسمي وباسم جميع أبنائك. هيّا ردّد هذه الكلمات معي".

وردّدها المحتضر. وهتف الأب بوريل ببهجةٍ:

– "إنّي، الآن، على يقينٍ بأنّك شفيت. فلم تكن تنقص سوى صلاتك".

وفي الواقع أعلن الأطبّاء، صباح اليوم التالي، اجتياز الأزمة، وهزيمة العلّة، ما لم تحدث مضاعفاتٌ.

ودوّن دون بوسكو، لاحقًا في مذكّراته: "كان ذلك مساء يوم سبت. وتوقّع الجميع أن تكون تلك الليلة هي ليلتي الأخيرة في هذه الدنيا. وهذا ما توقّعته، أنا نفسي، فقد كنت أفقد دمًا كثيرًا باستمرار. وأخذتني لحظة وَسَنٍ، فنمت، واستيقظت معافًى".

وأمضى صيف ١٨٤٦، مستعيدًا قواه في مسقط رأسه، عازفًا عن أيّ عملٍ مكتفيًا بالأكل، والنوم، والتنـــزّه على التلال، وملء رئتيه بالنسيم العليل النقيّ. ونصحه رئيس أساقفة تورينو، ودون كفاسّو، بتمديد مرحلة نقاهته مدّة سنةٍ كاملةٍ. ولكنّه عدّ هذه المدّة إسرافًا في هدر الوقت، وخيانةً لواجباته الأساسيّة.

ولكنّه وعد رؤساءه بالانقطاع عن التعريف والوعظ على امتداد سنتين، مع أنّه كان عالمًا بأنّه لن يقوى إلاّ على النكوث بوعده.

استكمل دون بوسكو، إذن، نقاهته في قرية ذويه "بيكّي". فهي المكان الوحيد القادر على انتشاله من الوهن الذي أوصلته إليه مِحَنُه المتلاحقة.

وفي نهاية شهر تشرين الأوّل (أكتوبر)، ومع أنّه لم يكن قد استرجع كامل قواه، ومع أنّ أطبّاءه نصحوه بمتابعة نقاهته، إلاّ أنّ شعوره بالنأي عن البائسين الذين لاذوا به كان أقوى من وَهَنه الجسديّ، فقرّر العودة إلى ڤلدوكّو، في مطلع تشرين الثاني (نوڤمبر).

بعد أن استغنت المركيزة عن خدماته في ميتمها، فقدَ دون بوسكو كلّ دخلٍ مادّيٍّ. غير أنّ مكان إقامته في ڤلدوكّو كان مؤمّنًا، إذ كان قد استأجر في الطبقة السفلى من بناء "پيناردي" أربع غرفٍ... اثنتين منها لسكنه وسكن أمّه، واثنتين من أجل تدريس الأطفال الفقراء. بحيث يكون في وسط أوراتواره.

ولكن بما أنّ الجوار كان مرتعًا للرذائل، ومسرحًا للضجيج، وكان من شأن سكن كاهنٍ، وحيدًا، في ذلك الجوّ الموبوء، مدعاةً لشتّى التأويلات والافتراءات، فقد نصحه كاهنٌ شيخٌ باستصحاب أمّه معه، إخراسًا للألسنة الخبيثة.

كانت أمّه، مرغريتا، قد تخطّت مرحلة الشباب، ونالت قسطًا وافيًا من التعب والهموم، وآن لها أن ترتاح في هدوء "بيكّي"، وبساطة عيشها، هناك. وها هي مدعوّةٌ إلى تحمّل ضجيج مئات الفتيان الفظّين، والتضحية بهناء العيش الهادئ، وسكينة الصباحات العطِرة، المضيئة، والصداقات البريئة، وعذوبة الحقول، من أجل الانغراس في تربةٍ غريبةٍ، والغوص في همومٍ لم تتوقّعها، قطّ. كانت تعلم أنّ المدينة كثيرة الاقتضاء، على نقيض الريف الذي يوفّر، مجّانًا، لساكنيه الخضراوات والثمار في مواسمها، والغلال والمؤونة التي تحمي من الجوع، في كلّ وقتٍ، ولا

سيّما أنّها كانت قد اعتادت التقشّف. وكانت أدرى الناس بتجرّد ابنها، وافتقاره إلى كلّ مالٍ. فانتشلت من خزانة ثيابها، ثوب عرسها، والأقمشة التي أُهديتها بالمناسبات، وباعتها، جامعةً بثمنها دُرَيهماتٍ كفيلةً بمواجهة نفقات الأيّام الأولى في تورينو. وأودعت في سلّةٍ، ألبسةً داخليّةً، وبقايا مؤونةٍ من بيتها، وأدوات المطبخ الأساسيّة، وكُتُب ابنها ودفاتره.

وصبيحة ١٨٤٦/١١/٣، انتهج دون بوسكو وأُمّه مسيرةً على الأقدام إلى تورينو، تستلزم اجتياز ثلاثين كيلومترًا. وفي الطريق صدفا كاهنًا مسنًّا، شقّت عليه رؤيتهما متعبَيْن، وقد كسا الغبار ثيابهما، ووجهيهما، فسألهما من أين هما آتيان، وما مقصدهما. وحزن الكاهن لاضطرارهما إلى هذه المسيرة المنهكة، الكفيلة بالقضاء على امرأةٍ مسنّةٍ، وكاهنٍ لم يتعافَ بعدُ من علّةٍ كادت تقضي على حياته. ولم يخفَ عليه أنّ فقرهما هو سبب عنائهما. وبحث في زوايا جيوبه، فلم يعثُر على فلسٍ. فخلع ساعة يده وأعطاها لدون بوسكو كي يبيعها، ويتدبّر أموره بثمنها. وهمس دون بوسكو في أُذن أمّه: "أترينَ كيف تهتمّ بنا العناية الإلهيّة؟".

كان الليل قد لفّ المدينة، عندما انتهيا إلى بناء پيناردي. وفي البناء وجدا غرفتين، كلٌّ منهما مؤثّثةٌ بسريرٍ مُزرٍ، ومنضدةٍ، وكرسيٍّ من قشٍّ. واختلس الأب من شرفة غرفته نظرةً إلى الشارع، فوقع بصره على ثلّةٍ من الفتيان الذين ما برحوا منذ أسابيع ينتظرون عودته. ولّما لمحوا ضوء شمعةٍ في إحدى الحجر انطلقت حناجرهم الفتيّة بأناشيد جذلى، وما لبث أن دوى انفجار فرحٍ مجنونٍ، بعودة الأب الطيّب، بعد غيابٍ بدا لهم دهرًا.

وجلس الأب على كرسيٍّ ليرتاح، فتكاتفت مناكب الأشدّاء من الفتيان على حمله واقتياده، في موكبٍ مهيبٍ، إلى الكاپيلاّ، وهم يبكون فرحًا، وينشدون شكرًا، ويجأرون بفرحهم. ولّما انتهى الأب إلى الهيكل خاطبهم قائلاً: "يا صغاري الأحبّاء،

أشكر لكم هذه المظاهرة المعبّرة عن محبّتكم، وكلّ صلواتكم التي أعادتني إلى الحياة. إنّي مدينٌ لكم بكوني هنا، ومن العدل أن أكرّس لكم كلّ الأيّام التي سيهبنيها الله. اعتمدوا عليّ، وساعدوني، أنتم، على خلاص نفوسكم". في هذه الأثناء كان الفتيان، دامعي العيون، والأب بوريل مجهشًا في البكاء، ودون بوسكو جاهدًا في كبت تأثّره.

كان دون بوسكو وأمّه قد وصلا إلى ڤلدوكّو، مساء يوم ١٨٤٦/١/٣. وعندما رأت الوالدة الغرفتين المعدّتين لسكنهما شبه عاريتين، قالت مازحةً: في بيتي بالقرية، كانت أمتعةٌ كثيرةٌ وكان عليّ أن أُنظّمها. وهنا سأكون مرتاحةً فليس لي ما أنظّمه". وبادرت فاستقدمت، من قريتها، مؤونةً من النبيذ، والذرة، والفاصولياء، والحنطة. وكان ابنها، من أجل مواجهة النفقات المعيشيّة الأولى، قد باع رقعة أرضٍ وكرمًا، وهما كلّ حصّته من إرث والده. واستقدمت أمّه جهاز عرسها الذي لم تستخدمه قطّ، وصنعت من بعضه، ألبسةً كهنوتيّةً، وحُلًى طقسيّةً، ثمّ باعت خواتمها، وقلاداتها، من أجل ابتياع زينةٍ للهيكل. وأولت الكاپيلاّ جُلّ عنايتها.

وسُرعان ما تبيّن دون بوسكو أنّ الحُجَر التي استؤجرت له لن تكفي لأداء رسالته، فاستأجر كامل بناء "پيناردي"، ما عدا القبو، حيث كان للمالك مصنع نشاءٍ، وعد بإخلائه، وضمّه إلى الإيجار في شهر آذار ١٨٤٧. وللمرّة الأولى حمل عقد إيجارٍ توقيع دون بوسكو.

ودأب دون بوسكو ودون بوريل على تنظيم الأوراتوار، وأقاما في الكاپيلاّ طقس درب الصليب؛ وبارك جرسها رئيس الأساقفة. وشرع دون بوسكو يُعدّ بنود نظام أوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ في ڤلدوكّو، فيما كانت ممارسات هذا النظام تنهج طريقها، وتترسّخ، يومًا فيومًا.

وفي أثناء غياب دون بوسكو بسبب مرضه، كان دون بوريل وثلّةٌ من التلاميذ القدامى قد تولّوا شؤون الأوراتوار، فاستطاعوا تقدير ما تقتضيه هذه المهمّة من صبرٍ وتضحياتٍ، للتمكّن من معايشةٍ حميمةٍ مع أولئك الفتيان الضاجّين، المزعجين، الصيّاحين، الذين، مع مودّتهم ووفائهم، يزخرون بالفظاظة، والوقاحة، والقذارة. وكانوا قد قيّموا ما تستلزم رعايتهم من التمرّس بالبسمة في وجه المسالمين والغضوبين، على السواء؛ ومن طوافٍ في المدينة، أيّامًا كاملةً، بحثًا، يمينًا ويسارًا عن عملٍ للعاطلين عن العمل، وعن معوناتٍ ممّن كانوا يتمنّون ضبط الفتيان التائهين درءًا لأخطارهم المحتملة، وخنقًا لبذور الثورة والفوضى.

وكان دون بوريل ورفاقه، أثناء غياب دون بوسكو قد نهضوا بمهمّات الكهنة المرهقة أيّام الآحاد، ملبّين احتياجات الجميع، دائمًا، وفي كلّ مكانٍ، وفي غاية المطاف، غالبًا ما كان حصادهم انتقاد المتحذلقين.

ومن جانبٍ آخر، رأى دون بوسكو أنّ كتاب التعليم المسيحيّ المستخدَم في رعايا تورينو كان معقّدًا، وعاجزًا عن إطلاع الصغار على جوهر التعليم المسيحيّ. فدأب على وضع كتابٍ موجزٍ لهذا التعليم، يتميّز بالبساطة والإحاطة بكلّ أُسس الدين المسيحيّ.

تطوّراتٌ في أوراتوار القدّيس فرانسوا السَاليزيّ

في شهر نيسان ١٨٤٧ حرّر پيناردي قبو بنائه الذي كان يستثمر فيه معمل نشاءٍ. وفي الثاني والعشرين من ذلك الشهر، تلقّت السلطات المدنيّة في تورينو طلبًا من دون بوريل ودون بوسكو، بافتتاح مدرسة أحدٍ في الأوراتوار. فقد كان عددٌ من المختلفين إلى الأوراتوار قد أبدوا رغبتهم في تعلّم الكتابة والقراءة، وتخصيص بضع ساعاتٍ، بعد ظهر كلّ يوم أحدٍ، لهذه الغاية. ورأى الكاهنان أنّ تحقيق رغبتهم هذه هو الوسيلة المثلى لانتشالهم من البطالة، وعواقبها الوخيمة. وقرّرا افتتاح "مدرسة محبّة" لهم. والتمسا من المسؤولين المدنيّين، ومختلف المؤسّسات تزويدهما بالمقاعد والمناضد التي استغنوا عنها، وأودعوها في المستودعات.

وكان قبو بناء پيناردي الذي أُخلي حديثًا هو المكان الذي أُقيمت فيه تلك المدرسة. وتمّ تلقين القراءة والكتابة من خلال كتاب التعليم الدينيّ المبسّط الذي وضعه دون بوسكو. ومن خلاله كان الطلاّب يُلقّنون الكتابة والقراءة، والتعليم الدينيّ، معًا، ويستذكرون ما تعلّموه أسبوعًا فأسبوعًا. وفي غضون ستّة أسابيع كان معظمهم قادرين على مطالعة الكتاب بمفردهم. وقد أُلحقت بهذه الدروس، تعاليم الحساب، والرسم، والموسيقى. وبذلك حوّل دون بوسكو التعليم المسيحيّ في ڤلدوكّو، إلى أكثر من مدرسةٍ إعداديّةٍ.

وكان دون بوسكو قد أسّس، داخل الأوراتوار، جمعيّة القدّيس لويس دي غونزاغ (Louis de Gonzague). ووافق رئيس أساقفة تورينو على نظام تلك الجمعيّة، يوم ١٨٤٧/٤/١٢. واستهدف دون بوسكو من تأسيس هذه الجمعيّة،

تقديم قدوةٍ للشبّان المتطلّعين إلى انتهاج حياةٍ روحيّةٍ ساميةٍ، زاهدةٍ بمتاع الدنيا، وبكلّ إغراءاتها من ثروةٍ، ومُتعٍ، والتزامٍ بالعفّة والزهد، والانقطاع للعبادة والصلاة، وممارسة جميع الفضائل التي جلّى في ميدانها القدّيس الشابّ "دي غونزاغ"، الذي بلغ أسمى قمم القداسة، في سنّ الثالثة والعشرين.

وكان دون بوسكو قد وضع مقاييس رفيعةً للراغبين في الانتساب إلى هذه الجمعيّة، ونصحهم باختبار ذواتهم مدى شهرٍ كاملٍ، للتيقُّن من قدرتهم على الصمود، والالتزام الوفيّ لكلّ مقتضيات النظام، وحينئذٍ فليمضوا قدُمًا في ما عزموا. أمّا إذا ارتابوا في قدرتهم على هذا الالتزام، فليُحجِموا عن الانتساب.

وقد أثبتت هذه الجمعيّة إحداثها تحسّنًا ملموسًا في المستوى الروحيّ لدى الذين التزموا بنظامها، والذين تراجعوا عقب شكّهم بقدرتهم على المثابرة في الوفاء لمقتضيات نظامها.

وقد سُجّلت الانتسابات الأولى لهذه الجمعيّة في ربيع عام ١٨٤٧. وترافقت هذه التسجيلات مع الاحتفال بتثبيت ٩٧ فتًى، في كاپيلاّ الأوراتوار، الذي قام به رئيس الأساقفة.

وكان لهذا الاحتفال المزدوج صدًى مدوٍّ في تورينو، أثار، مجدّدًا حسد خدّام الرعايا المجاورة، الذين ادّعوا، اعتباطًا وافتئاتًا، أنّ دون بوسكو يسلب منهم أبناء رعاياهم، الذين لم يسألوا عنهم، يومًا، والذين لم يطأوا قطّ، عتبة كنيسةٍ.

وفي الواقع أثبت هذا الحدث أنّ أوراتوار القدّيس فرنسوا السالزيّ قد أضحى، هو، رعيّة الشبيبة المهملة، وأنّه قد بات لهم موطنًا ومسكنًا.

وترسيخًا للحياة الروحيّة في ذلك الأوراتوار، وضع دون بوسكو كتيّباتٍ ترشد إلى ممارساتٍ روحيّةٍ، تدحض التعاليم "الجنسينيّة" المتزمّتة، وأعلن للشبيبة، في هذا السياق: "أودّ تلقينكم طريقة حياةٍ مسيحيّةٍ يسودها الفرح والبهجة، وخدمة الربّ بسرورٍ... يا أصدقائي، أحبّكم جميعكم، من أعماق قلبي. يكفي أنّكم فتيانٌ صغارٌ، كي أغمركم بحبّي. من المؤكّد أنّكم قد تجدون كتُبًا وضعها أناسٌ يفوقونني، إلى حدٍّ بعيدٍ، علمًا وفضيلةً، ولكن من الصعب أن تجدوا من يحبّكم، في المسيح، أكثر منّي". وقد أكّد في كتُبه أنّ الفرح هو صفة القدّيسين، والكآبة هي عمل الشيطان.

ويمكن القول إنّ ما مارسه، وما دعا إليه من خلال كتاباته، وتعليمه قد جعل منه "معلّم القداسة الشبابيّة".

وقد وجّه معظم جهوده، عام ١٨٤٧، صوب تنمية الحياة الروحيّة في أوراتواره، وفي كنيسته المتواضعة، حيث لا وجود إلاّ لهيكلٍ صغيرٍ تعلوه لوحةٌ للقدّيس فرنسوا الساليزيّ. وكان يساعده اللاهوتيّ بوريل، وجماعةٌ ممّن يقدّمون خدماتٍ عابرةً. ولكنّه، في الواقع، كان يتحمّل شخصيًّا، مجمل مسؤوليّة مشروعه، الذي استهدف، في ذلك العام، محو أُمّيّة الفتيان، وتثقيفهم الدينيّ.

واستمرّ تقاطر طلاّب محو الأُمّيّة، والتعلّم في تكاثرٍ مطّردٍ، حتّى ناهز عددهم أربع مئةٍ، ولم يكن لهم من مكانٍ للدراسة سوى الغرفتين الملصقتين بغرفتي سكن دون بوسكو وأُمّه. وظلّ دون بوسكو يترصّد خلوّ كلّ غرفةٍ في بناء بيناردي، فيهرع إلى استئجارها وتحويلها مدرسةً. وشيئًا فشيئًا غزت المدارس بناء بيناردي.

وبما أنّ دون بوسكو لم يكن بمفرده، قادراً على النهوض بهذه المهمّة المرهقة، والمتنامية باطّرادٍ، انتقى خيرة طلاّبه، وأكثرهم ذكاءً وفهمًا، ودرّبهم على مهمّة

التعليم، وجعل منهم معلّمين لرفاقهم. وبالمقابل، كان هو يتوسّع في تعليمهم اللغات الإيطاليّة، واللاتينيّة، والفرنسيّة، وقواعدها، وبذلك كان يعدّهم لتولّي مناصب هامّةٍ، أو لتعاطي أعمالٍ توفّر لهم عيشًا كريمًا. وكان، في الواقع، من خلال هذه المبادرة، يستنبت من مجموعة طلاّبه، عناصر قياديّةً كفيلةً بإدارة مؤسّسته الوليدة، وتوجيهها.

وقد برهن أولئك المعلّمون الجدد المرتَجلون عن قدرٍ من الكفاءة والمهارة أثار، في تورينو، ضجّةً حول النتائج الخارقة التي كانت تؤتيها الدروس المسائيّة، في مجال محو الأُمّيّة، ما استدعى تأليف لجنةٍ أكاديميّةٍ تستقصي الأمر عن كثبٍ، فطافت داخل مختلف الصفوف، وطرحت على الطلاّب، عشوائيًّا، أسئلةً حول الموادّ التي تعلّموها. واتّسمت أجوبة أُمّيي الأمس، بدقّةٍ ووضوحٍ أثارا دهشة اللجان الفاحصة، التي حرصت، بنتيجة هذا الامتحان، على منح هذا المشروع التعليميّ دعمًا ماليًّا قيمته ثلاث مئة فرنكٍ سنويًّا.

من الصعب تحديد أعداد الذين أعتقهم مشروع دون بوسكو من الأُمّيّة، في عام ١٨٤٧، وربّما تجاوز الستّ مئة فتًى. ولكنّ المؤكّد هو أنّ الطلاّب كادوا يختنقون من جرّاء ضيق مكان التدريس. ولم يكن من حلٍّ لهذه المعضلة سوى التوسّع أو التفرّع. وكانت إمكانيّة التوسّع محدودةً بمعدّل خلوّ الغرف المؤجّرة من مستأجريها. ولم يكن بدٌّ من التفرّع. ولا سيّما أنّ هذا الحلّ كان يؤتي جملةً من الفوائد؛ فهو يخفّف من ازدحام صفوف ڤلدوكّو، ويريح الفتيان القادمين، كلّ يومٍ، من أطراف المدينة من تعب المشوار، ومن مخاطر التجوّل ليلاً، ومن تقلّبات الطقس، ومن جانبٍ آخر كان يتيح لفتيان أحياءٍ أخرى محرومةٍ الاستفادة من محو أُمّيّتهم.

وبالتالي افتتح مركزَيْ رعايةٍ أحدهما على بعد خطواتٍ من محطّة القطار الرئيسة على اسم القدّيس لويس، والثاني في منطقةٍ أُخرى، على اسم "الملاك الحارس".

قبل افتتاحه هذين المركزين، جمع طلاّبه في ڤلدوكّو، وقال لهم:

"عندما تضيق خليّة نحلٍ بساكنيها، تهاجر كي تملأ خليّةً أخرى، وهذا هو ما يحدث معنا. هكذا نحن فقد كثرنا هنا، وأصبحنا بعضنا فوق بعضٍ في قاعات الدرس، وفي ساحات اللعب. وفي الكاپيلاّ نحن مكدّسون مثل السردين في علبةٍ. ولم نعد نستطيع التحرّك. فلنتمثّل بالنحل، ولنكوّن خليّاتٍ جديدةً، ومراكز رعايةٍ أخرى".

معـاناة مرغريتا بوسـكو وشـراء بنَاء پينارديّ

كم كان على مرغريتا بوسكو أن تعاني من جرّاء صخب الفتيان، واندفاعهم الفوضويّ، وتغاضي ابنها الكاهن عن كلّ الأضرار المادّيّة التي يحدثونها!

فهي عملاً بتربيتها الريفيّة، كانت قد حجزت لنفسها رقعة تربةٍ في الفسحة الممتدّة أمام البيت، وجعلت منها حديقةً تستنبت فيها مختلف الخضراوات والتوابل التي تُغني بها الحساء اليوميّ، وتُكمل بها وجبات الطعام، وسهرت عليها شهورًا، وأنفقت كنوز صبرها. وذات يومٍ، في غمرة منافسةٍ رياضيّةٍ حاميةٍ بين فريقين من الفتيان، أُتلفت الحديقة بأكملها تحت أقدامهم. وهي كانت تراقب الكارثة، من شرفة غرفتها، دامعة العينين، كسيرةَ القلب، وقالت لابنها، بصوتٍ مرتجفٍ يقطر حزنًا: "أرأيت، لقد دُمِّرت حديقتي تدميرًا كلّيًّا!". وردّ عليها دون بوسكو: "ما عساني أن أفعل يا أُمّي؟ إنّهم فتيانٌ صغارٌ".

ومع ذلك، كان يداعب في ذهنه، مشروع إنشاء مركزٍ لاستضافة فتيان مفتقرين إلى سقفٍ يرقدون تحته، وعمّالٍ موسميّين. وذات ليلةٍ، إذ كان عائدًا من زيارة مرضى، اعترضته زمرةٌ من فتيانٍ قطّاع طرقاتٍ، استرسلوا في السخريّة به، وبثوبه الكهنوتيّ، وأمطروه بوابلٍ من الشتيمة، والتجديف. ولكنّه واجههم بالمحبّة والعذوبة، ولفت نظرهم إلى أنّهم عندما يسخرون به وبثوبه، ويشتمونه ويجدّفون، فإنّهم يهينون الله الذي يحبّهم. ورغبةً في اجتذابهم إليه، وإلى تعليمه، دعاهم إلى نزلٍ قريبٍ، قدّم لهم جرعاتٍ من النبيذ. وتابع حواره معهم، ولمّا هدّأ روعهم، وتظاهروا هم بالندم عمّا بدَر منهم من قحةٍ وإسفافٍ، استنـــزع منهم وعدًا بالإقلاع عن التجديف كما فعلوا لمّا رأوه، فذاك هو أمرٌ بشعٌ يستنكره الله،

ويستنـــزل عقابه. فوعدوه بتنفيذ رغبته. ودعمًا للصداقة المستجدّة الناشئة بينهم، دعاهم للعودة إليه، في مقرّه القريب يوم الأحد، ودلّهم عليه كي يلتقوا برفاقٍ يتأهّبون للعيش باستقامةٍ وكرامةٍ. وتمنّى لهم عودةً آمنةً إلى منازلهم، ونومًا هنيئًا. ولكنّ معظمهم اعترفوا أنّ لا منازل لهم، ولا مكانَ يرقدون فيه. فمنهم من يدفع دُرَيهماتٍ لقاء استخدام رقعةٍ صغيرةٍ من الأرض يقضي فوقها ليلته، وسط حشدٍ من أمثاله المشرّدين، ومنهم من يتطفّل على صديقٍ، ويقتحم غرفة نومه...

وحينئذٍ لم يستمع الكاهن إلاّ إلى همس قلبه، فدعاهم إلى مرافقته إلى ڤلدوكّو، حيث كان تلكّؤه في العودة قد أشعل نيران قلق أُمّه. وأصعدهم إلى مستودع تبنٍ تحت سقف البناء، ما زال بعض قشٍّ يفرش أرضيّته، وزوّد كلاًّ منهم بحرامٍ، وغطاءٍ، ووسادةٍ، وإثر صلاةٍ وجيزةٍ تمنّى لهم ليلةً سعيدةً.

وصباح اليوم التالي، باكرًا، وما زال قلب الكاهن منتشيًا بفرحة إيواء مشرّدين، ناداهم كي ينهضوا ويمضوا إلى أعمالهم، ولم يلقَ جوابًا. وأعاد النداء مثنًى، وثلاثًا، ولم يسمع منهم جوابًا ولا حركةً. فصعد إلى المتبن كي يوقظهم ويتمنّى لهم يومًا طيّبًا، فإذ بالعصافير قد طارت خلسةً قبل الفجر، مستصحبةً الأحرمة، والأغطية، والوسادات.

وشقّت على مرغريتا بوسكو سرقة أمتعةٍ كانت قد جمعتها استعطاءً، أو دفعت ثمنها تقتيرًا وتضحياتٍ، وكانت شديدة الحرص عليها، لأنّها كانت أدوات إسعافٍ للمشرّدين الفقراء. ونصحت ابنها بأن يكون أشدّ حرصًا وحيطةً. أمّا حزن ابنها فكان ناجمًا عن فشله في استجلاب أولئك الأوغاد إلى أورتواره حيث قد يجدون الخلاص.

غير أنّ تلك الصدمة، لم تثبّط عزيمته، ولم تغلق قلبه دون العطف الإنجيليّ، ولم تثنِهِ عن تأسيس مأوًى للمشرّدين.

فلم تمضِ أيّامٌ معدوداتٌ، حتّى قرع بابه، ليلاً، عامل بناءٍ مبتدئٌ، يتيمٌ صغيرٌ، في نحو الخمسة عشر ربيعًا، لا والدين له ولا مسكن، كان قد قصد المدينة، بحثًا عن عملٍ، وأنفق الليرات الضئيلة التي جاء بها من قريته قبل أن يجد عملاً. وهبط الليل، وهطل المطر مدرارًا، وهو لا مأوى له، ولا كسرة خبزٍ، يسكت بها جوعه. فرحّب الكاهن به، وسارعت الماما مرغريتا إلى إشعال نارٍ جفّفت ثياب الفتى، وأدفأت جسده المقرور، وقدّمت له حساءً ملأ معدته الخاوية، وأعادت له قواه. ثمّ، بهدي تجربتها السابقة، ومنعًا لتكرار كارثة سرقة أدوات ضيافتها، أقامت له مرقدًا في مطبخها، ألّفته من صفّ آجرّاتٍ متناسقةٍ، ووضعت فوقها ألواحًا خشبيّةً، وطبقةً كثيفةً من القشّ، بمثابة سريرٍ مرتجَلٍ، وأسبلت فوقه غطاءً، وفراشًا ووسادةً. وفيما كانت تلفّ الفتى بحرامٍ، همست في أذنيه كلمات عطفٍ، داعيةً إيّاه إلى الاتّكال على الله، وإلى الاستقامة في الحياة. ومنذئذٍ أمست هذه الهمسات الرقيقة التي تمهّد للنوم، والنابعة من قلبٍ أموميٍّ عطوفٍ، هي أحد أُسس التربية الساليزيّة.

وفي صباح اليوم التالي، كان همّ دون بوسكو الأوّل هو إيجاد عملٍ لذلك اليتيم، لدى صاحب ورشة بناءٍ. ومنذئذٍ غدا الفتى يعمل، نهارًا، ويتناول طعامه على مائدة الكاهن وأمّه، وفي منـــزلهما يجد الدفء والمحبّة. وغدا هو طليعة نزلاء المأوى الذي طالما حلم به دون بوسكو. ومن أجله وأجل أمثاله، كان يستأجر كلّ غرفةٍ تخلو في بناء پيناردي. وما عتّم أن قدم نزيلٌ ثانٍ، فثالثٌ، وسرعان ما ارتقى عددهم إلى سبعةٍ.

وخلال شهر حزيران صدف دون بوسكو صبيًّا في نحو الثانية عشرة، وقد أسند رأسه على جذع شجرةٍ، وأطلق العنان لدموعه الحرّى المسكوبة بغزارةٍ. فدنا منه، واستفسره عن سبب حزنه، فعلم أنّه لم يعرف له أبًا، قطّ، وأنّ والدته ماتت ودفنت في الأمس، فطرده صاحب البيت، واستولى على كلّ أثاث البيت تسديدًا

لأجر شهرٍ واحدٍ. واكتفى دون بوسكو بهذا القدر من البوح، واستصحب الفتى، وأوكله إلى أمّه، طالبًا منها اعتباره هديّةً من السماء. وسرّع إعداد صالة نومٍ ستتّسع، خلال سنةٍ، إلى نحو اثني عشر نزيلاً. وكانت مرغريتا بوسكو توفّر لضيوفها المساكين هؤلاء، حرارة حضورٍ أموميٍّ وأمانٍ. فكانت تغسل ثيابهم، وترفوها، وتستبدلها، عند الحاجة بثيابٍ جديدةٍ، وتسهر على طعامهم وصحّتهم. وكانت تزوّد كلاًّ منهم بتوصيةٍ قبل تقبيله قبلة الليل. وكان الفتيان يرتاحون إلى تلك اللفتة، حتّى غدت "كلمة" مرغريتا المسائيّة طقسًا لا يستغنون عنه. فقد كانت لأحزانهم السلوى والعزاء، وهي كانت تُهديهم، خلسةً، حلوى وفاكهةً، ولقمةً يستطيبونها. وكانت تؤنّبهم على كلّ سلوكٍ ذميمٍ، وتبيّن لهم عواقبه الوخيمة على ذواتهم وعلى الآخرين، وما يسبّبه لها ولابنها الذي يهلك نفسه من أجلهم، ولله الذي لا يخفى عنه أمرٌ.

لم يُطِق سائر المستأجرين في بناء پيناردي احتمال صخب مئات الأولاد. ولكنّهم لم يستطيعوا إبعادهم، فنأوا تلقائيًّا، الواحد تلو الآخر، وكان دون بوسكو يسارع إلى استئجار كلّ غرفةٍ تخلو من أجل إيواء المزيد من المشرّدين، وطالبي العلم في أوراتواره.

شراء بناء پيناردي بأكمله

اتّضح لدون بوسكو أنّ مُضيّه قدُمًا في مشروعه بإيواء المشرّدين يستلزم شراء بناء پيناردي بأكمله. وقد تمّ ذلك، عام ١٨٥١، ببساطةٍ وسهولةٍ غير متوقَّعَيْن. فحتّئذٍ، كان مالك البناء يقتضي، ثمَنه، لا أقلّ من ثمانين ألف فرنكٍ، وهو مبلغٌ مُبالَغٌ فيه إلى حدٍّ بعيدٍ.

واتّفق أن صدَف پيناردي، المالك، دون بوسكو، ذات يومٍ فمازحه سائلاً:

"– ألا يرغب دون بوسكو في شراء هذا البناء؟"

وأجاب الكاهن:

« – سيشتريه دون بوسكو، عندما يرتضي السيّد پيناردي بيعه بسعرٍ معقولٍ.

– أنا قلت ثمانين ألفًا.

– لننسَ الموضوع، إذن.

– كم تعرض؟

– الخبراء يقيّمون ثمنه بين ستّةٍ وعشرين وثمانيةٍ وعشرين ألفًا. وأنا أعرض ثلاثين ألفًا.

– وهل ستهدي زوجتي خمس مئة فرنكٍ، ثمن حليةٍ لشعرها؟

– سأقدّم هذه الهديّة.

– وهل ستدفع نقدًا؟

– سأدفع نقدًا.

– وهل تقبل غرامة مئة ألفٍ على مَن يتراجع؟

– أقبل ».

وتصافح الرجلان تثبيتًا للصفقة.

مؤكّدٌ أنّ دون بوسكو، لم يكن يملك فلسًا واحدًا، من المبالغ التي التزم بها. ولكن، في الأُمور المتعلّقة بإيواء أولادٍ مشرّدين، كان يولي العناية الإلهيّة ثقةً مطلقةً، في حين كانت ثقة والدته أقلّ جرأةً، فانتابها القلق على طريقة تسديد ابنها لكلّ تلك المبالغ. وسألته:

« – من أين ستأتي بالمال؟

– لو كان عندك مالٌ، أما كنت تعطينيه، يا أمّي؟

– من المؤكّد أنّني سأعطيك.

– وهل الربّ، مع كلّ غناه، أقلُّ سخاءً منك؟ ».

في الواقع سُدِّد كامل مبلغ البناء في غضون أقلّ من أسبوعٍ. فقد جاءه دون كافاسّو بعشرة آلافٍ تقدمةً من كونتيسّةٍ، وفي اليوم التالي جاءه كاهنٌ آخر بعشرين ألفًا، كان قد كُلِّف بمنحها لعملٍ خيريٍّ، ولم يجد خيرًا من هذا التوظيف لذلك المبلغ. وتبرّع مصرفيٌّ بثلاثة آلافٍ من أجل نفقات التسجيل، وبهديّة زوجة پيناردي. ويوم ١٨٥١/٢/١٩، أصبح بناء پيناردي بأكمله، ملك الساليزيّين.

وكان ذلك البناء حبّة الخردل التي انبثقت منها شجرةٌ وارفة الظلال.

وسرعان ما التمّ في ذلك البيت المتواضع عالمٌ من العمّال الصغار، الذين ارتقى عددهم إلى ثلاثين فتًى، وتولّى دون بوسكو وأُمّه إيواءهم وإطعامهم، وإكساءهم. وكان على الكاهن أن يجد لهم عملاً، ويضمن حقوقهم. وكان أولئك العمّال الصغار يحضرون القدّاس كلّ صباحٍ، ثمّ يتناولون إفطارًا سريعًا، أو يأخذونه معهم، ويمضون إلى المصانع أو الورشات التي يعملون فيها. ويعودون، ظهرًا، مشحوذي الشهيّة، فيجدون الأب متوشّحًا مئزرًا، وقد أعدّ لهم غداءً يُمدّهم بالطاقة.

وكان كلٌّ منهم يجلس حيثما يتسنّى له الجلوس، من أجل تناول غدائه، فهذا على درجة سلّمٍ، وذاك على عمودٍ خشبيٍّ ملقًى على الأرض، وآخر عند عتبة المطبخ، وآخرون عند نبع الماء. ودون بوسكو يطوف بهم، مؤتزرًا، وقصعة الطعام بيده يتصاعد منها البخار، ومعها مغرفةٌ يسكب بها المزيد لكلّ مستزيدٍ.

وعند الفراغ من الطعام كان كلٌّ منهم يغسل صحنه ويعيده إلى مكانه في المطبخ، ويغسل الملعقة، ويحتفظ بها في جيبه، من أجل وجبةٍ أُخرى.

وقبل عودة الفتيان إلى عملهم كان دون بوسكو يمنح كلّ من كان لديه شهيّةٌ إلى مزيدٍ من الطعام، دُريهماتٍ تمكّنه من ابتياع ما يطيب له.

وبالإجمال كان يسود ذلك البيت جوٌّ من سعادة الأُسرة المترابطة، سعادةٍ بسيطةٍ، لا تعقيد فيها، ولا رسميّات. جوٌّ عذبٌ، رائعٌ يغمره التفاهم، وتوافق القلوب.

وقد جهد دون بوسكو في الحفاظ على هذا الطابع العائليّ الحميم، في جميع مؤسّساته التربويّة.

وأقرّ الذين لقوا ملجأً في ذلك البيت، أنّهم افتقروا إلى الرفاه، ولكنّ سعادتهم كانت كاملةً، لا تعكّر سماءها سحابةٌ.

وإثر مغادرة الفتيان، وإعادة كلّ شيءٍ إلى مكانه، كانت مرغريتا بوسكو تجلس قرب نافذة غرفتها، وغالبًا ما يجلس ابنها إلى جانبها لحظاتٍ، فترفو الثياب الممزّقة وتخيط ما يحتاج إلى خياطة. وغالبًا ما كانت تقضي نصف نهارها في غسل ثياب الأولاد، وفي كيّ ما يحتاج إلى كيٍّ.

لمّا كانت مرغريتا في الثلاثين من عمرها، لم يكن عليها الاهتمام إلاّ بثلاثة أطفالٍ. وها هي في الستّين، مكلّفةٌ بعشراتٍ، بل بمئات الأولاد، المحتاجين، دائمًا، إلى طعامٍ كافٍ، وثيابٍ لائقةٍ نظيفةٍ، ومع ذلك لا تتفوّه بلفظة تذمّرٍ، سوى شكواها، أحيانًا، من عجزها، وحدَها، عن القيام بتلك الأعباء المتزايدة باستمرارٍ.

غير أنّ صبرها كان ينضب، وكانت تضيق ذرعًا بكلّ شيءٍ، عندما كان الفتيان الذين تنفق عمرها في العناية بهم، يبادلونها إساءاتٍ وخيباتٍ، عن قصدٍ خبيثٍ، أو عن تربيةٍ سيّئةٍ، وانعدام شعورٍ بالمسؤوليّة. فهي، تارةً، كانت تجد الثياب التي قضت ساعاتٍ في غسلها، وكيّها وترقيعها، وتجفيفها، مرميّةً أرضًا، مُداسةً بالأقدام. وطورًا كانت تجد حديقة خضراواتها مدمّرةً بالكامل. وكان بعض الفتيان يأتونها بثيابهم النظيفة ملطّخةً بالوحل والأقذار، أو ممزّقةً شرّ تمزيق، أو مُخفاةً عن قصدٍ. ومنهم من كانوا يأخذون قدور طهوها كي يلهوا بها، ويعيدونها مهشّمةً، مشوّهةً. فكانت، بعد طول صبرٍ، تفيض كلّ غيظها، دفعةً واحدةً، وتعلن عن عدم قدرتها على المزيد من الاحتمال، متمنّيةً العودة إلى بيتها الوضيع في "بيكّي"، كي تقضي أيّامها الأخيرة بهدوءٍ وسكونٍ. وحينئذٍ كان ابنها الكاهن يكتفي بدعوتها للتحديق إلى الصليب، وهو ممسكٌ بيدها. فتمتلئ عيناها دموعًا، وتقول له: "أنت على حقٍّ!". وتعود إلى مطبخها، وإبرتها، ومكواتها.

مشاريع بناءٍ جديدةٌ

لم يعهد دون بوسكو للهدنة معنًى، ولا للراحة طعمًا. ففيما كان ما برح يعالج عواقب ملجأ المشرّدين، انبرى لمشروعٍ جديدٍ.

فقد كان يتحرّق رغبةً في تشييد كنيسةٍ لائقةٍ بأوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ، إذ إنّ الكنيسة التي كانت قد ارتُجلت في العنبر، لأربع سنواتٍ خلت كانت موغلةً في الضيق، ويكاد المصلّون يختنقون فيها، ويُضطرّون، بين فينة وأُخرى، إلى الخروج منها من أجل استنشاق نسمة هواءٍ، فضلاً عن أنّ أرضيّتها كانت أوطأ من أرض الخارج، فكانت تمتلئ ماءً في الشتاء، فيغوص المصلّون في الرطوبة، وكانت رؤوس بعض المصلّين تصطدم بالسقف المائل. هذا فضلاً عن خلوّ جوار المعبد من فسحةٍ لتطوافات تقتضيها بعض الأعياد.

وكان لا بدّ من بناء كنيسةٍ جديدةٍ مشرعةٍ للهواء والشمس، جافّة الأرضيّة، تتيح التنفّس بملء الرئتين، وإظهار متعة الطقوس الكنسيّة. وجريًا على عادته، لم يتلكّأ دون بوسكو في تحقيق ما رآه ضروريًّا. ويوم ١٨٥١/٧/٢١، بورك حجر أساس تلك الكنيسة، وانطلقت الأعمال بسرعةٍ فائقةٍ، بفضل سخاء القصر الملكيّ، والتبرّعات السخيّة، وإصدارات اليانصيب المتكرّرة التي كان ينظّمها دون بوسكو. وانتهى بناؤها في شهر حزيران ١٨٥٢، أي في غضون أقلّ من سنةٍ، رغم الجوّ السياسيّ العامّ المناهض للكنيسة، والذي كان قد أفضى إلى نفي رئيس أساقفة تورينو إلى مدينة ليون الفرنسيّة.

وما إن فرغ دون بوسكو من إيجاد مسكنٍ لائقٍ بالله، حسب قوله، حتّى التفت إلى تزويد نزلائه بمسكنٍ لائقٍ، أيضًا. فعكف على إعادة بناء بيت پيناردي، الذي

كان ضيّقًا، وغير ملائمٍ لاستخدامٍ جماعيٍّ، في حين كان الكاهن يضجّ رغبةً في تأهيله لاستيعاب العديد من الفتيان، الذين كانوا يختلفون إلى مدارسه وإلى أوراتواره. فقد كان منهم أيتامٌ ضحايا شارعٍ فاسدٍ، أو أهلٍ مجرمين. وكان همُّ جميعهم يمزّق قلبه وهو يراهم مساء كلّ يوم أحدٍ، ماضين إلى مصيرهم المجهول. فتضطرم نفسه رغبةً في إيجاد ملاذٍ آمنٍ لهم. وكان دائم التطلّع إلى زيادة أماكن لإيوائهم.

وقد باشر بإعادة إعمار بيتٍ ملاصقٍ لبناء پيناردي، ولكنّه، في تسرّعه، وتسابقه المحموم مع الوقت، تغاضى عن استخدام أفضل موادّ البناء، وأهمل منحَ مهلةٍ كافيةٍ للبناء كي يرتاح ويتماسك، ويجفّ. فحصد عواقب تسرّعه، وتهاونه في تدابير الحيطة الأساسيّة. ففي ليلة الثاني إلى الثالث من كانون الأوّل، وبفعل هطول أمطارٍ غزيرةٍ، على امتداد ثمانية أيّامٍ متعاقبةٍ، انهار البناء بأكمله، وكان لهبوطه دويٌّ أرعب دون بوسكو ونزلاءه الثلاثين الصغار الراقدين.

وكانت مرغريتا بوسكو طليعة الهارعين إلى مكان الكارثة، خشية وجود ضحايا بشريّةٍ – ربّما بين العمّال – وحمدت الله بانحصار الكارثة في البناء.

وكان لا بدّ من إعادة البناء على أُسُسٍ سليمةٍ، ومراعاة كلّ مقتضيات البناء الآمن، ومن التريّث حتّى ربيع العام التالي. ولّما انتهى العمل في شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٨٥٣، استوعب البناء الجديد خمسة وستّين نزيلاً. وقرّر دون بوسكو مدّ البناء، يسارًا. وفي خريف عام ١٨٥٦ أنزل معول الدمار بما تبقّى من البناء القديم، وأشاد مكانه بناءً التحم بالبناء المشاد حديثًا، وبطاقة استيعابٍ مماثلةٍ.

ولكنّ هذا البناء، أيضًا، تعرّض لكارثةٍ، نتجت عن طيش عاملٍ أوقع عمودًا على السقف الأخير الذي كان ما زال رطبًا، فانهار، وأوقع تساقط ركامه كلّ

الأسقف من تحته. غير أنّ الجدران ظلّت صامدةً. ولكأنّ قوى الشرّ قد تكاتفت على الفتّ من عضد دون بوسكو، وبثّ الإحباط واليأس في نفسه. وفي شتاء العام التالي استوعب البناء الجديد المكتمل مئةً وخمسين فتًى متشرّدًا.

وكان هؤلاء الفتيان يضمّون فئتين متميّزتين. فمنهم فئة العمّال والبنّائين المتمرّنين الذين يمضون كلّ صباحٍ إلى المصانع أو إلى ورشات البناء، مزوّدين بإفطارٍ وببضع دُرَيْهماتٍ تمكّنهم من ابتياع ما يشبع معدهم الفتيّة، يجود بها عليهم صديقهم دون بوسكو. والفئة الثانية كانت فئة الطلاّب. فقد كان دون بوسكو ينتقي من القادمين أفرادًا رقيقين، ومنهم أبناء أُسَرٍ كانت ميسورةً، وحطّمتها الحروب والاضطهادات، ومنهم أصحاب طبيعةٍ هشّةٍ تشتعل فيها أذهانٌ يقظةٌ، طامحةٌ إلى التعلّم، ومفتقرةٌ إلى المال، مثلما كان هو في صغره. وهؤلاء هم، غالبًا من الهشاشة بحيث لا يصلحون لا لصراع الشوارع ولا لأعمال مليَسة البناء، ولا للوقوف المتمادي أمام الآلات. ولكنّهم منفتحو الأذهان، ويحتاجون إلى المزيد من التعليم الثانويّ، ومن امتلاك اللغة اللاتينيّة، كي يتأهّلوا للظفر بوظائف عليا، أو لكي يصبحوا معلّمين لسائر نزلاء المركز، ومساعدين له. ومنهم من سيكرّس نفسه لخدمة الربّ بالكهنوت. فافتتح لهم دورة تعليم ثانويٍّ عالٍ. واستعان بأصدقاء له في تورينو، متمرّسين في التعليم الثانويّ، وفي تعليم اللغة اللاتينيّة، وارتضوا أن يضمّوا تلاميذه إلى تلاميذهم. ومن أبرز هؤلاء، أقدمُ الساليزيّين الذين أمسوا قاعدة جمعيّته، وكانوا له خير عونٍ في حياته، وخيرَ خلفٍ له من بعده، نذكر منهم الذي أضحى الكردينال "كاليرو" (Cagliero)، ودون "روا" (Rua) أوّل رئيسٍ للجمعيّة الساليزيّة، بعد دون بوسكو.

وشيئًا فشيئًا تحوّل ملجأ الفتيان المشرّدين إلى مدرسةٍ داخليّةٍ تعجّ بالنشاطات والكفاءات.

وبُغيةَ تحصين نزلائه من تأثير رفاق السوء، الذين قد يصدفونهم خارج الملجأ، ومن الدعاوات الموبوءة والوبيلة، المنتشرة في الشوارع، والمجلاّت والمنشورات اللاأخلاقيّة؛ وسدّ الحاجة إلى إكساء طلاّبه، افتتح عام ١٨٥٣ مصانع أحذيةٍ، ومحترفات تفصيلٍ وخياطةٍ، في أروقة بناء پيناردي القديم. ثمّ، بعد سنتين أنشأ في الأبنية الجديدة محترفات نجارةٍ، وتجليد كتبٍ. ولاحقًا، بدافع الرسالة ونشر كلمة الخلاص ورسالة الإنجيل، أنشأ مطبعةً.

وبما أنّ أعمال البناء المطّردة وفّرت كمّيّاتٍ كبيرةً من بقايا الحديد، فقد أنشأ معملاً للحدادة، ولصنع أقفال ومفاتيح. ومع كرّ الأيّام، أكمل مجموعة مصانع، كان يتعلّم فيها الفتيان مِهنًا، تقيهم غائلات الزمن، وتؤمّن لهم العمل الكريم.

والذين كانوا يتابعون دروسًا ثانويّةً في المدينة، كانوا يعودون في الخريف، ويتولّون تدريس الآخرين، وينهض من صفوفهم قادةٌ، ويكتمل بنيان البيت الساليزيّ، على يدي كاهنٍ يمتلك حسن التنظيم، والتوافق مع المقتضيات الطارئة. وللذين كانوا يدهشون من تعدّد منجزاته كان يبيّن: "لقد انقدتُ لمقتضيات الأحوال".

فدون بوسكو الواقعيّ كان يستلهم – بعد الله – الظروف التي كان يجتازها، والوسائل المتوفّرة بين يديه، وهبوب الرياح المؤاتية. وكان المربّي، ورجل الأعمال الثاوي فيه يأمر الظروف، ويطوّع الأحوال والبشر لأحلامه الزاخرة محبّةً، ورغبةً في الخدمة.

ولّما اكتمل بيت أحلامه، وتوفّرت الإرادات الطيّبة، والأيادي السمحاء، تطوّعت للمساعدة سيّداتٌ مسيحيّاتٌ متينات البنية، سخيّات القلوب، اقتفينَ أثر السيّدة مرغريتا بوسكو، وحذَونَ حذوَها، وألّفنَ مجموعةً منهنّ للاهتمام بثياب شعب دون بوسكو، وبطعامه، مستعيناتٍ على الفقر وضيق ذات اليد بسهر العناية الإلهية.

وفاة مرغريتا بوسكو

يمكن القول عن علاقة مرغريتا بابنها الكاهن: "في البدء كانت الأُمّ". فهي، في صباها، كانت تقسم وقتها بين الكنيسة والحقل أو أعمال المنـــزل، وكانت الكنيسة تجتذبها أكثر من أيّ مكانٍ آخر. وكانت تُخضِع كلّ عملٍ تقوم به لمشيئة الله، ولا تصغي إلاّ إلى صوت ضميرها، وتجهر بإيمانها بلا تردّدٍ، ولاخجلٍ.

وهي التي لقّنت أبناءها مبادئ التعليم المسيحيّ والصلاة، وربّتهم على مبدأ أنّ الله يرى كلّ أعمالنا، حتّى أكثرها خفيةً، وكلّ أفكارنا، حتّى أعمقها سرّيّةً.

وهي التي توسّمت، قبل الجميع، دعوة ابنها جوفانّي الكهنوتيّة، وضحّت براحتها وبكلّ ما تملك كي توصله إليه، مساهمةً في صنع قداسته، وفي ممارسته الكهنوتيّة الممارسة المثلى. فيوم خطر له الانضمام إلى الرهبنة الفرنسيسكانيّة، وحاول كاهن رعيّة ذويه إبعاده عن انتهاج هذا الدرب رأفةً بوالدته التي لم يبقَ لها مُعينٌ سواه، وحرّض والدته على منعه من سلوك درب الرهبنة والفقر، فهو كاهنٌ لامعٌ، ومستقبله واعدٌ بالنجاح والبحبوحة وبالمجد له ولأُمّه، هرعت أُمّه إليه، مستنكرةً نصيحة كاهن الرعيّة، ومؤكّدةً له أن لا همّ لها في الدنيا سوى أن يمجّد الله بكلّ سلوكه، وبالطريقة التي يرشده الربّ إليها. وهي لا تريد منه لا مالاً ولا مجدًا، فقد وُلدت فقيرةً، وعاشت فقيرةً، وتريد أن تسوق الباقي من حياتها في الفقر، حتّى إنّها هدّدته بالامتناع عن وطء عتبة بيته إن هو اغتنى من كهنوته.

وقد أوصته بالدأب على العمل لمجد الله، مردّدةً على مسامعه قولها: "كم حياتنا قصيرةٌ، وكم قصيرةٌ هي المهلة المتاحة لنا من أجل تأمين خلاصنا! إنّ كلّ ساعة نومٍ هي

ساعةٌ مسروقةٌ، عبثًا، من الحياة الأبديّة. وما أكثر الأعمال الصالحة التي يمكننا تحقيقها في هذا الوقت، وكم من كنوزٍ كان يمكننا تكديسها من أجل اكتساب السماء!"

وهي التي ربّته على التقشّف، وقسوة العيش.

وكم من بطولةٍ برهنت عنها، أثناء مساعدته على تأسيس أوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ، بإكبابها اليوميّ على أعمالٍ وضيعةٍ، شاقّةٍ، مارستها بصبرٍ وحبٍّ جمّين، وثقةٍ مطلقةٍ بالعناية الإلهيّة، وإيمانٍ راسخٍ بالربّ، وتضحياتٍ متواصلةٍ، ساعدت، بواسطتها، ابنها على أداء رسالته أقدس أداءٍ، وكانت له، في كلّ حينٍ الداعمةَ، والرفيقة، والمشيرة.

أثناء وجودها في المطبخ لا يكفّ الفتيان يتعاقبون على إزعاجها، فهذا يطلب تفّاحةً، وهذا يستفسر هل جهز الحساء، وهذا يشكو من فقدان منديله، وآخر يشكو من تمزّق بنطاله.

وكم من بطولةٍ اقتضاها إنفاق حياتها على خدمتهم، وتوفير اللباس النظيف اللائق، والطعام الكافي لهم، وبالمقابل لا تلقى منهم، غالبًا، سوى الإساءات المتكرّرة والفظاظة وعدم التقدير.

ولا ننسينَّ أنّها هي التي رسّخت لدى ابنها مبادئ إرساء التربية على العقل، والدين، والمحبّة، وهي التي هدهدت الجمعيّة الساليزيّة الوليدة على ركبتيها.

وها هي بعد أن اطمأنّت إلى أنّ متطوّعاتٍ فاضلاتٍ حللنَ محلّها، وأنّ الله يريد إراحتها لديه، وأدّت هي رسالتها من خلال رسالة ابنها، أخذت تنطفئ انطفاء شمعةٍ، بصمتٍ.

ففي منتصف شهر تشرين الثاني (نوڤمبر) ١٨٥٦، أُصيبت بالتهابٍ رئويٍّ حادٍّ، وتبيّن، منذ اللحظة الأولى، أنّه قاتلٌ لتلك التي أنفقت ثمانيةً وستّين عامًا في الكدّ، والمشقّة، وبذل الذات.

وفي ساعاتها الأخيرة ورّثت ابنها الكاهن خلاصة خبرتها، فقالت له:

« كن حذرًا. فمن حواليك كثيرون ينشدون نجاحهم الشخصيّ على حساب مجد الله. فيدعون الآخرين إلى ممارسة الفقر، ويأبونه لذواتهم... علينا البدء بفعل ما ندعو الآخرين إلى فعله...

"ولا تبتغِ، في كلّ أعمالك سوى مجد الله. ثابر على الفقر. ولا تنشد التألّق والظهور في عيون الناس...

"عندما كنتَ صغيرًا، كنتُ، أنا، أُعدّك لتقبّل أسرار أُمّنا الكنيسة المقدّسة. والآن ساعدني، أنت، على تقبُّلها. اتلُ الصلوات بصوتٍ عالٍ، وسأردّدها أنا، في قلبي.

"واذكر، دائمًا، أنّنا وُجدنا لكي نتألّم، وأنّ السعادة الحقيقيّة هي في الحياة الأبديّة. »

بهذه العبارات أسفرت مرغريتا بوسكو عن سرّ القوم البسطاء الذين يساعدهم إيمانهم على تدبّر أُمورهم متخطّين الجوع وموت أطفالهم، ومشقّات عيشهم، جيلاً فجيلاً.

ثمّ عندما لحظت المحتضرة كم كان ابنها يتألّم، وهو يشهد الحياة تنسحب منها لحظةً فلحظةً، قالت له: "أنا لا أطيق رؤية ألمك وحزنك، فودّعني، واختلِ في غرفتك وصلّ من أجلي". وحلّ كاهنٌ آخر، وأخوه جوزيبي، محلّه عند فراشها. وألقى دون بوسكو، قبل خروجه، لفتةً أخيرةً، ولكنّه لم يستطع التفوّه بلفظة وداعٍ، غير أنّ نظراتهما تواعدت على اللقاء في الأبديّة.

وعند الساعة الثالثة من فجر يوم ١٨٥٦/١١/٢٥، دخل إلى غرفة دون بوسكو أخوه جوزيبي، وانكبّ على كتفه منتحبًا، ناعيًا رحيل الأمّ القدّيسة.

وبعد ساعتين استدعى دون بوسكو رفيق الساعات العصيبة والحزينة، جوزيف بوزّيتي، وهو الوحيد من أبنائه الذي لم يكن يخجل من البكاء أمامه، وشخصا معًا، إلى مزار سيّدة العزاء (La Consolata)، وركعا أمام إيقونتها، وتمتم الكاهن: "لم يبقَ لي ولأبنائي، على الأرض، أمٌّ. فابقي، أنت، إلى جانبنا، وكوني لنا أُمًّا".

فلا عجب إن وصفها البابا بينيدكتُس السادس عشر بالقدّيسة وإن قُدِّم طلب تطويبها.

وبعد مضيّ أيّامٍ معدوداتٍ، قال "ميشيل روا" لأُمّه: "منذ وفاة مرغريتا بوسكو، ارتبكنا، ولم يعدْ لدينا من يعدّ الحساء، ويرفو الجوارب، ويُصلح الثياب. فهل ترضين الإقامة معنا؟". وجاءت السيّدة "جانّ ماري روا" مع ابنها، ونهضت بمهمّة الأُمّ الثانية للأوراتوار، مدى عشرين سنةً.

رقعة الأوراتوار تتّسع، ودون بوسكو ينهك صحّته

على غرار أخيه الأكبر، دون جوزيف كتُّلِنغو، أولى دون بوسكو العنايةَ الإلهيّة أمرَ تنمية رسالته. ولم يحجم عن استئجار أو شراء كلّ ما يراه مناسبًا لاستيعاب المزيد من النـــزلاء. فابتاع، على التوالي، جميع الأبنية المحيقة ببناء "پيناردي": الملهى والفندق اللذين كانا يفسدان أجواء تلك البقعة من "ڤلدوكّو". وكانت أثمان تلك الممتلكات تتأمّن على نحوٍ عجيبٍ، لا يعهده إلاّ المتّكلون، اتّكالاً مطلقًا على العناية الإلهيّة.

وعندما كانت والدته تعبّر عن قلقها بشأن تسديد أثمان مشترياته، كان يقول لها: "الكاهن الذي ينفق بسعةٍ على شؤون الله، وعلى المحتاجين، يتلقّى أيضًا بسعةٍ، ويُصبح قناةً للمحسنين. والقناة التي تصبّ ماءها من جانبٍ، تُزوَّد بمزيدٍ من الماء، من جانبٍ آخر".

وكان قلق أُمّه يتفاقم عندما تتراكم ديون مورّدي الخبز والأغذية، ولكنّ قلقها كان يتبدّد من حيث لم تحتسب. فذات يومٍ هدّد خبّازٌ بإيقاف تزويده الأوراتوار بالخبز، لأنّ ديونه عليه بلغت قممًا مُريعةً. وإذ بكونت يقتحم الأوراتوار ملتمسًا أن يصلّي نزلاؤه الصغار بحرارةٍ من أجل شفاء زوجته المعتلّة... ودفع، في الحال نصف الديون المترتّبة للخبّاز على الأوراتوار. وفي ذلك المساء عينه تصاعدت صلواتٌ حارّةٌ من قلوب الفتيان، ومن قلب أبيهم، دون بوسكو، سائلةً شفاء السيّدة المعتلّة. وبعد ثلاثة أيّامٍ، عاد الكونت يفيض فرحًا، زافًّا خبر شفاء زوجته التي كان الأطبّاء قد نفضوا أيديهم من قدرتهم على شفائها. ودفع كامل الديون المترتّبة على الكاهن وأوراتواره.

وعلى هذا النحو، أيضًا، توفّرت الأموال من أجل توسيع الأبنية الجديدة، التي كان الكاهن يقوم بها من أجل تنمية طاقة استيعاب نزلاء جدُدٍ. وكانت مصادر التمويل تسيل من أعلى المنابع، ومن أوضعها، من أمراء أسرة ڤيكتور إيمّانويل الثاني، ومن قرويّين بسطاء، أمثال جوزيف بوسكو، شقيق الكاهن، الذي كان قد قدم إلى تورينو، ذات يومٍ، بغية شراء ثورَيْن لمزرعته، وعرّج على الأوراتوار من أجل تقبيل أخيه، وأُحيط علمًا بالضائقة المادّيّة التي كان أخوه يتخبّط فيها، فمنحه كلّ المال المخصّص لشراء الثورين، مُرجئًا هذا الشراء إلى موعدٍ لاحقٍ.

ولّما اطمأنّ دون بوسكو إلى توفّر المال المطلوب لمشروعه، وتوفّر أمكنةٍ لقادمين جدُدٍ إلى الأوراتوار، انصرف إلى مهمّته الرسوليّة.

دون بوسكو والنوم

كان نهارُ دون بوسكو زاخرًا بالعمل في سبيل نزلاء أوراتواره، وتوفير أسباب العيش لهم، فضلاً عن إقامته الصلوات في مختلف الكنائس، والوعظ على منابر متعدّدةٍ في المدينة.

وكان ينفق الكثير من ساعات نومه على إصلاح ثيابٍ وأحذيةٍ لفتيانه الفقراء، ومن أجل تدبيج نشراته. وكانت تتكثّف حاجته إلى النوم. وغالبًا ما كان يغفو وهو يعمل. وكانت تأخذه سِنة نومٍ بعد الغداء، فيغفو وهو جالسٌ على كرسيّه ورأسه متّكئٌ على صدره، ويخلي الموجودون معه المكان لكي لا يقلقوا راحته. ولكنّه ما إن يشعر بأنّه نائمٌ، حتّى يأخذ على ذاته هدره للوقت، فينهض ويخرج من أجل ابتياع احتياجات الأوراتوار وساكنيه، وزيارة المحسنين. ولكنّ النعاس كان يستولي عليه، على حين غرّةٍ.

وفي بعد ظهر يومٍ، وهو في السوق، استحوذت عليه حاجةٌ آسرةٌ إلى النوم، واتّفق أنّه كان على مقربةٍ من حانوت إسكافيٍّ، فدخل واستأذن الإسكافيّ بالنوم بضع دقائق، على كرسيٍّ. فرحّب به الرجل، واعتذر، مسبّقًا، عمّا ستسبّبه أصوات مطرقته من إزعاجٍ. ولكنّ الكاهن لم يأبه بذلك، واستسلم للنوم منذ الساعة ١٤:٣٠ حتّى الساعة ١٧. ولّما أفاق، وتبيّن الساعة، عاتب الإسكافيّ الذي لم يوقظه قبل ذلك، فأجابه الإسكافيّ أنّه لّما رأى سطوة النعاس عليه، وعمق نومه، خُيِّل إليه أنّه سيرتكب خطيئةً إذا هو أيقظه.

تميّز أوراتوار دون بوسكو

لقد استلهم دون بوسكو أوراتواره من الأوراتوار الذي أسّسه القدّيس فرنسوا الساليزيّ، أُسوةً بأوراتوار صديقه الكردينال "بيرول" (Bérule)، وبالأوراتوار الذي أسّسه القدّيس الإيطاليّ "فيليپ نيري" (St. Philippe Néri).

بادئ الأمر، استلهم دون بوسكو الأوراتوارات الإيطاليّة وخبراتها، ولكنّه وسم أوراتواره بطابعه الخاصّ المختلف عن جميعها. فالأوراتوارات التقليديّة كانت تابعةً للرعايا، أمّا أوراتواره فكان هو "رعيّة الشبّان الذين لا رعيّة لهم". حسب وصف رئيس أساقفة تورينو، المطران "فرنسوني".

ومن أبرز وجوه تميّزه هو أنّ لقاء المديرين والمشرفين بالطلاّب، في الأوراتوارات الأخرى كان مقتصرًا على سُوَيْعاتٍ، بعد ظهر أيّام الآحاد والأعياد، في حين أنّ دون بوسكو والمشرفين على أوراتواره كانوا على اتّصالٍ دائمٍ ووثيقٍ بطلاّبهم، في كلّ ساعةٍ من كلّ يومٍ. وكان دون بوسكو نفسه يلتقي بطلاّبه أثناء الدروس المسائيّة اليوميّة، وأثناء تفقّد أحوالهم في أماكن عملهم.

والفرق الجوهريّ الآخر هو أنّ معظم الأوراتوارات الأُخرى كانت تنتقي عناصرها من نخبة الطلاّب المتفوّقين، ومن الذين يضمن ذووهم سلوكهم، فيما انتهج دون بوسكو اختيارًا مناقضًا كلّ التناقض. فكان يرحّب بفتيانٍ حديثي الخروج من السجون، باحثين عن صديقٍ يتقبّلهم، ويرتضي إعادة تأهيلهم. ولم يكن يغلق باب أوراتواره في وجه عمّالٍ صغارٍ هجروا منازلهم الريفيّة بحثًا عن عملٍ، وفتيانٍ مُهمَلين، معرّضين للأخطار. هؤلاء هم الذين أضحوا نواة أوراتواره الذي أشرع أبوابه لأمثالهم.

وقد أولى دون بوسكو، في أوراتواره شأنًا أساسيًّا للتعليم، بعدما اتّضح له أنّ معظم قاصدي أوراتواره كانوا أُمّيّين. والأُمّيّة لا تسهّل تعليمًا مسيحيًّا صحيحًا، ولا عملاً مجزيًا. ولذلك وضع بنفسه، كتاب تعليمٍ مسيحيٍّ سهل القراءة، بسيطًا وواضحًا، كي يكون، في الآن عينه، أداةً لمحو الأُمّيّة، وللتعليم الدينيّ.

وكان الطلاّب الذين يستخدمون هذا الكتاب يصيبون هدَفَيْن معًا:
يتعلّمون القراءة، ويتلقّنون مبادئ دينهم، بوسيلةٍ واحدةٍ.

بادئ الأمر استعان دون بوسكو على تعليم الفتيان بمجموعةٍ من ستّة كهنةٍ، وبعددٍ مماثلٍ من العلمانيّين المتطوّعين. ولكن، مع صدق نوايا أولئك المساعدين، لم تكن واجباتهم الراعويّة والمهنيّة تتيح لهم الوقت الكافي كي ينصرفوا انصرافًا كاملاً إلى تلك المهمّة، فضلاً عن افتقار بعضهم إلى ملَكات التعليم. فسعى دون بوسكو إلى ردم هذه الفجوة، مستلهمًا حلمًا كان قد رأى فيه حملانًا تتحوّل إلى رعاةٍ، واستعان بالشبّان الذين زوّدهم بالعلم، وهيّأهم ليعلّموا الأصغر منهم.

وما لبث أن غدا أوراتواره، المدعوّ "أوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ" معجزةَ السلطات الكنسيّة في تورينو، وأغدق عليه رئيس الأساقفة، "فرنسوني"، كلّ ما استطاع من دعمٍ ومساعدةٍ.

ولكن سرعان ما ابتلع تحديث بناء بيناردي وتوسيعه كلّ مبالغ المساعدات الممنوحة، أمّا النفقات الجارية، والجسيمة، فكانت مواردها تأتيه بالتقطير، وفي اللحظة الأخيرة، من مصادر غير متوقّعة، غالبًا، تُعِدّها العناية الإلهيّة. وكان للمركيزة بارولو يدٌ طولى في هذا الدعم السرّيّ، عبرَ صديقه الأب بوريل.

وما انفكّ أوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ ينمو نموًّا مطّردًا ومتصاعدًا، بلا توقّفٍ، حتّى تخطّى عدد المنتسبين إليه ثماني مئةٍ، وأمسى عسيرًا على دون بوسكو

استيعاب جميع قاصدي أوراتواره، ومواجهة شؤونه وهمومه. وكان أشدّ ما يُقلقه أنّ معظم الفتيان الذين كانوا يتابعون دروسًا مسائيّةً كانوا يقطنون في أرياف تورينو البعيدة عن المركز. وكان مجيئهم وعودهم ليلاً متعبَيْن ومحفوفَيْن بالمخاطر.

ومن ثمّ اتّضحت له حتميّة الانشطار والتفرّع، وإقامة فروع في مناطق مختلفةٍ، وأقنع زميله الأب بوريل بهذه الضرورة.

وكان دون بوسكو قد اعتاد إمتاع فتيانه بعطلةٍ ترفيهيّةٍ، في أواخر تشرين الأوّل (أكتوبر) قبل بدء السنة الدراسيّة في مزرعة أخيه جوزيبّي. وكان يحرص على أن يتوافق زمن الرحلة مع عيد الورديّة المقدّسة، والاحتفال به في كاپيلاّ القدّيس يوسف التي ابتناها أخوه في مزرعته.

وكانت أيّام الرحلة تنقضي بين فترات تأمّلٍ وصلاةٍ، وفترات درسٍ تمكّن الطلاّب من إكمال معارفهم اللغويّة وقواعدها، تليها نزهاتٌ مسائيّةٌ إلى الجبال المحيطة. وكان الليل يرجّع صدى أناشيدهم الجذلى من وادٍ إلى وادٍ، زارعةً البهجة على الطرقات والقمم. وعندما تنتهي النــزهة ويلتئم الشمل، يحيّي الجميع قائدهم دون بوسكو، ويسعد الذين قدموا متأخّرين برؤية أبيهم والمحسن إليهم. وحينئذٍ كان جوزيف بوسكو المضيف ينشر بالات قشٍّ، يطّرح عليها الشبّان المتعبون، وينالون راحةً ليوم نشاطٍ جديدٍ.

وفي الصباح يحضر الجميع قدّاسًا يحتفل به دون بوسكو، وتبقى أبواب الكاپيلاّ مفتوحةً لكي يستمع، من الخارج، من لم يتوفّر لهم مكانٌ في الداخل الضيّق، ولا سيّما أنّ جميع الجيران، مع كاهنهم، كانوا يشاركون في حضور القدّاس، الذي تليه تراتيلُ، وأغانٍ، وألعابٌ بهلوانيّةٌ، وإطلاق كراتٍ ملوّنةٍ في الهواء. وفي اليوم التالي يعود من أنهى تساعيّة الصلوات إلى ڤلدوكّو.

من المؤكّد أنّ تلك الرحلات الترفيهيّة كانت توثّق علاقات المودّة بين الكاهن والفتيان الذين يرعاهم، وتتيح لبعضهم اكتشاف دعواهم الكهنوتيّة أو تثبيتهم فيها. وكانت تلهب لدى بعضهم الرغبة في أن يصبحوا معاونين للأب في مختلف أقسام الأوراتوار. فالكبار منهم كانوا يرغبون في رعاية الأصغر منهم، ومساعدهم، وآخرون كانوا يتطوّعون للبحث عن عملٍ للعاطلين عن العمل، أو لمراقبة ورشات العمل والبناء، للتثبّت من استقامة أرباب العمل، وحسن تعاملهم مع العمّال. فكان دون بوسكو، في هذا المجال قد فرض إبرام عقودٍ بين أرباب العمل والعمّال يوقّعها كلٌّ منهم، ويوقّعها دون بوسكو ضمانًا لحقوق الفريقين.

وكان قد فرض، أيضًا توقيع عقودٍ بين المتدرّبين على العمل وأرباب العمل تتضمّن البنود التالية:

– يرتضي ربّ العمل تدريب العامل على إتقان المهنة في غضون ثلاث سنواتٍ، وتلقينه، في هذه الأثناء، الطرق المثلى لإتقان عمله، وتزويده بالنصائح الكفيلة بتعليمه السلوك السليم، وإصلاح أخطائه بالكلام، وبمنأى عن استخدام الضرب، والاقتصار على تكليفه بالأعمال المتعلّقة بالمهنة، بمنأى عن أيّة أعمالٍ أخرى، والامتناع عن تحميله فوق طاقته.

– يتعهد المتدرّب بخدمة مدرّبه بتفانٍ، ومثابرةٍ، واجتهادٍ، وبالتزام الطاعة والاحترام.

– يعِد مدير الأوراتوار بالمساعدة على حسن سلوك المتدرّب.

بهذه العقود كان دون بوسكو يضمن عدم استغلال ربّ العمل للمتدرّبين، وعدم إكراههم على القيام بأعمالٍ منـــزليّةٍ خاصّةٍ لا علاقة لها بالمهنة. وكان يحميهم من العنف، ويحرص على تمتّعهم بالراحة الأسبوعيّة، والعُطَل السنويّة، ويحصل لهم على راتبٍ تصاعديٍّ منذ السنة التدريبيّة الثالثة، حين يمسي المتدرّب منتجًا.

وكان يطلب من ربّ العمل معاملة العامل معاملة أبٍ لابنه.

وبالإجمال كان دون بوسكو رائدًا في إبرام مثل تلك العقود الضامنة لسلامة العامل وحقوقه.

وفيما كان دون بوسكو دائبًا على تنمية أورتواراته، أكبّ على وضع نظامٍ مؤقّتٍ لها، على أن يكمله، شيئًا فشيئًا، على ضوء الممارسة، وخبرة ما كانت الأوراتوارات تعيشه حينذاك، وتطلّعاته لمستقبلها.

وقد طبع نسخًا من مسوّدة ذلك النظام ووزّعها على أعضاء أوراتواراته كي يُبدي كلٌّ منهم رأيه فيها. واطّلع أساقفةٌ وكهنةٌ على تلك المسوّدة فطلبوا نسخًا منها، كي يُدخلوا أجزاءً منها في أبرشيّاتهم ورعاياهم.

تأسيس الجمعيّة السالزيّة

العمل الرسوليّ يستلزم كهنةً مثقّفين، وفاضلين، تحدوهم الغيرة الرسوليّة. ولم تكن الأجواء السائدة، حينذاك، والمعادية للدين تشجّع الدعوات الكهنوتيّة. فالكهنة الكاثوليكيّون، على نحوٍ خاصٍّ، كانوا موضع تهكّم الصحف والمسارح والمقاهي. ولا بدّ من الاعتراف بأنّ سلوك فئةٍ من الكهنة، المخزي، كان يبرّر نفور الشعب منهم.

ودون بوسكو كان راسخ اليقين بأنّ الكاهن الوفيّ لكهنوته، ينبغي أن يكون زاهدًا في العيش، بسيطًا، متواضعًا، مشاركًا المحرومين بؤسهم، ساعيًا إلى عونهم. وخير حقلٍ لإنتاج مثل هؤلاء الكهنة هو الأوراتوارات والمعاهد والإكليريكيّات. فشرع ينتقي من أوراتواره، عناصر عدّها كفيلةً بأن تزوّده بمساعدين له، وبحصَدةٍ غيورين في حقل الربّ. ودأب على تنظيم خلواتٍ روحيّةٍ لهم، واختار مَن توسّم فيهم أهليّةً للكهنوت، وجدارةً بهذه النعمة.

كانوا أربعةً، ثلاثةٌ منهم كانوا في الثامنة عشرة. ورابعهم، وهو ميشيل رُوا، في السابعة عشرة. وجديرٌ بالتذكير بأنّ ميشيل روا هذا، هو الصبيّ الصغير، الذي بعد أن وزّع دون بوسكو، يومًا، كلّ ما كان معه من إيقوناتٍ، لم يبقَ لديه ما يُعطيه، فتظاهر بقَسم شيءٍ، وناوله نصفه، واعدًا إيّاه، باقتسام كلّ شيءٍ بينهما، منذ ذلك اليوم. ومنذئذٍ لازمه الفتى، ملازمة ظلّه، إلى أن أمسى ساعده اليمنى. ثمّ أوّل خليفةٍ له على رئاسة جمعيّته بعد رحيله، وفقًا لرغبة المؤسّس.

ليلة ١٨٥٤/١/٢٦، إذن، جمع دون بوسكو أولئك الشبّان الأربعة، وأهاب بهم أن يؤلّفوا فريقًا متضامنًا، من أجل العمل الرسوليّ، وقال لهم:

« ترون ما يفعله دون بوسكو. ولكنّه وحيدٌ. فإذا أعنتموه سنجترح، مجتمعين، المعجزات. ألوف الأولاد الفقراء ينتظروننا. وإنّي أؤكّد لكم أنّ أُمّنا العذراء ستوفّر لنا أوراتواراتٍ رحبةً، وكنائس، وبيوتًا، ومدارس، ومصانع، والعديد من الكهنة المصمّمين على مساعدتنا، لا في إيطاليا فحسب، بل في شتّى أرجاء أوروبّا وأميركا، وإنّي أرى، منذ الآن، أنّ أحدكم سيعتمر تاج الأُسقفيّة. »

هذه النبوءة أذهلت الشبّان الأربعة، وخيّل إليهم أنّ دون بوسكو يحلم.

ولكنّ دون بوسكو لم يكن يحلم، بل كان جادًّا، يرى بعينيه، ويقرأ في كتابٍ مفتوحٍ. وأردف: "ترغب السيّدة العذراء أن نؤسّس جمعيّةً. وبعد إعمالي الفكر، طويلاً ارتأيت أن نسمّيها "الجمعيّة الساليزيّة"، تيمّنًا بالقدّيس فرنسوا الساليزيّ".

وبرّر قراره هذا برواية حلمٍ، قال عنه:

« في ليلةٍ من عام ١٨٤٧، بعدما كنت قد أعملت الفكر، طويلاً، في الخير الذي يسعني أداؤه للشبيبة، ظهرت لي ملكة السماء، واقتادتني إلى حديقةٍ ساحرةٍ، فيها قناطر رائعةٌ تزيّنها نباتاتٌ متسلّقةٌ مُثقلةٌ بشجيْرات وردٍ، في عزّ تفتّحها. وكانت الأرض كلّها مفروشةً بالورود. وقالت لي العذراء: "اخلع حذاءك، وامشِ تحت هذه المظلّة. فهذه هي الطريق التي ينبغي أن تجتازها". وسعدت بخلع حذائي لأنّي لم أكن مرتاحًا لدوس الورود به. وشرعت أسير بقدميّ الحافيتين، ولكن سرعان ما تبيّنت أنّ الورد يُخفي أشواكًا حادّةً. فاضطررت إلى التوقّف وقلت لقائدتي:

– "عليّ الآن أن أنتعل حذاءً.

– طبعًا. ولكن فلتكن أحذيةً جيّدةً".

فانتعلت أحذيةً سميكةً، ومشيت. وسرعان ما انضمّ إليّ رفاقٌ راغبين في مواكبتي. "كانت أغصانٌ كثيرةٌ تتدلّى، ولم أكن أرى سوى ورودٍ على يميني، وعلى

يساري، وورد فوق رأسي، وورد أمام عينيّ. ولكنّ أفنانًا مرميّةً على الأرض كانت تعلق بساقيّ وتجرحهما. وكانت الأغصان التي أحاول إزاحتها عن وجهي، وأنا أمشي، تدمي يديّ. فقد كانت الورود تخفي كمّيّةً كبيرةً من الأشواك.

"وكان الذين يرقبونني أسير يقولون: "إنّ دون بوسكو يسير دائمًا على وردٍ، وكلّ شيءٍ ميسّرٌ له، لأنّهم لم يكونوا يرون أعضائي الممزّقة بالأشواك.

"كنت قد دعوت العديد من الكهنة، والإكليريكيّين، والعلمانيّين إلى العمل معي، فلبّوا دعوتي مسرورين، وقد أغواهم جمال الورد، ولكنّهم لمّا تبيّنوا أنّ عليهم السير وسط الأشواك، خابت آمالهم، تراجعوا، ولبثت شبه وحيدٍ. فأجهشت بالبكاء. وتساءلت هل عليّ أن أجتاز كلّ تلك الطريق بمفردي.

"ولكن ما لبثتُ أن نعمتُ بالعزاء، وجاءني حشدٌ من الكهنة والإكليريكيّين، قائلين: "نحن لك، بكلّيّتنا، ومتأهّبون لاتّباعك. فسرتُ أمامهم. قلّةٌ منهم، أُحبطوا وتوقّفوا، ولكنّ معظمهم واصلوا السير معي حتّى منتصف الدرب.

"بعد أن اجتزنا كلّ الدرب الممتدّ تحت المظلّة، انتهينا إلى حديقةٍ غنّاء رائعةٍ. وكان القليلون الذين تبعوني إلى ذلك المكان قد أُصيبوا بالهزال، وأصبحوا مشعّثي الشعر، وانتشرت الجراح على أجسامهم. وحينئذٍ هبّت نسمةٌ عليلةٌ أنعشتنا. ووجدتُ نفسي محاطًا بعددٍ غفيرٍ من الإكليريكيّين والعلمانيّين، يساعدونني على قيادة الشبيبة. تعرّفتُ وجوه بعضٍ منهم، ولكنّ معظمهم كانوا غرباء عنّي.

"وسألتني السيّدة العذراء التي كانت تقودني:

"– هل فهمتَ مغزى ما تشهده، الآن، وما شهدته من قبل؟

"– كلاّ

"– إنّ الطريق التي اجتزتَها خلال الورود والأشواك تمثّل هَمّ الشبيبة التي ستُعنى بها. عليك السير منتعلاً أحذية التضحيات. والأشواك هي العوائق والآلام

والمنغّصات التي ستواجهها. ولكن لا تستسلم ولا تخُرْ عزيمتك، لأنّك، بفضل المحبّة، والتضحية، ستتغلّب وستسير على ورودٍ بلا أشواكٍ. »

وبعد أن روى رؤياه هذه، قال دون بوسكو لرفاقه:

"إنّما رويت لكم ذلك لكي يثق كلٌّ منكم أنّ السيّدة العذراء هي التي تريد جمعيّتنا، وأن نوطّن العزم، يومًا فيومًا، على العمل من أجل مجد الله الأعظم".

وهو بدفعٍ من هذا اليقين كان، كلّ يومٍ، يلقي شبكته في يمّ الشبيبة، آملاً في مضاعفة عدد الساليزيّين العتيدين، مطلِقًا سؤالاً بسيطًا: "هل تحبّ دون بوسكو؟" أو "هل لك أن تمدّ يدَك لمساعدتي؟، فحتّى لو كان يساعدني مئة كاهنٍ، ومئة إكليريكيٍّ، لكان لكلٍّ منهم مهمّته. وسيسعنا المضيّ إلى العالم أجمع".

هذه الأقوال كانت تولّد الأحلام لدى فتيانٍ عديدين، وتطرح عليهم تساؤلاتٍ حول البقاء معه، أو البحث عن أماكن أخرى. ومن المؤكّد أنّ دون بوسكو كان يمتلك مهارةً فائقةً في تجنيد أعوانٍ مندفعين إلى الخدمة.

كانت تلك الخطوةَ الأولى نحو تحقيق جمعيّة شفيعها القدّيس فرنسوا الساليزيّ، ومثاله زميلُ دون بوسكو في الإكليريكيّة، "لويس كومولّو"، الذي لبّى دعاء ربّه في ريعان شبابه، وكان يتمتّع بكلّ فضائل الساليزيّ، ولا سيّما التواضع والوداعة. وكان دون بوسكو قد وضع موجزًا لسيرته، في كتيّبٍ خاصٍّ، ونشر محتواه، أيضًا، في "القراءاتِ الكاثوليكيّةِ" الدوريّة التي كان يصدرها.

يومئذٍ التزم الشبّان الأربعة المختارون بوعدٍ تجاه دون بوسكو، وأرجأوا النذور الكنسيّة النهائيّة إلى موعدٍ لاحقٍ.

وفي تلك الليلة وُلدت، فعلاً، الجمعيّة الساليزيّة، المُعَدّة لتكاثرٍ مذهلٍ.

السَـاليزيّ الأوّل

حرص دون بوسكو على التحدّث إلى مختاريه الأربعة بهدوء، وبمنأًى عن الضجيج، عن نذور العفّة، والطاعة، والفقر، أي عن الفضائل الثلاث التي طالما اعتبرت الكنيسة ممارستها هي الطريق المثلى إلى تكريس الذات لله وحده. وبيّن لهم أنّ على كلّ من اعتزم سلوك الكهنوت، أن ينذر الالتزام بهذه الفضائل مدى حياته كلّها.

وفي نهاية السنة الأولى اتّضح لدون بوسكو، أنّ "ميشيل روا" هو الأفضل تأهّبًا، فسأله: "هل ترغب في نذر العفّة، والفقر، والطاعة، لمدّة ثلاث سنواتٍ؟". وكان جواب ميشيل إيجابيًّا. وفي الحال ركع أمام صليبٍ، وأعلن نذوره. ومع أنّه لم يكن ثمّة شهودٌ، غير أنّ جمعيّةً رسوليّةً جديدةً وُلدت في تلك اللحظة، كان مؤسّسها دون بوسكو، وعضوها الأوّل والوحيد "ميشيل روا".

ومنذ تلك اللحظة، غدت أصعب مهمّةٍ لميشيل وزملائه إيجاد وقتٍ للنوم، فقد كان عليهم متابعة دروسهم، وخضوعهم لكلّ الامتحانات المتعدّدة والعسيرة. وفي الآن عينه، كان دون بوسكو يكلّفهم بالتعليم الدينيّ، وبمراقبة موائد الطعام في الأوراتوار، والمصانع، ومدرسة الأيتام.

وفي أيّام الآحاد كان يوفدهم إلى الأوراتوارات الأُخرى، وبما أنّ أوراتوار "الملاك الحارس" قد افتقر، فجأةً، عام ١٨٥٥ إلى مديرٍ، فقد كُلّف ميشيل روا بإدارته مؤقّتًا، مع أنّه كان ما زال في السابعة عشرة، وكان معظم القادمين إلى ذلك الأوراتوار فتيانٌ، يأتون من قراهم في مطلع الخريف، كي يعملوا في تنظيف المداخن، مزوّدين بحبالٍ، وفَراشٍ معدنيّةٍ، ويطوفون المدينة معلنين عن استعدادهم للقيام بهذه المهمّة،

لعلّ أُسَرًا تستخدمهم لها. وكان ميشيل روا يعود إلى ڤلدوكّو مساء كلّ يوم أحدٍ، منهكًا، فيلتهم بضع لقماتٍ تركها له رفاقه الذين عادوا، مثله منهكين، ووصلوا بصعوبةٍ إلى السقيفة التي يرقدون فيها. وكان أحدهم، كالييرو قد أفاق صباح يوم إثنين، جالسًا على كرسيٍّ، وجواربه بيده، لأنّ التعب كان قد أفرغه من كلّ قوّةٍ، فداهمه النعاس، واستولى عليه قبل استطاعته الوصول إلى فراشه.

ومع ذلك كانوا يستيقظون باكرًا جدًّا، أي في الساعة الرابعة صباحًا. وفي هذه الساعة، يكون برد جوّ تورينو مريعًا. ويذكر أحدهم، جان كالييرو: "لم يكن شتاء تورينو مزاحًا. والسقيفة التي كنّا نرقد فيها كانت تفتقر إلى التدفئة وإلى الماء الجاري، فكنّا، قبل النوم، نملأ طشتًا للاغتسال، وفي الصباح نجد الماء فيه قد تحوّل جليدًا.

فكنّا، من خلال نافذتنا الصغيرة نغرف قبضات ثلجٍ من فوق قرميد السقف، ونفرك بها أيدينا، ووجوهنا، ورقابنا، فركًا عنيفًا، ولا يلبث أن يتصاعد البخار من جلدنا. وحينئذٍ كنّا نلتفّ بأغطيةٍ صوفيّةٍ، ونشرع بالدراسة. كان "روا" يدرس العبريّة، وفرنسيزيا يداعب قصائد لاتينيّةً، وأنا كنت أعدّ دروسًا في الموسيقى".

وفي شهر تشرين الثاني (نوڤمبر) ١٨٥٥، افتُتحت، في الأوراتوار المدرسة الداخلية، وأُضيفت مهمّة التدريس إلى مهامّ الشبّان، فتولّى "فرنسيزيا" تعليم الآداب، و"روا" تعليم الرياضيّات، و"كالييرو" الموسيقى.

قد يعتبر بعضهم أنّ دون بوسكو قد أنهك معاونيه الشبّان بالدراسة والعمل، غير أنّ ما أثمرت عنه جهودهم يعكس صورةً مختلفةً. فكالييرو الذي افتتح الرسالة الساليزيّة في أميركا اللاتينيّة، وأصبح رئيس أساقفةٍ، ثمّ كاردينالاً، عاش ثمانيةً وثمانين عامًا، وميشيل روا الذي خلف دون بوسكو على رئاسة الجمعيّة الساليزيّة عاش حتّى سنّ الثالثة والسبعين، أمّا جان فرنسيزيا الذي اكتسب شهرةً أوروبّيّةً باهرةً في علوم الآداب اللاتينيّة، فقد امتدّت حياته حتّى الثانية والتسعين.

وقد أثبت دون بوسكو الذي دفعهم، في شبابهم إلى العمل الشاقّ، أنّ الجهد في سنّ الشباب، لا يقصّر الأعمار.

ومضى عدد الساليزيّين تكاثرًا. وكتب دون فرنسيزيا، وهو من أوائل مؤسّسي الجمعيّة، في سنّ التسعين متذكّرًا:

« كنّا اثنين وعشرين شابًّا، فضلاً عن دون بوسكو. وكنّا متراصّين في غرفة دون بوسكو الضيّقة، حيث لا كراسي ولا مقاعد، وأعلنّا نذورنا بين شمعتين وصليبٍ. كان ميشيل روا يتلو نصّ النذور، ونحن نردّدها في إثره. وفيما كنّا ما زلنا راكعين نهض دون بوسكو، وقال:

"أرجوكم أن تدركوا أنّ هذه النذور التي ارتبطتم بها، لا تخضعكم سوى لما أنتم تحيونه الآن في هذا البيت. وإذا أحسّ أحدكم بالقلق أو بالإرهاق بسببها، فأرجو أن يأتي إليّ ويصارحني.

"أقول ذلك لأنّ إبليس الذي يتوقّع كلّ الخير الذي ستحقّقونه في العالم، قد يحاول إغراءكم بنزع أيديكم عن المحراث، والتلفّت إلى الوراء. لذلك أتوسّل إليكم أن تبوحوا لي بهواجسكم، بكلّ ثقةٍ وهدوءٍ. وإذا رأيتُ من الخير أن أُعتقكم من النذور، وأبدّد مخاوفكم، وأُعيد السلام إلى نفوسكم، فسأفعل. وقد يقول أحدكم، في سرّه: "وماذا عن دون بوسكو فهو، وحده، لم ينذر؟" ولكنّي أؤكّد لكم أنّي، فيما كنتم تعلنون نذوركم، كنت أنا ألتزم بها حيال ربّنا المصلوب، مقدّمًا حياتي من أجل خدمة مهمّتنا الهادفة إلى خلاص النفوس، ومن أجل خير الشبيبة الزمنيّ والأبديّ ».

تأسّست، إذن، الجمعيّة الساليزيّة صيفَ عام ١٨٦٢، ونالت اعتراف روما عام ١٨٦٩. ونمت نموًّا مدهشًا. فعام ١٨٦٣ كان قوامها ٣٩ عضوًا، وفي عام ١٨٧٦ كان لها أكثر من عشرة فروعٍ، وبعضها كان في مدنٍ فرنسيّةٍ.

دومينيك سـاڤيو (D. Savio)

طلب دون بوسكو، من تلاميذ صغارٍ أن يدوّنوا رغباتهم على وُرَيقاتٍ. وقرأ على وُرَيقتيْن طلبتَيْن متناقضتَيْن. فعلى إحداهما كان طفلٌ قد طلب مئة كيلوغرام حلوى، مؤونة سنةٍ كاملةٍ، وعلى وُرَيْقةٍ أخرى طلب فتًى يدعى "دومينيك ساڤيو": "ساعدني كي أُصبح قدّيسًا". فاستدعاه الكاهن، ومنحه وصفة القداسة، التي أوجزها في:

« ١- الفرح. فأسباب الاضطراب التي تطيح بسلام النفس، هي من عمل إبليس.

٢- إسهر على دروسك، وأدِّ واجبات درسك جيّدًا، والتزم بالتقوى، لا طمعًا، بل حبًّا بالله.

٣- أحسن معاملة الآخرين، وساعد أترابك دائمًا، حتّى إذا اقتضى منك ذلك تضحياتٍ. »

هذا هو ملخّص القداسة.

والتزم الفتى بهذه القواعد. وإثر وفاته دوّن دون بوسكو موجزًا لسيرته القصيرة. وممّا رواه عنه أنّ تلميذًا أدخل إلى الأوراتوار مجلّةً تحتوي رسومًا منافيةً للحشمة، ودعا رفاقه إلى تأمّلها، فهبّ دومينيك، وانتشل المجلّة من يده، ومزّقها، ورماها في القمامة، مبرّرًا فعلته بقوله للفتى المذنب: "ما أجمل ما تأتي به إلى هذا الأوراتوار المقدّس! إنّ دون بوسكو ينهك ذاته، كلّ يومٍ كي يجعل منّا مواطنين ومسيحيّين صالحين، وأنت تأتي بهذه الأقذار، وبهذه الرسوم التي تهين الربّ، إلى بيته، حيث لا مكانَ لها".

وفي شهر تشرين الأوّل (أكتوبر)، إثر انقضاء العطلة الصيفيّة، عاد الطلاّب، وقلق دون بوسكو عندما لحظ شحوب دومينيك، واستفسره عن سببه، فأجاب أنّه، ربّما من تعب السفر، وابتسم كي يطمئن قلب معلّمه. غير أنّ كلّ الظواهر كانت تقول نقيض قول الفتى. فعيناه غائرتان في محجريهما. وشحوب وجهه ونحوله ينبئان بعلّةٍ صحّيّةٍ أجبرت دون بوسكو على اتّخاذ تدابير وقائيّةٍ، أكرهته على منع الفتى من المضيّ إلى المدينة من أجل الدراسة، في الأيّام الماطرة، أو المثلجة. وكلّف الأب فرنسيزيا بتدريسه داخل الأوراتوار، متيحًا لدومينيك مزيدًا من النوم والراحة صباحًا.

في هذه الأثناء كان دومينيك قد عقد صداقاتٍ وثيقةً مع طلائع الساليزيّين، مثل جوڤانّي كاليرو وميشيل روا اللذين كانا يكبرانِه سنًّا.

في مطلع عام ١٨٥٦، كان عدد الداخليّين، في الأوراتوار يناهز ١٥٣ فردًا، منهم ٦٣ طالبًا، وتسعون مدرّبًا مهنيًّا. واتّفق دومينيك مع مجموعةٍ منهم، لمس لديهم نزعةً إلى القداسة، وطيبة النوايا، على تأسيس مجموعةٍ متراصّةٍ من الرسُل الصغار، تعمل وسط الآخرين، تحت اسم "جمعيّة المنـــزّهة من الدنس". ومنح دون بوسكو موافقةً مبدئيّةً على ذلك المشروع، ولكنّه حذّر من التسرّع، وأوصى بالشروع بوضع بنود نظامٍ واختبار الثمار قبل إقرار إنشائها نهائيًّا.

وبحث اجتماع المؤسّسين الأوّل عمّن يصلحون للانتساب للجمعيّة، وكلّف ثلاثةً بوضع النظام، هم ميشيل روا (١٩ سنة)، وجوزيف بونجوتّي (١٨ سنة)، ودومينيك سافيو)، وكان في الخامسة عشرة، وفي الواقع، كان هو من وضع النظام، واقتصر الآخران على مراجعته. واشتمل النظام واحدًا وعشرين بندًا، يمكن تلخيصها بالتقدّم في تقديس السلوك تحت رعاية العذراء، وبمساعدة يسوع الحاضر في الإفخارستيّا، ودعم دون بوسكو، وبجعل أنفسهم، بحنكةٍ ولباقةٍ رسلاً صغارًا، وسط رفاقهم، وبثّ الفرح والسلام من حولهم.

وقد لخّص البند الأخير هدف الجمعيّة بهذه العبارة: "ثقةٌ صادقةٌ، بنويّةٌ، لا محدودةٌ بمريم العذراء، ومحبّةٌ فائقةٌ، وتكريمٌ دائمٌ لها، تجعلنا ننتصر على كلّ العوائق، ثابتين على مقاصدنا، قساةً على ذواتنا، عطوفين على الآخرين، دقيقي التنظيم في كلّ أمرٍ".

وُلدت تلك الجمعيّة يوم ١٨٥٦/٦/٨، أمام هيكل السيّدة العذراء في كنيسة القدّيس فرنسوا الساليزيّ، ووعد جميع أعضائها الوفاء لالتزامهم بنظامها. وفي ذلك اليوم حقّق دومينيك سافيو أعظم منجزاته. فمع أنّه، هو نفسه قد انتقل إلى جوار ربّه، بعد تسعة أشهرٍ، غير أنّ جمعيّة المنـــزهة من الدنس، عاشت مئة سنةٍ ونيّفًا، من بعده، أيّ حتّى عام ١٩٧٦. وأثمرت في جميع الأوراتوارات الساليزيّة، باقاتٍ من الشبّان الملتزمين بنظام تلك الجمعيّة، وأنتجت العديد من الدعوات الكهنوتيّة.

وقد أخذ أعضاء تلك الجمعيّة، على عاتقهم، العناية بالفتيان الفوضويّين طويلي الألسن، والمثيرين للخلافات لأتفه الأسباب. والتزم كلٌّ منهم بأن يكون "الملاك الحارس" لأحد أولئك الفتيان، وبإعادته إلى السلوك السويّ. وانطوت مهمّتهم، أيضًا، على مساعدة القادمين الجدُد، وتسهيل إقامتهم، وتعريفهم بالآخرين، وبذلك كانوا يبدّدون قلقهم، وشعورهم بالغربة.

أثناء صيام ١٨٥٦، أبلغ أحد مراقبي قاعة الطعام دون بوسكو أنّ دومينيك سافيو يُسرف في الصوم، وإماتة الذات، وأعمال التوبة، والاستغراق في الصلاة والتأمّل. وعقد الكاهن مع تلميذه الشابّ حوارًا صريحًا، وعلم أنّه، مع برودة الطقس، كان قد أزاح الغطاء عن سريره، ووضع تحت ملاءة فراشه قطعات خزفٍ حادّةً، تجعل نومه كابوسًا وجلجلةً، فمنعه، حازمًا، من ممارسة أيّ نوعٍ من قمع الذات ما عدا الطاعة. فالطاعة تقتضي تضحية مكلفةً، وموجعةً ترضي الله، ولا تؤذي الصحّة.

وأخذت قداسة دومينيك تتجلّى من خلال أحداثٍ خارقةٍ. وروى دون بوسكو، في هذا السياق أنّه، ذات ليلةٍ صقيعيّةٍ، وقد أخذ الثلج يلفّ شوارع تورينو، وفيما هو مكبٌّ على الردّ على أكوام الرسائل الواردة إليه، سمع قرعًا خفيفًا على بابه، ودخل دومينيك سافيو مسرعًا، ملهوفًا، وبلا مقدّماتٍ، ورجاه أن يدع كلّ شيءٍ، ويرافقه، في الحال، للقيام بعملٍ خلاصيٍّ. كان الليل قد أخذ ينتصف، فتردّد دون بوسكو، ولكنّه حيال موقف الشابّ الجادّ والملحّ، وعباراته الخارقة والحازمة، اعتمر قبّعته، وتبعه. وسار الفتى بخطًى سريعةٍ، واثقةٍ، متجوّلاً بين أحياء المدينة التي لم يطأها من قبلُ، صامتًا، مستعجلاً، إلى أن دخل مبنًى، وتسلّق درجه حتّى طبقته الثانية، وقرع بابًا، فتحته امرأةٌ مشعّثة الشعر. ولّما شاهدت دون بوسكو هتفت: "الله أرسلك. أسرع، أسرع قبل فوات الأوان! إنّ زوجي الذي فقد الإيمان لسنواتٍ عديدةٍ خلت، مشرفٌ على الموت، وهو راغبٌ في الاعتراف". ودنا الكاهن من السرير، وإذ به أمام إنسانٍ مرتعبٍ، على شفا اليأس. فاستمع إلى اعترافه، وباركه، وحينئذٍ لفظ الرجل نفسه الأخير.

ولبث دون بوسكو، أيّامًا، تحت تأثير ما حدث، متسائلاً كيف علم دومينيك سافيو بحال ذلك المحتضر؛ ثمّ سنحت لحظةٌ كانا كلاهما بمنأًى عن مسمع أيٍّ كان، فسأل الشابَّ كيف علم بأمر ذلك الإنسان المسكين، وكيف اهتدى إلى عنوانه. ولكن بدل الإجابة، انخرط الشابّ في النحيب، وأحجم الكاهن عن أيّ سؤالٍ آخر، وتيقّن أنّ في أوراتواره قدّيسًا صغيرًا على اتّصالٍ وثيقٍ بالله.

شتاء عام ١٨٥٧ كان موغلاً في القسوة، وازداد محيّا دومينيك شحوبًا، وهزّ جسده الهشّ سعالٌ حادٌّ عنيدٌ، وتهاوت قواه سريعًا. فاستدعى دون بوسكو طبيبيْن لمراقبته وتشخيص حالته. وجاء في تقرير أحد النطاسيَّين: "صحّته الهشّة، وتوتّره النفسيّ المتواصل مَبْردان يلتهمان حياته، وليس، في العالم دواءٌ لهذا الداء". ولم يوصِ

إلاّ بتوقّف الشابّ عن الدراسة، ولو لفترةٍ قصيرةٍ، وإكراهه على نقاهةٍ في الهواء العليل بين ذويه. وشقّ على الشابّ هذا القرار، لأنّه لم يُطِق النأي عن دروسه ورفاقه، وبخاصّةٍ عن دون بوسكو، مؤكّدًا رغبته في إنهاء حياته داخل الأوراتوار.

وعبثًا جهد دون بوسكو في إقناع الشابّ بقدرة النقاهة على شفائه، فيعود ويكمل حياته حيث يريد، مع أنّه، في سرّ نفسه كان موقنًا أنّه لن يعود، وأنّ ذلك الحديث كان الأخير بينهما.

وسأله دومينيك عمّا يستطيع، بعد ذلك، تقديمه للربّ، فأجاب:

- قدّم له آلامك.
- وماذا أيضًا؟
- حياتك.
- وهل سيتاح لي، في الفردوس رؤية رفاقي وذويّ؟

وأجابه دون بوسكو، جاهدًا في لجم تأثّره:

- طبعًا!
- وهل سأستطيع المجيء لرؤيتهم؟
- إذا شاء الله، ستستطيع.

يوم الأحد، الواقع في الأوّل من شهر آذار، ودّع دومينيك رفاقه، بتأثّرٍ بالغٍ، وأعاده أبوه بعربته إلى مسقط رأسه. أمّا هو فظلّ، طويلاً، ملتفتًا إلى الوراء، مودّعًا بدموعه أصدقاءه، وأوراتواره، وعزيزه دون بوسكو، الذي ظلّ واقفًا حزينًا، باكيًا زهرة طلاّبه، وهديّة العذراء لأوراتواره.

بعد تسعة أيّامٍ، في ١٨٥٧/٣/٩، لفظ دومينيك أنفاسه الأخيرة، بين يدي والده، بغتةً، وهو يتمتم: "وداعًا يا بابا... ما أجمل ما أراه..."

ويوم ١٩٥٤/٦/١٢، أعلن البابا پيّوس الثاني عشر قداسة أصغر قدّيسٍ توفّي في عمر الخامسة عشرة.

ورآه دون بوسكو، للمرّة الأخيرة في حلمٍ، ليلة ١٨٧٦/١٢/٦، وإليكم ملخّص الحلم، كما رواه الرائي:

« خُيِّل إليّ أنّني على أطراف سهلٍ شاسعٍ، أزرق بلون البحر، ولكن لا ماء فيه، ولكأنّه بلّورٌ صافٍ، متلألئٌ. وفي الجوّ كانت تطوف موسيقى رقيقةٌ عذبةٌ.

وبغتةً ظهرت جماعةٌ لا يُحصى عديدُها من الشبّان، تعرّفتُ عددًا كبيرًا منهم، كانوا من أعضاء أوراتوارنا، ومن ثانويّاتنا، ولكنّي لم أتعرّف على معظمهم. كانت تلك الجماعات الكثيفة تتقدّم صوبنا، وفي طليعتهم دومينيك ساڤيو، ومن خلفه عددٌ جمٌّ من الكهنة، يقود كلٌّ منهم موكب شبّانٍ.

وانفصل عنهم دومينيك ساڤيو وحده، ووقف على مقربةٍ، بحيث كنتُ لمستُه لو مددت إليه يدي. كم كان بهيًّا بثوبه الأبيض اللامع، والمتدلّي حتّى قدميه، الذي يشدّه وشاحٌ أحمر، ورأسه مكلّلٌ بالورد، حتّى بدا كالملاك! وسألني: "علامَ أنت صامتٌ؟ ألستَ ذلك الرجل الذي لا يخيفه شيءٌ، ويواجه ببسالةٍ الافتراءات والعداوات، والقلق، وكلّ أصناف المخاطر؟ فلمَ تلتزم الصمت؟

وسألته متمتمًا:

– هل أنت دومينيك ساڤيو؟

– أجل. ألم تتعرَّفني؟ لقد جئت لكي أكلّمك، مثلما طالما تحدّثنا على الأرض، وأثبتَّ لي مودّتك! ألم أُقابل مودّتك بمحبّةٍ حارّةٍ؟ وكم كانت ثقتي بك عظيمةً!"

– لمَ أنتَ ترتدي هذه الحلّة البهيّة، ولمَ تتمنطق بهذا الوشاح الأحمر؟

حينئذٍ أنشد صوتٌ ملائكيٌّ كلمات الكتاب المقدّس: "إنّهنّ عذارى يتبعن

الحَمَل، حيثما ذهب". وأدركت أنّ هذا الوشاح الأحمر هو دليل التضحيات الكبرى التي مارسها، والاستشهاد الذي احتمله حفاظًا على فضيلة الطهارة. وما نصاعة الثوب الأبيض إلاّ دليل براءة حفاظه على طُهر معموديّته. وسألته:

– علامَ تسير أمام الآخرين؟

– أنا سفير الله. قديمًا حقّقت جمعيّتك خيرًا جمًّا. هل ترى هذا العدد الغفير من الشبّان؟ أنت وكهنتك أنقذتموهم، ودفعتموهم على درب دعوتهم، ولو أنّك امتلكت مزيدًا من الإيمان والثقة بالله، لكان عددهم أكبر بكثيرٍ!

– وماذا عن الحاضر؟

حينئذٍ قدّم لي دومينيك أُضمومة زهورٍ: ورودٍ، وبنفسجٍ، وزنابق، وسنابل قمحٍ، قائلاً: "قدّمها لأبنائك: الورد يمثّل المحبّة، والبنفسج التواضع، والزنبق العفّة، والسنابل محبّة الإفخارستيّا". فسألته:

– وماذا عن المستقبل؟

– إعلم أنّ الله يُعدّ أُمورًا كبرى للجمعيّة التي ينتظرها مجدٌ عظيمٌ. ولكن اسهر على ألاّ يحيد الساليزيّون عن الدرب الذي رسمتَه لهم. فإذا وفوا لرسالتهم السامية، سيكون المستقبل رائعًا، وخصبًا خلاص الكثيرين، شرط أن يكون أبناؤك متعبّدين للسيّدة العذراء القدّيسة، وأن يلتزموا بفضيلة العفّة، التي تروق كثيرًا للربّ.

– وماذا عنّي؟

– آه! لو علمتَ كم من معارك ما زال عليك خوضها!

ومددتُ يدي كي أُمسك بذلك الفتى القدّيس، ولكنّ يده أفلتت منّي، كما لو كانت ريحًا. وفشلتُ في تقبيله.»

يانصيب عام ١٨٥٧

كانت أعمال البناء الواسعة التي قام بها دون بوسكو، عام ١٨٥٦، قد أثقلت كاهله بديونٍ باهظةٍ، فنشر، في غروب تلك السنة، رسالةً عامّةً بيّن فيها وقوعه في ضائقةٍ خانقةٍ، فضلاً عن التزاماتٍ يوميّةٍ لا مهرب منها. وأهاب بأصحاب الأيادي البيضاء بمساعدته على غوث أعدادٍ غفيرةٍ من الأولاد الفقراء الذين انتشلهم من براثن المخاطر، واستقبلهم في أوراتواره.

وما لبث أن اقتنع بأنّ يانصيبًا حسن الإعداد، هو السبيل الأمثل لتوفير ما يحتاج إليه من مالٍ. وفي مطلع عام ١٨٥٧، التأمت لجنةٌ من عشرين عضوًا، كان سبعةٌ منهم يحملون ألقاب نُبلٍ، لهذه الغاية. واستنفر دون بوسكو شخصيّاتٍ عديدةً، كي يتبنّوا ويدعموا عمليّة اليانصيب، ويقدّموا لها الجوائز.

ثمّ نشر لائحةً مطبوعةً تحتوي أسماء مئةٍ وأربعين مشاركًا ومشجّعًا، منهم نوّابٌ، وأعضاء مجلس شيوخٍ، ومدراء مصارف، وكتّابٌ بالعدل، ومحامون، وأطبّاءُ، وأرفق باللائحة بيانًا مفصّلاً بإنجازات أوراتوار ڤلدوكّو، من دروسٍ نهاريّةٍ وليليّةٍ، ومأوًى للفتيان المهمَلين، وللأيتام الذين خلّفتهم جائحة الكوليرا. ونشر، أيضًا، لائحةً تتضمّن ٢٩٣٥ هديّةً، وأسماء الذين تبرّعوا بها. وأرسل بطاقات اشتراكٍ باليانصيب إلى نوّابٍ وأعضاء مجلس الشيوخ، ولكنّ فئةً منهم معادين للدين، أعادوها إلى مرسلها.

وبناءً على طلب دون بوسكو، مُدِّد موعد السحب من ٥/٤ حتّى ٧/٦، ورُخِّص له بإضافة خمسةٍ وعشرين ألف بطاقةٍ جديدةٍ. وكانت نتيجة اليانصيب وفيرةً، مع أنّ مبلغها لم يُنشَر.

وجديرٌ بالتنويه أنّ وزير الداخليّة، آنذاك "أوربانو راتّازّي" (Urbano Rattazzi)، الذي اشتُهر بعدائه للأديرة والكنائس كان قد أكبر إنجازات دون بوسكو حيال الفتيان المهمَلين، وزار أوراتوار ڤلدوكّو، وأغدق عليه مساعداتٍ من ميزانيّة وزارته، وأرفق مِنَحَه بهذا البيان:

« رغبةً في الدلالة على الاهتمام الخاصّ، الذي تعلّقه الحكومة الملكيّة، على التطوّر الأخلاقيّ للفتيان المهمَلين، في معهد ڤلدوكّو، الذي افتتحه وأداره بحنكةٍ وجدارةٍ دون بوسكو كلّيّ الوقار، وبعد اطّلاعنا على الصعوبات الماليّة التي يواجهها هذا المعهد، واعترافًا منّا بأنّ مبلغ ألف ليرا الذي منحناه له، هو أدنى بكثيرٍ من احتياجاته الجمّة، فقد أصدرنا، اليوم، قرارًا بمنحه ألف ليرا آخر، من ميزانيّة وزارتنا.»

وبعد شهرٍ أودع الوزير فتًى في أوراتوار ڤلدوكّو، وأهدى المعهد لوحاتٍ زيتيّةً فنّيّةً لتزيينه. وأرسل له دون بوسكو أربع مئة بطاقة يانصيبٍ، فسدّد قيمتها من ميزانيّة الوزارة، مشيدًا بالكاهن المستحقّ، الذي أنشأ وطوّر ثلاثة أوراتوارات في أحياء مختلفةٍ من تورينو، للعناية بفتيانٍ محتاجين إلى مأوًى، وتربيةٍ، ورعايةٍ، وتثقيفٍ، ووفّر لهم كلّ هذه المستلزمات.

ثمّ قام دون بوسكو بزيارة شكرٍ إلى الوزير، وتناول حديثهما قضيّة مستقبل الأوراتوار، فاقترح الوزير إنشاء جمعيّةٍ علمانيّةٍ، لا تحمل صبغةً دينيّةً كفيلةً بدرء مقاومة الكثيرين.

واعتزم دون بوسكو المثول إلى روما، بغية بحث هذا الأمر مع البابا پيّوس التاسع، واختار رفيقًا له الساليزيّ الأوّل، ميشيل روا، الذي كان، حينذاك، في العشرين من عمره، وكان أكثر معاونيه ثقةً، وأشدّهم مراسًا، وقد باشر دراسة اللاهوت.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

من روائع المحبّة

يوم حرّيةٍ للمساجين

رأينا كيف كان وزير الداخليّة "راتّازّي" (Rattazzi)، رغم معاداته للدين، يقدّر عاليًا عمل دون بوسكو من أجل المجتمع، فهو بإيوائه الأولاد المهمَلين، وتثقيفهم وتربيتهم، كان يزيح عن كاهل الحكومة جبالاً من الهموم.

وكان قد أُنشئ في تورينو، عام ١٨٤٥ سجنٌ مهمّته إصلاح الفتيان الجانحين، يتّسع لثلاث مئة سجينٍ. واعتاد دون بوسكو الاختلاف إلى ذلك السجن، وعقد علاقات مودّةٍ مع أولئك الفتيان، المحكومين، عمومًا، بجُنَح سرقاتٍ طفيفةٍ، وتسكّعٍ.

وكان السجناء قد فُرِزوا إلى ثلاث فئاتٍ: "المراقَبون عن كثبٍ، الذين كانوا يُسجنون، ليلاً، في زنزاناتٍ، والمراقَبون العاديّون، الذين كان يجري تقويمهم بالتدابير الشائعة في السجون، وأخيرًا فئة المهمَلين، لأنّ أولياءهم ملّوا من إزعاجهم فسلّموهم للشرطة.

وبمناسبة صيام عام ١٨٥٥، ألقى دون بوسكو على جميعهم دروسًا دينيّةً معمّقةً، تلتها ثلاثة أيّام رياضةٍ روحيّةٍ، انتهت باعترافات شبه جماعيّةٍ. ومكافأةً لموقفهم المثاليّ، وعدهم دون بوسكو بمكافأةٍ استثنائيّةٍ، ثمّ قابل مدير السجن، واقترح تنظيم نزهةٍ شيّقةٍ لهؤلاء الفتيان الذين كان السجن يدمّر نفوسهم. وفوجئ المدير بذلك الاقتراح، وحذّر الكاهن بأنّه – هو المدير – سيكون مسؤولاً عن كلّ سجينٍ يفرّ، ولكنّ الكاهن وعده، بثقةٍ وحزمٍ، بأن لا أحد منهم سيفرّ. واختصارًا للنقاش، صارحه، بأنّ الموافقة على هذه النـــزهة، محصورةٌ بوزير الداخليّة.

فقصد دون بوسكو الوزير، وبسط أمامه مطلبه وضماناته. ووافق الوزير اقتناعًا

منه بالخير الذي ستؤتيه هذه النــزهة للسجناء. وأكّد أنّه سيسهر، شخصيًّا، على مواكبة حرّاسٍ، في زيٍّ مدنيٍّ، على امتداد النــزهة. ولكنّ دون بوسكو أكّد، حازمًا، أنّ شرطه الوحيد هو عدم وجود حرسٍ، وأنّه يتحمّل كامل المسؤوليّة عن النتائج، واستعداده لاحتلال مكان أيّ سجينٍ يفرّ.

وضحك الكاهن، والوزير الذي أكّد قدرته على استعادة كلّ سجينٍ قد تسوّل له نفسه الفرار. ولكن دون بوسكو، قال بثقةٍ:

- وأنا أؤكّد لك أنّي سأعيدهم، جميعهم، ودعاه إلى المراهنة. وإثر لحظات تفكيرٍ، قال الوزير:

- حسنٌ. قبلتُ. إنّي واثقٌ بك، وواثقٌ، أيضًا، بأنّ حرّاسي لن يتأخّروا في القبض على الفارّين.

وعاد الكاهن إلى السجن زافًّا بشرى النــزهة الموعودة. فامتلأت الأجواء بصيحات الفرح. وما إن ساد الصمت حتّى خاطبهم دون بوسكو قائلاً:

"لقد وعدتُ بشرفي أنّكم، من أوّلكم إلى آخركم، ستسلكون سلوكًا منتظمًا ولن تسعوا إلى الفرار. وقد وعدني الوزير بشرفه، أن لا يراقبكم أيّ شرطيّ، لا بزيٍّ رسميٍّ، ولا بزيٍّ مدنيٍّ. وعليكم أنتم الآن أن تعدوني. فإن فرّ واحدٌ منكم، سيقع العار عليّ، ولن يُسمَح لي، بعدئذٍ، أن أدخل إلى هنا. فهل بوسعي أن أثق بكم؟".

وبعد تبادل التشاور، أعلن الكبار منهم، باسم الجميع: "نحن نعِد بعودتنا، جميعًا، وبأن نتصرّف بلياقةٍ".

وكان اليوم التالي ربيعيًّا لطيفًا. وانطلق الفتيان السجناء على دروبٍ ريفيّةٍ يتوثّبون ويجرون ويصيحون، ودون بوسكو وسطهم يمازحهم، ويروي لهم قصصًا طريفةً، فيما الحمار المحمّل بالمؤونات يسير أمامهم.

ولّما وصلوا إلى مقصدهم أقام الكاهن دون بوسكو القدّاس، ثمّ تناول الجميع طعامهم على العشب بجانب حافّة ساقيةٍ. وبعد زيارةٍ إلى حديقةٍ، وقصرٍ ملكيٍّ، تناولوا عصرونيّةً، وعادوا مع غروب الشمس. وكان الحمار قد تخفّف من حمله، ونال التعب من دون بوسكو، فساعده الفتيان على امتطائه، وجرّوا الرسن حتّى باب السجن، وهم ينشدون.

وصافحهم دون بوسكو فردًا فردًا، وودّعهم، وعاد إلى مقرّه، وفي حلقه غصّة عدم تمكّنه من تحريرهم سوى يومٍ واحدٍ.

وعلى نقيضه كان وزير الداخليّة في نشوة السرور عندما قُدِّم له تقريرٌ بما حدث. واستفسر دون بوسكو، لاحقًا: "ما سرّ نجاحك، حيث نفشل نحن؟". فأجابه: "لأنّ الدولة تأمر وتعاقب، فيما أنا أحبّ هؤلاء الصغار. وأنا، بصفتي كاهنًا، أملك قوّةً أخلاقيّةً، لا تستطيعون، أنتم، فهمها".

في مواجهة الكوليرا

عام ١٨٥٣ كان دون بوسكو غائصًا في الديون حتّى عنقه، ولا يجد إلى الوفاء بدَيْنه سبيلاً. وفي مطلع عام ١٨٥٤ أرسل نداء استغاثةٍ إلى شخصيّةٍ سياسيّةٍ جاء فيها: "إنّ الغلاء المتصاعد باستمرارٍ في أسعار الأغذية، وتكاثر أعداد الشبّان المعدَمين المهمَلين، وتضاؤل حجم المساعدات، كلّ ذلك وضعني في حالة عَوَزٍ، لا أستبين منها مخرجًا. فوحده حساب الخبّاز عن ثلاثة أشهرٍ ارتقى إلى ألفٍ وستّ مئة فرنكٍ، ولست أهتدي إلى الحصول على فلسٍ واحدٍ، ومع ذلك يجب إطعام الجميع...".

ومع ذلك لم يفقد عزيمته، ولا ثقته بيسوع وأمّه. وفي حومة كلّ تلك الهموم المادّيّة لم يهمل دون بوسكو المشروع الساليزيّ، وحلمه بجعله رسالةً عالميّةً.

وفي غمرة تلك المشاريع والعقبات، عاد وباء الكوليرا، الذي كان قد اجتاح إيطاليا في ثلاثينات القرن التاسع عشر، فتسلّل إليها، وظهرت له علاماتٌ في مدينة جنوى، في منتصف شهر تمّوز ١٨٥٤، مهدّدًا غزو تورينو. وما لبث أن قرع المسؤولون عن المدينة أجراس الإنذار، داعين إلى اتّخاذ تدابير الوقاية في المنازل والمحترفات، والحوانيت. وأُوجدت لهذه الغاية مستشفياتٌ واسعةٌ من أجل احتضان المصابين وحجرهم. وأعلنت بلديّة ڤلدوكّو، عن مكانٍ يتّسع لمئة وخمسين مصابًا، وأُلحقت به صيدليّةٌ، ومطبخٌ، ومراحيض، وأمكنة عزلٍ وتطهيرٍ من الجراثيم، ومساكن للممرّضين والمعالجين. وأسهبت الصحافة في تبيان مظاهر ومخاطر تلك الجائحة، وارتفعت أنظار الاسترحام صوب السماء. وفي ڤلدوكّو أُطلِق نداء استغاثةٍ نحو سيّدة العزاء.

وسارع دون بوسكو إلى تحصين أوراتواره، ورغم الضائقة الماليّة، الآخذة بخناقه، أكثر من ابتياع الثياب الداخليّة، وأغطية الأسرّة، متوقّعًا الحاجة إلى الإسراف في استبدالها. وأبعد أسرّة الفتيان بعضها عن بعضٍ، درءًا لانتشار العدوى. وبتاريخ الخامس من شهر آب أخطر دون بوسكو عمدة المحلّة، بأنّ التدابير الاحترازيّة التي اتّخذها، حفاظًا على نظافة نزلائه، حمّلته ديونًا يتخطّى مجموعها ألفي فرنك. ونشرت وسائل إعلامٍ مقالاً تؤكّد هذه النفقات الباهظة. وفضلاً عن ذلك دعا الجميع إلى التماس حماية أمّ الله بحرارةٍ.

وفي مواجهة تلك المحنة تميّزت رهبانيّاتٌ عديدةٌ بتقديم معوناتٍ قيّمةٍ، لم تقتصر على خدماتٍ روحيّةٍ، بل خاطر كثيرٌ من أعضائها بحياتهم مقدّمين خدماتٍ طبّيّةً وعلاجيّةً. فأعضاء القدّيس ڤنسان دي پول أسدوا تضحياتٍ جسيمةً، وتبرّعوا بثيابٍ وأغطيةٍ نظيفةٍ بوفرةٍ، فضلاً عن المال لشراء الخبز واللحم، وفضلاً عن العزاء الذي كان حضورهم وعطفهم يبثّانه في نفوس من يتلقّون العناية.

أمّا دون بوسكو الذي كان يتخبّط في ضائقةٍ ماليّةٍ خانقةٍ، فقد قدّم أثمن ما كان الوضع المأساويّ يقتضيه، قدّم سواعد أبنائه للعلاج. وقد تطوّع لهذه المهمّة، في مرحلةٍ أولى، أربعة عشر عنصرًا من خيرة شبابه، ومن ساليزيّيه الأوائل الذين تعلّموا مكافحة كلّ مراحل الوباء، منذ هجمته، وكلّ تطوّراته. فئةٌ منهم قصدت بيوت المصابين، وفئةٌ أخرى عملت في المشافي والمحاجر. وسرعان ما انصبّت المطالبات بخدماتهم ليلَ نهارَ. وكان الأب شديد الحرص على إحاطتهم بكلّ تدابير الوقاية. ولم يكن يحجم عن تقديم التضحية ببياضات الأوراتوار للمصابين بالكوليرا.

وقد كلّف أمّه بتضحياتٍ شاقّةٍ، وهي قدّمتها بسخاءٍ بطوليٍّ.

وكان قد أضاف إلى لائحة الأربعة عشر متطوّعًا الأولى ثلاثين اسمًا، ثمّ رفدهم بأربعةٍ آخرين.

وفضلاً عن كلّ ذلك جاء إلى أوراتواره بالمساكين الصغار الذين سلبهم الوباء آباءهم وأمّهاتهم. وقد شوهد، آتيًا ذات يومٍ بستّة عشر صبيًّا صغيرًا، جمعهم من هنا وهناك، حتّى بلغ عدد الأيتام الذين ملأوا بيته خمسة وتسعين صغيرًا، وكان عليه إيواؤهم وإطعامهم وإكساؤهم.

وبحماية الربّ والسيّدة العذراء لم يُصَبْ أحدٌ من متطوّعيه بعدوى أو مكروهٍ، غير أنّ ميزانيّته رزحت تحت وقرٍ باهظٍ.

الفَصْلُ الخَامِسُ

نضالٌ إيمانيٌّ

دون بوسكو والڤوديّون

"الڤوديون" هم فئةٌ من البروتستانتيّين والكلڤانيّين المتشدّدين الذين كانوا يعلنون عداءً سافرًا وشرسًا للكنيسة الكاثوليكيّة، قولاً وفعلاً، وكانوا يؤلّفون النسبة العظمى من منطقة "البييمونت" الإيطاليّة. واسمهم مشتقٌّ من كنتون "ڤود" (Vaud) السويسريّ. ومن أكثر من تعرّضَ لعدائهم القدّيس فرنسوا الساليزيّ.

وكان أثرياء بروتسنتيّون يموّلون نشراتهم التي يحشونها افتراءاتٍ خبيثةً على الكنيسة الكاثوليكيّة. فانبرى دون بوسكو لدحض تلك الافتراءات من خلال نشرته "قراءاتٌ كاثوليكيّةٌ"، وبفضل قلمه الساحر، وحججه اللاهوتيّة المتينة، المتمكّنة، وأدبه الرفيع، نجح في اجتذابه ألوف القرّاء، والنفاذ إلى أذهانهم، وقلوبهم، وقناعاتهم، لا سيّما أنّه كان يدعم أقواله بأمثال حيّةٍ، وبإبرازه روعة وجوه أبطالٍ وقدّيسين كانوا، بفضل التزامهم بتعاليم الإنجيل الأصيلة، وتعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة المستقاة من الإنجيل، قد قدّموا للبشريّة جمعاء أجلّ الخدمات، أمثال القدّيس فرنسيس الساليزيّ، و ڤنسان دي پول، وشبّانٍ عايشوه، مثل رفيقه "لويجي كومولّو"، وتلميذه "دومينيك ساڤيو"، اللذين رغم اختطاف المنيّة لهما في ريعان شبابهما، عطّرا الكون بعبير قداستهما، أُسوةً بسابقهما ومثالهما القدّيس "لويس دي غونزاغ".

نشراته هذه كانت قد ضمنت له أربعة عشر ألف مشتركٍ، وتناقلها مئات ألوف القرّاء، التهموا موادّها بنَهَمٍ.

وسعيًا إلى اكتساب مزيدٍ من القرّاء، وإبعادهم عن التعاليم الڤوديّة، وضع دون بوسكو تقويمًا سنويًّا، ضمّ معلوماتٍ مناخيّةً، ولائحةً بالمهرجانات، ووصفاتٍ

مطبخيّةً، وشرحًا لتحويل العملات، وتحويل القياسات القديمة والأوزان المعقّدة، إلى قياساتٍ عُشريّةٍ كانت الدولة قد فرضت استخدامها في مهلة خمس سنواتٍ، فضلاً عن مقالاتٍ دينيّةٍ، ونكاتٍ طريفةٍ، وخواطر لاذعةٍ، وخواطر أدبيّةٍ. وقد لاقى هذا التقويم رواجًا كاسحًا، ما انفكّ يتنامى سنةً فسنةً، مثل الرواج الذي تلقاه، في أيّامنا توقّعات الأبراج.

ووضع دون بوسكو، أيضًا، كتاب "التاريخ المقدّس"، و"تاريخ الكنيسة" الذي لقي ترحيبًا واسعًا، ووضع مسرحيّاتٍ ألقت الأضواء على مواضيع روحيّةٍ وعقائديّةٍ تتماشى مع تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة.

بادئ الأمر سعى الڤوديّون إلى شراء قلم دون بوسكو، وإزاحته عن طريقهم بإغرائه بالمال، فجاءه قسّيسان ڤوديّان، وأهابا به العزوف عن إصدار نشر "قراءات كاثولكيّة". ولكنّهما عادا خاليَي الوفاض. وفي مساء يوم أحدٍ آخر، جاءه رجلان، وشرعا يعبّران عن إعجابهما بأسلوبه في الكتابة الذي يستسيغه القرّاء، وزيّنا له الشهرة التي سيلقاها، إذا هو حصر كتاباته في مواضيع التاريخ والجغرافيا والفيزياء، مدّعيَيْن أنّ المواضيع التي يتناولها قد غدت ممجوجةً، ومبتذلةً، مردَّدةً على صفحات النشرات الرخيصة، وأبديا استعدادهما لتمويل كتب التاريخ العامّ التي سيصدرها، وأرفقا عرضهما بالتلويح بأربع ورقاتٍ من فئة الألف ليرا لكلٍّ منها، شرط عزوفه عن إصدار نشراته التي وصفوها بالنافلة. فأجابهما، حازمًا: "إن كانت منشوراتي نافلةً، فلمَ تدفعان لي مالاً، كي أعزف عنها؟ وأنا، لمّا أصبحتُ كاهنًا وقفت ذاتي على خدمة مصالح الكنيسة، والفقراء. ولن أتخلّى عن هذه الخدمة، من خلال نشر "قراءات روحيّة". حينئذٍ تحوّلت نبرة المفاوضات إلى نبرة تهديدٍ. وقال له الزائران: "أنت مخطئٌ. فكّر مليًّا. وتساءل هل إذا خرجت من هنا ستستطيع ضمان عودتك سالمًا؟" فهبّ دون بوسكو واقفًا، ونادى معاونه الأمين، شديد المراس "پوتّزيتّي"،

وقال له: "اقتد هذين السيّدين إلى الباب الخارجيّ". ولكنّهما أنذراه، وهما يخرجان قائلين: "لنا لقاءٌ آخر مختلفٌ". وأدرك دون بوسكو أنّ القُوديّين يُعدّون مؤامرةً للقضاء عليه جسديًّا. ومُذّاك أعرضوا عن سلاح المال والقلم والحجّة، واختاروا أسلوب الشتائم والافتراءات، والأذى الجسديّ والجريمة.

فذات مساءٍ، إذ كان يلقي دروسًا على ثلّةٍ من الشبّان، جاءه شخصان، ودعواه إلى سرير محتضرٍ في نزل القلب الذهبيّ القريب، من أجل منحه الأسرار الأخيرة. ولم يرتَح الأب للشابّين، ولا للنــزل المشبوه، فأصرّ على أن يرافقه اثنان من شبّانه الأشدّاء، فاحتجّ الرجلان بأنّ هذين المرافقين قد يكونان مصدر خوفٍ وإزعاجٍ للمحتضر، وأكّدا استعدادهما لمواكبته ذهابًا وإيابًا. وضاعف موقفهما هذا ريبة القدّيس، ووعد ببقاء مرافقيه خارج غرفة المريض. وفي النــزل أُدخل الكاهن، أوّلاً، إلى قاعةٍ في الطبقة السفلى، حيث كان رجالٌ ينهون عشاءهم، ويتناولون الكستناء وقدّموا للكاهن بعضًا منها فرفض، وحينئذٍ ملأوا له كأس شرابٍ من زجاجةٍ غير تلك التي كانوا هم يشربون منها، وأجبروه على ابتلاعها، وارتاب دون بوسكو بمحاولتهم تسميمه، أو إفقاده صوابه، فرفض حتّى تذوّق الشراب قبل أن يتجرّع الكأس واحدٌ منهم. حينئذٍ عزفوا عن إكراهه تجرّع الشراب، قائلين: "حان الآن أوان الاهتمام بالمحتضر، وأُصعد سلّمًا، فوجد، في غرفةٍ، على سريرٍ أحد اللذين دعواه إلى ذلك النــزل، والذي قال له ضاحكًا: "سأعترف غدًا صباحًا". وتبيّن لاحقًا أنّ قُوديًّا قد أغرى الأوغاد باستدراج الكاهن إلى النــزل، وإلى جعله يتجرّع خمرةً مغشوشةً قد تصيبه بمكروهٍ، وبجعله موضع سخريّةٍ. وكان رفاقٌ لدون بوسكو قد تعرّضوا لمثل هذه المحاولات الشيطانيّة.

في هذه الأثناء، كان يسوعيّون ينشرون ردودًا على افتراءات القُوديّين بأسلوبٍ حادٍّ، في حين كان دون بوسكو أشدّ ميلاً إلى أسلوب شفيعه فرنسوا الساليزيّ

الوديع المستند على المنطق، والحجج الدامغة، والخالي من التجريح، ولكن بعيدًا عن المساومة والتراخي بشأن سلامة العقيدة.

وجديرٌ بالتنويه أنّ القدّيس فرنسوا الساليزيّ كان قد عُيِّن أُسقفًا على منطقة جنيڤ السويسريّة، ولكنّ "الڤوديّين" منعوه بأساليب التهديد العنيف من استلام رعيّته هناك، فاضطرّ إلى اتّخاذ مقرٍّ له في مدينة "أنسي" (Annecy) الفرنسيّة، القابعة على الحدود بين فرنسا وسويسرا، وقابل خصومه بالمحبّة والوداعة. ولّما لم يجدِ أسلوبه اللاعنيف نفعًا جرّد قلمه، وبعمله اللاهوتيّ الغزير، وبحججه الدامغة، فضح خيانة "الڤوديّين" لتعاليم الإنجيل الجوهريّة الأصيلة، التي التزمت بها الكنيسة الكاثوليكيّة.

وعلى غراره نهج دون بوسكو، بأسلوبه الهادئ، المشبع قدرة إقناعٍ. ولكنّ الڤوديّين أعرضوا عن قرع الحجّة بالحجّة، ومواجهة المنطق بالمنطق، واستشرسوا في العنف، واستأنفوا محاولاتهم الإجراميّة. فدعوه، ذات مساءٍ، إلى منح الأسرار الأخيرة لعجوزٍ محتضرةٍ. ولّما حضر إلى المكان تبيّن أنّ المحتضرة المزعومة هي في أحسن حالٍ، ومن حولها أربعة أوغادٍ مسلّحين بهراواتٍ. وافتعلت العجوز مشكلةً، حسب المؤامرة المُعدّة، أثارت عراكًا مصطنعًا بين الأوغاد، فأخذوا يتضاربون موجّهين ضرباتهم صوب الكاهن الذي أوقع المصباح الذي كان يضيء الغرفة، وأوقعها في ظلامٍ دامسٍ، ورفع كرسيًّا فوق رأسه، وتسلّل خلسةً وبتؤدةٍ إلى الخارج حيث كان ينتظره أربعةٌ من شبّانه الأشدّاء.

وحاول "الڤوديّون" التعرُّض لنـــزلاء الأوراتوار، فجنّدوا جماعاتٍ منهم، كانوا يترصّدون القادمين إلى الكاپيلاّ، ويُمعنون استهزاءً بهم وبطقوس الكاثوليكيّين، مختلقين بشأنهم كلّ ألوان الأكاذيب والافتراءات، ويجهدون في استمالتهم بالمال والهدايا، ويوزّعون عليهم كتبًا محشوّةً تحقيرًا للعقيدة الكاثوليكيّة. ولكنّ معظم الفتيان كانوا يلمسون في محاولات الڤوديّين نذالةً، وبعدًا عن المحبّة المسيحيّة التي

عاشوها مع دون بوسكو، وتلقّنوها منه ومن مساعديه. فكانوا يعودون إليه وإلى "دون كپريانو" رئيس أوراتوار القدّيس لويس دي غونزاغ ومعاونه، ويطلعوهما على ما سمعوا من زبانيّة الڤوديّين، ويعطوهما الكتب التي تلقّوها منهم.

وحيال فشل "الڤوديّين" في اجتذاب تلاميذ دون بوسكو، عادوا إلى أساليب الأوغاد المجرمين. ففي يوم أحدٍ رجموا الأوراتوارات بالحجارة، وبما أنّ الشرطة لم تتدخّل، أوغلوا في الإجرام، وأطلقوا الرصاص، يوم الأحد التالي، على كاپيلاّ أوراتوار القدّيس لويس، فيما كان دون كپريانو، ودون بوريل يرتديان حللهما الكهنوتيّة استعدادًا لإقامة القدّاس.

وترصّد الڤوديّون دون بوسكو، وتبيّن لهم أنّه غالبًا ما كان يعود من مهمّاته الكهنوتيّة، وزياراته للمرضى، ليلاً، مجتازًا أماكن مقفرةً تغمرها الأشواك والشجيرات البرّيّة، وتفصل بينها أسيجةٌ. وكانت تلك الأماكن مخابئ مؤاتيةً للّصوص وقطّاع الطرق والمجرمين. وغالبًا، ما كان الكاهن يستصحب معه شابًّا أو شابّين من تلاميذه، يتحلّيان بالشجاعة والبأس، تحفُّظًا من المفاجآت. ولكنّ أعداءه كلّفوا عصاباتٍ من المجرمين واللصوص، من أجل مهاجمته وإيذائه، وحتّى القضاء عليه. غير أنّ اللصوص والمجرمين كانوا يعملون جماعاتٍ منظّمةً، وكان عددهم يتغلّب على قلّة المدافعين، بيد أنّ العناية الإلهيّة زوّدته بمُدافعٍ، يوفّر له حمايةً فريدةً، في شكل كلبٍ يردّ عنه أذى الكلاب البشريّة وذئابها. وذات مساءٍ، إذ كان الكاهن عائدًا وحيدًا، فاجأه حضور كلبٍ ضخمٍ جاءه متوثّبًا والتصق به. كان ارتفاعه يبلغ نحو مترٍ، ويكسوه شعرٌ كثيفٌ، رماديّ اللون. وللوهلة الأولى اعترى الكاهن الخوف، وجمد في مكانه، ثمّ داعب حارسه الذي رافقه إلى الأوراتوار، وأطلق عليه دون بوسكو اسم "الرماديّ" (Grigio). وفي الحال نشأت بينهما علاقة صداقةٍ وثيقةٍ.

ومنذئذٍ غدا الرماديّ لدون بوسكو الصديق الملازم، والحامي من الأخطار. وذات ليلةٍ معتمةٍ، ضبابيّةٍ، كان دون بوسكو ماضيًا من مزار سيّدة العزاء إلى مركز "كتُّلينغو". ولحظ أنّ رجلين يسيران أمامه، وعلى مقربةٍ منه، وقد نظّما مسيرهما على وقْع مسيرته، واستشمّ نيّتهما الإجراميّة، فلجأ إلى منــزلٍ مأهولٍ، ولكنّهما سرعان ما شعرا بحيلته، فانقضّا عليه وألبسا رأسه معطفًا، وكتما صوته بمنديلٍ، فلم يستطع الاستغاثة. وظنّ أنّ ساعته قد أزفت. وإذ بالرماديّ ينبع من الظلمة، وينقضّ على أحدهما، مضيّقًا بمخالبه على عنقه، ومهدّدًا الآخر بشدقيه، زائرًا زئير دبٍّ هائجٍ. وأخذ الرعب بالمجرمَيْن كلّ مأخذٍ، فتوسّلا الكاهن أن يُبعد كلبه عنهما، ورفعا المعطف عن رأسه. حينئذٍ طلب منهما وعدًا بالعزوف عن مسّه بأذًى، فوعدا وهما يرتجفان خوفًا.

وفي ليلةٍ أُخرى، كان رجلٌ مسلّحٌ بمسدّسٍ، قد كمن له وراء شجرةٍ كثيفة الأغصان، وترصّده حتّى مرّ فأطلق عليه طلقتَيْن. ولكن المسدّس لم يعمل، فانقضّ عليه، كي يقتله بيديه، وإذ بالرماديّ ينقضّ على المجرم الذي لاذ بالفرار. وبعد أن نال الرماديّ كفايته من مداعبات الكاهن، واكبه حتّى سُلّم غرفته.

ولم يطّلع جميع نزلاء الأوراتوار على علاقة الرماديّ بدون بوسكو. واتّفق أن اقتحم الرماديّ فناء الأوراتوار، وأخاف النــزلاء الجدُد، فحاولوا رجمه بالحجارة، ولكنّ تلميذًا قديمًا نهاهم بقوله: "دعوه فهذا هو كلب دون بوسكو، فداعبوه، واقتادوه إلى قاعة الطعام، حيث كان دون بوسكو يتناول عشاءه مع كهنةٍ آخرين، ومع والدته. واعترى بعضهم خوفٌ تلقائيٌّ، فسارع الأب إلى طمأنتهم قائلاً: "لا تخافوا، فهذا الرماديّ صديقي، دعوه يأتِ إليّ". وقدّم له طعامًا ولكنّه رفض تناوله، واكتفى باتّكاء رأسه على غطاء المائدة، وكأنّه يبلّغ صديقه تحيّة المساء، ومضى.

وذات ليلةٍ دعي الأب إلى العناية بحالةٍ طارئةٍ، وكان الرماديّ قابعًا على عتبة الحجرة، وطالبه الكاهن بالابتعاد وبإفساح طريقٍ لمروره والخروج، ولكنّه رفض التحرّك بعنادٍ، واستشمّت أُمّ الكاهن خطرًا، وحذّرت ابنها من الخروج بمفرده، فلم يصغِ لها، حينئذٍ توسّلت إليه: "إذا رفضت الإصغاء إليّ فأصغِ إلى حارسك الرماديّ الأمين".

وفي اليوم التالي تبيّن أنّ قاتلاً مأجورًا، مسلّحًا بمسدّسٍ، كان يترصّد خروجه، عند مفرق الشارع.

ولم يعلم دون بوسكو، قطّ، من أين جاء الرماديّ كي يحرسه، وينقذه من غدر أعداءٍ موتورين مجرمين. وقد سألته، يومًا، بارونةٌ عن رأيه في الرماديّ، فقال، باسمًا:

"لو قلتُ إنّه ملاكٌ من السماء لبدا جوابي مضحكًا، ولكن من المؤكّد أن لا سبيل إلى وصفه بكلبٍ عاديٍّ".

وبالإجمال، ظلّ "الرماديّ" سرّيّ المنشأ، يكلأ بحمايته الكاهن الذي كرّس حياته لحماية فتيانٍ مهملين، من أخطار الفقر والإهمال، والتشرّد، والجهل، والجنوح، ومن شرّ أعداء الكنيسة، وأعداء المحبّة.

المُدافع عن البَابويّة

عام ١٨٦٠، شدّدت السلطات المدعومة من البروتستانتيّين والهراطقة حملاتها الشرسة على البابا. فشهر دون بوسكو قلمه للذود عن حياض رأس الكنيسة الكاثوليكيّة وحقوقه.

وفي رسالةٍ أنفذها دون بوسكو إلى الحبر الأعظم، تنبّأ بكوارث كبرى داميةٍ، وحقبة تدميرٍ للإيمان، وللمدافعين عنه. ولكنّها ستنتهي بنصرٍ عظيمٍ، فهو في استقرائه لتاريخ الكنيسة، كان يتوقّع أن تعقب العاصفة الهوجاء، أيّامٌ مشرقةٌ، قريبًا.

وانطلاقًا من هذه التوقّعات، أهاب بالذين وقّعوا على طلب المصادقة على نظام جمعيّة فرنسوا الساليزيّ، قبل إرساله إلى رئيس الأساقفة أن يَعِدوا رسميًّا، نظرًا للظروف المأساويّة التي تجتازها البلاد، بالالتزام بهذا النظام، وإذا منعتهم ظروفٌ قاهرةٌ من إعلان نذورهم، فعلى كلٍّ منهم، حيثما يكون، حتّى إذا تفرّقوا جميعهم، ولم يبقَ سوى اثنين، بل حتّى إذا بقي واحدٌ فقط، السعي إلى تقدّم الجمعيّة، والالتزام بنظامها، بقدر استطاعته.

واتُّهم دون بوسكو بخيانة الحرّيّة التي أُعطيت له، ومع أنّه لم يكن له حزبٌ يتظاهر في الشارع، ولا يحمل سلاحًا ظاهرًا، غير أنّه اتُّهم بشنّ حربٍ صامتةٍ، سرّيّةٍ، شديدة الخطورة.

وداهم مقرَّه نحو عشرين مفتّشًا، بحثًا عن وثائق تدينه بالتآمر مع رئيس الأساقفة المنفيّ، ومع الدوائر الڤاتيكانيّة. واستمرّ التفتيش، منذ الساعة الثانية بعد الظهر حتّى السادسة مساءً. وذكر صحافيٌّ، اتّفق وجوده في الأوراتوار، آنذاك: "من كلّ

جانبٍ لم نكن نرى سوى وجوهٍ قبيحةٍ، وشوارب جسيمةٍ، كفيلةٍ بإزعاج الشيطان نفسه. وانتهى التفتيش بمحضرٍ، أقرّ بعدم العثور على أيّ دليل إدانةٍ. وإثر ذلك أخبر دون بوسكو الذين توافدوا للاطمئنان عنه، بأنّه فاجأ المفتّشين بإظهاره الاطمئنان والضحك، والمزاح معهم، وبتحدّثه إليهم عن كتبه، وبتقديمه مرطّباتٍ لهم. وهكذا أصبح الضحيّةُ بطلاً. وإثر صلاة أحد العنصرة، الواقع غداة يوم التفتيش، تعالت هتافات "عاش دون بوسكو".

ومن الطبيعيّ أن تُحدِث نتيجةُ التفتيش صدمةً لأعداء دون بوسكو وأعداء الكاثوليكيّين عمومًا، فظلّوا ينشرون عن جمعيّته الشكوكَ والاتّهامات بمناقضة الأفكار الليبراليّة، التي كانت الدولة الثوريّة تسعى إلى فرضها على المواطنين. وسعوا إلى تأليف لجنةٍ ثلاثيّةٍ، ضمّت سكرتيرًا من وزارة الداخليّة، وآخر من وزارة التعليم، وأستاذ اختزالٍ قام مقام أمين سرّ اللجنة.

وحضرت تلك اللجنة إلى ڤلدوكّو، حين كان دون بوسكو غائبًا، وتفقّدت صفوف الدراسة في طبقات البناء الثلاثة، واستوضحت المعلّمين عن الشهادات الدراسيّة التي يحملونها، وخاطبوا الطلاّب محاولين تخويفهم. وطرحوا عليهم أسئلةً كفيلةً باستخلاص الآراء السياسيّة التي يُلقّنونها. وقد أجاب أحد الطلاّب على سؤالٍ عمّا هو الأفضل حكمٌ مطلقٌ، أو حكمٌ دستوريٌّ، فقال: "الحكم المطلق جيّدٌ، إذا كان الملك صالحًا، ولكنّ الأمر يختلف إذا كان الملك ظالمًا. أنا أحبّ الحكم المطلق إذا كان الحاكم يعامل رعاياه، معاملة أبٍ لأبنائه". واستخلص أعضاء اللجنة من أجوبة الطلاّب، ومن الكتب التي ألّفها دون بوسكو والموجودة بين أيدي العديد من التلاميذ، أنّ التعاليم الليبراليّة لم تتغلغل، بعد، بالقدر الكافي إلى أذهان قاطني أوراتوار ڤلدوكّو.

وكان الكاهن قد عاد في نهاية الحملة التفتيشيّة، وصافح أعضاء اللجنة بمودّةٍ واحترامٍ. ولكنّ هذا التظاهر الاجتماعيّ لم يكن كافيًا لتهدئة الأب. وهو، بحرصه على لجم كلّ الشائعات والشكوك، دبّج رسائل إلى كلٍّ من وزير الداخليّة، ووزير التعليم، رسائل أوضح فيها أنّه، منذ عشرين سنةً، ما انفكّ يجهد في سبيل الفتيان الفقراء المهمَلين، وإيوائهم، وتعليمهم، ولم يحظَ بليرا واحدةٍ من الدولة بمثابة مساعدةٍ مادّيّةٍ، وأنّ جميع الوزراء قد ساندوه، أدبيًّا، وأنّه لم يتطرّق، يومًا، للسياسة، وأنّ في كلّ ما كتبه على مدى السنين، لم تصدر عنه كلمةٌ تعارض قوانين الحكومات. وبالتالي فخيرٌ للحكّام أن يدعموه، من لجوئهم إلى أساليب العرقلة والتخويف، التي تقيّد مشاريعه الاجتماعيّة المجّانيّة الخيّرة.

وكان ردّ فعل وزير الداخليّة فوريًّا، فقد دعاه إلى لقائه، مساء اليوم عينه، أو صباح الغد، وصارحه دون بوسكو بانزعاجه من الحملات غير المبرّرة. فإذا كان للوزير ملاحظةٌ أو عتابٌ، فليبلّغه مباشرةً عوضًا عن تهديد مؤسّسةٍ قامت على تضحياتٍ جمّةٍ، وأراحت كاهل الدولة من أعباء باهظةٍ. وأكّد اهتمامه بأداء مهامّه الكهنوتيّة، ونأيه بنفسه عن كلّ نشاطٍ سياسيٍّ.

وختم الوزير بقوله للكاهن: "يمكنك أن تعود إلى مقرّك مطمئنًّا. واسعَ إلى النأي عن السياسة، واستمرّ في خدمة الصغار الفقراء، فردّ الأب: "لا داعي إلى نصحي بالنأي عن السياسة، فأنا لم أدنُ منها قطّ".

مصائب متعاقبةٌ

كان عام ١٨٦٠ زاخرًا بالمتاعب والمِحَن التي أُضيفت إلى تلال الهموم التي كان دون بوسكو يسبح في لجّتها.

المحنة الأولى تمثّلت في حملةٍ حقيرةٍ على تربيته للشبية. فقد عثر أحد المفتّشين الذين داهموا الأوراتوار وفتّشوه على السيرة الموجزة، التي كتبها دون بوسكو عن "دومينيك ساڤيو"، واعتبر المفتّش المذكور أنّ تربية "القداسة" التي كان الكاهن يلقّنها ليست جديرةً بالسخريّة فحسب، بل بالتنديد والمحاربة. واستعان بصحافيٍّ صديقٍ له، كلِفٍ بالافتراءات، نشر، بشأن تربية دون بوسكو سلسلةً من المقالات الساخرة، التي تحمل إداناتٍ قاسيةً له. وجديرٌ بالذكر أنّ ذلك الصحافيّ قد لقي نهايةً مأساويّةً.

وكان على دون بوسكو، أيضًا، أن يحتمل خسارة زميله، ومرشده، ومعاونه ودليله، الأب كافاسّو، الذي تعرّض، هو أيضًا، لمداهمةٍ تفتيشيّةٍ، في مقرّه، يوم ٦/٦/١٨٦٠، وبعد أسبوعين توفّي في سنّ التاسعة والأربعين. فأقام له دون بوسكو جنازةً لائقةً، في كنيسة القدّيس فرنسوا الساليزيّ، بعد أن علّق على واجهات كلّ أبنية الأوراتوار، وعلى أبوابها، إعلانًا يقول:

« يا عابر السبيل، توقّف، واعلم النبأ الأليم.

فمثال الحياة الكهنوتيّة، وأبو الفقراء، ومرشد الحائرين، ومعزّي الحزانى، ومواسي المحتضرين، وخلاص المحكومين بالإعدام، وصديق الجميع، والمحسن إلى البشريّة جمعاء:

الكاهن جوزيبي كافاسّو، انتقل إلى ربّه

يوم ١٨٦٠/٦/٢٣، في سنّ تسعةٍ وأربعين عامًا.

عزاؤنا هو أنّه حلّق إلى السماء، حيث سيكون حامينا. »

وفي ذكرى الثلاثين يومًا، أقام له دون بوسكو قدّاسًا، وألقى تأبينًا، استفاض فيه بالإشادة بفضائل الفقيد، ومناقبه. ثمّ نشر خطابي التأبين اللذين ألقاهما في جنازته، وفي ذكرى الثلاثين، في نشرة "قراءات كاثوليكيّة". ثمّ وضع عنه كتيّبًا بعنوان: "الكاهن جوزيبي كافاسّو".

الفَصْلُ السَّادِسُ

الجمعيّة الساليزيّة

نشوء الجمعيّة الساليزيّة

حتّى عام ١٨٥٩، كان همّ إنقاذ أولادٍ مهمَلين تائهين، يصرف دون بوسكو عن فكرة رئاسة جمعيّةٍ دينيّةٍ، مع أنّه كان محاطًا بشبّانٍ ألبسهم بنفسه الثوب الإكليريكيّ. ومع ذلك، لم تغب فكرة الجمعيّة عن تطلّعاته. ومنذ عام ١٨٥٥ كان قد شرع يستقي أفكارًا من تجاربه ومن أنظمة الأوراتوارات الأخرى، ومن وثائق جمعيّاتٍ قديمةٍ وحديثةٍ.

واستهدى بتوجيه وزير الداخليّة الذي نصحه بتأسيس جمعيّةٍ تلتزم بالقوانين الإيطاليّة الحديثة، القاضية بأن ينعم جميع أعضائها بكلّ حقوقهم المدنيّة، فتكون بمأمنٍ من كلّ مخالفةٍ وقمعٍ.

في نهاية عام ١٨٥٧ كان نصّ النظام الساليزيّ قد تبلور، وحان وقت تصديقه من السلطات الدينيّة. وأطلع دون بوسكو عليه رئيس أساقفة تورينو المنفيّ، "فرنسوني". فنصحه بعرضه على البابا پيّوس التاسع.

ويوم ١٨٥٨/٢/١٨ يمّم دون بوسكو، برفقة الساليزيّ الأوّل، ميشيل روا، شطر روما. وبما أنّه لم يكن يوجد، حينئذٍ، قطارٌ مباشرٌ بين تورينو وروما، فقد استقلاّ قطارًا حتّى جنوى، ثمّ باخرةً حتّى مرفأ "شيڤيتاڤيكيا" (Civittavecchia)، وأوصلتهما سيّارة بريدٍ إلى روما قبَيْل منتصف ليلة ٢١ شباط.

كانا يتوقّعان المكوث شهرين، في المدينة الخالدة، ونظّما إقامتهما وفقًا لذلك. فأكبّ دون بوسكو على وضع النصّ النهائيّ للجمعيّة العتيدة، وكان ميشيل روا يبيّضه بخطّه الجميل، ويحمل رسائل الأب بنفسه إلى أصحابها.

معًا زارا معالم المدينة، ومزاراتها، ذارعين شوارعها على أقدامهما. وفي الأيّام الماطرة كانا يتّقيان البلل بمظلّةٍ واحدةٍ، ما لم يتبرّع إنسانٌ كريمٌ باقتيادهما في عربته. وكانا يجمعان بحرصٍ كلّ الملاحظات البنّاءة والطريفة التي كانا يلتقطانها، ويدوّنانها في مذكّرةٍ أراداها مفصّلةً بقدر المستطاع. وأوليا اهتمامًا خاصًّا بالاطّلاع على نشاطات الجمعيّات الخيريّة، بغية اكتساب خبراتٍ منها. وكان نبيلٌ من تورينو قد زوّدهما برسالةٍ إلى رئيس جمعيّة ڤنسان دي پول في روما، فاطّلعا على نشاطات تلك الجمعيّة، ولا سيّما على المدارس التي أنشأتها، والتي تُعنى بانتشال الأولاد المهمَلين من مخاطر الشارع، وتلقينهم مبادئ الإيمان المسيحيّ، والأخلاق المسيحيّة.

ولكن، ظلّت غاية وجودهما الرئيسة في روما، الحصول على موافقة الحبر الأعظم على نظام الجمعيّة العتيدة. فزارا الكردينال "أنتونيلّي" (Antonelli)، أمين سرّ الڤاتيكان، الذي وعدهما بإعلام الحبر الأعظم عن وجود دون بوسكو في روما، وتحديد موعد لقاءٍ خاصٍّ له.

ويوم ١٨٥٨/٣/٨، وصلت إليه رسالةٌ تخبره باستعداد الحبر الأعظم لاستقباله بين الساعة الحادية عشرة وخمسٍ وأربعين دقيقةً، والساعة الواحدة. وفي اليوم التالي، بعد إقامة القدّاس، ارتدى دون بوسكو ورفيقه الإكليريكيّ زيّ زائري البابا، واجتازا قاعاتٍ فسيحةً مؤثّثةً بذوق خالٍ من البذخ، وبمقاعد من خشبٍ عارٍ.

وأقرّ دون بوسكو، عقب تلك المقابلة، أنّه كاد يفقد توازنه عندما دعاهما أُسقفٌ إلى دخول غرفة صاحب القداسة. وكان ميشيل روا يحمل مجموعةً رائعة التجليد من نشرة "قراءات كاثوليكيّة"، هديّةً للحبر الأعظم. ومذ شاهدا الحبر الأعظم تبدّدت كلّ مخاوفهما، وارتاحت نفسهما، بمشاهدة "الإنسان الأوفر مودّةً، والأكثر جدارةً بالاحترام، والوجه الأبهى الذي يمكن لرسّامٍ رسمه".

كان دون بوسكو قد قرّر البقاء راكعًا طيلة لقائه بالحبر الأعظم. ولكنّ أمين سرّ البابا أنهضه وأجلسه بقربه. ويبدو أن أمين سرّ البابا كان قد دوّن خطأً اسم الزائر، فاختلطت على الحبر الأعظم هويّته، ولّما تبيّن له الواقع، انفرجت أساريره، واستفاض في استيضاحه عن الصغار الذين يرعاهم، وعن إكليريكيّته وأوراتواره. حينئذٍ قدّم له الأب مجلّدات "قراءات روحيّة"، وأشار إلى أنّ في الأوراتوار خمسة عشر عامل تجليدٍ بارعين، فتغيّب الحبر الأعظم لحظاتٍ، ثمّ عاد بخمس عشرة ميداليّةً لسيّدة الحبل بلا دنسٍ، وبميداليّةٍ أكبر لميشيل روا، وبعلبةٍ تحتوي على ميداليّةٍ فاخرةٍ لدون بوسكو. وحينئذٍ التمس دون بوسكو التحدّث إلى البابا على انفرادٍ. فخرج ميشيل روا، ودار الحديث على نشرات الأب، ونضاله، وكهنة الأوراتوار، وإكليريكيّته، ثمّ تناول أمورًا خاصّةً، لم يُعلَن عنها إلاّ عام ١٨٨٣، فقد سأله البابا عمّا قد يحلّ بمشروعه، عقب وفاته، وتبادلا الرأي في الأمر. وبالإجمال وافق البابا على تأسيس جمعيّةٍ، لا تتيح للدولة مسوّغات مقاومتها. ونصحه بألاّ يقتصر أعضاء الجمعيّة على وعودٍ، بل نصحه بإخضاعهم لنذورٍ، وإلاّ لما استطاع الاعتماد عليهم طويلاً.

وقد أشاد الزائران باستقبال البابا لهما استقبالاً أبويًّا، مؤكّدَيْن أنّ لدى ذلك الرجل، وفي أقواله، ما يفوق الإنسان، وما لا وجود له عند آخرين.

وتلت ذلك اللقاء لقاءاتٌ أُخرى، زادت دون بوسكو تقديرًا للبابا پيّوس التاسع، وحبًّا له.

تأسيس جمعيّة القدّيس فرانسوا السَاليزيّ

عكف دون بوسكو، مدعومًا ببركة الأب الأقدس، على تحقيق المشروع الذي طالما سكن فكره وقلبه، والذي لم يقتصر على مجموعة مساعدين إكليريكيّين وعلمانيّين، بل توخّى تأسيس جمعيّةٍ كهنوتيّةٍ منتظمةٍ في إطار نذورٍ كنسيّةٍ.

ويوم ١٨٥٩/١٢/٩، عقد اجتماعًا أوّل، وتحدّث بصراحةٍ ووضوحٍ عن مشروعه، وخاطب التسعة عشر ساليزيًّا الملتئمين في غرفته، موضحًا أنّ فكرة هذه الجمعيّة تعتلج في ذهنه منذ سنين، وصارح المجتمعين: "لطالما عملتم بروح هذه الجمعيّة، وها قد آن لها أن تتجسّد، وأن تلتزموا، أنتم، بقوانينها. مؤكّدًا أنّه لن يدعو للانتساب إليها إلاّ الذين يرتضون، بعد إعمال الفكر، إعلان نذور العفّة والفقر، والطاعة، في الوقت المحدّد. وختم بقوله: "إنّي أُمهلكم للتفكير مليًّا".

حينئذٍ ساد صمتٌ غير مألوفٍ، واتّضح أنّ دون بوسكو كان محقًّا في سيره بهذا المشروع، بصبرٍ وتمهّلٍ، إذ لم يرُق لبعضهم أن يُسَمّوا "إخوةً". فتلك التسمية، كانت في تلك الحقبة، تُقابَل بالسخريّة وبشيءٍ من الازدراء. واستحوذ التردّد على أفرادٍ منهم. وشوهد "كالييرو" الذي كان يُعَدّ أشدّهم اندفاعًا، وأوثقهم تعلّقًا بدون بوسكو، يروح ويجيء، بخطًى متوتّرةٍ، على طول فناء البناء وعرضه، مُطرِقًا، مفكّرًا، تتنازعه مشاعر متناقضةٌ. وأخيرًا تغلّب قرار بقائه مع دون بوسكو، فجأر بقراره الذي أضحى شعارًا مأثورًا: "أخ أو لا أخ، سأبقى مع دون بوسكو".

وعندما عُقدت جلسة الانتساب، مساء ١٨٥٩/١٢/١٨، لم يغب عنها سوى اثنين ممّن شاركوا في الاجتماع الأوّل، وارتضى جميع الباقين شروط الانتساب إلى الجمعيّة، راجين أن يتولّى دون بوسكو منصب الرئيس الأعلى. وامتثل دون

بوسكو لرغبتهم شارطًا أن يختار هو نائبه، واختار أكبرهم سنًّا، " ڤيتّوريو ألسوناتّي"، البالغ من العمر سبعةً وأربعين عامًا. واختير "ميشيل روا" مديرًا روحيًّا، واختير أربعة إكليريكيّين تتراوح أعمارهم بين ٢١ و٢٤ عامًا، لتكوين مجلسٍ إداريٍّ، يعمل جماعيًّا، ولا تتفوّق صلاحيّات أحدٍ منهم على صلاحيّات الآخرين. ولم تكن للرئيس الأعلى لا سلطة الأُسقف الكلّيّة، ولا سلطة الرئيس العامّ المطلقة على الجمعيّات الرهبانيّة.

الفرح الذي غمر قلب دون بوسكو، يومذاك، عكّره غياب رفيقه الوفيّ "جوزيف پوتّزيتّي". فذلك الشابّ الشهم، الذي كان، دائمًا، الرفيق الملازم للأب في تنقّلاته، والمتأهّب للدفاع عنه بحياته، ضدّ كلّ من تسوّل له نفسه الاعتداء عليه، فضلاً عن قيامه بمعظم أمور الأوراتوار المادّيّة بجدارةٍ، كان قد تعرّض لحادث أفقده إبهام إحدى يديه. وبما أنّ هذه العاهة كانت عائقًا دون السيامة الكهنوتيّة، فقد آثر، تواضعًا، الغياب عن جلسة الانتساب، وظلّ يضطلع بخدمة الجمعيّة.

ولكن لّما عُيِّن علمانيّان بصفة معاونين في الجمعيّة، للعناية بالخدمات المادّيّة، داخلَ پوتّزيتّي شعورٌ بأنّ وجوده أمسى نافلاً، وقرّر الرحيل. ولّما جاء دون بوسكو مودّعًا، فتح له الأب درجه قائلاً: "خذ، يا صديقي، كلّ ما يلزمك، من أجل تدبّر بدء حياتك الجديدة. وحدّق إليه بنظرةٍ فضحت كلّ ما كان قلبه يكنّ له من محبّةٍ، وثقةٍ، وتعلّقٍ، وقال له: "لقد كنّا، دائمًا، على أجمل صلةٍ، وآمل ألاّ تنساني أبدًا". ونفذ قوله إلى صميم قلب الشابّ الذي شهق نحيبًا، وفي غمرة دموعه هتف: "لا! لا أستطيع البعاد عن دون بوسكو. سأبقى إلى الأبد معه".

وظلّ پوتّزيتّي النموذج الأمثل للإخوة المساعدين الذين أنشأ لهم دون بوسكو فرعًا خاصًّا في جمعيّته.

وفي عام ١٨٧٧، طلب پوتّيزّي الانضمام، رسميًّا، إلى الجمعيّة السالیزیّة، وقدّم دون بوسكو، بنفسه هذا الطلب إلى المجلس، الذي قبله بالإجماع. والتحقت به نخبةٌ من العلمانيّين.

ولاحقًا أُضيف إلى نظام الجمعيّة بندٌ، يسمح بقبول أعضاء "خارجيّين" راغبين في ممارسة الفضائل السالیزیّة، مع مكوثهم في بيوتهم، ومع ذويهم، على غرار النظام الفرنسيسكانيّ الثالث".

اكتشاف عناصر ثمينة

ذكرنا، آنفًا، أنّ دون بوسكو كان يقتاد جماعةً من نزلاء الأوراتوار إلى مزرعة أخيه جوزيبّي في "بيكّي"، في مطلع شهر تشرين الأوّل بمناسبة عيد الورديّة المقدّسة، موفّرًا لهم فسحة استجمامٍ، قبل عودتهم إلى سنةٍ دراسيّةٍ جديدةٍ. ومن "بيكّي" كان الشبّان يطوفون بمختلف القرى المجاورة، وينعمون بترحيب الأهالي، وبمناظر الطبيعة الخلاّبة، وبالهواء العليل.

وأثناء هذه النـــزهات كان دون بوسكو ساهرًا على اكتشاف كنوزٍ، يُغني بها أوراتواره، واصطياد كلّ من كان يتوسّم فيهم جواهر نادرةً يزيّن بها جمعيّته. من هذه الاكتشافات نذكر:

<u>فيليبّو رينالدي</u>: عام ١٨٦١، لدى مروره بقرية "لو" (Lu) شاهد في منـــزل آل رينالدي تسعة صبيانٍ. وكان أصغرهم، "فيليبّو"، الذي كان يتأمّل، بدهشةٍ، الكاهن، الذي بإشارةٍ منه يطلق موسيقى جوقة البوّاقين. وكان والد الصبيّ قد أعار عربته للكاهن، فمضى بها إلى قريةٍ مجاورةٍ قريبةٍ، ولمّا عاد داعب، مودّعًا، جميع الصبيان، وأطال النظر في عيني فيليبّو الصغير، الذي سيصبح خليفته الثالث على رئاسة الجمعيّة الساليزيّة.

<u>لويجي لازانيا</u>: عام ١٨٦٢ كان المتنـــزّهون يزورون قرية "مونتيماغنو" (Montemagno). وسمع ولدٌ كان يلعب في الوادي عزف بوقٍ، فترك أترابه، وحذاءه، وجرى إلى الساحة، واخترق الازدحام حتّى الصفّ الأوّل. ولفتت نظراته الفضوليّة، انتباه الكاهن، فاستفسره عن اسمه، وسأله:

« - هل تأتي معي إلى تورينو؟

- لأيّ غرضٍ؟

– لكي تدرس، مثل هؤلاء الفتيان.

– لمَ لا؟

– قل، إذن، لوالدتك أن توافيني، عند كاهن القرية.»

كان الفتى في الثانية عشرة. ودخل إلى الأوراتوار في نهاية تشرين الأوّل وسرعان ما تبيّن أنّه حادّ الطباع، سريع الانفجار كالبارود. ولم يلبث أن سئم عيشة الأوراتوار، ففرّ عائدًا إلى ذويه، واقترح أحد المشرفين أن يوصد باب العودة في وجهه. ولكنّ دون بوسكو، كفِله، مؤكّدًا: "سترون من أيّ معدنٍ صيغَ هذا الفتى".

وعاد، وتعلّق بدون بوسكو، وحذا حذوه، وأصبح الأُسقف الثاني الذي يُنتخب من صفوف الساليزيّين.

وفي رحلة خريف ١٨٦٤، التقى دون بوسكو، في قرية "مورنيزي"، فتيات "سيّدة الحبل بلا دنسٍ"، وتأثّر بطيبتهنّ وبسخائهنّ، واختار منهنّ الآنسة "ماريّا مزّاريلّو" (Mazzarello)، التي أمست الرئيسة الأولى لجمعيّة "بنات مريم المساعِدة".

مرحلةٌ ساليزيّةٌ جديدةٌ

التحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة الجوهريّة التي كانت تجري حينذاك في تلك البلاد، كتبت صفحاتٍ جديدةً في تاريخ إيطاليا، ولم تسلم الجمعيّة الساليزيّة من تأثيراتها. فمشاريع توحيد إيطاليا استهدفت فصل الدولة عن الدين، ومصادرة أملاك الڤاتيكان. واحتدّت الخلافات بين أنصار الڤاتيكان وأنصار العلمانيّة، وكذلك احتدّ الصراع بين الملكيّين والجمهوريّين.

ونجمت عن كلّ ذلك أزمةٌ دينيّةٌ كفيلةٌ بتغيير وجه العالم. فقد آثر كثيرون متابعة أسعار البورصة على مطالعة الكتب المقدّسة. ومالت الجموع المحرومة، المُقتلَعة من تربيتها الأساسيّة إلى صراع الطبقات، بدل الالتزام بالتطويبات الإنجيليّة. وأفضت هجرة الريف إلى المدن المتنامية، إلى تغيُّراتٍ في المهن والاهتمامات وظروف العيش، وتفكّك النسيج الاجتماعيّ، فنأت أفواجٌ من المسيحيّين عن كنائسهم ورعاتهم، وتخلّوا عن المبادئ الكاثوليكيّة التقليديّة، وناهضوا السلطات الكنسيّة التي ظلّت متعلّقةً بتقاليدها.

وبلغت هذه الأزمة ذروتها مع احتلال الجيوش الإيطاليّة لروما، وانتظم المخلصون للكنيسة في مثل دولةٍ داخل الدولة، بهدف إنقاذ قِيَمهم، وإيجاد أجيالٍ جديدةٍ تنعم بمُناخٍ مسيحيٍّ سليمٍ. وأنشأوا، مقابل ما أنشاته الدولة اللادينيّة، جمعيّات تضامنٍ كاثوليكيّةً، ومصارف شعبيّةً، وشركات تأمينٍ، ومدارس، وثانويّاتٍ كاثوليكيّةً.

وأدرك دون بوسكو مقتضيات تلك الحقبة، وعكف على افتتاح ثانويّاتٍ ومدارس كاثوليكيّةٍ، تمكّن جمعيّته من مواجهة الحقبة المستحدثة الراهنة. ومنذ

افتتاحه إكليريكيّةً صغرى في "ميرابيلّو"، عام ١٨٦٣، تهافتت الطلبات من مختلف المناطق الإيطاليّة من أجل تأسيس ثانويّاتٍ فيها. وسرعان ما أمسى الساليزيّون، في غضون سنواتٍ معدوداتٍ، اختصاصيّي المدارس الثانويّة لأبناء الشعب، وانخرطوا في مقاومة النــزعات اللادينيّة، وإعادة التعليم الدينيّ في المدارس. ومنذئذٍ تنامت أعداد الثانويّات، وأماكن إيواء الأولاد المشرّدين، والمدارس المهنيّة، والزراعيّة، والإكليريكيّات التي أسّسها، وأدارها ساليزيّون، وأسهمت في تغذيةٍ كثيفةٍ لأجيال الشبيبة الكاثوليكيّة الفقيرة، في إيطاليا، وفي شتّى أرجاء العالم.

ولدى عودة دون بوسكو من روما، مساء ١٨٦٩/٣/٧، بلّغ أفراد جمعيّته نصيحة البابا پيّوس التاسع: "اكتفوا بخدمة أبناء الشعب الفقراء، ربّوا الشبّان الفقراء، ولا تكن لكم مدارس للأغنياء، والنبلاء. حدّدوا أجور تعليمٍ زهيدةً، ولا ترفعوها أبدًا. فإذا ربّيتم فقراء، وبقيتم، أنتم، فقراء، لن يضايقكم أحدٌ، وستحقّقون خيرًا جمًّا".

وقد نفّذ الساليزيّون وصيّة البابا خير تنفيذٍ. فكتب دون بوسكو، عام ١٨٧٥: "مداخيلنا عن ثلاثةٍ من مراكزنا التعليميّة هي صفرٌ". وبعد مضيّ عشر سنواتٍ على وفاته، كان مركز مدينة "بولونيا" يؤوي ١٨١ فتًى، وعدد الأيتام منهم يبلغ تسعةً وستّين فتًى، وجميعهم ينعمون بمجّانيّةٍ تامّةٍ. ولم يكن يدفع بدل الإقامة المحدّد بخمسة وعشرين ليرا في الشهر سوى ٣٣ فتًى، فيما لا يدفع الآخرون إلاّ أقلّ من نصف البدل المطلوب. وكانت نفقات المركز تربو إلى ستّةٍ وأربعين ألف ليرا، والمداخيل لا تتعدّى ثلاثةً وعشرين ألفًا. وكانت نسبة عجز الميزانيّة مئةً بالمئة.

وظلّ دون بوسكو يذكّر بأنّ عنصر التأسيس الثابت للرسالة الساليزيّة هو الشبيبة الفقيرة، وأبناء الشعب. وعلى الساليزيّين أن يوافقوا نشاطهم مع مقتضيات الشبيبة الفقيرة.

كنيسة مريم المُساعِدة

تكريم العذراء مساعِدة المسيحيّين نشأ في القرن السابع عشر، إثر ردّ أسطولٍ بروسيٍّ هزيلٍ الأسطولَ العثمانيّ. فقد حاصر مئتا ألف مقاتلٍ عثمانيٍّ مدينة ڤيينّا، فتصدّت له حفنةٌ من المحاربين البروسيّين، استُنفروا بهتاف: "بمعونة السيّدة العذراء فلنهاجم الأعداء، ولننتصر!".

وعقب حملةٍ قصيرةٍ، انسحب الجيش العثمانيّ، انسحابًا عشوائيًّا فوضويًّا، مخلّفًا عتادًا جسيمًا. وعزا المسيحيّون الأوروپيّون جميعهم، هذا النصر إلى معونة السيّدة العذراء. ومنذئذٍ نشأت في شتّى أنحاء ألمانيا وأوروپّا، أخويّاتٌ تكريمًا للعذراء المساعِدة. وبعدما كان البابا پيّوس الخامس، قد أضاف إلى الصلوات الطقسيّة أدعيةً خاصّةً إلى مريم مساعِدة المسيحيّين، أقام البابا پيّوس السابع عيدًا لها في ٢٤ أيّار من كلّ عامٍ.

وكثرت في المدن الأوروپّيّة الكنائس المكرّسة لمريم المساعِدة، وتعدّدت العجائب التي تحقّقت بشفاعتها. ولم تتخلّف مدينة تورينو عن هذا التكريم، فنشأت فيها أخويّةٌ على اسمها، وصُنِعت لها تماثيل.

وذات مساءٍ من شهر كانون الثاني ١٨٦٢، سمع شابٌّ، كان قد انضمّ حديثًا إلى الأوراتوار، دون بوسكو يبوح لأحد تلاميذه:

« لقد استمعتُ اليوم إلى اعترافاتٍ كثيرةٍ، ولكنّي لستُ أعرف حقًّا، ما قلتُه وما فعلتُه، فقد استحوذت على ذهني فكرةٌ شتّتته، ولم أستطع إقصاء يقيني بأنّ هذه الكنيسة باتت مفرطةً في الصغر، وعاجزةً عن استيعاب جميع فتيان الأوراتوار. لذلك لا بدّ من بناء كنيسةٍ جديدةٍ، أكبر وأجمل منها، نكرّسها على اسم العذراء

مريم المساعِدة. حتّى الآن احتفلنا بتمجيد المنزّهة من الدنس. ولكنّ العذراء تريد أن نكرّمها، أيضًا، باسم مريم المساعِدة. فحقبتنا تجتاز مِحنًا عصيبةً، ونحن بحاجةٍ إلى مساعدة السيّدة العذراء على صَوْن الإيمان المسيحيّ... أظنّ أنّها ستكون كنيستنا الأُمّ، والمركز الذي ستنطلق كلّ مشاريعنا منه لمصلحة الشبيبة، وستكون مريم المساعِدة هي مؤسِّسة أعمالنا ومشاريعنا.

"أعلم أنّني لا أملك فلسًا واحدًا. ولكن لا بأس. فإن كان الله يريد هذه الكنيسة فسنبنيها.»

وما إن نما النبأ إلى علم البابا پيّوس التاسع، حتّى شجّعه وباركه، وقدّم له دعمًا ماليًّا قدره خمس مئة فرنك. واختار دون بوسكو لهذه الكنيسة رقعة أرضٍ قريبةً من الأوراتوار، وكلّف مهندسًا بإعداد تصميمٍ للكنيسة الجديدة، فأعدّه على شكل صليبٍ، على مساحة ألفٍ ومئتي مترٍ مربّعٍ. وكانت هبة الأب الأقدس قد أُنفِقت بكاملها على شراء الأرض.

وكان دون بوسكو يعتمد على المساعدات التي وعدته بها البلديّة، ووعده بها محسنون، ولكن، لأسبابٍ مجهولةٍ لم تنفّذ تلك الوعود، ولم يكن ذلك التخلّف عن تنفيذ الوعود، إلاّ سانحةً لإبراز تدخّل ملكة السماء، ولحرصها على تكريم ابنها، وغوث خادمها الأمين، دون بوسكو.

وأوعز دون بوسكو إلى المسؤول الماليّ في مؤسّسته بالبدء في أعمال الحفر. ولكن ذلك المسؤول اعترض: "وكيف نبدأ؟ فهذا ليس مشروع كاپيلاّ صغيرةٍ، بل هو مشروع كنيسةٍ كبرى. وهذا الصباح لم نكن نملك ثمن طوابع للرسائل". وردّ دون بوسكو:

"ومتى أقدمنا على مشروعٍ، وكانت لدينا الأموال اللازمة له؟ فلندع دورًا للعناية الإلهيّة!".

استُهلّت أعمال الحفر في خريف ١٨٦٣، وبعد توقّفٍ مؤقّتٍ فرضه فصل الشتاء، استؤنفت في آذار ١٨٦٤. وبعد شهرين وُضِع حجر الأساس. وقال دون بوسكو للمهندس: "سأُعطيك في الحال، دفعةً على حساب الأعمال الكبرى". واستلّ محفظته، وأفرغها بين يدي المهندس، ولم يخرج منها سوى ثمانية فلوس، أي أقلّ من نصف ليرا. ولكنّ الكاهن سارع إلى طمأنة المهندس مؤكّداً أنّ العذراء المساعِدة ستعمل على توفير كلّ المال المطلوب. وبالفعل وفّرت السيّدة العذراء المال، غير أنّها اقتضت من دون بوسكو في سبيل ذلك تضحياتٍ ومشاقّ جمّةً، استقطرت من جبينه وابلاً من العرق.

قدّيسان إيطاليّان تجاورا في المكان والزمن، وحقّقا إنجازاتٍ مُذهلةً باعتمادهما على العناية الإلهيّة، ولكن، بأسلوبَين مختلفَين. فجوزيف كُتُّلنغو الذي أسّس مدينةً طبّيّةً شاملةً، وصفها الدكتور أَلِكسي كاريل بأكبر مشفًى في العالم، في حين سمّاه القدّيس كتُّلنغو "*البيت الصغير*"، كان يقول، مؤمنًا:

"لقد أعدّت لنا العناية الإلهيّة المال اللازم، فلننتظر وصوله"!

في حين كان دون بوسكو يقول:

"لقد أعدّت لنا العناية الإلهيّة المال اللازم، فلنمضِ ونأتِ به".

وفي سبيل تنفيذ كنيسة مريم المساعِدة، الذي عدّه كثيرون مخاطرةً متهوّرةً، لم يكتفِ دون بوسكو بالإيمان بسخاء العناية الإلهيّة وبسهرها، بل إنّه أغرق إيطاليا بالرسائل الجماعيّة، وباستجداء أثرياء البلاد، وبتنظيمه يانصيبًا ضخمًا. ولم تضنّ العذراء بغوثها، فقد انتشرت أنباءٌ عن نِعَمٍ خاصّةٍ جزيلةٍ، كافأت بها العذراء المتبرّعين من أجل بناء كنيستها. وكان لحدَثَيْن، في هذا السياق، دويٌّ خاصٌّ.

فلمّا أُكملت أعمال الحفر من أجل إرساء الأساسات، بلغت مستحقّات العمّال

ألف فرنك، ولم يكن مناصٌ من دفعها، فالعمّال بحاجةٍ إلى أُجورهم للعيش مع أُسرهم. وحينئذٍ، تذكّر دون بوسكو سيّدةً، كان قد زارها في إطار مهامّه الراعويّة، وكانت قد ألّمت بها حمّى متواصلةٌ مصحوبةٌ بسعالٍ منهكٍ، جعلت منها أسيرة فراشها منذ ثلاثة أشهرٍ. ولّما زارها الكاهن باحت له: "إنّني مستعدّةٌ، مقابل اليسير من التعافي لتلاوة كلّ الصلوات التي يُشار إليّ بتلاوتها، ولكلّ تقدمةٍ. وسأعدّ نعمةً كبرى قدرتي على مغادرة سريري، وإجراء بضع خطواتٍ داخل حجرتي". حينئذٍ، قال لها دون بوسكو:

- "باشري، في الحال، تساعيّة صلواتٍ للعذراء المساعِدة، وعلى مدى تسعة أيّامٍ، اتلي ثلاث مرّاتٍ، كلّ يومٍ، "أبانا، والسلام، والمجد، وسلامٌ أيّتها الملكة".

- "سأفعل، وأيّ عملٍ خيريٍّ عليّ أن أُضيف إلى هذه الصلوات؟".

- "إذا شئتِ، عندما ستشعرين بتحسّنٍ، قدّمي شيئًا لكنيسة العذراء المساعِدة، التي تُبنى، الآن، في ڤلدوكّو".

وفي يوم التساعيّة الثامن، عاد إليه اطمئنانٌ على نتائج التساعيّة. وفاجأته الخادمة التي فتحت له الباب، هاتفةً: "لقد شُفيت السيّدة، ومضت مرّتين إلى الكنيسة لكي تشكر للربّ صنيعه". وحينذاك، عادت السيّدة إلى البيت، مشرقةً، متهلّلةً، فرحةً بشفائها، وقدّمت للكاهن رُزمةً، قائلةً: "هذه التقدمة الأولى، ولكنّها ليست الأخيرة، لكنيسة العذراء المساعِدة".

ولّما فتح دون بوسكو الرزمة، وجد فيها خمسين ليرةً ذهبيّةً. وشعر بأنّ الألف فرنك التي كان يحتاجها لدفع أُجور العمّال، قد هوت مباشرةً من يد العذراء.

لم يخبر دون بوسكو أحدًا عن هذا الحدث، ومع ذلك سرعان ما انتشر، وتسابق المحتاجون إلى نِعم فأقاموا تساعيّات صلواتٍ للعذراء المساعِدة، واعدين بتقادم سخيّةٍ إذا استُجيبت طلباتهم.

والحدث الثاني الأشدّ دويًّا، والأوفر دعمًا لبناء الكنيسة، هو ما جرى للكونت "جوزيبي كوتّا"، صاحب مصرفٍ، وعضو مجلس الشيوخ الإيطاليّ، ومن أوسع وجهاء تورينو شهرةً. فقد أُصيب بمرضٍ عضالٍ ألزمه الفراش، ولم يؤمّله الأطبّاء بأيّ شفاءٍ. وعاده دون بوسكو، فهمس "كوتّا" في أذنه: "بعد دقائق، سأرحل إلى الأبديّة". فأجابه الكاهن: "كلاّ. فالسيّدة العذراء ما زالت بحاجةٍ إليك، في هذا العالم. فعليك أن تساعدني على بناء كنيسةٍ تكريمًا لها". ولكنّ العجوز اعترض: "لم يبقَ لديّ وقتٌ لذلك، ولا أملٌ".

ولكنّ دون بوسكو فاجأه بسؤاله: "ماذا ستفعل إذا منحتْك العذراء المساعدة الشفاء؟".

فابتسم العجوز، وجمع كلّ ما تبقّى له من قوّةٍ، ورفع إصبعين متمتمًا: "سأُعطيك مئتي ألف ليرا خلال ستّة أشهرٍ، من أجل بناء كنيسة ڤلدوكّو".

وفي غضون ثلاثة أيّامٍ كان قد تمّ شفاء العجوز، فشخص إلى دون بوسكو وأقرّ: "لقد شفتني العذراء، وها قد جئتُ لكي أَفيَ الشطر الأوّل من ديني لها".

ولكَم من شفاءٍ معجزٍ تحقّق، ولكم من نِعمٍ روحيّةٍ ودنيويّةٍ مُنحت، إثر ذلك! وتسابقت معظم المدن الإيطاليّة، والعديد من المدن الأوروبّيّة إلى تكريم العذراء المساعِدة التي لا تردّ طلبًا، وتهاطلت التقادم والمِنَح، ونهضت كنيسة السيّدة المساعِدة، في ڤلدوكّو، بلا حاجةٍ إلى حملات جمع أموالٍ، فقد كان المال اللازم يأتي تلقائيًّا، في حينه.

كلّف بناء تلك الكنيسة مليون فرنك. وهو مبلغٌ طائلٌ في تلك الحقبة. وكان نحو خمسة وثمانين بالمئة من المال الوارد عرفانًا بجمائل العذراء، وشكرًا عن نِعَمٍ طُلبت واستُجيبت. وكان كلّ حجرٍ فيها دليلاً على عطف مريم المساعدة، وعلى قدراتها.

ولم تقتصر العطايا على المال للبناء، بل شملت، أيضًا، تقادم عينيّةً للكنيسة تمثّلت في كؤوسٍ، وصوانٍ للقربان المقدّس، ومباخر، ومصابيح، وزينةٍ فاخرةٍ للهياكل.

ومنذ بدء بناء تلك الكنيسة، كان اهتمام دون بوسكو قد انصبّ على إعداد الإيقونة التي ستتصدّرها. وفسّر للرسّام تصوّره لها بحيث يمثّل قسمها الأعلى العذراء القدّيسة، وسط أجواق الملائكة، مُحاطةً بالرسل والأنبياء والعذارى والقدّيسين والشهداء، ويمثّل قسمها السفليّ شعوب الأرض جمعاء، مادّةً لها أيديها، ملتمسةً غوثها. ولمّا فرغ من تصوّره للإيقونة أشار الرسّام إلى أنّ إيقونةً بهذا الحجم لن يتّسع لها صدر الكنيسة، فضلاً عن عدم وجود مكانٍ لرسمها، فتمّ التوافق على ألاّ تحاط صورة العذراء إلاّ بالرسل والإنجيليّين. وقد نجح الرسّام في إضفاء لمسةٍ أُموميّةٍ فائقة الروعة على محيًّا العذراء. وذكر أحد كهنة الأوراتوار، زار الرسّام أثناء عمله، فرآه فوق كرسيٍّ يضع اللمسات الأخيرة على وجه العذراء. ولمّا لمحه الرسّام انحدر عن كرسيّه، واقتاده إلى زاويةٍ يغمرها النور، وقال له: "تأمّل كم هي جميلةٌ! هذا ليس عملي، ولست أنا من رسمها فقد كانت يدٌ أُخرى تقود يدي. قلْ لدون بوسكو إنّ اللوحة ستكون تحفةً".

عام ١٨٦٦، كانت أعمال بناء الكنيسة قد وصلت إلى القبّة، وتوقّفت بسبب جفاف الأموال، وأوعز دون بوسكو بإلغاء القبّة المهيبة والاكتفاء بقبّةٍ بسيطةٍ، قبل حلول الشتاء. ومُني المتعهّد والمسؤول الماليّ في الجمعيّة بالخيبة، واتّفقا على المماطلة كسبًا للوقت، لأنّهما لم يُطِيقا أن تُحرَم كنيسةٌ صُمِّمت لتكون تحفةً فنّيّةً، من قبّةٍ تتناسب مع بنيانها المهيب الرائع، وتُتوِّج رونقها وبهاءها. وفي هذه الأثناء اقتصرت الأعمال على إكمال النواقص الداخليّة، على أمل أن يعود دون بوسكو عن قراره.

وجاء الكونت "كوتّا"، الصيرفيّ وعضو مجلس الشيوخ، الذي كانت العذراء المساعِدة قد انتشلته من الموت، مستفسرًا عن صحّة إلغاء القبّة. ولمّا أُعلم أنّ دون

بوسكو، أُكرِه على إلغائها بسبب افتقاره إلى المال، هتف: "نفّذوا المخطّط الأصليّ بحذافيره، وسيتوفّر المال، فالربّ يقابل، بمئة ضعفٍ ما نقدّمه له بحبٍّ".

ونهضت القبّة المهيبة، وفي عام ١٨٦٧، اعتلاها تمثالٌ شامخٌ للسيّدة العذراء المساعِدة، متوّجٌ باثنتي عشرة نجمةً نحاسيّةً. فكانت أشعّة الشمس تنشر ألق أنوارها حتّى أقاصي سهل ڤلدوكّو، ملطّفةً كآبة البؤس السائد في المكان، وقد لفّ القبّة وشاحٌ أبيض، دُوِّن عليه بأحرفٍ كبيرةٍ العبارة التي قرأها في الحلم: "هنا منـــزلي، حيث يتجلّى مجدي".

وفي الساعة العاشرة والنصف من يوم ١٨٦٨/٦/٩، ارتقى رئيس أساقفة تورينو الهيكل الكبير، وكرّس الكنيسة، واحتفل فيها بالقدّاس الأوّل، مع دون بوسكو، وكاهنَين ساليزيّين، وبحضور ألفٍ ومئتي فتًى من مؤسّسات دون بوسكو.

كان دون بوسكو قد رأى، بالحلم، تلك الكنيسة، بكلّ تفاصيلها، قبل وجودها. وكان كلّما لفت أحدٌ نظره إلى الصعوبات الكأداء التي يتعيّن عليه مواجهتها، في سبيل تحقيق هذا الحلم، يبتسم غير عابئٍ. فالسيّدة المساعِدة هي التي أرادت هذه الكنيسة، وهي التي أرشدته إلى مكانها، وهي التي ذلّلت العوائق في سبيل بنائها، وهي التي وفّرت الأموال لهذا الغرض، وهي التي بنت كنيستها.

وهيمن التأثّر على الحاضرين، وهم يشهدون، بالدليل الحسّيّ الماثل، تحقّق "نبوءات دون بوسكو الجنونيّة"، والكنيسة الرائعة التي حلم بها.

ولّما هتف الجمهور مطالبًا بمكافأة الكاهن القدّيس عن كؤوس المرارة، التي تجرّعها حتّى الثمالة، طيلة سنواتٍ، أجاب: "لستُ أنا صانع هذه العظائم، بل إنّ الربّ، ومريم المساعِدة تنازلا، واستخدما كاهنًا ضعيفًا من أجل إنجازها. وإنّ كلّ حجرٍ فيها يرمز إلى نعمة من نِعَم العذراء المساعِدة".

إكليريكيّةٌ صغرى

مع غوصه حتّى عنقه في همّ بناء كنيسة "مريم المساعِدة"، لم يُهمِل دون بوسكو همّ الرسالة.

ففي تلك الأثناء التمس منه راعي أبرشيّةٍ إيطاليّةٍ تأسيس ثانويّةٍ من أجل خدمة أبناء رعيّته، وأكّد له أنّه سيكون فيها صاحب الأمر، بلا منازعٍ. وبعد اتّفاقهما على أن تكون أولويّة القبول للشبّان المتطلّعين إلى الكهنوت، ارتضى دون بوسكو السير في المشروع، وأعدّ له كلّ مقوّمات النجاح، وساعده أُسقف الأبرشيّة، الذي كان يشكو من تضاؤل الدعوات الكهنوتيّة، على جعل تلك المدرسة "إكليريكيّةً صغرى".

واستدعى دون بوسكو الساليزيّ الأوّل ميشيل روا، وقال له:

"إنّي أطلب منك تضحيةً كبرى. فقد دُعينا إلى افتتاح "إكليريكيّةٍ صغرى"، في "ميرابيلّو"، وستكون هي الفرع الأوّل الذي يؤسّسه الساليزيّون، خارج تورينو. وستكون آلاف العيون شاخصةً إلينا، مراقبةً نهوضنا بهذه المهمّة. وأنا لي فيك ثقةٌ كلّيّةٌ، وسأزوّدك بجميع من تحتاج إليهم من زملاء، تسهيلاً للإقلاع بهذا المشروع إقلاعًا موفّقًا".

كان دون روا، حينذاك، في السادسة والعشرين. واستعرض مع دون بوسكو لائحة الساليزيّين الجديرين بالعمل معه. واتّفقا على نقل نخبةٍ من عناصر أوراتوار ڤلدوكّو، ليكونوا الخميرة الطيّبة، وسط التسعين طالبًا الذين قُبلوا في السنة الأولى.

وشخص ميشيل روا إلى "ميرابيلّو"، مزوّدًا بأربع صفحاتٍ من نصائح دوّنها

دون بوسكو، تتضمّن مبادئ الأب المربّي، والكاهن الساعي إلى خلاص النفوس، وكانت تلك الصفحات، في الواقع، ملخّص نظامه التربويّ.

ورغب دون بوسكو بأن ترافق والدة دون روا ابنها إلى "مرابيلّو"، حيث ستُعنى بملابس الطلاّب، وتوفّر لابنها دعمًا ثمينًا، في ساعات الخوَر، التي لا مفرّ منها.

وأحرز الساليزيّون، في ميرابيلّو نجاحاتٍ باهرةً، ولا سيّما في ميدان استنهاض دعواتٍ كهنوتيّةٍ، ولخّص صحافيٌّ هذه النجاحات بقوله: "لقد كان دون روا في ميرابيلّو، ما كانه دون بوسكو في تورينو".

مطلع عام ١٨٦٥، كان عدد الساليزيّين قد ارتقى إلى ثمانين عضوًا. فمن الإكليريكيّين الذين رافقوا دون روا إلى ميرابيلّو، ارتسم كاهنان، وفي تورينو ارتسم ستّة كهنةٍ، من الساليزيّين الأوائل.

ومع ذلك، كان عام ١٨٦٥ قاسيًا على الجمعيّة الفتيّة، ففي غضون ستّة أشهرٍ، قضى الإنهاك على خمسةٍ من خيرة أعضائها الأوائل. وارتقى عدد الفتيان الداخليّين إلى خمس مئةٍ، في حين كان بناء كنيسة مريم المساعِدة قد التهم أموالاً طائلةً، وأخوى صندوق الجمعيّة.

وفيما كان دون روا يُعدّ برنامج السنة الدراسيّة الجديدة، جاءه، بغتةً، رسولٌ ينبئه بأنّ دون بوسكو، عيّن بديلاً عنه في ميرابيلّو، ويطلب منه العودة إلى تورينو في الحال.

وألقى دون روا القلم من يده، ولم يطرح أيّ سؤالٍ، وشخص إلى ڤلدوكّو، حيث بادره دون بوسكو بالقول: "في ميرابيلّو كنت، أنت، دون بوسكو، والآن عليك أن تكون دون بوسكو في ڤلدوكّو".

لقد أوكل إليه كلّ شيءٍ في ڤلدوكّو: المصانع، وثلاث مئةٍ وخمسين متمرّنًا على العمل، وورشة بناء الكنيسة الكبرى، ونشرة "قراءات كاثوليكيّة" التي كان لها أربعة عشر ألف مشتركٍ، والردّ على معظم بريده. فقد كانت اللقاءات اليوميّة، تلتهم كلّ دقيقةٍ من وقت دون بوسكو، منذ الساعة التاسعة صباحًا. فقد كان يلجأ إليه، في كلّ دقيقةٍ مسؤولون حكوميّون، ووزراء، ورؤساء جمعيّاتٍ، وأساقفةٌ... منهم من يطلب صلواته وبركاته، ومنهم من يلتمس نُصحه بشأن مشاريع خيريّةٍ، ومنهم من يأتيه بهباتٍ من أجل فتيانه، ومنهم من لا يروم سوى رؤيته والتحدّث إليه.

وقد شهد محامٍ كان يزور دون بوسكو باطّرادٍ: "مع كلّ اهتماماته الملحّة، لم يُظهر، قطّ، استعجالاً، أو رغبةً في إيجاز أمد اللقاء، محتفظًا، دائمًا، باحترامه لزائريه، وببساطته، ومودّته.

وقد زاره يومًا، تاجرٌ ثريٌّ، ملحدٌ، بدافع الفضول. وخرج شديد التأثّر، مردّدًا: "يا له من رجلٍ! لقد تعلّمت منه ما لم أتعلّمه من أيّ كاهنٍ آخر. وقد ودّعني بقوله: "فلنسعَ كي نلتقي، ذات يومٍ، في الفردوس، أنت مع مالك، وأنا مع فقري".

انهيار دون روا

في تلك المرحلة كان دون روا، أكثر الساليزيّين تضحيةً، وإجهادًا، وصمتًا، ولم يكن ينام أكثر من ثلاث أو أربع ساعاتٍ في اليوم. وانتهى الإجهاد بالنيل من قواه، فوقع أمام باب الأوراتوار، بين يدي أحد أصدقائه، فحُمِل إلى سريره، حيث عاينه طبيبٌ، فأطلق إنذار الخطر، فقد كان دون روا مصابًا بالتهاب صفاقٍ حادٍّ.

وكان دون بوسكو غائبًا، فاستُدعي، ووصل مساءً، ورأى السكرستيّا غاصّةً بفتيان ينتظرون دورهم للاعتراف لديه، فأشرق وجهه، غير عابئٍ بإلحاح كهنته بالمسارعة إلى مساعدة دون روا، والصلاة من أجل شفائه، وشدّ أزره، فقد كانوا يخشون أن يُطيح المرض بحياته بين لحظةٍ وأُخرى. ولكنّ دون بوسكو أكّد لهم أنّ دون روا لن يرحل قبل الحصول على إذنه، وآثر متابعة تعريف الفتيان حتّى ساعةٍ متقدّمةٍ من الليل. ثمّ أدهش الجميع بتناوله العشاء، قبل زيارة صديقه العليل، ثمّ بصعوده إلى غرفته بعد العشاء، وإيداع قمطره وأشيائه فيها، قبل الشخوص إلى سرير صديقه، وتبيّن خطورة علّته، والعرق البارد المتقطّر من جبينه. وحينئذٍ سأله دون روا:

– إذا كانت ساعتي قد أزفت، فصارحني، فأنا لا أخشى الموت.

وجاء جواب رئيسه قاطعًا:

– يا عزيزي روا، أنا لا أريد أن تموت. هل فهمت؟ فأنا بمعزلٍ عنك، سأبرد، وما زال علينا أن نعمل، ونعمل.

وحينئذٍ لمح دون بوسكو على منضدةٍ قريبةٍ من سرير معاونه، الزيوت المقدّسة المُعدَّة لمسحة المحتضرين. فسأل من الذي ينوي مسح دون روا؟ وأقرّ ساڤيو أنّه هو من اعتزم ذلك، فقال له دون بوسكو:

"أنتم حقًّا، قليلو إيمانٍ. أعيدوا هذه الزيوت المقدّسة إلى مكانها، ودعوا دون روا وشأنه".

ثمّ التفت إلى معاونه قائلاً:

"طِبْ نفسًا يا صديقي، وتيقّن أنّك لن تموت، حتّى إذا رميتُك من النافذة".

وتعافى دون روا بعد ثلاثة أشهرٍ، وعقب شهرٍ ونصف الشهر من النقاهة عاد يلاعب الفتيان في فناء الأوراتوار.

وسأل ساليزيٌّ، يومًا، دون بوسكو: "هل صحيحٌ أنّ الساليزيّين يموتون من جرّاء الإمعان في العمل؟". فأجاب: "لو كان هذا صحيحًا لما أصاب جمعيّتنا مكروهٌ. الوحيد الذي يستأهل لقب ضحيّة العمل هو دون روا. والشكر لله الذي يحفظه لنا متينًا ونشيطًا".

فرع الأوراتوار النسائيّ

كان معاونون لدون بوسكو قد سرّبوا إلى ذهنه مشروع مؤسّسةٍ توفّر للفتيات مثل ما قدّمته مؤسّساته للصبيان من غوثٍ، ودعمٍ، ونهضةٍ، ومصيرٍ أفضل.

وأعمل دون بوسكو الفكر طويلاً، إلى أن التقى، في إحدى نزهاته الخريفيّة مع تلاميذه، الآنسة "ماري دومينيك مزّاريلّو"، التي كانت قد ضحّت بذاتها في معالجة أبناء قريتها من داء التيفوس (الحمّى الصفراء)، تلبيةً لطلب راعي القرية "دون پيستارينو" (Pestarino). وكانت ماري دومينيك تلك في الثالثة والعشرين، متينة البنية "تعمل كالرجال وتصلّي كالملائكة".

وفيما كان المصابون بالداء يُشفَون بفضلها، اعتلّت هي، وتحوّل وجهها البيضاويّ الجميل إلى مثلّثٍ شاحبٍ نحيلٍ، وأعلن طبيبٌ أنّها على شفا الرحيل إلى الأبديّة، فرفضت تناول العلاجات، واستعدّت للقاء الله. ولكنّ ساعتها لم تكن قد حانت. وخلافًا لكلّ توقّعٍ، شُفيت من دائها، وسرعان ما استعاد محيّاها ألوانه الزاهية، وأقبل شبّانٌ كُثُرٌ طالبين يدها، ولكنّها أبت حتّى التفكير بأمر الزواج. وانضمّت إلى جمعيّة "بنات مريم المنـزّهة من الدنس". وسرعان ما نمت هذه الجمعيّة، وغزت مناطق إيطاليّةً عديدةً. وكان "دون پيستارينو" قد أسّس أوّل فرعٍ لهذه الجمعيّة في قرية "مورنيزي" (Mornese)، تألّف من خمس فتياتٍ كانت ماري صغراهنّ.

وكان لماري صديقةٌ تُدعى "پاترونيل"، وتحمل، هي أيضًا، كنية "مزّاريلّو"، وهي أيضًا كانت منتسبةً إلى جمعيّة سيّدة الحبل بلا دنسٍ. وقد صارحتها، ذات يومٍ، أنّها تعتزم تعلّم مهنة الخياطة، وافتتاح ورشة لصنع ثيابٍ لفتياتٍ فقيراتٍ، وتشاركتا على تحقيق المشروع. وبعد مضيّ سنةٍ كانتا قد أسّستا مصنع ثيابٍ صغيرًا،

استقطب اثنتي عشرة فتاةً راغباتٍ في تعلّم الخياطة. وإذ بحادثٍ يقلب الوضع. فذات مساءٍ من شتاء عام ١٨٦٣ قرع بابهما بائعٌ جوّالٌ، كان قد فقد زوجته، ميتِّمةً بنتَيْن صغيرتَيْن كبراهما في الثامنة، والصغرى في السادسة، ورجاهما إيواءهما والعناية بهما. فاستعارتا من الجيران سريرين صغيرين، وحفنة دقيق ذرةٍ من أجل صنع الطعام الشعبيّ "البولينتا" (Polenta). وما إن شاع في القرية أنّ الفتاتين استقبلتا، في بيتهما يتيمتين صغيرتين، حتّى هبّ أبناء القرية إلى تزويدهما بحطب التدفئة، وبالأغطية وبالدقيق. وكان بعضهم يأتونهما، مع هذه الموادّ الضروريّة، بمزيدٍ من الفتيات الفقيرات المحتاجات إلى مأوًى. وفي غضون أيّامٍ معدوداتٍ غدا بيتهما يضمّ سبع صغيراتٍ فقيراتٍ.

وكانت الفتيات العاملات معهما في الخياطة، قبل مباشرتهنّ العمل، يتلين معًا، "السلام يا مريم"، والمعلّمتان تحرّضانهنّ على العمل من أجل الربّ، فتكون كلّ قطبة خياطةٍ فعل حبٍّ لله.

وكانتا، كلّ يوم أحدٍ، تجمعان صغار القرية، وترافقانهم إلى الكنيسة ثمّ تسعدانهم بنـــزهاتٍ وألعابٍ.

وكان "دون پيستارينو" المولود في قرية "مورنيزي" قد سيم كاهنًا في جنوى، وعمل سنواتٍ في الإكليريكيّة التي تخرّج منها حتّى بلغ الثلاثين من العمر، واستدعاه راعي قريته كي يساعده، فارتقى المنبر، وخاطب مواطنيه قائلاً: "إنّي أبحث عن عملٍ، لا في حقولكم ولا في كرومكم، بل في حقل الربّ، وكرم الكنيسة. ومع أنّ مناصب عديدةً عُرِضت عليّ، إلاّ أنّي أوثر البقاء معكم، إذا أنتم قدّمتم لي العمل الذي أبحث عنه". واتّفق أن كان، يومًا، مسافرًا في قطارٍ، وكان دون بوسكو في القطار عينه، فدعاه إلى زيارة أوراتوار ڤلدوكّو. ولبّى الدعوة، وسعد برؤية جماهير الفتيان الذين ينمون. فرحين، في مدرسة عملٍ وإيمانٍ، وطلب

من دون بوسكو أن يضمّه إلى جمعيّته. ولبّى دون بوسكو طلبه في الحال، وقَبِل نذورَه بصفته ساليزيًّا، ولكنّه طلب منه البقاء في قريته، حيث تستلزم وجودَه أُمورٌ عظيمةٌ. ونشأت بينهما علاقات تعاونٍ، وغدا دون پيستارينو يشارك في اجتماعات المدراء الساليزيّين.

وبعد أن أُخِذ بمشاهدة الخير الجمّ الذي كانت تؤتيه للفتيان أوراتوارات دون بوسكو اعتملت في نفسه رغبةٌ حارقةٌ في تأسيس أوراتوار للفتيات. يقيهنّ من المخاطر التي كنّ يتعرّضنَ لها، ويثقّفهنّ ويعلّمهنّ، ويزوّدهنّ بتربيةٍ مسيحيّةٍ نقيّةٍ.

في هذه الأثناء رغبت فتاتان أُخريان من بنات سيّدة الحبل بلا دنسٍ مشاركة ماري مزّاريلّو ورفيقتها، وشجّع دون پيستارينو هذه الشراكة، وأكبّت الفتيات الأربع على تلقين فتيات القرية مهنة الخياطة، وكنّ أمّهاتٍ للصغيرات السبع.

ورغب أهالي "مورنيزي" في بناء مدرسةٍ للذكور، فوعدهم دون بوسكو بإرسال ساليزيّين لإدارتها حالما يكتمل بناؤها. واندفع جميع سكّان القرية إلى المساهمة في بناء المدرسة، فمنهم من قدّم مالاً، وموادّ بناءٍ، ومنهم من قدّم ساعديه وجهده. وعام ١٨٦٧، كانت كاپيلاّ المدرسة قد اكتملت فأقام دون بوسكو فيها القدّاس، وبارك المدرسة الجديدة، ومكث هناك أربعة أيّامٍ، وقدّم محاضراتٍ لمجموعة من "بنات مريم المنـــزّهة من الدنس". ومنذئذٍ شخص بأنظاره إلى فتيات مريم المتواضعات، وزوّد ماري ورفيقاتها بدفترٍ، دوّن فيه، بخطّ يده، خطوات تأسيس الفرع النسائيّ لجمعيّته، مقترحًا برنامج عملٍ مبدئيًّا، يضمن عيشًا جماعيًّا أكثر انتظامًا، إلى جانب نصائح روحيّةٍ، منها:

« الحياة في حضور الله؛ وصلواتٌ متواترةٌ نابعةٌ من القلب، وسلوكٌ يتميّز بالرقّة والوداعة، والصبر والمودّة، والسهر على أن تبقى الفتيات مشغولاتٍ؛ وإعدادهنّ لحياة التقوى، والبساطة، والصدق، والثقة. »

ثمّ عاد عام ١٨٧٠ إلى "مورنيزي"، حيث مكث ثلاثة أيّامٍ، ملتقطًا أنفاسه، ومتبيّنًا نتائج نصائحه، وكان راضيًا ملء الرضى.

وفي العام التالي، قدّم "دون پيستارينو" لمجلس الساليزيّين تقريرًا عن التقدّم الحاصل في "مورنيزي".

وكما كانت أحلامٌ ترشد دون بوسكو، دائمًا، إلى المشاريع التي يريد الله منه انتهاجها، وترسم له طريقها، واستمرّت في ذلك سحابة حياته، فقد خطر لدون بوسكو، في هذه المناسبة، حلمٌ رواه كالتالي:

« فيما كنتُ أطوف في شوارع تورينو، أحاطت بي ثلّةٌ من فتياتٍ يصحنَ، ويتوثّبنَ، ويركضنَ. ولمّا تعرّفنني مددنَ لي أيديهنَّ متوسّلاتٍ:

- اعتنِ بنا، يا دون بوسكو.

ولمّا لمَحنَ محاولتي الفرار منهنّ، علت صيحاتهنّ، هاتفاتٍ:

- لا تتخلّ عنّا.

وحسمًا لمقاومتي أُلهمنَ الكلمات الكفيلة بالتأثير عليّ فقلنَ لي:

- هل علينا، إذن، التسكّع في الشوارع، فرائس لشتّى ضروب المخاطر؟

هذا القول رجّ أعماقي. وأكملت السيّدة التي أعرفها جيّدًا، قهر تردّدي، قائلةً، بجِرْسٍ عذبٍ لا يُقاوم:

- هنّ، أيضًا بناتي، وأنا أعطيكهُنّ.»

وبما أنّه طالما تبيّن أنّ هذا النوع من الإيحاء هو محرّك قراراته الكبرى، وضمان نجاحها، أقبل، في الحال، على تأسيس فرع الأوراتوار النسائيّ.

ويوم ١٨٧١/٤/٢٤، دعا دون بوسكو مجلس جمعيّته، من أجل بحث قضيّةٍ فائقة الشأن، وأعلن:

« كثيرون حرّضوني على أن نعمل من أجل الفتيات، مثلما حققناه من خيرٍ للصبيان. ولو أنا خضعت فقط لميولي الشخصيّة، لما خضت، قطّ، هذا النوع من الرسالة، ولكنت قاومت تدابير العناية الإلهيّة. أدعوكم، إذن، إلى إعمال الفكر أمام الربّ من أجل اتّخاذ القرار المؤدّي إلى مجد الله الأعظم وإلى خير النفوس الأكبر. فلتكن صلواتنا، خلال هذا الشهر، موجّهةً صوب التماس أنوار الربّ بشأن هذه القضيّة الهامّة!»

وفي نهاية شهر أيّار ١٨٧١، دعا دون بوسكو ثانيةً إلى اجتماع المجلس، واستوضح رأي كلٍّ من أعضائه، فأجمعوا على جدوى مشروع الفرع النسائيّ وارتأى دون بوسكو الانتقال إلى التنفيذ.

واستدعى دون بوسكو دون پيستارينو على عجلٍ، وبلّغه قرار إنشاء معهد للفتيات في "مورنيزي"، ففي هذه البلدة الفتيات الأكثر استعدادًا لممارسة حياةٍ مكرّسةٍ جماعيّةٍ، بعيدًا عن العالم. وأجاب دون پيستارينو: "إذا ارتضى دون بوسكو أن يكون هو مدير المعهد، فأنا بين يديه".

حينئذٍ، كانت قد انضمّت إلى الفتاتين المؤسِّستَيْن سبع فتياتٍ أخرياتٍ، ولكن لم يكن قد خطرت ببال أيّةٍ منهنّ فكرة الحياة المكرّسة.

وفي شهر حزيران ١٨٧١، قصد دون بوسكو روما وشرح مشروعه للبابا پيّوس التاسع، الذي رحّب بمشروع حماية الفتيات وتثقيفهنّ، على نحو ما كان الساليزيّون يحمون الفتيان ويثقّفونهم، ودعاه إلى البدء بوضع نظامٍ للجمعيّة الجديدة، والشروع بالعمل.

في مطلع عام ١٨٧٢ دعا دون بوسكو ودون پيستارينو بنات مريم المساعِدة، السبع والعشرين إلى انتخاب الرئيسة الأولى على جمعيّتهنّ، فاختارت إحدى وعشرون منهنّ ماري مزّاريلّو، التي رجت إعفاءها من هذه المهمّة، فرُفِض طلبُها،

وخُيِّل إليها أنّ دون بوسكو هو الأدرى بعدم أهليّتها لهذا المنصب، فاحتكمت إليه، ولكنّه خيّب ظنّها، فقد كان الأشدّ إيمانًا بأهليّتها، وثبّت انتخابها.

وعندما طُرحت مسأله إسكانهنّ، أُعطينَ، مؤقّتًا، الطبقة الأرضيّة من مدرسة الصبيان حديثة البناء، واتّهم أهل القرية الكاهنين بوسكو وپيستارينو بخيانة القرية، واحتلال مدرستها. واستهلّت بنات مريم المساعِدة عملهنّ في جوّ توتّرٍ وسوء تفاهمٍ، فضلاً عن حالة فقرٍ وحرمانٍ. وقد وصفت شقيقة الرئيسة الأولى هذه الحالة، كاتبةً: "كان طعام الفتيات المكرّسات اليوميّ معجون الذرة، ومع ذلك غالبًا ما لم يتوفّر. وإذا توفّر كان حطب الطهو غير موجودٍ، فكانت الرئيسة، ماري وثلّةٌ من زميلاتها يقصدن الحقول، فيجمعن حطبًا جافًّا، ويعدنَ به على ظهورهنّ. وعند فراغهنّ من الطهو، كنّ يحملنَ المأدبة إلى فناء الدار، ويلقين القدور على الأرض، ويتناولنَ الطعام بشهيّةٍ وفرحٍ".

ولم يفتّ من عضدهنّ لا الحرمان ولا التعب، ولا امتعاض أهل القرية من استخدامهنّ جزءًا من مدرسة الصبيان.

ولكن ما لبث أن هدأت ثورة امتعاض أهل القرية، على احتلال جمعيّتهنّ قسمًا من مدرستهم، بفضل تفانيهنّ في تثقيف بناتهنّ، والنتائج الحميدة التي أثمرتها، ومن جرّاء الخدمات السخيّة التي قدّمنَها للمرضى. وكان لوفاة إحداهنّ إرهاقًا، ولموت دون پيستارينو المفاجئ، أثرٌ حاسمٌ على تهدئة النفوس.

وفي ١٨٧٢/٨/٥، ارتدت ماري الثوب الرهبانيّ مع خمس عشرة فتاةً أخرياتٍ، وارتبطت عشرٌ منهنّ بنذورٍ لثلاث سنواتٍ، بحضور دون بوسكو، الذي خاطبهنّ بقوله:

"إنّني أشهد بعينيّ معاناتكنّ، فالجميع يقاومونكنّ، وحتّى ذووكنّ يديرون لكنّ ظهورهم... تشجّعْنَ، وتعزّينَ، فعلى هذا النحو، فقط، ستؤتين خيرًا جمًّا لنفوسكنّ، ونفوس الآخرين".

وطال أمد معاناتهنّ الحرمان والبؤس، وظلّ معجون الذرة "البولينتا"، هو طعامهنّ الوحيد، وكانت وسائدهنّ حطبًا ملفوفًا بخروقٍ.

مطلعَ عام ١٨٨١، لاحظت الراهبات تدهور حالة رئيستهنّ الصحّيّة، فنصحنَها بإيلاء صحّتها مزيدًا من الاهتمام بذاتها، ولكنّها أجابت باسمةً: "إنّ من صالح الجميع أن أرحل، فتنتخبنَ أخرى أمهر منّي وأقدر".

وتفاقم سوء حالها، عندما واكبت مجموعةً من أخواتها المرسلات الماضيات إلى أميركا. واضطُرّت إلى قضاء ليلتها، بكامل ثيابها، منطويةً على ذاتها، مرتجفةً بسبب ارتفاع حرارتها، وفي الصباح كانت عاجزةً عن النهوض.

غير أنّها استقامت بجهدٍ، وواكبت المرسلات إلى المركب، مستنفدةً ما بقي لها من قوًى.

وشخّص طبيبٌ التهابًا حادًّا في ذات الجنب. واضطرّت إلى المكوث أربعين يومًا، بعيدةً عن مقرّها، خاضعةً للعلاج الوحيد المعروف آنذاك، العلاج بلصقاتٍ حوّلنَ ظهرها جرحًا مكشوفًا وجيعًا.

ومع أنّ حرارتها انخفضت، صارحها الطبيب بقسوةٍ: "لم يبقَ لك سوى أشهر عيشٍ معدوداتٍ".

ولّما التقت دون بوسكو، بلّغته توقّع الطبيب، واستفسرته عن وجود أملٍ في الشفاء، فلم يُدلِ بجوابٍ مباشرٍ، بل اكتفى برواية قصّةٍ توحي باقتراب النهاية.

ومع أنّ الآلام لم تفارقها، حرصت على ألاّ تكون سبب حزنٍ لأحدٍ. وفي حديثها الأخير مع بناتها قالت لهنّ: "أحبِبْنَ بعضُكنَّ بعضًا، واحرصنَ على وحدتكنّ. لقد هجرتنّ العالم، فلا تستصنعنَ عالمًا آخر في الدير، ولا تنسينّ هدف انتسابكنّ إلى هذه الجمعيّة".

ولبّت نداء ربّها، في فجر الرابع عشر من أيّار، عن أربعةٍ وأربعين عامًا، وهي تتمتم: "إلى اللقاء في السماء".

واختيرت، خليفةً لها، فتاةٌ في الخامسة والعشرين من عمرها، تدعى "كاتارينا داغيرو"، كانت قد انتسبت إلى الجمعيّة في سنّ الثامنة عشرة، وساعدتها ماري دومينيك على تخطّي قسوة الأيّام الأولى وأحزانها. وكانت قد أضحت مديرةً لفرع الجمعيّة في تورينو، وأيقظ قربها من دون بوسكو طاقاتها الإبداعيّة، فأنشأت أوراتوارًا نسائيًّا، ومدرسةً، مثبتةً متانتها، واتّزانها، وطيبتها.

وكان لها إسهامٌ فاعلٌ في توسيع مشاريع جمعيّة "بنات مريم المساعِدة" في إيطاليا، وفرنسا، وأميركا الجنوبيّة.

فقد كانت الجمعيّة قد انتشرت بسرعةٍ، وتفرّعت، وأقامت خلايا جديدةً.

ففي ١٨٧٦/٢/٩، انطلقت ثلاثٌ من راهباتها، وأسّسنَ فرعًا في منطقة ليغوريا الإيطاليّة. وفي ١٨٧٦/٣/٢٩، انطلقت سبعٌ أُخرياتٌ وأنشأنَ مركزًا في تورينو حيث أقمنَ مدرسةً للفتيات وأوراتوارًا، على مقربةٍ من أوراتوار ڤلدوكّو. وقد شهد عام ١٨٧٦ إنشاء الجمعيّة للعديد من مدارس للفتيان في شتّى أنحاء إيطاليا. ثمَّ شرعت الجمعيّة تنتشر في ما وراء البحار.

ولمّا توفّي دون بوسكو كان لتلك الجمعيّة خمسون فرعًا، وكان عدد الراهبات قد ارتقى إلى زهاء أربع مئةٍ، فضلاً عن نحو مئة مبتدئةٍ.

مِحنةٌ صحيّةٌ قاسيةٌ عَارضةٌ

يوم ١٨٧١/١٢/٦، كان دون بوسكو في مدينة "ڤارازّي" (Varazze)، الواقعة في الريڤييرا الإيطاليّة، وبغتةً وقع أرضًا، فاقد الوعي. وخشي رفاقه إصابته باحتقانٍ دماغيٍّ، وحملوه إلى المركز الساليزيانيّ في المدينة، وعقب بضعة أيّام ارتيابٍ، اتّضحت خطورة وضعه القصوى.

وأخذت تظهر على جسمه بثورٌ صغيرةٌ قاسيةٌ، تسبّب له أوجاعًا مريعةً، وارتفاعًا مقلقًا في حرارته. وخُيِّل إلى رفاقه أنّه بلغ حافّة آخرته، فأعطوه الزاد الأخير.

وشاع الذهول في تورينو. فمن عساه يُنقذ مؤسّسته، من بعده؟

فنائبه، ومعاونه دون ميشيل روا، ما زال في الثالثة والأربعين. وتمنّى عديدون من أعضاء جمعيّته افتداءه بحياتهم. ولاحقًا صرّح القدّيس:

"كان موتي محتّمًا في ڤارازّي. وما السنوات التي حييتُها، بعد ذلك، إلاّ نعمةٌ منحها الربّ لجميع أبنائي".

دام المرض شهرين، وكان تطوّره يبعث على القلق بحيث كانت أخباره تُصاغ بعباراتٍ عامّةٍ مبهمةٍ، تفاديًا لإشاعة الاضطراب في الأوراتوار.

وكانت تلك المحنة مناسبةً لإظهار براهين المحبّة الصادقة التي كان محاطًا بها.

وعاد دون بوسكو إلى تورينو يوم الخامس عشر من شهر شباط ١٨٧٢. ولمّا دخل إلى معبد مريم المساعِدة، حيث احتشد فتيان ڤلدوكّو، وجمهور الأصدقاء، صدح نشيد: "يا أولاد، باركوا الله!". وجثا الأب عند أقدام الهيكل، ولوحة العذراء المساعِدة، وصلّى طويلاً. ثمّ شكر الفتيان، ودعاهم إلى تقديم الشكر للسيّدة العذراء.

ويا لها من دموع فرحٍ وشكرٍ!

السَـاليزيّون المُسـاعِدون

قضيّة المساعدين كانت حاضرةً في ذهن دون بوسكو، منذ تأسيس جمعيّته، وقد كتب، في هذا السياق: "منذ ولادة مشروع الأوراتوارات، عام ١٨٤١، اندفع كهنةٌ وعلمانيّون كُثُرٌ، يتميّزون بالتقوى والبذل، ومدّوا يد العون لمشروعٍ كان يَعِد بحصادٍ وفيرٍ في حقل إنقاذ فتيانٍ معرّضين لأدهى المخاطر".

وكان دون بوسكو ينوي إدراج بندٍ خاصٍّ يقرّ بوجود معاونين ساليزيّين غير ملتزمين بأنظمة الجمعيّة. غير أنّ عددًا من أعضاء الجمعيّة عارضوه، حينذاك، إلى أن أثبت أبطالٌ، كبارُ النفوس، الخير الجمّ الناجم عن عطاءات المتعاونين.

وظلّ دون بوسكو يَعُدّ أبرزهم، الأب بوريل، الملقّب بالأب الصغير، الذي ربط مصيره بمصير الساليزيّين، وقال فيه دون بوسكو، يوم رحيله في ١٨٧٣/١/٩:

"كان يبدو كاهنًا ضئيل الشأن، مع أنّ عشرة كهنةٍ نشيطين يعجزون، معًا، عن إنجاز الخير الذي حقّقه، بمفرده، هذا العامل الفذّ في حقل الربّ".

واتّضح أنّ الأب بوريل، كان، عند وفاته، يفتقر حتّى إلى كلفة جنازته ودفنه، مع أنّه طالما أفرغ محفظته بين يدي دون بوسكو، وهو غير مدركٍ هل ما يعطيه فلوسٌ أو ليراتٌ ذهبيّةٌ. وقد حمل الساليزيّون نعشه على أكتافهم، وواكبوه حتّى مدفنه، على أنغام موسيقى حزينةٍ، في موكبٍ وقورٍ، انضمّ إليه نبلاء.

ولم ينسَ دون بوسكو سخاء علمانيّين، أحدهم بائع خرداواتٍ، وقف وقته، وكلّ موارده على إعانة فتيان الأوراتوار. ولا هو نسي علمانيّين وكهنةً من خارج

الجمعيّة كانوا يتطوّعون لتلقين التعليم المسيحيّ، أيّام الآحاد، والتدريس المسائي، ويُقدّمون الطعام، ويبحثون عن عملٍ للخارجين، حديثًا، من السجون.

ولم يُغفِل، يومًا، جميل نساءٍ قدّمنَ خدماتٍ جلّى، على مدى سنين، واضطلعنَ بمهامٍّ "أُمّهاتٍ"، وقمن بالأعمال المنـــزليّة اليوميّة، من أجل إطعام وإكساء، وإصلاح ثيابٍ لمئات الفتيان الذين قابلوهنَّ، أحيانًا، بالسماجة، وافتقروا إلى اللياقة. أبرزهنّ والدته مرغريتّا، وشقيقتها والدة الأسقف "غستالدي"، التي كانت تجمع الفتيان، كلّ يوم أحدٍ، مثلما يجمع جنرالٌ جنوده، وتتفقّد بدقّةٍ، ثيابهم، ونظافتهم الشخصيّة، ونظافة أسرّتهم. ولم يذهل دون بوسكو عن بذل والدة معاونه دون ميشيل روا، وتضحياتها.

وكان معاونون يكتفون بدفع المال. فثمّة كاهنٌ كان يوزّع على الفتيان الأشدّ فقرًا كلّ المبالغ التي يتلقّاها من آباء ميسورين، وكان صاحب مصرفٍ يدفع، بانتظامٍ، رواتب شهريّةً، وكان مهنيٌّ، يجود بانتظامٍ، بكلّ ما يستطيع توفيره.

ولطالما استعان دون بوسكو بمعاونين على تلقين التعليم المسيحيّ، وعلى تنظيم رياضاتٍ روحيّةٍ، وعلى تشجيع دعواتٍ كهنوتيّةٍ، وتوزيع النشرات المسيحيّة.

وانطلق دون بوسكو يبثّ دعواته، في العواصم والمدن الأوروبّيّة إلى تأليف "اتّحادات متعاونين ساليزيّين". ولقيت دعوته هذه تجاوبًا سخيًّا في مدُنٍ كثيرةٍ. فمدينة نيس الفرنسيّة أضحت مركزًا هامًّا للاتّحاد، بفضل تعدّد جنسيّات ساكنيها. وكان اندفاع متعاوني مرسيليا، يُشعر دون بوسكو أنّه ابن تلك المدينة.

وفي برشلونة أصبحت السيّدة "دوروثيا دي شوبيتيا" (Chopitea)، "أمّ الأعمال الساليزيّة"، وقد أعلنها البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني طوباويّةً، عام ١٩٨٣.

وزوّد دون بوسكو تلك الاتّحادات بأداةٍ تضمن وحدتها، وتوثّق علاقتها بمركز المشاريع السالیزیّة، فأصدر، لذلك، النشرة السالیزیّة الشهریّة، وتولّى إعدادها بنفسه، طالما كان له الوقت والقدرة لهذه المهمّة، ثمّ أفرز لها أحد أعضاء مجلس الجمعیّة، وأوعز بإرسالها إلى من یرید ومن لا یرید. وضمّنها أنباء ورسائل المرسلین السالیزیّین في أمیركا وفي العالم. وسلكت تلك النشرة طریقها إلى كلّ مكانٍ، وأكسبت دون بوسكو ومشاریعه جمهورًا رحبًا، وأصدقاء لا یُحصى عدیدهم. وقد ذكر البابا القدّیس یوحنّا الثالث والعشرون، أنّ ذویه كانوا یتابعونها بشغفٍ، ویقتطعون منها صورًا ومقالاتٍ، وأكّد أنّ صورة مریم المساعِدة، شفیعة السالیزیّین كانت تسهر على سریره، وهو كان یرفع لها صلواتٍ مفعمةً ثقةً، وأنّها طالما كانت له العون في حیاته.

وأكّد أحد كتّاب سیرة دون بوسكو، "موراند ورث" (Morand Wirth): "من الجليّ أنّ رسالة الجمعیّة السالیزیّة، قد نمت واتّسعت بفضل المساعدة الأخویّة، التي قدّمها لها متعاونوها. ولا ریب أنّ كثیرین منهم یستحقّون أن یُعَدّوا سالیزیّین فعلیّین، في العالم".

مُولِّد دعواتٍ ومُوجِّه مصائر

عام ١٨٧٠، كان دون بوسكو قد بلغ سنّ الخامسة والخمسين. وبعدما كانت حياته توتُّرًا دائمًا، ونشاطًا متدفّقًا، تدفُّقَ شلاّلٍ من قمّة جبلٍ، تحوّلت نهرًا مهيبًا، ووشّتها أحداثٌ لافتةٌ، إليكم نماذج منها:

سرقتُ خبزتين

عام ١٨٧٢: قُرِع الجرس وتدافعت أفواج طلاّبٍ، وعمّالٍ صغارٍ جياعٍ هاتفين: "الخبز، الخبز". فقد كان خبّازان قد أودعا في الباحة أربع سلالٍ ملأى بخبزٍ طازجٍ، شهيّ الرائحة، وأعلن مسؤولٌ: "خبزةٌ واحدةٌ لكلّ شخصٍ، لا أكثر".

ووقف صبيٌّ في الحادية عشرة، يُدعى فرنشيسكو پيكّولّو (Piccollo)، كان قد قدم حديثًا إلى الأوراتوار، منتظرًا دوره، ولم يكن قد زوّد معدته، حتّئذٍ، إلاّ بالحساء، وتمنّى طعامًا أكثر إشباعًا. ولم تكن خبزةٌ واحدةٌ كافيةً لإشباعه، وعقد العزم على مضاعفة الكمّيّة، مع علمه بالضائقة الماليّة التي كان الأوراتوار يجتازها، وبالتقنين الذي فرضته قسوة الظروف، وفيما كان يجيل الفكر في طريقة الحصول على مبتغاه. لاحظ أنّ بعضًا من رفاقه بعد مرورهم الأوّل، وحصولهم على خبزةٍ، كانوا يعودون إلى الانتظام في الصفّ ثانيةً، وينتشلون خبزةً ثانيةً، وأحيانًا ثالثةً. ولا يلحظهم أحدٌ. ولبّى فرنشيسكو إلحاح معدته، فنال خبزتين، وابتعد كي يتمتّع بالتهامهما بهدوءٍ ونَهمٍ، بين أروقة البناء. ولكن سرعان ما أنّبه ضميره، وتساءل: "لقد سرقتُ، فكيف سأجسر على المناولة غدًا؟" ولم يكن له حلٌّ سوى الاعتراف، وهو كان قد اتّخذ من دون بوسكو معرِّفًا. وشقّ عليه أن يعترف له بالسرقة، لا خجلاً منه، بل خشية إحزانه. فقصد مزار سيّدة العزاء، القريب، الغارق في نصف عتمةٍ، وبحث عن أكثر

كرسيّ اعتراف خفيةً، وبدأ بالقول للكاهن: "جئت كي أعترف هنا، لأنّني أخجل أن أعترف بفعلتي لدون بوسكو". فأجابه صوتٌ من الداخل: "تكلّم. فلن يعلم دون بوسكو شيئًا عن اعترافك". ولم يصعب على الفتى إدراك أنّ الصوت هو صوت دون بوسكو. ونضح جبينه عرقًا باردًا، وأرهقه التساؤل كيف لدون بوسكو أن يكون في الأوراتوار، وفي هذا المزار، في الآن عينه. واتّضح له، لاحقًا أنّ دون بوسكو كان قد دُعي إلى ذلك المزار لسماع اعترافٍ فيه.

لقد وقع فرنشيسكو، من حيث لم يتوقّع، في أحضان من ابتغى تجنّبه. ودعاه دون بوسكو إلى البوح بما قد جاء يعترف به، فيما هو كان يرتجف ارتجاف ورقةٍ تعبث بها الريح، فأجاب:

«- سرقتُ قطعتي خبزٍ.

- وهل أصابكَ منهما ضررٌ؟

- كلاّ.

- لا تقلق، إذن، هل كنتَ جائعًا؟

- نعم

- إذا احتجتَ، مستقبلاً، إلى أيّ شيءٍ، اطلبه من دون بوسكو، فيعطيك كلّ ما تشتهيه. وتذكّر، دائمًا، أنّ دون بوسكو يفضّل أن تثق به على الظهور بمظهر البراءة. فإذا وثقتَ به، استطاع مساعدتك، أمّا تظاهرك الزائف بالبراءة فيودي بك إلى الانزلاق والسقوط، وحينئذٍ لن تمتدّ إليك يدُ غوثٍ. ولا يغِب عن بالك، أبدًا، يا فرنشيسكو، أنّ ثروة دون بوسكو هي ثقة أبنائه به.»

وفي السنة التالية، كان فرنشيسكو في الصفّ الخامس، وبُلِّغ، يومًا، أنّ أمّه تنتظره في ردهة الاستقبال، فجاءها، ورآها تبكي، وفسّرت بكاءها بقولها:

« نحن فقراء، والمحاسب أنذرني بأنّه سيطردك، إن لم تسدّد القسط المدرسيّ.

ولكنّ دون بوسكو كفكف دموعي. فقد أطلعته على الواقع، فأجابني: "أيّتها السيّدة الطيّبة قولي لابنك إن أخرجه المحاسب من الباب، فليعد من الكنيسة، وليراجعني. وأنا لن أستغني عنه أبدًا".

وقبّلتني أُمّي ومضت. وفي ذلك المساء عينه استدعاني المحاسب، فارتعبتُ. ولكن قبل مقابلته لجأت إلى دون بوسكو، فسألني عن عدد الأقساط غير المدفوعة، فأخذ ورقةً ودوّن عليها إيصالاً بأقساط السنة كلّها. ولم يدرِ أحدٌ، حتّى المحاسب، بمبادرة الأب الكريمة.

وكرّت ثلاث سنواتٍ أخرى، وارتقيتُ إلى الصفّ الثاني. وذات مساءٍ، كنّا نسير، نحن الكبار، بين أروقة البناء، مع دون بوسكو، ورغبت في التحدّث إليه على انفرادٍ، فأحسّ برغبتي، كما طالما أحسّ، فأخذني جانبًا، وقال:

– أظنّ أنّك راغبٌ في بوحٍ.

فهمستُ في أذنه:

– "أودّ أن أقدّم لك هديّةً".

– ما هي؟

– اقبلني عضوًا في الجمعيّة الساليزيّة.

فابتسم وقال مازحًا:

– وما تريدني أن أفعل بشخصٍ مثلك.

ولكن سرعان ما استعاد جدّه، وقال:

– شكرًا، يا فرنشيسكو. هذه خير هديّةٍ. وأنا لا أقبلها من أجلي، بل لكي أكرّسك بالكامل للربّ، ولمريم المساعِدة.»

وأضحى فرنشيسكو كاهنًا ساليزيًّا، وعمل أكثر من ثلاثين سنةً، في صقلّيَة مدرّسًا، ومديرًا، ومسؤولاً عن المشاريع الساليزيّة حتّى وفاته عام ١٩٣٠.

أوزيبيو كالڤي (Ausebio Calvi)

في العام عينه، ١٨٧٢، لاحظ دون بوسكو القلق المستحوذ على فكر شابٍّ يُدعى "أوزيبيو كالڤي"، بسبب عجز ذويه عن دفع قسطه الدراسيّ، وشقّ عليه قلقه وكآبته، ولا سيّما بعد أن أكّد له الشابّ أن تعذّر دفع قسطه الدراسيّ سيضطرّه إلى العزوف عن متابعة دراسته. فسأله:

"– ألستَ صديقًا لدون بوسكو؟

– من المؤكّد أنّي صديقه.

– إذن ستُحَلّ قضيّتك بيُسرٍ. أخبر أباك ألاّ يشغل باله، لا بالماضي ولا بالمستقبل. وليدفع ما يتمكّن من دفعه. سنخفّض قسطك من اثني عشر ليرا بالشهر إلى خمس ليرات. ومع ذلك فليدفع والدك ما يقوى على دفعه. والآن تعالَ معي إلى مكتبي كي أكتب للمحاسب أمرًا بذلك".

وأصبح أوزيبيو كاهنًا ساليزيًّا، وعمل في إطار الجمعيّة الساليزيّة في كالابريا وصقلّيَة، حتّى عام ١٩٢٣.

ولكم من شبّانٍ آخرين تلقّوا مثل هذه المعاملة الكريمة من دون بوسكو!

فيليپّو رينالدي (Philippo Rinaldi)

سبق لنا ذكر التقاء دون بوسكو في قرية "لو"، أثناء إحدى رحلاته الخريفيّة، صبيًّا في الخامسة من العمر، يُدعى فيليپّو رينالدي، واكتفى، حينئذٍ بمداعبة رأسه. ثمّ أسّس دون بوسكو إكليريكيّةً صُغرى في محلّة "ميرابيلّو" (Mirabello)، على مسافةٍ قصيرةٍ من قرية "لو". وتذكّر الفتى، حينئذٍ، اسم دون بوسكو. وكان قد اشتدّ عوده، فحزم أمتعته، وقبّل والديه، ومضى إلى الإكليريكيّة، بعربة والده.

كان مدرِّسَه كاهنٌ يُدعى "باولو ألبيرا" (Paolo Albera)، وكتب عنه فيليبّو، لاحقًا: "لقد كان ملاكي الحارس، وهو الذي كُلِّف بالسهر عليَّ فقام بهذه المهمّة بمحبّةٍ، ما زالت تدهشني حتّى اليوم".

ولكن لسوء طالعه كان، في الإكليريكيّة، أيضًا، مراقبٌ قلبه من حجرٍ، لا يؤمن بالعطف، وميّالٌ إلى العنف والقسوة.

واعتاد دون بوسكو زيارة تلك الإكليريكيّة مرّتين في السنة، وكان يغتنم سانحة كلّ زيارةٍ، كي يتجاذب حديثًا مسهبًا مع فيليبّو، إلى أن توثّقت بينهما علاقة صداقةٍ.

وحدثت المأساة في الخريف، فقد كان فيليبّو قد سئم من الدروس الكثيفة في أشهر الشتاء القاسية. وبلغ توتّره ذروته ذات مساءٍ، فواجهه المراقب بجفاءٍ وقسوةٍ، دفعا الفتى إلى قرارٍ حاسمٍ بهجر الإكليريكيّة، والعودة إلى المنزل الوالديّ. ولم يقوَ أحدٌ على ردعه.

ولّما عاد دون بوسكو في السنة التالية إلى ميرابيلّو، فوجئ بنبأ هجر فيليبّو الإكليريكيّة. وعبثًا وجّه له رسالةً إثر رسالةٍ، راجيًا إيّاه العودة، ومذكّرًا بأنّ جميع بيوت دون بوسكو مفتوحةٌ له. وثابر دون بوسكو، طويلاً، على محاولة استرجاع فيليبّو، لأنّه كان يتوسّم في ذلك الفتى أمرًا عظيم الشأن.

وعام ١٨٧٤، كان فيليبّو قد بلغ الثامنة عشرة، فجاء دون بوسكو إلى قرية "لو"، راغبًا في التحدّث المباشر مع فيليبّو. واتّفق، حينذاك، أنّ امرأةً مصابةً بشللٍ علمت بوجود دون بوسكو، فقدمت متّكئةً على عكّازين، ملتمسةً غوث رجل الله. فأسبغ عليها بركة العذراء مريم المساعِدة، وإذا بها تلقي عكّازيها أرضًا. وشهد فيليبّو المعجزة، وتأثّر أبلغ تأثّرٍ. ومع ذلك لبث مصرًّا على رفض تلبية تمنّيات صديقه دون بوسكو، وعلى رفض دعوة أمّه إلى الصلاة، وتجنّب الصداقات

الخطيرة. واتّضح أنّه كان يجتاز أزمةً دينيّةً حادّةً، انتهى بتخطّيها بفضل صلوات أُمّه. واستعاد دون بوسكو محاولات إعادته إلى طريق الخلاص.

وعام ١٨٧٦ كان فيليبّو قد بلغ سنّ العشرين، وجاء والد فتاةٍ طالبًا من والد فيليبّو زواج ابنه منها. فاستخدم فيليبّو كلّ موروثه من تصلّب القرويّين في فرض شروطه.

وفي الآن عينه جاء دون بوسكو مصمّمًا على استعادة فيليبّو معه، واستخدم، هو أيضًا، كلّ صلابة وعناد الفلاّح الثاوي فيه، وفنّد واحدًا فواحدًا كلّ اعتراضات الفتى. فقد كان يستشفّ فيه مادّةً ساليزيّةً جزيلة الشأن، لا يمكنه الاستهتار بها.

وكتب فيليبّو، لاحقًا: "كان يكتسبني شيئًا فشيئًا. وترك لي ذويّ حرّيّة الاختيار، ووقع اختياري على دون بوسكو، الذي أرسلني إلى مركزٍ في مدينة "سمپييردارينو" (Sampierdareno)، على مقربةٍ من جنوى، حيث يُكمل أصحاب الدعوات المتأخّرة التملّك من قواعد اللغة اللاتينيّة ومفرداتها، وقواعد اللغة الإيطاليّة".

وكان بدهيًّا أن يواجه، في الأشهر الأولى، مشقّةً في تعلّم ما أهمله عندما كان ذهنه نَهِمًا إلى العلم، فملأت دفاتر وظائفه المدرسيّة الملاحظات الحمراء المخجلة، إلى الأخطاء. غير أنّه بفضل تصميمه العنيد، تخطّى، يومًا، فيومًا، صعوبات التعلّم، وتغلّب عليها.

وحظي فيليبّو بأنّ مدير ذلك المعهد كان، هو عينه الأب الطيّب الذي عطف عليه، وأغدق عليه مساعدته في إكليريكيّة "ميرابيلّو"، ولقي لديه العزاء والدعم في ساعات الوهن. وباح له فيليبّو، ذات يومٍ: "أخشى أن أرتكب، يومًا حماقة الهرب، ثانيةً. فردّ عليه الأب الطيّب: "حينئذٍ أنا الذي سيجري في إثرك، سعيًا إلى إعادتك".

ويوم ١٣/٨/١٨٨٠، جثا فيليبّو أمام دون بوسكو، وأعلن نذور الفقر، والعفّة والطاعة، بصفته ساليزيًّا. وكان، حينئذٍ، في الثامنة والعشرين. وفي خريف تلك السنة، باشر تصعيده صوب الكهنوت، متلقّيًا على التوالي الرتب المرحليّة، في غير استعجالٍ، تلبيةً لرغبة دون بوسكو، الذي حدّد، بدقّةٍ، تاريخ كلّ رتبةٍ، خلافًا لما كان يفعله مع الآخرين، الذين كان يكتفي بنصحهم، ويدع لهم قرار تحديد مواعيد تنفيذ قراراتهم المصيريّة، فلا ريب أنّه كان يقرأ، سطرًا فسطرًا، مستقبل ذلك الشابّ.

وعشيّة عيد ميلاد ١٨٨٢، احتفل فيليبّو بقدّاسه الأوّل، ولمّا قبّله الأب مهنّئًا، سأله: "هل أنت راضٍ الآن؟"، فأجاب: "إذا أبقيتني معك سأكون سعيدًا، وإلاّ لن أعرف ما عليّ فعله".

وبعد بضعة أشهرٍ عاد مرسلٌ ساليزيٌّ من أميركا الجنوبيّة، وأثارت أنباء الرسالة هناك حماس دون فيليبّو، والتمس من دون بوسكو تكليفه بالرسالات الخارجيّة. ولكن، في تلك النوبة، رفض الرئيس طلبه قائلاً: "ستبقى أنت هنا، وسنرسل آخرين للرسالة".

وأمسى دون فيليبّو، بعد سنواتٍ، خليفة دون بوسكو الثالث على رئاسة الجمعيّة الساليزيّة، وقيل عنه: "إنّه يملك من دون بوسكو كلّ شيءٍ، ما عدا صوته".

ومع أنّ مشاغل دون بوسكو قد تنامت حتّى الإشباع، واحتكرت تسعين بالمئة من وقت اهتمامه بالطلاّب والمِهَنيّين، الذين تخطّى عددهم ثماني مئة فتًى، فضلاً عن رعايته الساهرة على الفروع الساليزيّة، التي كانت قد تنامت عددًا وحجمًا، لم يغب الأوراتوار عن ذهنه.

وفي ما يلي شهادات فتيانٍ أَلِفوا ارتياد الأوراتوار:

روى "إنريكو أنجيلو برنا":

""كنت آتيًا من منطقة "بييلاّ" وعملت في البناء. وبمناسبة فترة العطلة الأولى، قصدت أوراتوار دون بوسكو، تنفيذًا لنصيحة خادم رعيّتنا، وراق لي ذلك المكان، وغدوتُ كلّما قدمتُ للعمل في تورينو، بين آذار وتشرين الثاني، أختلف إلى ذلك الأوراتوار، وكان مدخله، حينئذٍ، إلى يسار كنيسة مريم المساعِدة، من خلال بابٍ مصنوعٍ من ألواح خشبٍ غير مصقولٍ. وكان يرافقنا ثلاثة كهنةٍ أو أربعة، وبضعة إكليريكيّين. وكان دون بوسكو يأتي صباحًا ويحتفل بالقدّاس، ويرجع بعد الظهر من أجل التعليم الدينيّ.

في السنة الثانية، نلت مناولتي الأولى في الأوراتوار. وقد ارتدى جميع الفتيان الذين نالوا المناولة الأولى ثيابًا نظيفةً. والذين لم يحصلوا على هذه الثياب من ذويهم، منحهم إيّاها دون بوسكو. وهو الذي احتفل بالقدّاس ومنحنا المناولة. وعند خروجنا من الكنيسة، كانت تنتظرنا مائدة خبزٍ وجبنٍ وسجقٍ. ومرّ دون بوسكو بيننا، وسكب في كأس كلٍّ منّا رشفة نبيذٍ.

وكلّ من كان، منّا، تهترئ سترته، أو بنطاله، أو أحذيته، كان دون بوسكو يسارع إلى إعطائه بديلاً عنها، قد تكون مرقّعةً أو مُصلحةً. ولكنّها، دائمًا، لائقةٌ".

وفي تلك السنة عينها – ١٨٧١ – قدم إلى تورينو للعمل المدعوّ "فرنشيسكو ليمانّو"، مع جميع أفراد أسرته، وشرع يختلف إلى الأوراتوار.

وفي يوم زيارته الأولى لذلك المكان، التقى دون بوسكو. واتّفق أنّ يانصيبًا بسيطًا جرى، بعد الصلوات، وربح فرنشيسكو ربطة عنق، أصرّ دون بوسكو على

لفّها حول عنقه. واستفسر عن اسمه، وهل هو يرتاد الأوراتوار منذ فترةٍ طويلةٍ، فعلم أنّ تلك كانت زيارته الأولى إليه. وسأله هل يعرف دون بوسكو؟، فأجابه خجلاً: "أنت هو"، وردّ الكاهن: "ستعرفه جيّدًا، إذا أوكلت إليه خلاص نفسك". وقال الفتى: "هذا، بالضبط ما أبحث عنه. صديقٌ يُعنى بنفسي".

– "يا للروعة! هذا المساء كسبتَ، أنتَ، رباط عنقٍ. وأنا سأربطك بالأوراتوار ربطًا لن تقوى عنه فكاكًا".

وفي الواقع، توثّقت بينهما صداقةٌ متينةٌ، أوصلت فرنشيسكو إلى الانضواء في الجمعيّة الساليزيّة.

وهكذا، من خلال تزويد البنّائين الصغار بالثياب النظيفة، وبحواراته البسيطة الودّيّة معهم، ظلّ أوراتوار فرنسيس الساليزيّ، ينمو في ظلّ كنيسة مريم المساعِدة. وقد أوكل دون بوسكو إدارة أوراتواره، مدى سنواتٍ بالتوالي، إلى نخبةٍ من معاونيه الأوفياء المُشبَعين بروحه. وكان أبرزهم "جوڤانّي غربلّوني" (Giovanni Garbellone)، الذي، مع ذرّةٍ من الغرابة في طباعه، كان برهانًا دامغًا على قدرات دون بوسكو التربويّة التي، بفضلها، استنهض مواهب طبيعيّةً مذهلةً، كامنةً في أعمق العناصر وهنًا.

وكان دون بوسكو قد استحوذ على محبّة غربلّوني وثقته، يوم سلّمه مبلغ ثلاث مئة ألف ليرا إيطاليّةٍ، كي يدفعه لأحد دائني الأوراتوار. وكان "غربلّوني" في الثامنة والعشرين عامًا، يعاني حالة فقرٍ مدقعٍ. وكانت مبادرة الثقة هذه من شدّة الوقع على نفس الشابّ، بحيث غدا، في كلّ لحظةٍ، متأهّبًا لإلقاء نفسه في النار، إرضاءً للذي أولاه هذه الثقة.

ويوم ١٨٧٧/٣/١٩، قدم إلى الأوراتوار فلاّحٌ يدعى ميشيل يونيا، له من العمر

ثمانٍ وعشرون سنةً، وباح لدون بوسكو برغبته في الدراسة كي يصبح كاهنًا، ولكن لا ساليزيًّا، لأنّه كان راغبًا في خدمة رعيّة قريته. واعترض دون بوسكو، قائلاً:

«– "ولكن ماذا ستفعل، إذا أرادك الله لرسالةٍ أجلّ شأنًا؟"

– "سأفعل ما يفهمني الله أنّ تلك هي إرادته.

– "وإذا كشف لي الله عمّا تعرفه، أنت وحدك، عن ذاتك، ألن يكون ذلك إشارةً كافيةً لانضوائك إلى الجمعيّة الساليزيّة؟"»

وحار الرجل، متسائلاً هل الأمر مزاحٌ أم جِدٌّ. وقال:

– "إذن، قلْ لي شيئًا ممّا تراه في ضميري".

فأماط دون بوسكو اللثام، عن كلّ ما كان يشهده في ماضيه، وعرض له لائحةً بكلّ أعماله الصالحة، وبخطاياه في أدقّ تفاصيلها. فخُيِّل إلى ميشيل أنّه يحلم. ولكنّ الأب أردف قائلاً: "وإنّي أعرف أكثر ممّا تظنّ. ففي سنّ الحادية عشرة، كنتَ، يوم أحدٍ، في الكنيسة، وقت صلاة الغروب. وكان رفيقٌ لك بقربك نائمًا، وفمه مفتوحٌ، فأخذتَ أكبر خوخةٍ من جيبك، وأدخلتها في فمه. ولّما اعتراه شعورٌ بالاختناق، راح يركض كالمجنون في كلّ اتّجاهٍ. وتوقّفت الصلوات. وفيما كنت، أنت، مغرقًا في الضحك، أنزل بك الكاهن نصف دزّينةٍ من الصفعات.

وإثر كلّ هذه البراهين، لم يبقَ لميشيل مفرٌّ من الانضواء إلى الجمعيّة الساليزيّة. وألحقه دون بوسكو بالرسالة الساليزيّة في كولومبيا، حيث عاش وسط سبع مئةٍ وثلاثين مصابًا بالبرص، وعالجهم حتّى أعاد لهم كرامة أبناء الله.

الجمعيّة الساليزيّة تترسّخ وتمتدّ

عام ١٨٦٠، حمل لدون بوسكو فرحًا عارمًا، وحزنًا مضنيًا.

ففي ١٨٦٠/٧/٢٩، سيم الساليزيّ الأوّل، ميشيل روا، كاهنًا، واحتفل بقدّاسه الأوّل، يوم الأحد التالي، في الأوراتوار. ولمّا صعد إلى غرفته، بعد الاحتفالات، وجد فيها رسالةً من دون بوسكو، يقول له فيها: "ستشهد، أكثر منّي تخطّي المؤسّسة الساليزيّة حدود إيطاليا، وانتشارها في أرجاءٍ عديدةٍ من الدنيا. وسيتعيّن عليك بذل جهودٍ جمّةٍ، وتحمّل الكثير من الآلام. فأنت تعلم أنّ الوصول إلى الأرض المقدّسة، يقتضي اجتياز البحر الأحمر، والصحراء. فتحمّل ببسالةٍ، ولن تفتقر عزاء الربّ ومعونته، حتّى على هذه الأرض".

وغمر قلبَ دون بوسكو السلامُ، فالأوراتوار قد أضحى مؤسّسةً كبرى. وشارف عدد الفتيان الداخليّين الخمسَ مئةٍ؛ ونشطت فيه أربعة مصانع، تعمل بكلّ طاقاتها، وثلاثون متدرّبًا صغيرًا يتلقّون كلٌّ واحدٍ مهنةً.

وبات بوسع المؤسّس أن يغيب عن البيت مطمئنًّا، من أجل متابعة أعماله الخيريّة الأخرى. فلديه الآن من يضطلع بمهمّة إشباع المعد الصغيرة الكثيرة خير اضطلاعٍ.

ولكنّ ذلك اليوم، أيضًا، قد أحدث جرحًا مضنيًا في قلبه. فكان قد اضطلع، متأخّرًا، على بلوغ صديقه الحميم، وتوأم نفسه، دون كافاسّو، مرحلةً خطيرةً من المرض، فهرع إليه. ولكنّ الرفيق الحبيب كان قد فارق الحياة، قبل وصوله إليه. وبفقده، فقد دون بوسكو أكثر إنسانٍ إيمانًا به وبرسالته، قبل أن يؤمن، هو بذاته وبرسالته، ومنه تلقّى الدعم والتشجيع. وكان له دون كافاسّو حقًّا الأبَ الروحيّ، والأخ.

وبين ١٨٦٠ و١٨٦٤، نمت رقعة عقارات أوراتواره ثلاثة أضعافٍ، وكان عدد النـــزلاء قد ارتقى من مئتين إلى خمس مئةٍ.

ولّما أبرز أعضاء جمعيّته نذورهم، في شهر أيّار ١٨٦٢، خاطبهم قائلاً: "بعد خمسٍ وعشرين أو ثلاثين سنةً، إذا استمرّ الربّ يعيننا، مثلما أعاننا حتّى اليوم، ستنمو جمعيّتنا، من كلّ جانبٍ، ويمكن أن يربو عدد أعضائها إلى ألف عضوٍ، منهم الواعظ، ومنهم كاتب كُتُبٍ جيّدةٍ، وسيسهم جميعهم في دعم الحبر الأعظم، ورعاة الكنيسة. وما أعظم الخير الذي سنؤتيه!".

بهذه الثقة مضى دون بوسكو ناشرًا الخير والمحبّة.

وبما أنّه كان يعي العلاقة الوثقى بين مستوى العلم، ونيل الوظيفة المناسبة المجزية، ويحزنه عجز الفقراء عن تحصيل العلم الجيّد، فقد أولى اهتمامًا جادًّا بتوفير العلم العالي، للفقراء المؤهّلين للعلم، وشرع يوفّر أسباب الدراسة الثانويّة للأولاد المؤهّلين للنشاط الفكريّ.

وكان يستعين على منح هذا التعليم بطلاّبه الكبار، الذين جلّى بعضهم في مجالات دراستهم، ونال بعضٌ منهم شهرةً عالميّةً. غير أنّ حقد أعداء الدين دفعهم إلى عرقلة مساعيه في هذا المضمار، وعملوا على رهن التعليم بالحصول على شهاداتٍ جامعيّةٍ، مع أنّ هذه الشهادات ليست، دائمًا، دليل أهليّةٍ.

حضّ كهنةٍ على العمل المنتج

عام ١٨٧٢ زار دون بوسكو مدينة جنوى زيارةً خاطفةً، وكان بين زائريه الشنوان (Chanoine)[١] "أمبيغناني" (Ampiganani). واستفسره دون بوسكو، عمّا يقوم به من عملٍ، فردّ:

- "**لا أعمل شيئًا فقد قرّرت أن آخذ قسطًا من الراحة**".
- **وكيف ترتاح، وأنت ما زلت شابًّا معافًى؟**
- **لقد عملتُ سنواتٍ طويلةً في أميركا، وحان لي الآن أن أرتاح**".

حينئذٍ، اختلفت نبرة دون بوسكو، وارتدت صيغة الجدّ والحزم، وقال:

- **أولا تعلم أنّ الكاهن لا ينعم براحةٍ إلاّ في الفردوس، وأنّنا سنؤدّي حسابًا عسيرًا عن كلّ وقتٍ هدرناه سدًى.**

وكانت صدمة الشنوان، من شدّة الوقع، بحيث صعب عليه الاهتداء إلى باب الخروج. وفي اليوم التالي، عاد الشنوان إلى أوراتوار الساليزيّين في جنوى، طالبًا تكليفه بتدريس الموسيقى، والترتيل، وبالوعظ، مبرّرًا طلبه، بقوله: "أسمعني دون بوسكو، أمسِ، كلماتٍ مخيفةً".

والتقى دون بوسكو، أيضًا، في جنوى رئيس دير إخوة القدّيس فرنسيس دي پول "الأصاغر"،[٢] وكان كاهنًا واسع العلم، يقوم بمهمّة خادم رعيّة. فحيّاه دون

---

(١) "شنوان" هو لقبٌ فخريٌّ يُكافأ به كهنة من الطائفة اللاتينيّة، يحاكي إلى حدٍّ ما لقب "أرشيمندريت" لدى الكنائس البيزنطيّة.

(٢) القدّيس فرنسيس دي پول (de Paule) (١٤١٦-١٥٠٧) ناسكٌ وصانع عجائب، ومؤسّس جمعيّة "الأصاغر". وُلد في إيطاليا، وتوفّي في فرنسا. وشيّدت عدّة كنائس تحمل اسمه في فرنسا.

بوسكو باحترامٍ، واستفسره عمّا يقوم به، بصفته رئيسًا عامًّا على جمعيّته. وأقرّ الكاهن بأنّه يكاد لا يقوم بأيّ عملٍ في هذا المجال. فعدد أعضاء الجمعيّة ضئيلٌ جدًّا، ولا وجود لمبتدئين لديه، ولا طلّابٌ.

حينئذٍ، اكفهرّ وجه دون بوسكو، وجلجل صوته، وصاح:

«– ومع ذلك لا تفعل شيئًا كي تمنع موت جمعيّة أدّت للكنيسة خدمات جلّى، وما زالت نبوءات مؤسّسها المجيدة تنتظر تنفيذها.

– ولكن ليس لدينا دعواتٌ.

– إن لم تجدوا دعواتٍ في إيطاليا، فابحثوا عنها في فرنسا، وإسبانيا، وأميركا، وأوقيانيا. مسؤوليّتك باهظةٌ، وستؤدّي عنها حسابًا صارمًا. فلكم قاسى القدّيس فرنسيس دي پول من مشاقَّ وآلامٍ، من أجل تأسيس هذه الجمعيّة! وأنت ترضى بهدر كلّ صلواته وألقابه، وتوقّعاته، هباءً.»

هذه الكلمات هزّت الرئيس العامّ هزًّا عنيفًا، فاعتزم القيام بكلّ مستطاعٍ، من أجل إيجاد دعوات.

إلى أقاصي المسكونة، ملحمة رسالة أميركا الجنوبيّة

رأينا، في ما سبق، أنّ الأحلام هي التي كانت تُسفر لدون بوسكو عن مشيئة الله، وترسم له دروب مسيرته. وفي عامي ١٨٧١ و١٨٧٢، رأى حلمًا خطيرًا:

« رأيت مكانًا موحشًا مجهولاً جهلاً تامًّا: سهولاً مقفرةً، لا أثر فيها لزراعةٍ، ولا لمكانٍ مرتفعٍ. ولكن في الأفق البعيد لمحتُ سلسلة جبالٍ شاهقةٍ.

ورأيت رجالاً شبه عراةٍ، قاماتهم تتخطّى المألوف، تتجلّى عليهم معالم الشراسة. شعرهم مسترسلٌ، جافٌّ، قاسٍ، برونزيُّ اللون. لباسهم معاطف من جلود الحيوانات. سلاحهم رماحٌ ومقاليع. عشائر متباينةٌ، فمنهم من يسعون إلى اصطياد الوحوش، ومنهم من يحملون على أطراف رماحهم لحومًا تقطر دمًا. بعضهم يتناحرون، وآخرون يحاربون جنودًا يرتدون زيًّا حضاريًّا، والأرض مفروشةٌ بالجثث.

منظرٌ هزّ أعماقي.

وفي الأفق ظهر حشدٌ من ناسٍ أوحت أزياؤهم وطرق سلوكهم، أنّهم مرسلون منتمون إلى عدّة جمعيّاتٍ، قادمون كي يبشّروا أولئك المتوحّشين بتعاليم يسوع وبدينه. راقبتهم عن كثبٍ ولم أتعرّف أحدًا منهم. ولمّا شاهدهم المتوحّشون انقضّوا عليهم، وأخذوا بأطراف رماحهم غنائم مريعةً. وتساءلت: "ما السبيل إلى تحويل بشرٍ على هذا القدر من الشراسة؟".

وفي تلك اللحظة، رأيتُ في البعيد، مجموعةً من مرسلين آخرين تتقدّمهم طغمةٌ من الشبّان، اقتربوا من المتوحّشين بوجوهٍ تشعّ فرحًا ومودّةً، فارتعدتُ خوفًا من تعرّضهم للقتل. ودنوت منهم فإذ بهم إكليريكيّون وكهنةٌ، وعرفتُ من

كانوا في الطليعة، غير أنّي لم أميّز هويّاتهم الشخصيّة، وتبيّنت أنّ كثيرين من الآخرين كانوا مرسلين ساليزيّين، ومن أفراد أُسرتنا. وخشيت أن يلقوا مصير من سبقوهم، وحاولتُ إبعادهم عن المتوحّشين، ولكن سرعان ما لحظتُ أنّ مجيئهم أسعد عشائر البرابرة. فقد كان المرسلون يعلّمونهم. وهم كانوا ينصتون إليهم طوعًا، وباهتمامٍ، وينفّذون نصائحهم وتوجيهاتهم.

"وواصلتُ المراقبةَ فشاهدتُ مرسلينا الساليزيّين يجلسون وسط البرابرة، ويركعون، فيضع البرابرة أسلحتهم جانبًا، ويركعون، هم أيضًا. ورأيت المرسلين يتلون المسبحة، والبرابرة يردّدون أقوالهم. وحينئذٍ أنشد ساليزيٌّ بصوتٍ جهيرٍ:

"يا أصوات المؤمنين سبّحي مريم". وبصوتٍ واحدٍ كالرعد سبّح البرابرة معًا القدّيسة مريم، أمّ الله.

"وانتشلني نشيدهم من نومي ومن حلمي.»

وكان لهذه الرؤيا وقعٌ حاسمٌ، على فكر دون بوسكو، وعلى مستقبل جمعيّته، فقد أيقظت لديه حلمًا رسوليًّا غاليًا، رافقه مذ كان طالبًا في "كييري"، حيث كان يتابع، بنهمٍ أخبار الرسالات في العالم وبطولات المرسلين، واستشهادهم.

وشرع يبحث عن تفسيرٍ لكلّ ما رآه في حلمه، وعن سِحَن البرابرة، ومواطنهم. واتّفق حينذاك – عام ١٨٧٤ – أن حدّث قنصل الأرجنتين في مدينة "سافونا" الإيطاليّة أُسقف بوينس آيريس عن الساليزيّين. فرغب في أن يكون لهم وجودٌ في الأرجنتين. وزوّده بكتبٍ عن بلاده وبخرائطها. ومذ اطّلع عليها دون بوسكو، تعرّف ما رآه في الحلم، ولا سيّما منطقة "باتاغونيا" (Patagonia)، في جنوب البلاد، ذات المساحة الشاسعة، والسكّان العمالقة. وبحث، طويلاً، عن النهرين اللذين رآهما في الحلم، عند مدخل صحراء مترامية الأطراف، وأفاده القنصل أنّهما نهر "كولورادو" (Rio Colorado)، والنهر الأسود (Rio Negro).

وأخيرًا، أيقن دون بوسكو أنّه اهتدى إلى الموقع الذي يريد الربّ أن يوفد إليه مرسليه، فهناك لا وجود للإيمان بالله، ولا لمسيحيّين. بل هي بلاد الأساطير التي وصفها المكتشفون بأنّها موطن عمالقةٍ، لا يرتقي طول الإنسان الأوروبّيّ إلى مستوى خصرهم، وطباعهم الشرسة تعكس صورة إقفار أراضيهم من كلّ زراعةٍ، وكلّ ظلٍّ، وحيث تعصف رياحٌ عاتيةٌ، والسكّان يطوفون على ظهور جيادٍ فائقة السرعة، مسلّحين بحبالٍ، لاقتناص فرائس من بهائم وبشرٍ، وبأقواسٍ يطلقون سهامها بمهارةٍ مُدهشةٍ.

وفي غروب عام ١٨٧٤، وجّه رئيس أساقفة بوينس آيريس، إلى دون بوسكو طلبًا رسميًّا مزدوجًا:

- تولّي العناية برعيّةٍ في العاصمة الأرجنتينيّة، قوامُها مهاجرون إيطاليّون، ومكرّسةٍ لأُمّ الرحمة.
- تشغيل ثانويّة صبيانٍ، مؤسّسةٍ حديثًا، في منطقة مزار القدّيس نيقولاوس، التي تعجّ دائمًا بالحجّاج.

وردّ دون بوسكو، موضحًا بنود برنامجه ثلاثيّ المراحل:

- سيرسل كهنةً من أجل بناء مقرٍّ للساليزيّين في أميركا الجنوبيّة، وسيولون جلّ اهتمامهم بالشبّان الفقراء المهملين، وبالتعليم المسيحيّ، وبالمدارس والوعظ، وبمدارس الأحد.
- ثمّ سيأخذون على عاتقهم إطلاق مشروع ثانويّة القدّيس نيقولاوس.
- من هاتين القاعدتين سينطلق الساليزيّون إلى رسالة تبشير مناطق خارج المدينة.

على هذا النحو، وبعباراتٍ عمليّةٍ واضحةٍ، حدّد دون بوسكو طريقةً مبتكرةً

للتبشير بالإنجيل. ومنذ البدء، كان جليًّا أنّ كهنة دون بوسكو لن ينطلقوا إلى أعمال الرسالة وسط عشائر بعيدةٍ، إلاّ بعد ترسيخ قواعد آمنةٍ، والتعاون مع مهاجرين إيطاليّين كُثُرٍ في الأرجنتين، محرومين من كلّ عونٍ دينيٍّ وأخلاقيٍّ. ومن هذه القواعد سينبرون للنضال على الخطوط الأماميّة.

ويوم ١٨٧٥/١/٢٧، بلّغ القنصل الأرجنتينيّ دون بوسكو الموافقة على بنود برنامجه.

وتريّث دون بوسكو يومين، قبل أن يعلنَ مفتخرًا عن فرحه بمباشرة مرحلةٍ جديدةٍ هامّةٍ، في تاريخ الجمعيّة الساليزيّة. وفي مساء ١٨٧٥/١/٢٩، الموافق لعيد القدّيس فرنسوا الساليزيّ، جمع العمّال المتدرّبين، والطلاّب، والمعاونين في قاعة التدريس، حيث أُقيمت منصّةٌ، اعتلاها دون بوسكو، وإلى جانبه القنصل الأرجنتينيّ، بزيّه الرسميّ المهيب، وأعضاء مجلس الجمعيّة، ومديرو الفروع. وحينئذٍ أعلن دون بوسكو للجمهور المتلهّف إلى سمعه، أنّ الساليزيّين، بموافقة الحبر الأعظم، سيباشرون قريبًا مشروع رسالاتٍ في أميركا الجنوبيّة.

إعلانٌ أثار حماسًا عارمًا في صفوف الساليزيّين الشبّان، الذين لم تخامرهم خشية مغامرةٍ قد تكون متهوّرةً. واتّضح أنّ خميرةً جديدةً كانت تنضج في نفوس الساليزيّين الشباب. فتكاثرت الدعوات الكهنوتيّة وتنامت طلبات الانضواء إلى الجمعيّة الساليزيّة، واستولى الاندفاع الرسوليّ على الجميع.

ولكأنّ تاريخًا جديدًا للجمعيّة كان يبزغ.

وفي ١٨٧٥/٢/٥، أعلن دون بوسكو افتتاح حملةٍ رسوليّةٍ، ستنطلق في شهر تشرين الأوّل، ويمكن أن يتسجّل فيها من يشاء، من خارج ڤلدوكّو. وقوبل إعلانه باندفاعٍ حماسيٍّ، وما انفكّ يتصاعد.

لقد نظّم دون بوسكو، أثناء حياته، إحدى عشرة حملةً رسوليّةً. ولكن لم تُثِره

أيّةٌ منها، مثل الحماس الذي أثارته تلك الحملة الأولى، التي أعدّ مطلقُها نجاحها بكلّ تفاصيله، كي يُرحَّب بمرسليه ترحيب أصدقاء بأصدقاء. ولذلك عدّد اتّصالاته بشخصيّاتٍ في بوينس آيريس. ولكي لا يفتقر مرسلوه إلى أيّ شيءٍ، استعان بمعاوني جمعيّته، فكان كرمهم مُدهشًا.

وقد كلّف بقيادة الحملة أحدَ نخبة رجاله: دون كاليرو، الذي كان في السابعة والثلاثين من عمره، كاهنًا متينًا، ذكيًّا، متدفّقًا نشاطًا، جديرًا بقيادة دفّة الرسالة بمهارةٍ، وثقةٍ، ونجاحٍ.

لا ريب أنّ غياب دون كاليرو عن الأوراتوار، حرم الأوراتوار خيرة عناصره، ومحرّكه، وأحدث فيه فراغًا موجعًا. فقد كان دون كاليرو مجازًا في اللاهوت، ومعلّمًا للشمامسة، ومرشدًا للكهنة الجدُد، ومعلّم موسيقى منقطع النظير. وكان مسؤولاً عن نشاطاتٍ، تقتضي أقصى مستويات الدقّة والحنكة. وكان مشرفًا على روحانيّة العديد من المؤسّسات الرهبانيّة في تورينو.

وروى أحد قدامى الساليزيّين، كيف تمّ تكليف دون كاليرو بهذه المهمّة، فقال: "في يومٍ من شهر آذار قضاه دون بوسكو ساهمًا، صامتًا، مسترسلاً في التفكير، قال لدون كاليرو الواقف إلى جانبه: "إنّي راغبٌ في تكليف أحد أقدم كهنتنا بمواكبة مرسلينا إلى الأرجنتين، وبالمكوث معهم ثلاثة أشهرٍ، حتّى يتوطّد استقرارهم، لأنّ تركهم، في الحال، بلا داعمٍ ولا مرشدٍ يثقون به، يبدو لي حافلاً بالمخاطر. وتلقائيًّا ردّ دون كاليرو: "إن لم يعثر دون بوسكو عن شخصٍ مناسبٍ، وخطر له أن يكلّفني بالمهمّة، فأنا جاهزٌ لها".

وبلا تلكّؤٍ، ردّ دون بوسكو: "فليكن، إذن".

وكرّت أشهرٌ على هذا الحوار. ولّما دنا موعد انطلاق الحملة الرسوليّة سأل دون بوسكو، دون كاليرو، بغتةً:

- بشأن الذهاب إلى أميركا، هل ما زلت جاهزًا، أم إنّ ما سبق لك قوله كان مزاحًا؟
- أنت تعلم أنّني لا أمزح أبدًا مع دون بوسكو، في هذه الأمور.
- إذن حان أوان التأهّب.

وانخرط دون كاليرو في نشاطٍ محمومٍ، وفي غضون أيّامٍ معدوداتٍ، أصبح كلّ شيءٍ معدًّا خير إعدادٍ. وهكذا باشر ذلك المرسل الساليزيّ استعداده للرسالة بحميّةٍ وغيرةٍ، وبساطةٍ. غير أنّ فترة مواكبته للمرسلين، التي قدّرها دون بوسكو بثلاثة أشهرٍ، امتدّت ثلاثين سنةً.

وعيّن دون بوسكو خمسة كهنةٍ لمرافقته ومساندته، أحدهم "دون فنيانو"، وهو جنديٌّ سابقٌ، متميّزٌ بروح الريادة، وزوّدهم بأربعة معاونين: "نجّارٍ، وطبّاخٍ، وإسكافيٍّ ماهرٍ، وبمعلّم موسيقى.

وقضى المرسَلون العتيدون الصيف، مُكبّين على تعلّم اللغة الإسبانيّة. وفي شهر تشرين الأوّل، اقتادهم كاليرو إلى الڤاتيكان من أجل نيل بركة الحبر الأعظم. ولّما دخل البابا پيّوس التاسع إلى القاعة، التي كانوا مجتمعين فيها، قال: "أين هم مرسليَّ الصغار؟ إذن، أنتم أبناء دون بوسكو، وماضون للتبشير بالإنجيل في الأرجنتين، حيث سيتّسع لكم حقل تحقيق الخير. كونوا المثل الصالح، وسط ذلك الشعب، بفضائلكم. إنّي راغبٌ في تنامي عددكم، لأنّ حقل الرسالة رحبٌ، والحصاد وافرٌ، وسط الأوساط القبليّة".

ولّما عادوا إلى تورينو كان لانطلاق حملةٍ رسوليّةٍ، إلى أعماق أميركا صدًى شديد الوقع، ونكهة الملاحم في أوساط ڤلدوكّو، المغمورة، حيث كانوا ينظرون إلى المسافرين نظرة أبطالٍ بواسل، منطلقين بجرأةٍ إلى بلادٍ يجهلون كلّ شيءٍ عنها. وكانوا يحاولون الاقتراب منهم، وهم في زيّهم الهجين، متمنّين تبادل بضع كلماتٍ معهم.

ويوم ١٨٧٥/١١/١١، ودّع دون بوسكو طليعة مرسليه، في كنيسة مريم المساعِدة، المكتظّة. وفي نهاية صلاة الغروب، ارتقى دون بوسكو المنبر، ورسم لأفراد الحملة الرسوليّة خطوط رسالتهم، فكانت نصيحته الأولى العناية بالإيطاليّين المهاجرين، الذين اقتادهم الفقر والعَوَز إلى تلك البلاد الغريبة، حيث ما زالوا ضحايا الجهل، والأُمّيّة، والمرض، والعَوَز.

وأوصاهم، ثانيًا، بتبشير قبائل "پاتاغونيا"، حالما تتوفّر لهم الظروف لذلك، آملاً أن يغرسوا هناك بذرةً، تنمو وتصبح شجرةً وارفةً، مثقلةً بالثمار.

وأخيرًا، قبّل المرسلين واحدًا واحدًا. وكان التأثّر ملموسًا، عندما اجتاز المرسلون العشرة الكنيسة، وسط جدارَيْن من الشبّان والأصدقاء. وكلٌّ يجهد في الاقتراب منهم. ولّما انتهى دون بوسكو إلى عتبة الكنيسة، أخذ به المشهد كلّ مأخذٍ، فقد غمرت الحشودُ الساحةَ بأكملها، واصطفّت طوابير العربات، كي تودّع المرسلين، وأضاءت آلاف المصابيح عتمة الليل، وهمس أحد مرافقي دون بوسكو في أذنه، مذكّرًا بالشارة التي رآها في الحلم، على واجهة الأوراتوار العتيد، والتي دُوِّن عليها: "من هنا سيخرج مجدي".

تلك لحظاتٌ يمكن أن يفقد فيها المرء الشعور بالواقع.

لبضعة أشهرٍ خلت، كان دون بوسكو قد تساءل:

"ما هو حيّز أوراتوارنا في العالم؟ أذرّةٌ؟". وأردف: "ومع ذلك سنفعل الكثير، ومن هذه الزاوية الصغيرة ننوي إرسال رجالنا إلى أماكن عديدةٍ".

وكان دون بوسكو قد زوّد كلّ مرسلٍ بورقةٍ تحتوي عشرين نصيحةً للذكرى. وهو كان قد دوّنها بقلم رصاصٍ على دفترٍ صغيرٍ، أثناء سفرةٍ في القطار، ونسخوها جميعهم. ومن هذه النصائح:

- اسعوا وراء النفوس، لا وراء المال، أو الأمجاد، أو التكريم.
- أولوا عنايةً خاصّةً بالمرضى، والمسنّين، والفقراء، فتكسبوا بركة الله، وعطف البشر.
- فليكن العالم شاهدًا على فقركم في ملبسكم، وطعامكم، وسكنكم. فتكونوا أغنياء أمام الله، وتملكوا قلوب البشر.
- أحبّوا بعضكم بعضًا، وتبادلوا النصائح، والإصلاح. وانأوا عن الحسد، والحقد. وليكنْ للجميع ما هو لكلٍّ منكم. اعتبروا مشقّات وآلام كلٍّ منكم، كأنّها مشقّات جميعكم وآلامكم جميعًا. وليسعَ كلٌّ منكم إلى شفائها أو إلى تخفيفها.
- في الأتعاب والمِحَن، لا ننسينّ أنّ مكافآتٍ كبرى معدّةٌ لنا في السماء. آمين.

وقد واكب دون بوسكو المرسلين إلى مرفأ جنوى. ومن هناك أبحروا على متن مركبٍ فرنسيٍّ. وبدا جليًّا على محيّا دون بوسكو المحتقن، كم كان يجهد في كتم تأثّره.

مؤكّدٌ أنّ المستقبل المرتسم في الأُفق لم يكن زهريًّا، ولم يكن يوحي بالراحة والطمأنينة. غير أنّ دون بوسكو كان قد أودع دون كالييرو بطاقةً كتب عليها:

"افعل كلّ ما تستطيع فعله. وسيفعل الله ما نعجز نحن عن فعله. ثق بيسوع الحاضر في الإفخارستيّا وبمريم المساعِدة، وستشهد كيف ستتحقّق المعجزات".

پاتاغونيا: *أرض الميعاد*

يوم ١٨٧٥/١٢/١٤، أرست سفينة المرسلين في مرفأ بوينس آيريس، حيث استقبلتهم حشودٌ كثيفةٌ، يتقدّمها رئيس أساقفة العاصمة، وإلى جانبه العديد من الكهنة، ومن جموع المهاجرين الإيطاليّين، الذين رحّبوا بهم ترحيبًا مدوّيًا، وكانت بينهم جماعةٌ من طلاّب أوراتوار ڤلدوكّو.

وصولهم كان مطرًا يهمي على أرضٍ طالما عانت العطش. ومنذ الوهلة الأولى راع المرسلين منظر شعبٍ، طيّب النفس والتقاليد، يُضمر لهم كلّ مودّةٍ، ويُجلّهم، غير أنّه مغرقٌ في الجهل، وشديد الاحتياج إلى معونةٍ دينيّةٍ.

وأظهرت أولى رسائل المرسلين وجود نحو ثلاثين ألف مهاجرٍ إيطاليٍّ في العاصمة، وثلاث مئة ألفٍ في المدن الأرجنتينيّة الأخرى، وفي أريافها، مهمَلين من كهنةٍ يفهمونهم، ويوفّرون لهم المعونة والتعليم.

ومنذ وصولهم حرص المرسلون على تنفيذ البرنامج المتّفق عليه، فتقاسموا المهمّات. وأقام دون كالييرو، مع اثنين من المرسلين مقرّهم على مقربةٍ من كنيسة العذراء أُمّ الرحمة، من أجل الاهتمام بالجالية الإيطاليّة، فيما اقتاد دون فنيانو ستّةً من رفاقه، إلى منطقة "سان نيقولا"، لكي يفعّلوا مدرسة الذكور الثانويّة.

منذ الأيّام الأولى، افتتحوا أوراتوارات الأحد، للشبّان المفتقرين افتقارًا كلّيًّا إلى المعرفة الروحيّة. وكانت الدهشة قد أخذت كلّ مأخذٍ من دون كالييرو ورفاقه، عندما دعوا الشبّان الذين حضروا إلى الأوراتوار، إلى رسم إشارة الصليب، فلم يفهموا ما طُلب منهم. ولمّا سُئلوا هل يحضرون القدّاس أيّام الأحد، أجابوا أنّهم لا يعرفون حتّى متى يكون يوم الأحد.

وفي الأسابيع التالية، انهالت على دون كالييرو طلبات إنشاء مدارس، لا في الأرجنتين فحسب، بل في الأوروغواي، فقد ألحّ القاصد الرسولي في مونتيڤيديو، على أن يرسل دون كالييرو كهنةً ساليزيّين، ففي تلك البلاد لا وجود لإكليريكيّةٍ، ولا لإكليريكيٍّ واحدٍ، ولا لمدرسةٍ كاثوليكيّةٍ، في حين أنّ مساحة البلاد تبلغ نصف مساحة إيطاليا كلّها.

أمّا القبائل البدائيّة، فقد أرجأ دون كالييرو تبشيرها، حتّى إنجاز ثلاثة مشاريع، كانت تستأهل الأولويّة:

- تأسيس مدرسةٍ مهنيّةٍ، كان يتوقّع منها فوائد جمّةً للبلاد وللساليزيّين.
- إقامة مدرسةٍ ثانويّةٍ مسيحيّةٍ في عاصمة الأوروغواي.
- مشروع للصبيان، في منطقة "لابوكّا"، المكتظّة بالمهاجرين الإيطاليّين، والتي يحكمها الماسونيّون، وحيث لم يكن غريبٌ يجرؤ على الدخول. ولكنّ دون كالييرو دخلها، فالتأمت، من حوله، طغمةٌ من الفتيان الذين وزّع عليهم ميداليّات السيّدة العذراء، وتحدّث إلى بعض الأُسر هناك.

ولّما أُحيط رئيس الأساقفة علمًا بذلك، حذّره بقوله: "لقد ارتكبت خطأً فادحًا، فأنا لم أضع قدمي، قطّ، في ذلك المكان، ولا أحد من كهنتي تجرّأ على وطئها. فالمخاطر هناك جمّةٌ وجدّيّةٌ". وردّ عليه كاليير و: "أمّا أنا فأتوق إلى العودة إليها".

وعاد، فعلاً، بعد ثلاثة أيّامٍ، واندفع الفتيان نحوه هاتفين: "هذا هو كاهن الميداليّات". ولكنّه قال لهم: "سأعطيها للجميع. ولكن هل تعرفون رسم إشارة الصليب، وصلاة السلام عليك يا مريم؟". وكان الرجال والنساء يخرجون من بيوتهم، ومن عتباتها يراقبون هذا الكاهن الذي لا يخشى الاختلاط بفتيانهم الأوغاد، ويعدهم بملعبٍ، وألعابٍ، وأغانٍ، وموسيقى، وبالفرح.

وفي ڤلدوكّو وتورينو، كانت المخيّلات تلتهب فضولاً إلى معرفة أخبار المغامرات المثيرة في تلك المناطق البدائيّة. وكان المرسلون يتسقّطون أنباء تلك القبائل، الصحيح منها، وما هو من نسج الخيال. وكانوا يكتفون بنقل ما علموه، إلى أن يحين أوان انطلاقهم إليهم.

ولكن كانت توجعهم الصراعات الدامية بين زعماء القبائل، وحروبهم على الحكومات، التي كانت تسومهم جمًّا من الإهانات، فيردّون بسرق الأسلحة وأسر الرجال والنساء، والأطفال، والخيول والقطعان. فيشنّ عليهم جنود الحكومة حربًا شعواء لا رحمة فيها، مولّدين الأحقاد والرغبة في الاثّئار.

لقد أدرك دون بوسكو أسباب تريّث دون كاليرو في تبشير القبائل، وأولويّاته في إحياء الروح المسيحيّة لدى المهاجرين الإيطاليّين، المحرومين من كلّ غوثٍ روحيٍّ ومادّيٍّ. فأوفد مجموعة مرسلين أُخرى إلى الأرجنتين، يوم ١٨٧٦/١١/١٧، كي يمكّنه من الإسراع في مشاريعه العاجلة، وكان لبعضهم تأثيرٌ خيّرٌ حاسمٌ، على الرسالة الساليزيّة في أميركا الجنوبيّة.

كادت تلك الحملة الرسوليّة الثانية، تُفرِغ الجمعيّة الساليزيّة الأُمّ الفتيّة من دمها. وهذا ما أشار إليه دون بوسكو في رسالته إلى دون كاليرو، حيث قال: "هذه الحملة دفنتنا حتّى أعناقنا. ولكنّ الله سيساعدنا". وتسهيلاً لحملة التبشير اقترح افتتاح مدارس، في الضواحي القريبة من مضارب القبائل، وتعليم أبنائها، ومن خلالهم الاتّصال بكبارهم، والسعي إلى استنبات دعواتٍ كهنوتيّةٍ من أولئك التلاميذ، وإعدادهم لتبشير قبائل الپامپا والپاتاغونيّين، فيصبح أبناء الأمّيّين مرسلين، يبشّرون ذويهم بالإنجيل.

ولكن سرعان ما اتّضح بُعد هذا الاقتراح عن الواقعيّة، فما من مدنٍ في ضواحي مَواطن القبائل. وحاول مرسلون التسلّل إلى مساكن تلك القبائل، بعيدًا

عن المدن المأهولة، ولكنّهم لم يلمحوا، قطّ، وجه إنسانٍ. ولم تكن لهم وسيلةٌ إلاّ الالتحاق بقوافل التجّار، أو استقلال مراكب شراعيّةٍ، واجتياز آلاف الكيلومترات، حتّى بلوغ تجمّعات بيوتٍ، أو أكواخٍ، ستصبح مُدن المستقبل.

وفي شهر تشرين الثاني ١٨٧٧، أوفد دون بوسكو إلى الأرجنتين مجموعةً ثالثةً، مؤلّفةً من ثمانية عشر ساليزيًّا، وسُمِّيت هذه الحملة "حملة الأطفال"، لأنّها كانت تضمّ إكليريكيّين شبّانًا. غير أنّ نتائج هذه الحملة كانت مدهشةً. فقد كان دون بوسكو قد أرفق الإكليريكيّين بجماعةٍ صغيرةٍ من راهبات "بنات مريم المساعِدة"، ورافقت الحملة رئيسة الراهبات الأمّ "مزاريلّو". للوهلة الأولى بدت هذه الحملة هزيلةً، ضئيلة الشأن، ولم يتوقّع أحدٌ أنّها هي التي ستُشرع الطريق لآلاف المرسَلين، الذين سيجتازون المحيط في إثرها.

واتّضح لرئيس أساقفة بوينس آيريس، أنّ ما يقوم به دون بوسكو من أجل رعيّته، يتخطّى حدود المعقول. وتعبيرًا عن امتنانه، وتلبيةً لتطلّعاته، أرسل نائبه، وكاهنين ساليزيّين في حملةٍ إلى پاتاغونيا، موطن الهنود، لكي يمكّنهم من الحصول على الأخبار الصحيحة والدقيقة عن "المتوحّشين".

أبحر أعضاء تلك الحملة الاستكشافيّة يوم ١٨٧٨/٣/٧، على متن سفينةٍ تجاريّةٍ صوب الجنوب، وأرسوا على بعد نحو ألف كيلومترٍ من منطقة "باهيا بلانكا". ومن هناك كان يمكنهم متابعة اكتشافاتهم على امتداد مئتين وخمسين كيلومترًا حتّى النهر الأسود، الذي يفصل "الپامپا" عن "پاتاغونيا".

ولكنّ هذه المحاولة فشلت، وكادت تنقلب مأساةً. فقد هبّت عاصفةٌ هوجاء هزّت المركب الذي كانوا يستقلّونه هزًّا عنيفًا، مدى ثلاثة أيّامٍ وليلتين، وأحدثت فيه أضرارًا، أكرهتهم على العودة إلى مرفأ بوينس آيريس.

وقد دوّن أحد الساليزيّين المشتركين في هذه المغامرة تفاصيلها، في رسالةٍ إلى دون بوسكو الذي تلاها على مسامع شبّانه في ڤلدوكّو، وأطلع عليها قرّاء النشرة الساليزيّة، التي كانت تنشر أنباء الرسالات، فألهبت المخيّلات أحلامًا أسطوريّةً.

وفي ١٨٧٩/٤/١٦، أُطلقت حملةٌ استهدفت التبشير داخل مواطن الهنود. واتّفق أنّ وزير الحرب الأرجنتينيّ، كان قد ساق إلى تلك المنطقة في الآن عينه، حملةً "تنظيفيّةً" ضدّ السكّان الأصليّين، الذين اعتادوا إثارة الفتَن، وشنّ حرب عصاباتٍ على قوى السلطة. وكانت حملاتٌ سابقةٌ مماثلةٌ، قد أفضت إلى قتل العديد من السكّان الأصليّين، وإلى اقتياد كثيرين إلى العاصمة، حيث بيعوا عبيدًا.

تَعامُلُ السلطات الوحشيّ مع مَن عَدُّوهم "متوحّشين"، ولّدت لدى القبائل بغضًا عميقًا للبيض، فغدوا يؤثرون الموت على الاستسلام، ومع ذلك، لم يرعوِ الجنود عن جرائمهم. غير أنّ وزير الحرب أراد، في هذه النوبة، محاولة "وسائل أخلاقيّةٍ"، فالتمس من رئيس الأساقفة أن يرسل مع الجنود كهنةً، بصفة مرشدين روحيّين، فأرسل نائبه وكاهنين ساليزيّين. ولكن هذا الأمر لم يرُقْ لأحد الكاهنين. فقد توجّس خشيةً من أن يُفضي وجود كهنةٍ مع المقاتلين الشرسين، إلى إبعاد القبائل عن الإنجيل، وبلّغ دون بوسكو بتلك الخشية. ولكنّه لم يلبث أن زفّ له بشرى تلبية وزير الحرب رغبة الكهنة الانفصال عن الجيش، فأعطاهم فرسَين وعربةً، أقلّوا فيها الهيكل والأرغن وحقائبهم الشخصيّة.

وتابع الكاهن في رسالته إلى دون بوسكو رؤيته، فكتب:

"في يوم اجتيازنا الصحراء الأوّل، مررنا أمام خِيَمٍ مصنوعةٍ من جلود حيواناتٍ. وفي هذه الخيَم يسكن هنود قبيلة "الپامپا"، الذين كانوا قد خطوا خطواتٍ وئيدةً نحو التمدّن. ألوان سِحَنهم داكنةٌ، ووجوههم مسطّحةٌ عريضةٌ. فحيّيناهم مستخدمين بضع مفرداتٍ من لغتهم الخاصّة، وتابعنا توغّلنا في الصحراء.

وفي محطّةٍ تقع عند تخوم الأرجنتين، وموطن القبائل، توقّفنا أمام قلعةٍ مبنيّةٍ باللبن، وبجانبها نحو أربعين خيمةً وبيتًا، تقطنها قبيلتان هنديّتان. فاستعرتُ حصانًا، ومضيتُ إلى تلك القبائل. وكلّما دنوتُ من خيمةٍ كان قلبي يزداد خفقانًا، وتساؤلاً عمّا يجب عليّ فعله. وإذا بابن إحدى القبيلتين يأتي إليّ، ويكلّمني باللغة الإسبانيّة، ويرحّب بي ترحيبًا وديًّا، ويقتادني إلى أبيه، الزعيم، ويقوم بمهمّة ترجمانٍ بيني وبينه. وكان استقبال الزعيم لي استقبالاً حارًّا، وبلّغني رغبته في أن يتلقّى جميع أفراد قبيلته تربيةً كاثوليكيّةً، وأن يتلقّوا العماد. وفي الحال جمعتُ الصبيان، وبدأت بتعليمهم المسيحيّ. وفي تلك القرية عمّدنا نحو خمسين شخصًا هنديًّا، وعشرين فتًى. ولكم رغبنا في المكوث هناك شهرًا، على الأقلّ. ولكنّ وزير الحرب أمرنا باتّباعه، فتبعناه مُكرَهين. وانضمّ إلينا أفرادٌ من القبائل الهنديّة".

في ١٨٧٩/٨/٥، أوكل رئيس أساقفة بوينس آيريس إلى الجمعيّة الساليزيّة، رسالة تبشير منطقة "پاتاغونيا"، وكلّف دون بوسكو أحد أبرز كهنته في الأرجنتين، "دون كوتّا مانيا"، بالتفاوض مع رئيس الأساقفة بشأن افتتاح مقرٍّ مركزيٍّ للساليزيّين، ولراهبات مريم المساعدة، وأكّد أنّه سيتولّى بنفسه مهمّة تأمين الجهاز البشريّ، والأمور المادّيّة.

في هذه الأثناء كانت قد نمت، عند كلّ ضفّةٍ من نهر نيغرو، مجموعتان من السكّان إحداهما للپاتاغونيّين، والأُخرى لقبيلة "الڤييدما". وفي ١٨٧٩/١٢/١٥، شخصتْ إلى كلٍّ منهما مجموعةٌ من الساليزيّين. وعلى رأس المجموعة المكلّفة بخدمة الپاتاغونيّين كان "دون فابيانو"، يرافقه كاهنان، ومساعدان وأربع راهباتٍ. وكانت مهمّتهم الاهتمام بجميع المستوطنات، وجميع القبائل الواقعة بين "ريو نيغرو" و"ريو كولورادو"، وهي رقعةٌ تعادل نصف مساحة إيطاليا، وتدعى "الپامپا".

وكُلِّفت مجموعةٌ أُخرى برعاية سكّان جنوبيّ "ريونيغرو"، وهي تعادل نصف مساحة إيطاليا، أيضًا، وتدعى "بَتاغونيا"، وكان يرأسها "دون ميلانيزيو".

وتمّثلت خطّة دون فنيانو باستقدام أكبر عددٍ ممكنٍ من الناس إليه. وفي غضون عشرة أشهرٍ، كان قد أقام مدرستين للصبيان والبنات، وتألّفت طليعة المنضمّين إليه من ثمانٍ وثمانين شابًّا وشابّةً، ومنهم أبناء هنودٍ.

وبالمقابل انتهج دون ميلانيزيو خطّةً مغايرةً، وهي الشخوص إلى القوم، حيث هم. فامتطى فرسًا وانطلق صوب الهنود، وبسرعةٍ تعلّم لغتهم، وعقد صداقاتٍ مع العديد من قبائلهم. وأنقذ العديد من أُسرهم المعزولة من براثن البيض. وسرعان ما أضحى نموذجًا للمرسل الرائد. وأظهرت له قبائل الهنود ثقتها واحترامها. وأمسى اسمه بمثابة الكلمة السحريّة التي تكبّل أيدي البيض، مدّعي الحضارة، كلّما زيّنت لهم نفوسهم الإساءة إليهم.

تكامل، إذن، أسلوبا المرسلَيْن الساليزيَّيْن، وأفضيا، من كلّ جانبٍ، إلى إنشاء مدارس وثانويّاتٍ مؤثّرةٍ، أعدّت أجيالاً من المواطنين المستقيمين، المسيحيّين، الذين يحترمون شعبهم، ويذودون عنه؛ وغدوا منطلقًا لمرسلين جوّالين يطوفون، مسايرين مجاري الأنهر، والوديان، والتلال من أجل تفقّد خيام الهنود، ومقرّات المستعمرين البيض. ولّما اعتزم آخر كبار زعماء قبيلة "الأوريكان" (Aurican) التفاوض بشأن استسلام قبيلته للحكومة الأرجنتينيّة، اختار دون ميلانيزيو وسيطًا، وبحمايته ألقى السلاح يوم ١٨٨٣/٥/١٥، مقابل حصوله على رتبة كولونيل في الجيش الأرجنتينيّ.

وفي تلك السنة عينها – ١٨٨٣ – وعلى بعد آلاف الكيلومترات، خطر لدون بوسكو حلمٌ، أماط اللثام عن مستقبل أميركا الجنوبيّة، ومستقبل مرسَليه فيها، ورواه على النحو التالي:

«كنت في قطارٍ، ومن نافذة المقطورة كنت أشهد مناظر متنوّعةً مهيبةً: أدغالاً، وجبالاً، وسهولاً، وأنهارًا متمادية الطول. وعلى امتداد آلاف الأميال حاذينا أطراف غابةٍ عذراء ما زالت غير مكتشفةٍ.

"وكنت أشاهد في جوف الجبال، وفي أغوار السهول، ثروات تلك البلاد، منقطعة النظير، التي ستكتشف في المستقبل. رأيت مناجم معادن ثمينة عديدةً، ومناجم فحمٍ حجريٍّ، لا تنضب، واحتياطات بيترول فريدة الغزارة.

واصل القطار انطلاقه خلال الپامپا، وپاتاغونيا، حتّى وصلنا إلى مضيق ماجلاّن، حيث ترجّلنا. فإذا بأراضٍ تمتدّ على أميالٍ، تكدّست فيها تلال فحمٍ حجريٍّ، وألواح أخشابٍ، وأكداسٌ من المعادن، بعضها خاميّةٌ وبعضها مشغولٌ. وقال لي صديقي: "ما هو الآن مجرّد مشروعٍ، سيمسي واقعًا، ذات يومٍ".

فقلت له: "رأيت ما يكفيني، اليوم، فخذني الآن إلى ساليزيّ، في پاتاغونيا".

وعدنا إلى المحطّة التي انطلق منها القطار الذي توقّف على مقربةٍ من بلدةٍ، فانحدرتُ من القطار، وإذا بي وسط ساليزيّين عديدين، فانضمَمْتُ إليهم، ولكنّي لم أتعرّفهم، ولم يكن بينهم أيٌّ من أبنائي القدامى. وكانوا جميعهم يحدّقون إليّ بدهشةٍ، وكأنّهم لا يعرفوني، فسألتهم: "ألا تعرفون دون بوسكو؟"

- نسمع به، ولكنّنا لم نشهد له، قطّ، صورةً".
- وماذا عن دون فانيانو، ودون كوستامانيا، ودون لازانيا، ودون ميلانيزيو. وأين هم؟
- لم نعرفهم. هم الساليزيّون الروّاد الذين قدموا من أوروپّا، إلى هنا. وها قد مضت سنواتٌ عديدةٌ على موتهم.
- واستقلَلْنا، ثانيةً، القطار الذي انطلق بنا جنوبًا، سائرًا، مدى ساعاتٍ على

ضفاف نهر متمادي الطول، تارةً على يساره، وتارةً أخرى على يمينه. وما انفكّ رفيقي يردّد: "هذا هو الحصاد الساليزيّ".

أثناء هذا الحلم الطويل، ما انفكّ رفيقي يتنبّأ عن الوقت اللازم من أجل افتداء قبائل الهنود، في أميركا الجنوبيّة افتداءً كاملاً، ويؤكّد: "سيتم ذلك قبل زوال الجيل الثاني، معتبرًا أنّ عمر كلّ جيلٍ هو ستّون عامًا، متوقّعًا أن يتحقّق هذا الفداء "بالعرق والدم".»

أمّا حلم دون بوسكو الأخير المتعلّق بالرسالة الأميركيّة، فقد رآه في ليلة ٩ إلى ١٠ نيسان ١٨٨٦، ورواه بصوتٍ متهدّجٍ، أنهكه التعب وخالطه التأثّر، لنائبه دون روا، ولأمين سرّه، فقال:

« كنتُ على قمّةٍ، وغاصت أبصاري في أعماق الأفق، ورأيت جماهير شبّانٍ يسعون في إثري، هاتفين: "لطالما انتظرناك، وها أنت هنا الآن، ولن تفلت منّا".

"وقالت لي راعيةٌ، كانت تقود قطيعًا غزيرًا من الحملان: "أنعم النظر، أنعموا جميعكم النظر. فما ترون؟ فأجاب أحدهم:

- أرى جبالاً، ثمّ بحرًا، ثمّ تلالاً، ومن جديدٍ أرى جبالاً وبحرًا.

وقال صبيٌّ:

- إنّي أقرأ "ڤلپاريزو" (Valparaiso) (وهي مدينةٌ ساحليّةٌ في الشيلي).

وقال الشبّان جميعهم، نقرأ "سانتياغو" (Santiago) وهو اسم عاصمة الشيلي.

حينئذٍ قالت لهم السيّدة انظروا انطلاقًا من هذه النقطة فتروا ما على الساليزيّين أن يفعلوه في المستقبل. ثمّ قالت:

اسحبوا خطًّا، وانظروا، فقالوا: "نقرأ "پيكين". وقالت الراعية ارسموا خطًّا بين

پيكين وسانتياغو، وارسموا خطًّا وسط أفريقيا، وعندئذٍ ستدركون ما يتعيّن على الساليزيّين فعله. حينئذٍ هتف دون بوسكو: "كيف لنا أن نفعل كلّ ذلك، فالمسافات شاسعةٌ جدًّا، والمسالك صعبةٌ، والساليزيّون قليلو العدد؟ فأجابت السيّدة: "لا تقلق فأبناؤك وأبناء أبنائك سيحقّقون كلّ ذلك. ارسم خطًّا بين سانتياغو ووسط أفريقيا. فما ترى؟

- أرى عشر محطّاتٍ مركزيّةً.
- وهذه المحطّات ستكون مراكز دراسةٍ، ودعواتٍ، وستخرّج أفواج مرسلين، يلبّون احتياجات تلك المناطق. والآن التفت إلى الجانب الآخر، فسترى عشرة مراكز أُخرى، ممتدّةً من وسط أفريقيا حتّى پيكين. وهذه المراكز، أيضا، ستنتج مرسلين، وهناك أيضًا سيوجد العديد من الفروع، والمراكز أمثال هونغ كونغ، وكلكتّا، ومدغشقر، ومعاهدُ وإكليريكيّاتٌ".

وقبل وفاته كان دون بوسكو محاطًا بمئةٍ وخمسين ساليزيًّا، وخمسين راهبةً من بنات مريم المساعِدة، يعملون في أميركا اللاتينيّة. وقد ترسّخوا في خمس دولٍ: الأرجنتين، والأورغواي، والبرازيل والشيلي والإكوادور. وكان كلّ ذلك قد تحقّق في غضون ثلاثة عشر عامًا.

دون بوسكو يتجرّع سمّ استقلال جمعيّته عن سلطة رؤساء أساقفة تورينو

عام ١٨٦٢، توفّي رئيس أساقفة تورينو "فرنسوني" في منفاه الفرنسيّ. وكان قد شهد بفرحٍ واعتزازٍ، نموّ مشاريع دون بوسكو، ودعَمها، ولا سيّما أنّه كان هو من الذي رسم دون بوسكو كاهنًا، ووصف أوراتواره بأنّه "رعيّة من لا رعيّة لهم".

وبسبب الصراعات الناشبة بين الكنيسة والدولة الإيطاليّة، تلكّأ تعيين خلفٍ لرئيس الأساقفة المتوفّى، حتّى عام ١٨٦٧، عندما عُيِّن رئيس أساقفةٍ جديدٌ على تورينو، الأُسقف ريكّاردي، الذي كان يكبر دون بوسكو سبع سنواتٍ. ولّما جاءه هذا الأخير مهنّئًا، عانقه بحرارةٍ، وبلّغه نيّته تكليفه بإعادة تنظيم إكليريكيّة "كييري". فأعلمه دون بوسكو، حينئذٍ، أنّه كان قد أسّس، منذ عام ١٨٦٤، جمعيّةً منحها الحبر الأعظم مباركته وبركته، ووضعها تحت سلطته.

هذا النبأ صدم الأُسقف الجديد، الذي كان يأمل أن يكون دون بوسكو، وكلّ مشاريعه، تابعةً لسلطته، وتتويجًا لأسقفيّته. ومنذئذٍ أُشرع بينهما شرخٌ، أسفر عن عواقب خطيرةٍ، تجلّت بوادره، يوم ١٨٦٧/٩/١١، عندما بلّغ الأسقف دون بوسكو أنّه لن يسمح للإكليريكيّين العازمين على خدمة الرعايا التدريس في الأوراتوار، أو تقديم أيّة خدماتٍ له، لكي يحصروا كلّ جهودهم في دروسهم. وأنذر بأنّه لن يمنح السيامة الكهنوتيّة إلاّ للمتخرّجين من إكليريكيّاتٍ رعويّةٍ.

وأفضى هذا القرار إلى عواقب وخيمةٍ، نالت أوراتوار دون بوسكو. فالإكليريكيّون الذين كانوا فيه، عازمين على خدمة الرعايا هجروه، والتحقوا

بإكليريكيّاتٍ رعويّةٍ. أمّا الذين كانوا قد ارتبطوا بنذرٍ مع دون بوسكو، فتوجّسوا خشية أن يمتنع جميع الأساقفة، عن منحهم رتبة الكهنوت تضامنًا مع رئيس الأساقفة "ريكّاردي". وأوضح دون بوسكو لرئيس الأساقفة، أنّ قراره هذا سيحرمه من كلّ مساعدةٍ، فيما هو وسط مئات الفتيان المحتاجين إلى رعايةٍ يقظةٍ في كلّ لحظةٍ.

وسرعان ما جاء الفرج إلى دون بوسكو من الكرسيّ الرسوليّ، الذي أعلن اعترافه بالجمعيّة الساليزيّة، ومنح دون بوسكو صلاحيّة إصدار رسائل توصيةٍ إلى جميع الأساقفة، بمنح سرّ الكهنوت لجميع الإكليريكيّين الذين يقدّمهم، والذين كانوا قد انتسبوا إلى الأوراتوار، قبل سنّ الرابعة عشرة، والذين يضمن، شخصيًّا، سلوكهم.

طُوي الخلاف بين دون بوسكو ورئيس الأساقفة، بوفاة هذا الأخير في شهر تشرين الأوّل ١٨٧٠. غير أنّ صدامات دون بوسكو مع رؤساء أساقفة تورينو لم تنتهِ. فقد استشار البابا پيّوس التاسع دون بوسكو، الذي كان يوليه ثقةً كبرى، بشأن تعيين خليفةٍ لريكّاردي المتوفّى، فاقترح اسم المطران "لورينـــزو غستردي" (Gastardi)، صديقه الذي كان قد قدّم للأوراتوار الساليزيّ خدماتٍ سخيّةً.

ولم تكن طباع غستردي الحادّة خفيّةً على الحبر الأعظم، ولفت نظر دون بوسكو إليها، وبدا عليه التردّد في قبول تعيينه. ولكنّ دون بوسكو أصرّ على صواب تعيينه، فقال له البابا: "أنت تريده وأنا أعطيكه. وأدع لك مهمّة زفّ بشرى تعيينه. وبعد سنتين، سأمنحه شيئًا آخر". وربّما كان يلمّح إلى منحه منصب كردينال.

وفي الحال سارع دون بوسكو إلى إرسال برقيّةٍ إلى صديقه غستردي، قال فيها: "يشرّفني أن أكون أوّل من يزفّ لك بشرى تعيينك رئيس أساقفةٍ على تورينو".

وما كاد رئيس الأساقفة المعيّن حديثًا، يعلم بعودة دون بوسكو من روما، حتّى هرع إلى أوراتواره، وبانتظار وصوله تحدّث بضع دقائق مع أمين سرّه، ولكن كان نفاد صبره واضحًا على موقفه، حتّى العجز عن المكوث في مكانه. وما إن وصل دون بوسكو حتّى أخذه بيده، وانتحيا زاويةً، وتجاذبا حوارًا طويلاً. ولكن في نهاية لقائهما، أفلتت من دون بوسكو هفوةٌ سمّمت علاقتهما. فقد أكّد دون بوسكو لصديقه أنّ فضل تعيينه رئيس أساقفةٍ يعود له وحده، وردّد على مسامعه، حرفيًّا، أقوال الحبر الأعظم، وأطلعه على وعده له. حينئذٍ وضع الأسقف حدًّا للحوار، بحدّةٍ، وقال: "فلنسلّم تدبير الأمور للعناية الإلهيّة". ظاهريًّا، كان قوله هذا دليل تواضعٍ، ولكنّه لم يحجب حساسيّةً جريحةً، وصعوبة هضمه مُنّية صديقه الكاهن.

واندرجت العلاقات بينهما، لاحقًا، على وقع تأثيراتٍ متباينةٍ. فقد كانت والدة الأسقف قد أغدقت خدماتٍ سخيّةً للأوراتوار، على امتداد سنواتٍ عديدةٍ، وكانت تشمل بمحبّةٍ واحدةٍ، ابنها الأسقف ودون بوسكو. وفي مرحلةٍ أولى كان التعاون بينهما ممتازًا. فلمّا احتاج دون بوسكو إلى توصية أسقفٍ، من أجل إعلان الكرسيّ الرسوليّ اعترافه بالجمعيّة الساليزيّة، انبرى رئيس الأساقفة لتقديم هذه الخدمة، ودبّج رسالةً زاخرةً بالثناء، والتأكيد بأنّ هذه الجمعيّة قد أسهمت في إيصال العديد من شبّان الأوراتوار إلى الكهنوت، حين كانت الإكليريكيّات الرعويّة مغلقةً.

وبعد عشرة أشهرٍ دبّج رسالةً أخرى، لم تقلّ عن الأولى إشادةً ببناء كنيسة مريم المساعِدة، التي عدّها تحفةً فريدةً، وبذل فيها دون بوسكو كلّ طاقاته، وموارده الماليّة. وكان دون بوسكو قد عرض على رئيس الأساقفة مخطّطات تلك الكنيسة، ملتمسًا رأيه فيها، وبناءً على ملاحظاته قد أدخل عليها تعديلاتٍ طفيفةً.

وعن "ڤلدوكّو" دوّن رئيس الأساقفة غستردي: "إنّه مكانٌ باركه الله بمؤسّسات المحبّة والتقوى. حسْبُنا ذكر "*البيت الصغير*" الذي أسّسه جوزيف كُتّلينغو، وأوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ الذي أسّسه دون بوسكو".

حتّئذٍ، كان رئيس الأساقفة ودون بوسكو، يتعاملان تعامل صديقين، ويتشاوران في الأمور الهامّة، إلى أن نشرت صحيفةٌ محلّيّةٌ نبأً، يؤكّد أنّ دون بوسكو هو الذي أوصل غستردي إلى رئاسة أسقفيّة تورينو. وسارع رئيس الأساقفة إلى الردّ على هذا الخبر، من فوق منبر كنيسته، مؤكّدًا أنّ انتخابه لهذا المنصب، هو تدبيرٌ غير متوقّعٍ من العناية الإلهيّة، ولا فضل فيه لأيّ تدخّلٍ بشريٍّ. ثمّ كرّر هذا التأكيد مرّاتٍ عديدةً، وفي مختلف المناسبات. وكان موقنًا، في سريرة نفسه أنّ دون بوسكو، هو من قصد تسريب هذا النبأ.

واستغلّت الصحف المناوئة للدين هذا الخلاف، وسعّرته، صابّةً الخلّ على الجراح، ومدّعيةً أنّ رئيس الأساقفة قد منع دون بوسكو من إقامة القدّاس، ووصفت دون بوسكو بالبابا الصغير، وبصانع الأساقفة، وتساءلت: "سنرى من منهما هو الأقوى".

ووقع رئيس الأساقفة في الفخّ الذي نصبته الصحف المناوئة، ولكأنّه توخّى تأكيد سلطته المطلقة، فاسترسل في إصدار القرارات العشوائيّة والمستبدّة بحقّ كهنةٍ من رعاياه، حتّى تكدّست في الڤاتيكان الشكاوى، من استبداده الخالي من المحبّة المسيحيّة، ومن الرحمة والعدل، ومن كلّ ما يليق بأسقفٍ وبإنسانٍ. ولكأنّ سُكرَه بعظمة السلطة قد أفقده ضميره وكرامته.

ومضى توغّلاً في الاستبداد والجَوْر، حتّى إنّه منع دون بوسكو من سماع الاعترافات في الأوراتوار، حيث كان معظم المقيمين فيه قد اختاروه معرِّفًا لهم.

ومنع الساليزيّين من تنظيم رياضاتٍ روحيّةٍ، ومن الوعظ، وحتّى من دعوة كهنةٍ من الخارج إلى الوعظ في الأوراتوار.

وأحجم رئيس الأساقفة عن ترؤّس الاحتفالات الكبرى في الأوراتوار، ومنع أساقفةً آخرين من ترؤّسها. وأحجم عن منح سرّ التثبيت لتلاميذ الأوراتوار، وحظر على أساقفة أبرشيّته منحها لهم، ورفض رسم مرشّحين للكهنوت في الجمعيّة الساليزيّة، ملحقًا بها أضرارًا فادحةً.

وفي الآن عينه، كان الأسقف لا يكفّ يرسل إلى روما سيلاً من الافتراءات الباطلة، بشأن دون بوسكو وجميعّته. وفي الڤاتيكان كان الكردينال "فيرّييزي" (Ferriesi)، الذي يُضمر للساليزيّين مقتًا شديدًا، ويعدّهم لمامةً هجينةً، يتلقّف افتراءات الأسقف غستردي، ويسارع إلى بثّها بين زملائه الكرادلة، الذين يجهلون كلّ شيءٍ عن دون بوسكو وجمعيّته.

غير أنّ أشدّ ما جرح قلب دون بوسكو، هو تصديق العديد من الكرادلة هذه الافتراءات، التي كان يؤكّدها زميلٌ لهم، وإيمانهم بأنّ دون بوسكو هو كاهنٌ متمرّدٌ على رؤسائه. وضاعف حزنَه شعورُه بفتور شعور البابا پيّوس التاسع حياله، وفتور أواصر الصداقة بينهما، مع أنّ ذلك البابا لم يضنّ عليه يومًا بدعمٍ أو بمساعدةٍ، بل كان يستشيره في أُمورٍ عديدةٍ. وقرع دون بوسكو أبوابًا كثيرةً كي يحظى بمقابلة الحبر الأعظم، ولم يتمّ له ذلك، إلى أن توفّي ذلك الحبر الأعظم بتاريخ ١٨٧٨/٢/٧. وانتُخب البابا لاون الثالث عشر، خلفًا له، يوم ١٨٧٨/٢/٢٠. واستطاع دون بوسكو مقابلته يوم ١٦ آذار، وكانت تلك المقابلة انتصارًا مجيدًا لمؤسّس الجمعيّة الساليزيّة. فقد عيّنها الحبر الأعظم، منذ الوهلة الأولى في لائحة معاونيه، لأنّه كان يرى إصبع الله في المشاريع الساليزيّية، وحمّل دون بوسكو بركاته

الحارّة لأعضاء جمعيّته. غير أنّه أعلمه أنّه ما زال ينتظر تقريرًا مفصّلاً من جمعيّة الرهبانيّات، حول خلافاته مع رئيس أساقفة تورينو.

ولّما عاد دون بوسكو إلى تورينو، لم يتباهَ بما أحرزه من نتائج مجيدةٍ، في مقابلته للبابا لاون الثالث عشر، ولكنّه أحاطهم علمًا بالمؤامرات التي حيكت ضدّه من قبل، وأدّت إلى إلغاء مقابلاتٍ مع البابا پيّوس التاسع، وبرسائله إليه التي احتُجزت، بمقاوماتٍ سافرةٍ أو خفيّةٍ، واتّهاماتٍ مذلّةٍ، ولم يُخفِ عنهم اطّلاع البابا الجديد لاون على الحملات الظالمة، التي كانت تُشنّ على الكاهن المسكين بوسكو، ورغبته الصادقة في تقصّي خفاياها. وباح لهم بأنّ المتآمرين عليه كثُرٌ، وهم متمرّسون بأساليب تلفيق الحقائق والوقائع.

وكان الكردينال "أليموندا"، هو الأشدّ اندفاعًا في الذود عن منقذ فتيان تورينو، وسعيًا إلى إثبات قداسته وأفضاله، وإبراز ما أفضت به جهوده في هذا السبيل إلى الإرهاق الجسديّ، والضيق الماليّ.

ورغبةً من هذا الكردينال الصديق في مساعدة دون بوسكو على التقرُّب من الحبر الأعظم، ورّطه، من حيث لم يقصد، في حملةٍ ضاعفت إرهاقه وأفرغت جسده من زهيد القوّة، التي كان ما زال يختزنها.

فقد كان الڤاتيكان دائبًا على بناء كنيسةٍ كبرى، على إحدى تلال روما، تكريمًا لقلب يسوع الأقدس، ومع كلّ ما قدّمه الحبر الأعظم، وأساقفة العالم الذين دُعوا إلى المساهمة، ومع التقادم التي تبرّعت بها دولٌ عديدةٌ، لم يتخطّ البناء مستوى الأرض. وبدا الإحباط يتسرّب إلى همّة الحبر الأعظم. وعندئذٍ اقترح الكردينال "أليموندا" على البابا، إيكال الأمر إلى دون بوسكو ضامنًا نجاحه. فسأله الحبر الأعظم:

– وهل سيقبل دون بوسكو النهوض بهذه المهمّة الشاقّة؟

– أنا أعرف دون بوسكو عن كثبٍ، وأعرف مدى إخلاصه للكرسيّ الرسوليّ. وإنّي واثقٌ بأنّه، إذا جاء تكليفه بالمهمّة من قبل قداستكم، فسيُلبّيه حبًّا وكرامةً.

وكان دون بوسكو – حينئذٍ – رازحًا تحت عبء مشاريع عديدةٍ منهكةٍ: بناء كنيسة تكريمًا للقدّيس يوحنّا الإنجيليّ في تورينو، وبناء كنيسة مريم المساعِدة في مدينة "ڤالّيكروزيا" (Vallecrosia)، وتأسيس ثلاثة مراكز ساليزيّةٍ في مرسيليا ونيس، وفي مدينة "لا سْپِيتْسزيا" (La Spezia) الإيطاليّة.

وكان قد بلغ الخامسة والستّين عامًا. واستدعاه البابا لاون الثالث عشر يوم ١٨٨٠/٤/٥، واستفسره عن استعداده لقبول مهمّةٍ عزيزةٍ على قلبه. فأجاب: "رغبة البابا هي لي أمرٌ". وإنّي أقبل المهمّة التي تتكرّم قداستكم بإيكالها لي". ولاحظ الحبر الأعظم:

– ولكن لن أمنحك مالاً، بل أكتفي ببركتي لكم.

– وأنا لا أطلب مالاً. تكفيني بركتكم. وإذا سمحتم لي فسنبني قرب الكنيسة أوراتوارًا يحتوي مأوًى فسيحًا لشبّانٍ راغبين في تلقّن مهنٍ وفنونٍ، وخاصّةً من شبّان المنطقة المهملة من المدينة.

– حسنًا، أباركك، وأبارك جميع الذين سيساهمون في هذا العمل المقدّس.

وفي هذه الأثناء كانت حملة رئيس أساقفة تورينو على دون بوسكو قد تفاقمت شراسةً، واضطرّت الكاهن على إقامة دعوى نظاميّةٍ في الڤاتيكان، على رئيس أساقفة تورينو، نظر فيها ثمانية كرادلةٍ صوّت أربعةٌ منهم لصالح دون بوسكو، وصوّت اثنان فقط لصالح الأُسقف. ولمّا علم الحبر الأعظم بهذه النتيجة، أمر بوقف المحاكمة مبيّنًا للكردينال المدافع عن الساليزيّين، أنّه أمر بهذا التوقيف حفاظًا على

هيبة السلطة الكنسيّة، موضحًا أنّ قداسة دون بوسكو، ستساعده على تحمّل تجاوزات رئيس الأساقفة.

وأجرى الحبر الأعظم امتحانًا آخر ابتغى، من خلاله، سبْر عمق قداسة دون بوسكو، وحدّد بنفسه شروط المصالحة، بصيغةٍ دبلوماسيّةٍ جائرةٍ، نصّت على أن يكتب دون بوسكو رسالة اعتذارٍ لرئيس الأساقفة، وأن يجيب هذا الأخير عليه مؤكّدًا دفنه لكلّ خلافٍ بينهما.

كانت الجرعة مريرةً، فجمع دون بوسكو مجلسه، وتلا عليهم شروط المصالحة التي أذهلتهم جميعًا، وطلب بعضهم مهلة تفكيرٍ. غير أنّ دون "كاليرو" حسم الأمر فقال بصراحةٍ: "لقد تكلّم البابا فعلينا الخضوع لقوله. وهو لم يتّخذ هذا التدبير إلاّ بناءً على ثقته المطلقة بدون بوسكو. ولذلك لا مفرّ من إطاعته".

وكتب دون بوسكو الرسالة المطلوبة، فأجاب رئيس الأساقفة: "من كلّ قلبي أمنح الغفران المطلوب".

بعد ذلك بعث دون بوسكو رسالةً إلى الكردينال "نينا"، نصير الساليزيّين عبّر عن ألمه من ابتلاع الأفعى، الذي فُرض عليه، وخاصّةً عن نتائجها الموجعة. ففي الدوائر الڤاتيكانيّة شاع تبادل التهاني بالإهانات التي أُلحقت بدون بوسكو. فقد أدّت هذه الإشاعات المضخّمة والمشوّهة بخبثٍ، إلى سحق السالزيّين وسمعتهم. فطالب مدير مراكز ساليزيّة، ومعلّمون وكهنةٌ وإكليريكيّون انسحابهم من جمعيّةٍ، أضحت موضع سخريّة السلطات الكنسيّة. ومع ذلك حرص دون بوسكو على التزام الصمت.

وجديرٌ بالتنويه أنّ والدة رئيس الأساقفة وابنتها، أثناء دعوى تطويب دون بوسكو، أعلنتا استنكارهما للانقلاب المؤسف، الذي طرأ على موقف غستردي من

صديقه القديم، والآلام المضنية التي ألحقها بكاهنٍ قدّيسٍ، وللأضرار الفادحة التي أصابت جمعيّةً، أغدقت الخير على تورينو وعلى العالم.

وقد تبيّن، لاحقًا، أنّ سبب انقلاب الأسقف غستردي، وموقفه الذميم والمؤذي حياله، هو افتراءاتٌ متواصلةٌ كان يشيعها لاهوتيٌّ صَلِفٌ، اعتاد تناول طعامه على مائدة رئيس الأساقفة، وكان يتمادى في الاستهزاء بدون بوسكو، وبالساليزيّين، ويختلق أكاذيب عنهم، كفيلةٍ بإيغار صدر رئيس الأساقفة على دون بوسكو وكهنته.

وذكرت ابنة أخت رئيس الأساقفة أنّ دون بوسكو كان يعلّق على تلك الإهانات، بقوله: "مهما ملك الإنسان من قدرةٍ على الصمت، غير أنّ تراكم القرف فوق القرف، يُفقد القلب القدرة على الاحتمال". ووصفت كيف كانت ألوان وجهه تتبدّل من الشحوب إلى الاحمرار، حين كان يبوح بهذه الشكوى.

لقد كان البابا لاون الثالث عشر من أعظم الباباوات، ولكنّه عندما تبوّأ الكرسيّ الرسوليّ، تبيّن أنّ فئةً عريضةً من المحيطين به كانوا يصدرون إداناتٍ خطيرةً بحقّ دون بوسكو والساليزيّين، فيما هو كان يقدّرهم أرفع تقديرٍ. واستجلاءً للحقيقة امتحن الكاهن المؤسّس ببوتقة النار، التي تذاب فيها الحجار، فإذا كانت تلك الحجار تبطن معدنًا ثمينًا أسفرت عن ذهبٍ، وإلاّ أثبتت أنّها مجرّد ترابٍ. وقد برهنت البوتقة التي امتحن بها دون بوسكو عن معدنٍ نادرٍ فائق الثمن، وعن قداسةٍ منقطعة النظير. ومنذئذٍ ازدادت علاقته بدون بوسكو وبجمعيّته رقّةً واحترامًا استثنائيّين، وأفضت إلى إعفاء جمعيّته لا مدى عشر سنواتٍ فقط، بل بلا حدودٍ زمنيّةٍ، من موافقات الأساقفة على رسامة كهنته، والاكتفاء بشهاداتٍ من دون بوسكو وخلفائه، وبضماناتٍ صادرةٍ عنهم.

غير أنّ الامتحان الذي أُخضِع له كان، بشريًّا، شديد القسوة على إنسانٍ لم يكن من السهل عليه تقديم خدّه الأيسر لمن صفعه على خدّه الأيمن. وقد أشار أحد كاتبي سيرة دون بوسكو إلى أنّه، عقب هذا الامتحان، أي بعد عام ١٨٨٤، لم يعد سوى خيالٍ لذاته.

لقد شقّ عليه استغفار مَن لم يكفّ عن جلده عشر سنواتٍ، مكبّدًا إيّاه جهودًا عنيفةً موجعةً.

وفضلاً عن ذلك أسهم قبوله طلب البابا السعي لبناء كنيسة القلب الأقدس في روما الذي التهم ملايين الليرات (جمع ليرا) في إنهاك صحّته المنهارة.

هذه الحزمة من المحن أكسبت دون بوسكو حكمةً، غير أنّها دمّرته جسديًّا. وربّما كانت هي سبب الازدهار المذهل الذي عهدته الجمعيّة الساليزيّة، التي ارتوت بدماء تضحياته وصلبه. وربّما هي مهّدت الطريق لتعيين الساليزيّ "كالييرو"، الذي قاد الحملة الرسوليّة الأولى إلى الأرجنتين أُسقفًا، ثمّ كردينالاً.

أوراتوارات ساليزيّة في فرنسا

تزامن تلقّي دون بوسكو الدعوة إلى الرسالة الأرجنتينيّة مع تلقّيه دعوةً أخرى لتأسيس أوراتوارٍ في فرنسا. وتحديدًا في نيس، التي كانت قد انتقلت، عام ١٨٦١، من السلطة الإيطاليّة إلى السلطة الفرنسيّة. وكان قد سبق لجمعيّة القدّيس ڤنسان دي پول افتتاح دار رعايةٍ في تلك المدينة، بهدف تقديم المعونة الروحيّة والمادّيّة للعمّال المتمرّنين الذين انحدروا من جبالهم بحثًا عن عملٍ، وللفتيان المحرومين من أُسرةٍ، لتلقينهم التعليم المسيحيّ، ودروسًا مسائيّةً تحرّرهم من أمّيّتهم. وكان مدير تلك الدار، المدعوّ إرنست ميشيل، محاميًا حصل على ديلومٍ في الحقوق من جامعات تورينو، يتطلّع إلى إيواء أولئك الشبّان في مأوًى دائمٍ، وإنشاء مدرسةٍ، ودار تدريبٍ مهنيٍّ لهم. ولكنّه كان يفتقر إلى المكان، والإمكانيّات الماليّة، والجهاز التعليميّ. وخطر له الاستعانة بساليزيّي تورينو، وشجّعه في مسعاه هذا أسقف المدينة. وشخص دون بوسكو إلى نيس، من أجل لقاء الأسقف، وأعضاء ملتقى القدّيس ڤنسان دي پول، فلقي ترحيبًا حارًّا، وتأثّر بوعد الأسقف له بعمل كلّ مستطاعٍ من أجل تأسيس فرعه الفرنسيّ الأوّل.

ودعاه المحامي ميشيل إلى زيارة دار الرعاية، التي كانت إسطبلاً، وحُوِّل إلى معبدٍ متواضعٍ، وقاعة درسٍ، ولكنّ دون بوسكو وجده مغرقًا في الضيق، وغير صالحٍ لاستخدامه أوراتوارًا. واقترح، في مرحلةٍ أولى إرسال اثنين من كهنته، يستقصيان الحاجات والإمكانيّات، بكتمانٍ تامٍّ، لأنّه كان حريصًا على إبقاء الساليزيّين في الظلّ، حتّى يكتسبا قلوب الأهالي، تحسّبًا لحساسيّات الماضي. وانتقال المدينة من سلطة إيطاليا إلى سلطة فرنسا. واقتصر همّه الأوّل على إسكان الكاهنين، وتأمين معيشتهما.

ثمّ قام المحامي ميشيل وزميلٌ له، في جمعيّة القدّيس ڤنسان دي پول، البارون "هيرود دي شاتونوف"، بزيارةٍ إلى أوراتوار ڤلدوكّو، الذي يؤوي تسع مئة فتًى، فاقتبسا نموذجًا عن ترتيب المكان، وعن الروح السائد في الأوراتوار. وتسنّت لهما مراقبة طريقة عمل المعلّمين، ورؤساء المصانع، وتقدير كفاءاتهم، وتأثير حضورهم، والمناخ الأُسرويّ الذي كانوا يبثّونه في إطار نظامٍ راسخٍ، يؤتي الفتيان ازدهارًا.

وعاد الزائران يضجّان حماسًا، مصمِّمَيْن على مباشرة مشروعٍ مماثلٍ في نيس. ومنذ عودتهما استأجرا معملاً مهجورًا.

ويوم ١٨٧٥/١١/٢٠، قدم دون بوسكو برفقة احد كهنته، ومعاونٍ وإكليريكيٍّ مبتدئٍ. ومكثوا بضعة أيّامٍ، وساعدوا على تحويل غرفةٍ إلى كاپيلاّ، وغرفٍ أخرى إلى مصانع. ويوم ١١/٢٨ دشّن الأسقف سولا "أوراتوار القدّيس بطرس" في ذلك المكان، بحضور ثلاثةٍ من كهنةٍ ساليزيّين، ولكن بغياب دون بوسكو، الذي كانت أمورٌ طارئةٌ قد أكرهته على العودة خلسةً إلى تورينو.

وشرع ثلاثة كهنةٍ ساليزيّين، بتثقيف ثلاثة فتيانٍ فرنسيّين، وستّة جزائريّين. ولكنّهم ما لبثوا أن تبيّنوا افتقار المكان إلى الشروط الصحّيّة، وإلى مساحةٍ تتيح توسّعًا قد يُمسي ضروريًّا. وتنامى إلى سمعهم أنّ بناءً يدعى "ڤيلاّ غوتييه"، على الضفّة الأخرى من النهر، معروضٌ للبيع بسعر مئة ألف فرنك، وكان يتألّف من بناءٍ سكنيٍّ رحبٍ، ومن حديقةٍ شاسعةٍ، فأبرقوا إلى دون بوسكو، وبلّغوه أمر هذا البناء، فسارع بالمجيء، وزار المكان، وأُخذ بميزاته، وصلاحيّاته ليكون أوراتوارًا. وبما أنّه كان قد جاء خالي الجيب من أيّ فلسٍ، استدان أربعة آلاف فرنك، ودفعها، في الحال، عربونًا. ولم يتمالك المحامي إرنست ميشيل من قوله له: "حقًّا أنت مجنون". وردّ دون بوسكو: "يا قليل الإيمان، سترى كيف سيكون لدينا وفرٌ قدره ثمانية عشر ألف فرنك". وتحقّق توقّعه بحذافيره. وانتقلت المدرسة والمأوى

والمصانع إلى المقرّ الجديد، وازدانت بمطبعةٍ غايتها طبع النشرة الساليزيّة باللغة الفرنسيّة، وكتبٍ مدرسيّةٍ، وكتُبٍ مترجمةٍ عن الإيطاليّة، لاستخدامها في الأوراتوارات التي ستنشأ، لاحقًا، في فرنسا. وفي غضون أيّامٍ معدوداتٍ، تسجّل مئات الطلاّب في المدرسة الجديدة، وما انفكّ عددهم يتنامى.

ولبّى الساليزيّون الإيطاليّون مطالب الأسقف المحلّيّ، فأداروا مراكز تعليمٍ زراعيٍّ في عدّة أماكن. ولبّوا أيضًا طلب راعي كنيسة القدّيس يوسف في مرسيليا، فأسّسوا أوراتوارًا لرعيّتها، أطلقوا عليه اسم "أوراتوار القدّيس ليون"، تكريمًا للبابا لاون المنتخَب حديثًا.

واعتاد دون بوسكو زيارة المؤسّسات الساليزيّة في فرنسا مرّتين كلّ سنةٍ، متوقّفًا في نيس، حيث كانت قد أُعِدّت له حجرةٌ خاصّةٌ. وبمناسبة إحدى تلك الزيارات، عام ١٨٨٠، حدث ما أثبت ثقته المطلقة بالعناية الإلهيّة، وتجاوب العناية الإلهيّة مع تلك الثقة. فحتّئذٍ، لم يكن أوراتوار نيس يحتوي سوى كابيلاّ ممعنةٍ في الصغَر، وارتأى دون بوسكو استبدالها بكنيسةٍ. وبمناسبة العشاء الذي دعا إليه رئيس المركز إخوانه، وأعضاء ملتقى القدّيس ڤنسان دي پول، قدّم له المحامي إرنست ميشيل مخطّطًا لهذه الكنيسة، وكان مهندسٌ قد قدّر تكاليفها بثلاثين ألف فرنك. ومع أنّ المحامي إرنست ميشيل أعلن معارضته لجسامة المبلغ، عبّر دون بوسكو عن ترحيبه بالمشروع. وكانت معارضة المحامي قد استندت على صعوبة تأمين المبلغ المطلوب، بعدما فرغت جيوب المواطنين من جرّاء كثرة التبرّعات التي طُلبت منهم لمشاريع عديدةٍ، وكثرة الجبايات، والاشتراكات في بطاقات يانصيب خيريّةٍ. وعلى كلّ تلك الحجج اكتفى دون بوسكو بالردّ:

– يتوجّب عليّ في الحال تحقيق هذا المشروع. فأنا أخجل من كون مسكن الربّ على هذا المستوى من الوضاعة!

وساد الصمت، برهةً. ثمّ أقبل الجميع على الطعام بشهيّةٍ، متناسين القضيّة الشائكة، وفي نهاية العشاء نهض أحد المدعوّين، وهو كاتبٌ بالعدل، وطلب من الجميع أن يصمتوا ويصغوا، وخاطب دون بوسكو قائلاً:

"أدعوك، أبتِ، إلى قبض مبلغ الثلاثين ألف فرنك من مكتبي. ففي هذا الصباح أودعه محسنٌ من أجلك!"

وآمن الجميع بقداسة دون بوسكو.

غير أنّ ذلك القدّيس مع كلّ الإنشاءات الجديدة التي أحدثها في إيطاليا، وفرنسا وأميركا، لم يرتح قلبه حتّى حقّق حلم إنشاء مركزٍ يضاهي مركز ڤلدوكّو، في وسط مدينة تورينو. فمنذ تأسيسه مركز رعاية القدّيس لويس هناك، بقصد تنفيس اكتظاظ مركز ڤلدوكّو، وبنائه كنيسة القدّيس يوحنّا الإنجيليّ، سارع الڤوديّون إلى شراء كلّ الأراضي والأبنية المجاورة بهدف منعه من التوسّع في تلك المنطقة. وظلّ يراجع السلطات المحلّيّة حتّى اقتنعت بالضرورة الاجتماعيّة لمؤسّساته التي تثقّف الفتيان المهمَلين، وتحول دون وقوعهم في حبائل الجرائم، فألغت احتكار العقارات المجاورة لأوراتوار القدّيس لويس، وآتت الكاهن القدّيس الفرج والفرح، بقدر ما تحمّل من معارضاتٍ وإهاناتٍ. وسارع دون بوسكو إلى الاستعاضة عن الأبنية القديمة الضنكة بمجمّعٍ ضمّ ميتمًا، ومدارس ابتدائيّةً، ومدارس ثانويّةً، محقّقًا ڤلدوكّو جديدًا، ولكن أصغر حجمًا.

ولا بدّ من التنويه بأنّ دون بوسكو كان قد درج، منذ بدء عمله، على الاستعانة بعلمانيّين يؤدّون لمشاريعه مساعداتٍ مجّانيّةً، ويتطوّعون لشتّى المهمّات، التي يتعذّر على أعضاء جمعيّته القيام بها، من جرّاء ضآلة عديدهم، وتكاثُر مهامّهم الروحيّة والمادّيّة، بدءًا بنساءٍ أحطنَ والدته، ماما مرغريتا، وتطوّعنَ لمساعدتها في

الطهو، والخياطة، والترقيع، وغسل البياضات وتوضيبها، ومن شبّانٍ تطوّعوا لتفقّد أحوال العمّال، والتثبُّت من احترام أرباب العمل لعقودهم معهم، أو للبحث عن عملٍ آخر، للذين كان أجرهم هزيلاً أو مُجحفًا. وبعضٌ من المتطوّعين أسهموا في مراقبة ملاعب الفتيان. وكان رجالٌ يقدّمون ساعاتٍ من وقتهم للتدريس، أو لزيارة السجناء. وآخرون كانوا دائمًا جاهزين لإفراغ محافظهم دعمًا لصناديق الأوراتوار الخاوية باستمرارٍ. وكان دون بوسكو أثناء وضعه نظام جمعيّته، قد لحظ بندًا يتيح قبول علمانيّين مساعِدين، غير ملتزمين بنذور الجمعيّة ونظامها، ولكنّ السلطات العليا، عارضت رغبته، وأكرهته، على إلغاء هذا البند من نظام الجمعيّة عند تأسيسها.

غير أنّ الرغبة في إيجاد مكانٍ رسميٍّ ومعترفٍ به، لهؤلاء المتطوّعين في جمعيّته، ما انفكّ يعتمل في نفسه. فصاغ مشروعًا جديدًا للمعاونين الساليزيّين الراغبين في عيش الإنجيل من خلال أعمال المحبّة والخدمة، والصلاة، والمواظبة على الأسرار المقدّسة، والمساعدة على حماية الشبيبة التائهة والمهملة من المخاطر المتربّصة بهم، وأيضًا للراغبين في الإعلام المسيحيّ، من خلال النشرة الساليزيّة.

حملات جمع أموالٍ مرهقةٌ

سبق أن روينا ظروف تكليف البابا لاون الثالث عشر دون بوسكو، بجمع أموالٍ من أجل إنهاء بناء كنيسة قلب يسوع الأقدس على تلّةٍ في روما، بعد أن كان سلفه البابا پيّوس التاسع قد أنفق على حفر تربتها، وإرساء أساساتها كلّ ما جاءه من تبرّعاتٍ، وما استطاع إنفاقه من احتياطيّ الڤاتيكان. وهو مع انهماكه، حينئذٍ، بالعديد من المشاريع غالية الكلفة، ومع انهيار صحّته، قَبِل المهمّة بشرط أن يبني إلى جانب الكنيسة، أوراتوارًا لأبناء تلك المنطقة الرومانيّة.

وفي سبيل جمع المال اللازم لكنيسة قلب يسوع الأقدس، ولمشاريعه، قام بسلسلة حملاتٍ، بدأها بالعديد من المدن الإيطاليّة حيث كان الإيطاليّون مطّلعين على أعماله، ومقدّرين لها أرفع تقديرٍ.

وكان مقصده الثاني باريس، حيث كان ينعم بسمعةٍ عطرةٍ، وحيث انهمر عليه السخاء، وارتدت زيارته حلّة ملحمةٍ منقطعة النظير.

قدّاسه الباريسيّ الأوّل أقامه في مزار سيّدة الانتصارات، وكان قد أُعلن عن قدّاسٍ يقيمه قدّيسٌ. وكان قد حُدّد موعده في الساعة التاسعة قبل الظهر، فامتلأت الكنيسة بالحشود منذ الساعة السابعة.

وكان منذ وصوله إلى باريس، قد زار رئيس أساقفتها الكردينال "غيبير" (Guibert)، الذي نصحه:

- "ألقِ عظةً في كنيسة "المادلين"، وضمّنها دعوةً إلى المحبّة، ثمّ انزل، وطُف بين المؤمنين مادًّا لهم يدك فترى سخاءهم".

ولكنّه أجاب:

– "يا صاحب النيافة إنّ تكلّمي باللغة الفرنسيّة حافلٌ بالأخطاء، ولذلك أظنّ أنّ من الأفضل أن يقوم بهذه المهمّة أحدٌ غيري".

– "لا، لا، يجب أن تتكلّم أنت، فباريس لن تصدّق سوى كلامك. ثق، ومنذ الآن بركتي معك".

وقلّما آتت بركةٌ مثل هذه الثمار.

ولمّا أقام قدّاسه الثاني في "المادلين"، اكتظّت الكنيسة منذ الصباح الباكر، واستغرق وصول دون بوسكو إلى الهيكل، واختراق كثافة الجمع وقتًا طويلاً، إذ كان المؤمنون يستوقفونه، في كلّ خطوةٍ، لكي يقبّلوا يده، ويظفروا ببركته.

وتحدّث القدّيس عن مؤسّساته المنتشرة في كلّ مكانٍ، والتي تؤوي وتثقّف آلاف الفتيان المهمَلين التائهين.

لم يكن، في حديثه، خطيبًا فاتنًا، لأنّ لغته الفرنسيّة لم تسعفه، ولأنّ صوته كان خافتًا، فاقدًا نبرته الرنّانة الساحرة. بل تكلّم ببساطةٍ وتواضعٍ، ولم تُسمع أقواله جيّدًا، غير أنّ التجاوب معه فاق كلّ توقّعٍ، وعندما طاف نبلاء بالهميانات المخمليّة، تهاطلت الليرات الذهبيّة فيها، وفي غضون دقائق، جُمِع مبلغ عشرة آلاف فرنك. وتكرّر هذا الحدث ذاته بعد ثلاثة أيّامٍ، عندما احتفل بقدّاس، في كنيسةٍ كبرى أخرى، عند الساعة التاسعة، وكانت قد غصّت بالحضور منذ الساعة الثامنة، وتعذّرت الحركة فيها، كما تعذّر السير في جوارها. وفوجئ دون بوسكو بوجود رئيس أساقفة قرطاج، قرب الهيكل، وكان لقاءٌ غير متوقّعٍ بين رسولَين، أحدهما زاخرٌ بالهدوء والعطف، والوداعة الساليزيّة، والآخر يضطرم غيرةً رسوليّةً مكافِحةً.

ولم تقتصر زيارات دون بوسكو على الكنائس، بل زار معاهد، وجمعيّاتٍ واتّحاداتٍ، وباركها، وأشاع فيها بسمته. وزار، أيضًا، دور النشر العزيزة على قلبه.

وحيثما ذهب كانت الطرقات تُسَدّ بحشودٍ تنتظر مروره، وتتعذّر الحركة في الأماكن التي يقصدها، من جرّاء كثافة الحشود. وعندما كان يغادرها كان وصوله إلى مركبته يستلزم كفاحًا ومعجزةً. فكان يتولّى ثلاثةُ أبطالٍ أشدّاء إخراجه، أحدهم في الأمام يشقّ التصاق الحشد وكثافته، وواحدٌ عن يمينه، وآخر عن يساره يقيانه من ضغوط الجماهير. وتكتمل المشقّة، عند انطلاق مركبته، إذ كانت الحشود تمنع تحرّكها، وتجهد الأحصنة، عبثًا، في تحريك عجلات العربة. وعندما تُفسح له الطريق، كانت تتالى صيحاتٌ مطالبةً ببركة القدّيس. وحينئذٍ كان ينهض في عربته، ويواجه الشعب، ويأخذ به التأثّر كلّ مأخذٍ، ولكأنّ قلب باريس كلّها يخفق في صدره، فيبارك، مغرورق العينين، هاتفًا: "أجل، أبارككم جميعكم فأنتم، جميعكم، أصدقائي، ومعكم أبارك فرنسا".

لقد رحّبت به باريس ترحيبها بالملوك والزعماء والقدّيسين، وأغدقت عليه السخاء، وألقت في هميانه، تلقائيًّا، بطيبة خاطرٍ، مئةً وخمسين ألف فرنك، من أجل مشاريعه، ومن أجل تأسيس بيتٍ ساليزيٍّ، في حيّ "مينيل مونتان" (Menil Montant) الباريسيّ.

وطيلة فترة وجود دون بوسكو في باريس، أفردت له الصحافة صفحاتها الأولى، ولا سيّما أنّه كان استهلّ زيارته إلى باريس، بمعجزة شفاءٍ عجيب. فقد جاءته إلى سكرستيّا الكنيسة، أُمٌّ مفجوعةٌ، والتمست منه زيارة بيتها القريب من الكنيسة، حيث كانت ابنتها البالغة أحد عشر عامًا، قد ابتُليت بحمّى خبيثةٍ، أودت بها إلى حافّة القبر. فلبّى طلبها، وواكبها إلى البيت، وأمام جميع الحاضرين، ابتهل إلى العذراء مريم المساعِدة شفاء الفتاة. ثمّ دعا ذويها، إلى إتاحة فترة راحةٍ لها، فتركوها تنام، وفي صباح اليوم التالي نهضت معافاةً.

وتناقلت الصحافة هذا الحدث، فكتبت جريدة "الفيغارو" (Figaro) واسعة الانتشار: "لم يعُدِ العالم الدينيّ يتحدّث منذ ثمانية أيّامٍ إلاّ عن دون بوسكو، وأعماله. فهذا القدّيس ڤنسان دي پول الإيطاليّ، قد جاء لقضاء بضعة أيّامٍ في باريس، وسيعود إلى مقرّه في تورينو مثقلاً بالعطايا من أجل مياتمه. وأمام البيت الذي كان يقيم فيه، اصطفّت طوابير من العربات، وفي كلّ أيّام الأسبوع، تتوسّله أكثر سيّدات المجتمع تألّقًا، أن يُحدث لهنّ ولذويهنّ معجزاتٍ، ويبدو أنّه يحقّقها بيُسرٍ".

وأكّد مراسل صحيفةٍ أخرى، أنّ أساطيل العربات تصطفّ أمام البيت الذي يستقبل زائريه فيه، وأنّ فناء ذلك البيت يغصّ، دائمًا، بمن يسجّلون دورًا لمقابلته. وفي الصالة الكبرى التي يستقبل فيها الزائرين، يتعذّر دائمًا العثور على مقعدٍ خالٍ.

وكتبت صحيفةٌ أخرى: "الكنائس التي يُعلن أنّه سيقيم فيها قدّاسًا.. تغصّ بالحضور، وتزدحم الشوارع بمن لم يتسنّ لهم الدخول إليها. حتّى إنّه استحال إدخال الممثّلة الشهيرة "سارا بيرنار".

"في غمرة الشكّ الدينيّ الذي وسم القرن التاسع عشر، فسحت أشهرُ الصحف الفرنسيّة صفحاتها لأخبار دون بوسكو".

وأعلنت سيّدةٌ مشهورةٌ: "لم تشهد باريس مثل هذه الحشود حول كاهنٍ، منذ زيارة البابا پيّوس السابع (١٨٠٥/١/٣)".

وكانت ترد إليه، كلّ يومٍ، أكوامٌ من الرسائل، فاستعان برفاقه وبمتطوّعين للردّ عليها. ومع ذلك كانت تبقى، كلّ مساءٍ، أكوامٌ من الرسائل مغلقةً. وصرّح نائبه، دون ميشيل روا: "لو عمل سبعة أمناء سرٍّ على هذه المهمّة، لما فرغوا من الردّ على كلّ الرسائل الواردة إليه".

ولو هو كان قادرًا على الصمود، لظلّت أفواج الزائرين تتدفّق مدى أربعٍ

وعشرين ساعةً. ولكنّه، كان ينهار تحت التعب، عند الساعة الحادية عشرة مساءً. غير أنّ عظماء كانوا ينتظرونه حتّى تلك الساعة المتأخّرة حتّى يتبادلوا معه حديثًا أو نقاشًا. ويُقال إنّ الشاعر المجلّي "ڤيكتور هوغو"، قد حادثه في ساعةٍ متأخّرةٍ جدًّا، في ليلتين متعاقبتين.

ومع كلّ ذلك كان ينهض في الخامسة صباحًا، وبعد ساعة صلاةٍ وتأمّلٍ، كان يبدأ باستقبال زائرين بين الساعة السادسة والسابعة والنصف. وحينئذٍ كانت تحضر عربةٌ وتُقلّه إلى كنيسةٍ أو بيتٍ، ويقيم القدّاس، وحيثما كان يقيم قدّاسه الصباحيّ كانت تلحقه حشودٌ كثيفةٌ، كي تبوح له بمشاكلها والتماساتها، فكان ينصت للجميع، ويواسي، ويبارك. وعند الساعة الحادية عشرة، كان يسترق دقائق معدوداتٍ، من أجل تناول طعامٍ سريعٍ. وفي الساعة الثانية كان يعود إلى مقرّ إقامته، ويستقبل زائريه حتّى الساعة العاشرة ليلاً. وحينئذٍ كان ينضمّ إلى أُمناء سرّه، فيوقّع البريد، مضيفًا إلى بعضه عباراتٍ منه، أو يدوّن، هو، رسائل عاجلةً. وعند منتصف الليل، كان يصلّي صلاةً طويلةً، قبل استلقائه على سريره، منهكًا.

ومنذ صباح الغد الباكر، كان يشرع توافد القوم، من كلّ طبقات المجتمع، ومن كلّ أحياء باريس. كان بعضهم يبحثون عن نورٍ لضمائرهم، وبعضهم ينشدون شفاءً جسديًّا، وآخرون يكتفون ببركته، ويسعدون بها.

ثمّ تابع جولاته في المدن الفرنسيّة، ففي "ليلّ" (Lille)، كان الكاثوليكيّون يدخلون الكنيسة، وهم يهتفون: "القدّيس، القدّيس". والذين كانوا ينتظرون مجيئه، في الخارج، كانوا مسلّحين بمقصّاتٍ يقتطعون بها أجزاءً من ثوبه كي يجعلوا منها ذخائر، ممّا جعله يقول: "يبدو أنّ المجانين، ليسوا، جميعهم في المصحّات العقليّة". وبمناسبة مروره بمدينة ليلّ، طلب من جمعيّته تولّي شؤون ميتمٍ كانت

تديره راهباتٌ ڤنسانيّاتٌ، لأنّ الأيتام الذكور الذين ترعرعوا فيها أصبحوا شبّانًا، ولم يعد بوسع راهباتٍ الاهتمام بهم.

وفي كنيسة "سيّدة فورڤيير" في مدينة ليون، كان الاكتظاظ من الشدّة بحيث تعذّر على معظم القادمين لرؤيته، والاستماع إليه الدخول إلى الكنيسة، فاضطرّ دون بوسكو إلى الخروج، لكي يكلّمهم ويباركهم.

وبالإجمال سحر دون بوسكو الفرنسيّين، بمزيجٍ من السموّ والبساطة، والمهابة والمرح، وغالبًا ما كان يبدأ بصدمهم، ثمّ يفجّر حماسهم، ولكأنّه كان يستعيد شبابه وعبقريّة إلهامه، فيُذهِل.

وقد وصف أحد شهود هجمة الفرنسيّين الشعبيّة، على استقبال دون بوسكو: "رأيته يجتاز صفوف الجموع. كان مجرّد ذكر اسمه، يفجّر لديها حماسًا منقطع النظير. فكانوا يرتمون عند قدميه، ويقبّلون يديه، وينحنون من أجل تلقّي بركته. ومع ذلك، كان، هو، يأبى ادّعاء استحقاقه هذه المظاهر التكريميّة. بل كان يعزو كلّ شيءٍ إلى الربّ، وإلى السيّدة العذراء. كان ابن فلاّحٍ، وبقي ابن فلاّحٍ، حتّى عندما بلغ قمّة المجد والشهرة. ومثلما كان خوري أرس ينسب كلّ ما يجري من معجزاتٍ على يده إلى القدّيسة فيلومينا، كان دون بوسكو يعزو إلى "مريم المساعِدة"، كلّ الخوارق التي تحدث بواسطته".

ومن المحقّق أنّ تدافع الجماهير في مدن نيس، ومرسيليا، وأڤينيون، لرؤيته، وسماعه، ولمسه، ونيل بركته، فاق كلّ تخيّلٍ، ولم يعهد له مثيلاً، لا زعيمٌ، ولا بطلٌ.

وجديرٌ بالتنويه أنّ سيّداتٍ نبيلاتٍ قد ارتدين ثياب خدمٍ، وأشرفنَ على تنظيم نظام مقابلات القدّيس في مقرّ إقامته، ومن أجل منع الازدحام الخانق.

ولا بدّ من التنويه باختلاط فقراء ونبلاء، بلا تمييزٍ في الكنائس، وفي الشوارع التي كان يمرّ بها. ولكم من الأشفية العجيبة التي ظلّت ذكراها موضع أحاديث المجتمع. مدى عقودٍ، وأجيالٍ!

ولا ريب أنّ الحماس الذي قوبل به دون بوسكو في فرنسا، لم يُشهَد له مثيلٌ، حتّى في إيطاليا، التي كانت تجلّه إجلالها للقدّيسين.

وهو، رغبةً في إرضاء مضيفيه وإمتاعهم، لم يُحجم عن القيام بأعمالٍ يراها البعض غير لائقةٍ بمركزه. فقد دُعي، ذات يومٍ، إلى عشاءٍ وتجرّأ أحد الحاضرين على سؤاله: هل صحيحٌ أنّه كان يجتذب الأولاد في صغره، وفي مطلع رسالته، بألعابه البهلوانيّة، وبأعمال خفّةٍ مدهشةٍ؟ فأكّد الأمر، وحينئذٍ أبدى معظمهم رغبةً في مشاهدة نماذج من أعمال الخفّة، فامتنع، للوهلة الأولى، ولكنّه، نزولاً عند إلحاحٍ جماعيٍّ، طلب من أحد الضيوف المرموقين إعطاءه ساعته الفاخرة التي أودعها في جيب قميصه على مرأى الجميع، ثمّ دعا الرجل إلى انتزاعها، ولكنّه لم يجد لها أثرًا. وكاد ينقلب الأمر مأساةً، ففتح القدّيس يده. وإذ بالساعة تلتمع بين أصابعه.

وفي نهارٍ حافلٍ بالزائرين، كان المضيف قد دعا المتبرّعين إلى إيداع تقادمهم في جارورٍ، خصّصه لهذه الغاية. ولحظ الجميع سخاءً في العطاء منقطع النظير. وفي المساء كلّف دون بوسكو، كاهنين من مساعديه بجمع الغلّة الوفيرة، وإذ بجارور التقادم فارغٌ فراغًا كلّيًّا، وشاع الوجوم. وخشي القدّيس أن يأخذ الحزن بأصدقائه، وبمضيفه، فدعا مساعديه إلى غرفةٍ مجاورةٍ، وقال لهم أفرغوا جيوب جلبابي، ثمّ أفرج عن بنطاله، وأوعز إليهم إفراغ جيوبه، ثمّ أهاب بهم بأن يفرغوا جواربه، وتدفّقت ثرواتٌ من نقودٍ ورقيّةٍ، وأوراقٍ ماليّةٍ، وجرت سواقي الليرات الذهبيّة، والفضّيّة، والجواهر. وكان هو قد أعدّ لهذه التمثيليّة، بمفرده، ولم يلحظه أحدٌ.

وقد دُعي، في أحد الأيّام إلى إقامة قدّاسٍ في قصر أميرٍ بولونيٍّ سابقٍ، مقيمٍ في فرنسا، تحدوه رغبةٌ حارقةٌ في التناول من يده. وخدم القدّاس أحد أبناء الأمير، فيما كان الأمير يراقب، عن كثب، كلّ حركات الكاهن. ولّما أمسك دون بوسكو القربانة أثناء التكريس، رأى الأمير إشعاع نورٍ سماويٍّ. هذا المشهد خضّ أحشاء الأمير، وسعّر في نفسه نيران التقوى والعبادة، التي كانت خامدةً فيها. وحيال إصراره، اضطرّ دون بوسكو إلى قبوله في أوراتواره الذي كان يحكمه الفقر والتواضع، اللذان توغّل الأمير فيهما، فلم يكن يخجل من غسل صحنه الخزفيّ، وملعقته التنكيّة على مرأى الجميع. وتوغّل في إماتة ذاته، حتّى أقصى الحدود البشريّة.

وفي فرنسا جرت، على يد دون بوسكو مئات الشفاءات العجيبة، بوتيرةٍ مدهشةٍ نعم بها نبلاء وفقراء على السواء.

ومع ذلك، لم يكن يخشى الردّ على بعض طالبي الشفاء: "لا يريد الله شفاءك، فتقبّل بقاءك على هذه الحال". ومثالاً على ذلك أنّ مدير مستشفًى للعازريّين اقتاده إلى سرير كاهنٍ، كان يحتضر وتوسّل منه الشفاء. فسأله دون بوسكو عن سبب رغبته في الشفاء، فأجاب "لكي أشهد ازدهار الجمعيّة". فردّ عليه: "ستشهده، على نحوٍ أفضل، من السماء".

وفي مدينة ديجون، تجدّدت مظاهر تكريم باريس.

ويوم ١٨٨٤/٥/٣١، عاد إلى تورينو، بعد غيابٍ عنها امتدّ أربعة أشهرٍ. وكانت قواه تخور وتنفد، يومًا فيومًا.

لقد عاد دون بوسكو من فرنسا، بغلّةٍ ماليّةٍ وفيرةٍ، أرسل معظمها إلى الحبر الأعظم، من أجل إكمال بناء كنيسة قلب يسوع الأقدس. ولكنّه عاد منهكًا، مصابًا بالتهابٍ رئويٍّ لم يُشفَ منه بيسرٍ، وبمجموعةٍ من العلل، التي لازمته حتّى مماته. ومع

ذلك تابع جولاته، مستعينًا بعكّازٍ، وبمساندة رفاقه، واستمرّ في جمع أموالٍ من أجل إكمال بناء كنيسة قلب يسوع الأقدس في روما.

عام ١٨٨٦، كانت الأموال التي جمعها، وقدّمها للبابا، قد أسهمت في إحراز تقدّمٍ كبيرٍ، في بناء كنيسة قلب يسوع الأقدس. ومن أجل إكمال هذا البناء، باشر دون بوسكو حملةً في إسبانيا، حصد منها مثلما حصد في فرنسا، غلّةً وفيرةً، فضلاً عن تكريمٍ واسعٍ، وعن وثيقة امتلاك عقارٍ كبيرٍ، على تلّةٍ مُطِلّةٍ على مدينة برشلونة، من أجل بناء كنيسةٍ تكريمًا، أيضًا، لقلب يسوع الأقدس. وكان واهب تلك الأرض أحد أعضاء جمعيّة ڤنسان دي پول، معجبًا بعبقريّة دون بوسكو في بناء كنائس كبرى.

في هذه الأثناء، كان الساليزيّون قد افتتحوا مدرستهم الأولى في إسبانيا، بإدارة دون "براندا" (Branda). وهناك طلبت منه سيّدةٌ سخيّةٌ افتتاح أوراتوارٍ في برشلونة، للشبّان الفقراء المهملين، فاشترى دون براندا بيتًا، وحوّله إلى مدرسةٍ ابتدائيّةٍ، حيث كان هو وإخوانه، يعطون دروسًا مسائيّةً للبالغين. وذات يومٍ، زار دون بوسكو ذلك المكان، برفقة نائبه دون روا. وأوعز إلى دون براندا بشراء حقلٍ شاسعٍ، ليكون في مُقبل الأيّام حديقةً وملعبًا للطلاّب، لأنّ البناء سيغزو الحديقة الحاليّة. فتردّد دون براندا بحجّة افتقاره إلى المال، فردّ عليه رئيسه، دون بوسكو: "ألا تثق بالعناية الإلهيّة؟ أنا أقول لك إنّ هذا الحقل يجب أن يُشترى، وسيُشترى!". ثمّ أشار إلى بستانٍ شاسعٍ، عليه صرحٌ مهيبٌ، في الجانب الآخر من المدرسة، فطالب أيضًا بشرائه موضحًا: "ستُقيمون فيه مركزًا برعاية مريم المساعِدة، تثقّفون فيه فتياتٍ فقيراتٍ، وتُعدّون منهنّ راهباتٍ للرسالة".

حينئذٍ، أبدى دون براندا استعدادًا لشراء العقار الأوّل الملاصق للمدرسة، ولكنّه ارتاب في القدرة على شراء العقار الثاني، من جرّاء تعلّق صاحبه به، ورفضه

التخلّي عنه بأيّ ثمنٍ. ولكنّ دون بوسكو لم يتنازل، ذرّةً، عن مطلبه، مؤكّدًا: "حتّى إن لم تملكوا فلسًا واحدًا، فهذه هي إرادة أُمّنا العذراء الصريحة. وستشهدون كيف ستبدّد العوائق".

ثقته هذه كانت مستندةً على حلمٍ، ظهرت له فيه السيّدة العذراء في ثياب راعيةٍ، وأشارت عليه شراء ذيْنك العقارَيْن. وأثبت الواقع صواب توقّعه باضمحلال العوائق، فتمّ شراء العقار الأوّل بيُسرٍ. أمّا مالك الصرح فرفض بيعه رفضًا قاطعًا. ولكنّه توفّي بعد أيّامٍ معدوداتٍ. ولّما علم وارثه سبب طلب السالزيّين شراءه، وغاية استعماله، تنازل لهم عنه مقابل شروطٍ زهيدةٍ، وأصبح أحد أخلص وأكرم المحسنين للسالزيّين.

وقبل نهاية تلك السنة كانت راهبات مريم المساعدة، قد أقمنَ في البناء مدرسةً ثانويّةً، ومركز ابتداءٍ للراهبات. ثمّ أجرى دون براندا توسيعاتٍ في البناء، وأسّس فيه مصانع نجارةٍ، وحفرٍ، وتجليد كتبٍ، وأحذيةٍ، ومطابع، وأكاديميّة موسيقى صوتيّةٍ، وعزفٍ على الآلات.

إعدادٌ للخلافة

عندما كلّف دون بوسكو دون كالييرو بقيادة الحملة الرسوليّة الأولى إلى الأرجنتين، كان يتوقّع أن يمكث هناك ثلاثة أشهرٍ، كي يرسّخ استقرار الرسالة، ويعود، ولكنّ الترتيبات الأوّليّة اقتضت مكوثه هناك نحو سنتين.

وكان دون بوسكو قد أوفد عام ١٨٧٧، إلى ما وراء المحيطات، جماعتين رسوليّتين أُخريَيْن، يرأسهما كاهنان يملكان الكفاءة للإمساك بزمام الأُمور، هما دون "لازانيا"، ودون "كاستامانيا". وحينئذٍ عاد دون كالييرو، من أجل المشاركة في مجلس الجمعيّة العامّ، بصفته مدير الجمعيّة الروحيّ، والخبير الوحيد، حتّئذٍ، بشؤون الرسالة.

وقد أوكل إليه دون بوسكو في السنتين التاليتين مهمّتين دقيقتين: إطلاق المشروع الساليزيّ في إسبانيا، وإدارة جمعيّة "بنات مريم المساعِدة" الناشئة.

عام ١٨٧٩، كان دون بوسكو قد بلغ الرابعة والستّين من العمر، غير أنّه كان يشعر بالإرهاق، وببوادر انهيارٍ. وتمنّى إيجاد خليفة له يستطيع تحمّل كلّ مسؤوليّات الجمعيّة، وكان الاسمان الأكثر أهليّةً لهذه المهمّة الساليزيّ الأوّل، دون "روا" (Rua)، ودون كالييرو، وكانا يتعادلان كفاءةً ووفاءً. ودون بوسكو يشملهما، كليهما، بالمودّة عينها. ووقع في حيرةٍ، وفي خشية أن يؤدّي اختياره لأحدهما إلى الإضرار بهيبة الآخر. أو إلى التشكيك بشخصه.

وذات صباحٍ من عام ١٨٧٩، اعتزم زيارة أحد فروع الجمعيّة في إيطاليا، ودعا دون كالييرو إلى مرافقته. وفي أثناء الطريق، سأله:

- « من تعدّه أهلاً، لخلافتي عند وفاتي؟
- عزيزي دون بوسكو، ألا تظنّ أن موعد طرح هذا السؤال لم يحِن بعد؟
- بقطع النظر عن ذلك، إنّ الحبر الأعظم يشدّد على ضرورة تأمين خلافتي، حرصًا منه على بقاء جمعيّتنا واستمرارها ونموّها. ولنفرضْ أنّ أوان السؤال قد حان، فما هي الأسماء التي تشير بها عليّ؟
- ليس لديّ سوى اسمٍ واحدٍ، جديرٍ بخلافتك.
- أمّا أنا فأختار اثنين أو ثلاثةً.
- ربّما يكون في حينه، اثنان أو ثلاثةٌ، أمّا الآن فلا أرى ذلك. هل يمكنك ذكر الأسماء الثلاثة الخاطرة ببالك؟
- بل قلْ لي، أوّلاً، من هو مرشّحك!
- دون رُوا، ولا أحد سواه.
- أنت محقٌّ. فقد كان دون رُوا، دائمًا، ذراعي اليُمنى.
- بل كان لك، أيضًا، الرأس والقلب، وهو الوحيد المؤهّل لتبوّء مكانك، عندما يرى الله استدعاءك إلى الفردوس.»

هذا الحوار أثبت حنكة دون بوسكو، ورهافة مشاعره.

وبهذه الرهافة نأى كاليرو بنفسه، واستقرّ الرأي على اختيار "دون بوسكو الثاني"، بصفاءٍ كلّيٍّ، وراحة بالٍ.

كالييرو أُسقفًا

بتاريخ ١٦ و٢٠ تشرين الثاني ١٨٨٣، أصدر الكرسيّ الرسوليّ وثيقتَيْن هامّتَيْن تقتضي إحداهما باعتبار "پاتاغونيا" الشماليّة والوسطى نيابةً رسوليّةً، خاضعةً لسلطة دون جوڤانّي كالييرو، الذي عُيِّن نائبًا رسوليًّا. واعتبار "أرض النار"، أي أقصى جنوبيّ پاتاغونيا "ولايةً رسوليّةً"، وعيِّن "دون فانيانو" واليًا رسوليًّا عليها.

ولم يرُقْ لدون بوسكو هذا التعيين بحقّ دون كالييرو، فقد كانت تسكنه الخشية من أن يعرقل أساقفةٌ جدُدٌ جهوده، فهو لم ينسَ كيف عرقل جهوده اثنان من رؤساء أساقفة تورينو، واضطهداه، وكم ألحقا بمشاريعه وبجمعيّته من أذًى. وكان حريصًا على أن ينعم دون كالييرو، بحرّيّةٍ كاملةٍ في عمله الرسوليّ، وأن يبقى غير مقيّدٍ بمزاج رئيس أساقفةٍ متسلّطٍ.

وتحدّث دون بوسكو، في هذا الشأن، مع صديقه، الكردينال "ألموندا"، وراسل أيضًا، الكردينال "نينا"، المدافع الشرس عن حقوق الساليزيّين، ثمّ تحدّث مباشرةً مع الحبر الأعظم، بهذا الأمر عينه. وكان المعارض العنيد الأوحد، لرغبة دون بوسكو، الكردينال "فيرّيريو"، الذي طالما ناصب الساليزيّين العداء، وسعى في الافتراء عليهم، داخل الدوائر الڤاتيكانيّة. وأصرّ على عدم إدخال أيّ تعديلٍ على قرار البابا بخصوص "دون كالييرو".

غير أنّ البابا تغاضى عن اعتراض الكردينال فرّيريو، ومعارضته الڤاتيكان. وأصدر بتاريخ ٩/١٠/١٨٨٤، رسالةً جاء فيها: "إنّ الأب الأقدس، في أثناء لقاء يوم الجمعة الماضي، استجاب لطلب دون بوسكو، ووافق على منح رتبة الأُسقفيّة لدون كالييرو.

وغمرت السعادة قلب دون بوسكو، في ذلك اليوم، لأنّه كان يشهد تحقّق جميع الأحلام التي خطرت له على امتداد درب مسيرته.

ورُسم الأسقف الجديد، يوم ١٨٨٤/٢/٧، في كنيسة مريم المساعِدة، واحتُفِل بمنح رتبة الأُسقفيّة، لأحد أوائل الفتيان الصغار، الذي تبنّاه دون بوسكو، وضمّه إلى أوراتواره، إذ كان في الثالثة عشرة من سنيه، يتيم الأب، ثمّ غدا من طليعة الكهنة الساليزيّين، وارتقى إلى رتبة الأسقفيّة، في سنّ السادسة والأربعين، وتولّى رعاية منطقةٍ رسوليّةٍ مترامية الأطراف. ولا ريب أنّ تلك الأُسقفيّة التي مُنحت لأحد أوائل الساليزيّين، كانت تتويجًا لمسيرة دون بوسكو ولمشاريعه الفذّة.

إثر ذلك الاحتفال المهيب هرع الأسقف الجديد نحو والدته تيريزا، البالغة الثمانين من العمر، والتي كان يساندها أحد أبنائها، وابن أُختٍ لها، فضمّ بحرارةٍ إلى صدره الرأس الشائب الحبيب، ثمّ واكبها إلى مقعدها، وهو يكاد يختنق تأثّرًا.

وفي هذه الأثناء كان دون بوسكو، محاطًا بجمهورٍ غفيرٍ، ينتظر عند باب الموهف (السكرستيّا)، وبيده القلنسوة الأُسقفيّة التي أثبتها في رأس الأُسقف الجديد، الذي كان يخفي في ثنايا ثوبه إصبعه المزدانة بالخاتم الأُسقفيّ، كي يكون أوّل مقبّليه، دون بوسكو.

وبعد سيامة كاليرو أُسقفًا، أُتيح لدون بوسكو أن يعلن عن اسم نائبه وخليفته، فدعا مجلس جمعيّته، يوم ١٨٨٤/١٠/٢٤، وأعلن: "إنّي بحاجةٍ إلى خلفٍ أُسند شؤون الجمعيّة على أكتافه، وأن أتخلّى له عن كلّ مسؤوليّاتي، ملبّيًا بذلك رغبة الحبر الأعظم، لأنّ رأسي المسكين لم يعد قادرًا على تحمّل تلك المسؤوليّات. وكتب إلى الحبر الأعظم مقترحًا اسم دون ميشيل رُوا خلفًا له. وجاءته الموافقة في مطلع كانون الأوّل.

وداع الأُسقف كالييرو لدون بوسكو

كان مقرّرًا أن ينطلق الأُسقف الجديد كالييرو إلى مقرّه في أميركا الجنوبيّة، في الأوّل من شهر شباط ١٨٨٥، مع ١٨ ساليزيًّا، وستٍّ من راهبات مريم المساعِدة. ولكن في مساء ذلك اليوم، بعد أن أوصل الأسقف رفاقه إلى المرفأ بالقطار، انتابته وعكةٌ صحّيّةٌ. فعاد إلى ڤلدوكّو، وجلس إلى جانب أبيه الروحيّ، دون بوسكو، ولبثا كلاهما صامتَيْن، إذ تعذّر على أيٍّ منهما التفوّه بعبارة وداعٍ. وبعد أن اطمأنّ دون بوسكو إلى سفر الآخرين، سأل تلميذه وابنه الروحيّ الأسقف عن موعد سفره، فأجاب أنّ عليه أن يكون في المرفأ صباح اليوم التالي. وشقّت على دون بوسكو فكرة فراقهما، ثمّ قال للأسقف:

- "ما زلتَ متعبًا. فإذا استطعتَ احصل على مزيدٍ من الراحة قبل رحيلك". تعالَ إليّ صباحًا باكرًا، وسنتحدّث بهدوءٍ.
- "لا، يا دون بوسكو. فعليّ الانطلاق باكرًا جدًّا. فباركني وبارك رفاقي".

وجثا أمام الكاهن القدّيس، الذي أمسك بيد الأُسقف، وتمنّى له سفرًا مريحًا موفّقًا، وقال: "إن لم يُقيَّض لنا اللقاء مجدّدًا على هذه الأرض، فسنلتقي في الفردوس. ولتكن مشيئة الله، فهو السيّد. سيكون عليك النهوض بجمٍّ من الأعمال في الأرجنتين، وفي پاتاغونيا. فلتُعِنكَ السيّدة العذراء".

وشرع يتلو نصّ البركة بصوتٍ يكاد يُسمع. وغابت عن ذاكرته، بغتةً، تتمّة صلاة البركة، فهمس بها الأُسقف، وردّدها دون بوسكو، وهو ما زال ممسكًا بيد رفيقه. ثمّ نهض الأسقف كالييرو، وتمنّى لأبيه ليلةً مريحةً.

وطلب منه دون بوسكو، بحبٍّ وتأثّرٍ جمَّيْن، تبليغ تحيّاته إلى رفاق سفره، والزملاء العاملين معه في الأرجنتين والمساعدين، وباركه ثانيةً.

واستمرّ دون بوسكو في متابعة أنباء المخاطرات الرسوليّة، التي يقوم بها الأسقف الشابّ النابض عزيمةً واندفاعًا، بحبٍّ وتأثّرٍ جمّين. وكان يطالع بمتعةٍ ونهمٍ رسائله، ويعمّمها من خلال النشرة الساليزيّة.

في تمّوز ١٨٨٦، أنبأ الأسقف كالييرو وإخوته الساليزيّين أنّ المرسلين الساليزيّين قد زاروا معظم السكّان في پاتاغونيا الجنوبيّة، وزوّدوهم بالتعليم المسيحيّ.

وفي ذلك الشهر عينه، زاره زعيم عشيرةٍ كبرى، وسأل الأُسقف أن يبشّر البالغين في القبيلة، وكتب الأُسقف كالييرو، أنّه ورفاقه قد عمّدوا في وادي "شيشنال" ألفًا وسبع مئة فردٍ من السكّان الأصليّين، وأنّهم كانوا ينفقون ثلاث ساعاتٍ قبل الظهر، وثلاث ساعاتٍ بعد الظهر، مكبّين على تزويد السكّان بالتعليم المسيحيّ.

أمّا مسكن الأسقف فلم يكن سوى كوخٍ مصنوعٍ من جذور أشجارٍ مطليّةٍ بالطين، وسقفه أغصان أشجارٍ تقي من أشعّة الشمس، ومن المطر... ولم يكن في الكوخ أثرٌ لسريرٍ، فقد كان يرقد على فرو حيواناتٍ، يقدّمها له السكّان الأصليّون الطيّبون، بكثيرٍ من المحبّة والاعتراف بالجميل.

مقابلةٌ صحافيّةٌ

في شهر نيسان ١٨٨٤، شخص دون بوسكو إلى روما. فقد كان ذلك الكاهن القدّيس، قد تلقّى من كثيرين وعودًا بمبالغ تبرّعاتٍ جسيمةٍ، ثمّ لم يظهر لأولئك الواعدين أثرٌ. وأحسّ بضرورة قرع الأجراس، واستنهاض الهمم، وإنعاش الذاكرة.

وفي هذا السبيل قَبِل إجراء مقابلةٍ، مع مراسل "جريدة روما"، إليكم محتواها:

«س: بأيّة معجزةٍ استطعتَ بناء مراكز في بلدانٍ كثيرةٍ؟

ج: لقد تحقّق أكثر ممّا كنتُ أتوقّع. ولستُ أفهم، أنا نفسي، كيف تمّ ذلك. فالعذراء مريم، التي تعرف احتياجاتنا، تمدّ لنا يد مساعدتها.

س: بأيّة طريقةٍ تساعدكم؟

ج: اسمع: ذات يومٍ جاءتني إلى تورينو، رسالةٌ من روما تقول إنّهم بحاجةٍ عاجلةٍ إلى دفع عشرين ألف ليرا، في غضون ثمانية أيّامٍ من أجل إكمال بناء كنيسة قلب يسوع الأقدس. وكنت، آنذاك، مفلسًا، فوضعت الرسالة على مقربةٍ من جرن الماء المقدّس، في الكنيسة، وتوجّهتُ بدعاءٍ حارٍّ إلى السيّدة العذراء، واستسلمتُ للنوم. وصباح اليوم التالي، تلقّيتُ رسالةً من مجهولٍ يقول فيها: "كنتُ قد نذرتُ، أمام السيّدة العذراء، أن أهب عشرين ألف ليرا، لعملٍ خيريٍّ، إن هي منحتني نعمةً، وجادت عليّ السيّدة العذراء بهذه النعمة، وأنا أضع هذا المبلغ بتصرّفك".

ومرّةً أُخرى كنت في فرنسا، حيث جاءني خبرٌ مقلقٌ من أحد مراكزنا، يحتاج إلى سبعين ألف ليرا، لكي يتفادى خطرًا داهمًا. ولم أكن أرى كيف يمكن تدبّر أمرٍ

على هذا القسط من الخطورة. فلجأتُ إلى الصلاة، وفيما كنت أصلّي قبل النوم، قرع باب غرفتي، عند الساعة العاشرة ليلاً، صديقٌ دخل وبيده ملفٌّ ضخمٌ، وقال لي: "عزيزي دون بوسكو، كنت قد لحظتُ، في وصيّتي مبلغًا من ثروتي، من أجل مشاريعك. واليوم خطر لي أنّه من الأفضل القيام بهذا العمل أثناء حياتي، وعدم انتظار الموت، فجئتك بهذا المبلغ، وهو سبعون ألف ليرا".

س: هذه عجائب. فهل جرت معك عجائب أُخرى؟

ج: أنا لم يخطر ببالي، يومًا، إلاّ أن أؤدّي واجبي. فأصلّي، وأوكل أموري إلى السيّدة العذراء.

س: هل لك أن تطلعني على نظامك التربويّ؟

ج: إنّه بمنتهى البساطة: أَدَعُ الفتيان يفعلون ما يحبّون فعله. غير أنّ السرّ يكمن في اكتشاف بذور خصالهم الجيّدة، والعمل على تنميتها. وكلٌّ منهم يطيب له أن يفعل ما هو واثقٌ بالنجاح فيه. أنا أستند على هذا المبدأ، والتلاميذ يعملون جميعهم، ليس بجهدٍ فقط، بل بهوًى وحبٍّ. في غضون ستٍّ وأربعين سنةً، لم أُعاقب أحدًا. ولديّ جرأة التأكيد بأنّ تلاميذي يحبّونني حبًّا جمًّا.

س: كيف سعيتَ حتّى امتدّت مشاريعك إلى پاتاغونيا، وأرض النار؟

ج: بتؤدةٍ، وخطوةً خطوةً.

س: ما رأيك في أحوال الكنيسة في أوروپّا، وفي إيطاليا، الآن ومستقبلاً؟

ج: أنا لستُ نبيًّا، أمّا أنتم الصحافيّون، فجميعكم تتنبّأون. وعلينا، نحن، أن نستفسركم عمّا سيحدث. ومع ذلك يمكننا القول، بشريًّا، إنّ المستقبل سيكون صعبًا. توقّعاتي كئيبةٌ، ولكنّي لا أخشى شيئًا، وأومن أنّ الله سيُنقذ، دائمًا، كنيسته، وأنّ السيّدة العذراء التي تحمي، على نحوٍ جليٍّ، العالم المعاصر، ستستنهض، لكلّ عصرٍ، منقذين.

إصلاح أضرار هزّةٍ أرضيّةٍ، وتدشين كنيسة قلب يسوع الأقدس

عاد دون بوسكو من حملات جمع أموالٍ لإكمال بناء كنيسة قلب يسوع الأقدس في روما، وقد تجلّت عليه أمارات تلاشٍ مدمِّرٍ. فقد غدت ساقاه عاجزتين عن احتماله، وأمست حركته ممعنةً في المشقّة والإيلام. وكانت عواقب الالتهاب الرئويّ، الذي أُصيب به تسبّب له حالات نفث دمٍ موجعةً. وكانت إحدى عينيه قد فقدت الرؤية فقدانًا كاملاً، ولم تكن العين الأُخرى تتيح له سوى رؤيةٍ شحيحةٍ، فأمسى يضطرّ إلى إملاء مراسلاته، ويكتفي بتوقيعها.

وفي غمرة هذا التدهور الصحّيّ، فاجأته كارثةٌ طاحنةٌ. ففي ١٨٧٧/٢/٢٣، دمّرت هزّةٌ أرضيّةٌ العديد من المنشآت الساليزيّة، في منطقة "ليغوريا"، فوجّه نداءً إلى معاونيه في العالم، داعيًا إلى مساعدتهم في إصلاح هذه الأضرار، قائلاً: "لو كنت لا أزال قادرًا على الحركة، لحضرت بنفسي كي ألتمس كرَمكم. ومع ذلك أنا على ملء الثقة في الحصول، من محبّتكم، على المساعدات اللازمة".

وفضلاً عن ذلك، تخطّى نصائح أطبّائه، وتوسّلات أصدقائه، وعملاً بالمثل القائل: "الجوع يُخرج الذئب من مخبئه"، قام برحلةٍ لهذا الغرض، ولكنّه لم يتخطّ حدود جنوى. ولّما دخل كنيسة المدينة نهض جميع من كانوا فيها، وتبادلوا وشوشات الإعجاب بتحدّيه العجز. وبمشقّةٍ وصل إلى قرب الهيكل، فأجلسه رئيس الأساقفة إلى جانبه. ودعا الواعظ إلى واجب المحبّة والسخاء في تلبية احتياجات دون بوسكو. وأسهمت التبرّعات السخيّة في إصلاح معظم أضرار المنشآت الساليزيّة القائمة على الأراضي الساحليّة.

عاد دون بوسكو من جنوى منهار الصحّة، ومع ذلك، ظلّ مصمّمًا على عدم

تفويت مناسبة تدشين كنيسة قلب يسوع الأقدس في روما، التي نهضت على جهوده، وأتعابه، وتضحياته، وحملت توقيعه، وصُنِعت كلّ أبوابها في محترفات مؤسّساته.

وبما أنّ وضعه الصحّيّ لم يكن يتيح له السفر مباشرةً إلى روما، فقد جُزِّئت الرحلة إلى مراحل قصيرةٍ، واستراحاتٍ متعدّدةٍ، واستغرق وصوله إلى روما عشرة أيّامٍ، ورافقه، في هذه الرحلة نائبه دون روا، وأمين سرّه دون ڤيلييتّي (Viglietti)، وحدثت له لقاءاتٌ طريفةٌ ومؤثّرةٌ في بعض المحطّات. ففي استراحة فلورنسا التقى الكونتيسة العجوز "أوغوشّيوني"، التي استقبلته على كرسيٍّ متحرّكٍ، فقال لها مازحًا:

– "ما رأيك، يا سيّدتي، أن نقوم برقصةٍ معًا؟"

– آه! يا دون بوسكو. ألا ترى الحال التي انتهيت إليها؟

– حسنًا، لا بأس، فسنرقص معًا في الفردوس".

وكان له لقاءٌ مؤثّرٌ آخر في مدينة "أريزّو". فمذ شاهده رئيس محطّة القطار في تلك المدينة، أقبل عليه، وقبّله ساكبًا دموع الفرح، وقال له:

– ألا تذكرني يا دون بوسكو؟ كنتُ من أوغاد تورينو، يتيم الوالدين، فتبنّيتني، وربّيتني، وأغدقتَ عليّ محبّتك. وما العيلة الجميلة التي رُزقتُها، وما هذا المركز الذي بلغتُه إلاّ بفضلك".

وصل أخيرًا إلى روما، بعد ظهر الثلاثين من نيسان.

واقتيد إلى الإكليريكيّة اللومبرديّة، حيث طُلِب منه إلقاء كلمةٍ، فاكتفى بهذه العبارة: "اهتمّوا دائمًا بما قد يقول الربّ فيكم، لا بما يقوله الناس من مديحٍ أو نقدٍ".

ويوم ١٨٨٧/٥/١٥، التقى البابا لاون الثالث عشر، مستندًا على سواعد نائبه وأمين سرّه. فرحّب به الحبر الأعظم، وأجلسه إلى جانبه، وألقى على ركبتيه فروةً ثمينةً. وحينئذٍ قال له دون بوسكو بصوتٍ خافتٍ، يكاد يكون همسًا: "أيّها الأب الأقدس، لقد هرمتُ، وهذه رحلتي الأخيرة، وهي ختام كلّ شيءٍ. ما زال الكثير

ممّا يتوجّب علينا فعله، ولكن لا حاجة لي إلى حثّ أبنائي على العمل، بل عليّ، بالحريّ، أن أنصحهم بالاعتدال". كان يقول ذلك، وعيناه محدّقتان إلى نائبه دون روا، الجالس بجانبه، وأردف: "فهناك من يدمّرون صحّتهم بالعمل نهارًا وليلاً".

وبعدما شكر الحبر الأعظم لدون بوسكو، بجمٍّ من المحبّة والتقدير إهداءه تلك الكنيسة الرائعة لقلب يسوع، ولروما، وللكنيسة جمعاء، توجّه إلى دون بوسكو ونائبه بهذه النصيحة: "لا توليا عدد الساليزيّين اهتمامًا أكبر من اهتمامكما بقداستهم، فليس العدد هو الذي يعظّم الله، بل الفضيلة والقداسة. لذلك عليكما التزام الصرامة في قبول أعضاء الجمعيّة".

وفيما كان دون بوسكو ورفيقاه، يهبطان الدرج الكبير انتظم الحرس السويسريّ، في وضع الاستعداد، فقال لهم دون بوسكو، ضاحكًا:

- "استريحوا، فأنا لستُ ملكًا، بل مجرّد كاهنٍ، مسكينٍ، محدودبٍ".

وفي اليوم التالي تحدّى دون بوسكو وهنه، وسعِد بإقامته القدّاس على هيكل مريم المساعدة، الذي عُني عنايةً فائقةً بتزيينه. ولحظ أمين سرّه الذي شاركه القدّاس، أنّه لم ينقطع عن البكاء طوال الليتورجيّا، وأنّه أضحى في حالةٍ من الخوَر، بحيث اضطرّ إلى حمله حملاً إلى السكرستيّا. وهناك استفسره عن سبب بكائه المتواصل أثناء القدّاس، فأجابه أنّه استعرض كلّ مسيرته، وذكر الحلم الذي راوده في سنّ التاسعة، وقول العذراء له: "ستفهم كلّ شيءٍ في الوقت المحدّد". وشعر أنّ الوقت المحدّد قد أزف، وفهم أنّ كلّ ما تحقّق على يده، وكلّ ما أفرحه وعزّاه، وكلّ ما لقيه من مشقّاتٍ انتثرت على دربه، كانت قد أنبأته به أُمّ المخلّص، ومغيثة المسيحيّين، وأنّ إنقاذه مئات الفتيان المهملين من براثن الضياع والهلاك، يستأهل كلّ تضحياته وعنائه. وأمسى بوسعه الموت بسلام النفس، لأنّ العذراء اختارته أداةً من أجل تحقيق رسالتها، ولأنّ الساليزيّين باتوا جاهزين لمواصلة عمله.

ويوم ١٨ أيّار ١٨٨٧، غادر دون بوسكو روما، للمرّة الأخيرة.

كيف كان دون بوسكو يشكر الأغنياء

أَلِف دون بوسكو أن يشكر، برقّةٍ وتقديرٍ، العمّال والفلاّحين الذين يتبرّعون بسنتيماتٍ يقتطعونها من احتياجاتهم الأساسيّة، ويشكر كلّ متبرّعٍ، أيًّا كان مبلغ تبرّعه. ولكن كان شكره للأغنياء حتّى الذين يهبون مبالغ طائلةً، مقرونًا، غالبًا، بالعتب واللوم.

فقد زار القدّيس كاهنًا فرنسيسكانيًّا، كان يستمع اعترافات نبيلٍ في جنوى، تُقدّر ثروته بالملايين. وكان قد طعن بالسنّ، وليس له أبناء. وسأل دون بوسكو الكاهن الفرنسيسكانيّ: لِمَ لا يعطي هذا الثريّ بما يتناسب مع ثروته، فأجابه الكاهن:

- أنت مخطئٌ، يا دون بوسكو، فهو يهب كلّ سنةٍ، عشرين ألف ليرا للفقراء.
- عشرون ألفًا، فقط؟ إذا كان هو راغبًا، حقًّا، في إطاعة يسوع، وإعطاء بقدر ما يملك، فالمئة ألف ليرا لن تفي بما يتوجّب عليه منحه.
- أفهم، ولكن كيف السبيل إلى إقناعه؟ وما كنتَ، أنت، تفعل لو كنتَ مكاني؟
- كنتُ أقول له إنّي لست راغبًا في أن أصير إلى جهنّم بسببه. وإن هو شاء الذهاب إلى جهنّم، فليذهب إليها بمفرده. وبعدئذٍ سأُكرهه على العمل بما يتوافق مع وضعه. وإن أبى فسأصارحه، بأنّني لا أستطيع أن أبقى مسؤولاً عن نفسه.
- إذن سأقول له ذلك.

ووفى الكاهن الفرنسيسكانيّ بوعده. ولكنّ كلامه لم يرُق للثريّ، فاستغنى عن خدماته.

حدثٌ آخر: كان متعهّدُ بناءٍ قد قدّم للفتيان الفقراء المقيمين في المؤسّسات الساليزيّة مبالغ طائلةً، ولم يقتضِ عنها فائدةً، وكان قد أعدّ الكثير من المخطّطات، وأشرف على تنفيذ أبنيةٍ عديدةٍ، ولم يطلب عنها أجرًا، وبذلك كان قد قدّم الكثير لدون بوسكو ولجمعيّته.

وكانت زوجة ذلك المتعهّد قد توفّيت منذ عشرين سنةً، وهو ما زال محتفظًا بجواهرها وثيابها الفاخرة. وذات يومٍ، باح لدون بوسكو برغبته في عمل شيءٍ إكرامًا لذكراها، ومن أجل راحة نفسها. فسأله دون بوسكو، بلهجةٍ لم تخلُ من الخشونة:

- **إن كنتَ تريد التصرّف تصرُّفًا مسيحيًّا، فلمَ تحتفظ، في منزلك، بكلّ هذه الأشياء الثمينة، النافلة؟ إئتِ بها إلى هنا، فنساعد بثمنها الفتيان المفتقرين إلى الأساسيّ.**

فنأى عنه المتعهّد، وكأنّه طُعِن وأُهين. ولكنّه أعاد النظر في الأمر، وعاد بعد بضعة أيّامٍ، وأودع بين يدي دون بوسكو كلّ ذكريات رفيقة عمره.

لم يهضم جميع الساليزيّين اللهجة الحادّة، التي كان دون بوسكو يخاطب بها المحسنين الأغنياء، غير أنّه، يومَ الرابع من شهر حزيران ١٨٧٧، فسّر لهم سبب هذه اللهجة. فقد كانت السيّدة العذراء قد أخذت عليه، في ليالٍ عديدةٍ، إحجامه عن الدعوة إلى التصدّق والإحسان، وعبّرت عن عدم رضاها عن الكهنة، الذين يخشون حثّ الأغنياء على منح المحتاجين، كلّ ما يفيض عن احتياجاتهم، معتبرةً أنّهم هم السبب في سعي الأغنياء إلى تكديس الأموال في خزائنهم الفولاذيّة.

وبتاريخ٢٢/٤/١٨٨٧، زار دون بوسكو، برفقة كاهنَين ساليزيَّين، سيّدةً كانت تُغدِق العطاء لمؤسّساته. وعند مغادرتهم منـــزلها، إذ كانت تواكبهم إلى الخارج، سألت السيّدةُ دون بوسكو:

- **ماذا يتوجّب عليّ فعله كي أخلُص؟**
- **عليك أن تصيري فقيرةً مثل أيّوب!**

جوابٌ خيّب السيّدة المحسنة، وأحد الكاهنَيْن المرافقين له، فسأله، في طريق عودتهم إلى البيت، بالصراحة الساليزيّة المعتادة:

- **لمَ استخدمتَ هذه العبارة الجافية، القاسية، مع سيّدةٍ لا تتوانى عن تقديم صدقاتٍ سخيّةٍ؟**
- **لأنّ لا أحد يجرؤ على الجهر بالحقيقة بوجه الكبار.**

في أثناء زيارته الأخيرة لفرنسا، عرّج على مدينةٍ ساحليّةٍ، حيث قام رئيس غرفة التجارة، نفسه، بجمع التبرّعات في الكنيسة. وفي نهاية القدّاس عبّر عن سعادته بإقدام العديد من الحاضرين على إفراغ محافظهم في الصينيّة. وفاجأه دون بوسكو بقوله:

- **أنا أجد ذلك، أمرًا طبيعيًّا. فعلى المسيحيّ إعطاء كلّ ما يفيض عنه للمحتاجين. وأنت بعد احتفاظك، كلّ شهرٍ، بمئة فرنكٍ، وهو مبلغٌ وافٍ، هب الله كلّ ما يزيد لديك.**

ومن الذكريات الأليمة التي انحفرت في ذاكرته، ذكرى محسنةٍ، مركيزةٍ في الرابعة والتسعين، استدعته لمّا أطلّت عليها أمارات الموت، فاعترفت، ثمّ نظرت إليه نظرةً زائغةً، وتساءلت:

- **"هل سأموت حقًّا؟"**

وفيما هو كان يحاول تذكيرها بالله، كانت هي تجيل أنظارها في ما حولها، ولا تنفكّ تشكو:

- "هل عليّ، حقًّا، هجر قصري الرائع، وغرفتي، وصالوني الحميم؟"

وكانت قد أمرت خدمها، بوضع سجّادةٍ فارسيّةٍ فاخرةٍ، بجانب سريرها، وما انفكّت تداعبها بيدها، وتردّد، وكأنّها في حالة اللاوعي:

"ما أجملها! فعلامَ أهجرها؟"

اعترافُ لايُنسى

حتّى في سنوات دون بوسكو الأخيرة، التي هدّتها الأسفار وتراكم الديون، لم يستطع التخلّي عن فتيانه. فقد كانت رؤيتهم، والاستماع إليهم، والسير بضع خطواتٍ معهم، تبثّ فيه همّةً جديدةً، حتّى في أمسية أيّامٍ منهكةٍ.

واتّفق أنّ أوراتوار ڤلدوكّو استقبل، في غروب عام ١٨٨٦، فتًى في الرابعة عشرة، يُدعى "لويجينو أوريوني" (Luigino Orione)، ابن رجلٍ فقيرٍ، مهنته تبليط الشوارع. ولطالما كان الفتى قد ساعد والده على إتمام هذه المهمّة، وركع في الرمل ساعاتٍ وساعاتٍ، إلى جانب والده، وساعده على غرس البلاط في الرمل، بلاطةً إلى جانب بلاطةٍ، بضربات مطرقةٍ خفيفةٍ.

وكان قد حاول العمل، أخًا مساعِدًا في أحد المراكز الساليزيّة، ولكنّه اعتلّ، واضطرّ إلى العودة إلى منـــزله. وأخيرًا، استقبله ساليزيّو ڤلدوكّو.

وفُتن لويجينو بسِحر دون بوسكو، وبالتفاف مئات الفتيان من حوله، في الأوقات النادرة التي كان يمرّ فيها بالملعب، وبتدافعهم من أجل الوصول إلى حيث يستطيعون رؤيته عن كثبٍ وسماع كلمةٍ منه. وجاهد لويجينو، يومًا، حتّى الصفّ الأماميّ، ومرّ دون بوسكو، فابتسم له، وحدّق إليه، ومازحه قائلاً: "هل القمر في قريتك بمثل كِبَر قمر تورينو؟". ثمّ ربّت على رأسه، وقال له: "إنّك، حقًّا، عجينةٌ صالحةٌ". وكانت فرحة لويجينو غامرةً، واستبدّت به الرغبة في الاعتراف بين يدي دون بوسكو. ومع أنّ هذا الأخير كان، آنذاك، بسبب انهيار صحّته، قد حصر سماع الاعترافات على حفنةٍ من الساليزيّين والإكليريكيّين، المشرفين على مرحلة

الابتداء استعدادًا للكهنوت، حظي لويجينو بقبول القدّيس سماع اعترافه. وحرص الفتى على الإعداد الأمثل لهذا الحدث، فنبش ماضيه، وسجّل كلّ ما تذكّره من أخطاءٍ وهفواتٍ ارتكبها، حتّى ملأ بها ثلاثة دفاتر صغيرةٍ. وأعاد كتابة عبارات الاعتراف والندامة. وأخيرًا ركع أمام دون بوسكو في كرسيّ الاعتراف، فحدّق إليه الكاهن باسمًا، وقال له: "هات أعطِني خطاياك". فناوله الفتى دفتره الأوّل، وتظاهر الكاهن بروز وزنه، ثمّ مزّقه، وطلب الدفترين الآخرين، فكان مصيرهما مثل مصير الدفتر الأوّل. ونظر إليه الفتى مشدوهًا، وسمعه يقول له: "انتهى الاعتراف، فلا تفكّر، بعد الآن، بما كتبته"، وابتسم له بسمةً، لم يقوَ الفتى، يومًا، من بعدُ، على نسيانها، فقد انحفرت في أعماق ذاته.

ثمّ لمحه دون بوسكو، يومًا، وحدّق إلى عينيه، وقال:

"تذكّر، أنّنا سنبقى، دائمًا، صديقين".

ولم ينسَ لويجينو، لحظةً واحدةً، هذا الوعد. ولمّا علم أنّ دون بوسكو، قد انتهى إلى ساعات حياته الأخيرة، قدّم لله حياته فداءً عن حياة صديقه.

وحتّى عندما أصبح لويجينو رئيس جمعيّةٍ لها أوراتوارات، ومراكز للعناية بالفتيان الفقراء، كان يُعلن، كلّما تذكّر دون بوسكو: "لو تسنّت لي رؤيته مرّةً أخرى، لمضيت إليه ماشيًا على جمرٍ متّقدٍ". وكان يصف السنوات الثلاث التي أمضاها في "ڤلدوكّو"، بأنّها "الفصل الأسعد في حياته".

الطوباويّة مرغريتّا بوسكو، والدة جان بوسكو

بيت بيكّي الذي أمضى فيه جان بوسكو طفولته

في أوّل عهد كهنوته

حلم دون بوسكو في التاسعة من عمره

القدّيس جوزيف كافاسّو

دون بوسكو يستمع إلى اعترافات الأولاد في الهواء الطلق

المركيزة "جيوليا دي بارولو" (Giulia di Barolo)

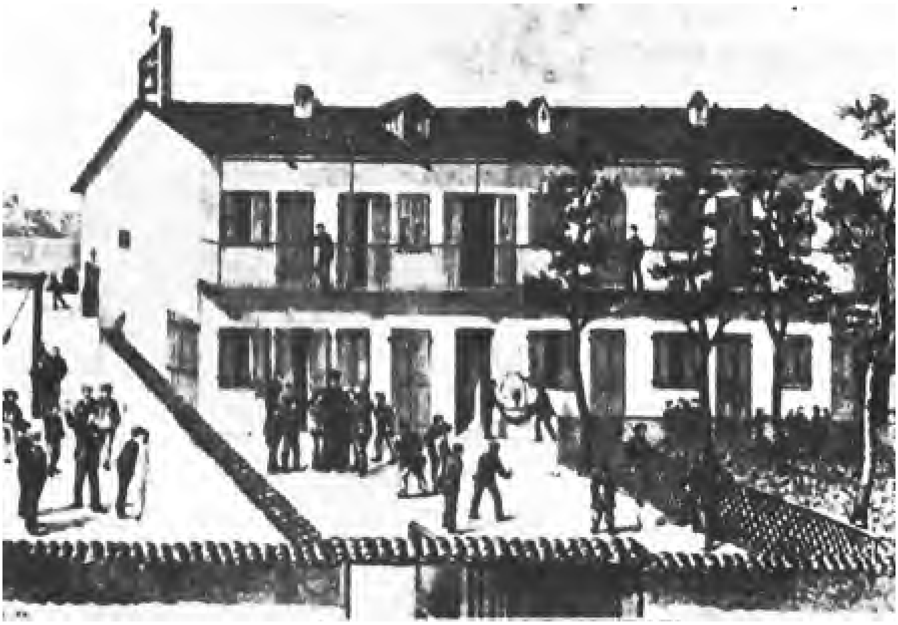

أوراتوار ڤلدوكّو بين عامي ١٨٤٦–١٨٥١

كنيسة القدّيس فرنسوا الساليزيّ الأولى التي بناها دون بوسكو في تورينو

الأوراتوار البدائيّ وكاپيلاّ القدّيس فرانسوا الساليزيّ

ڤلدوكّو في تورينو

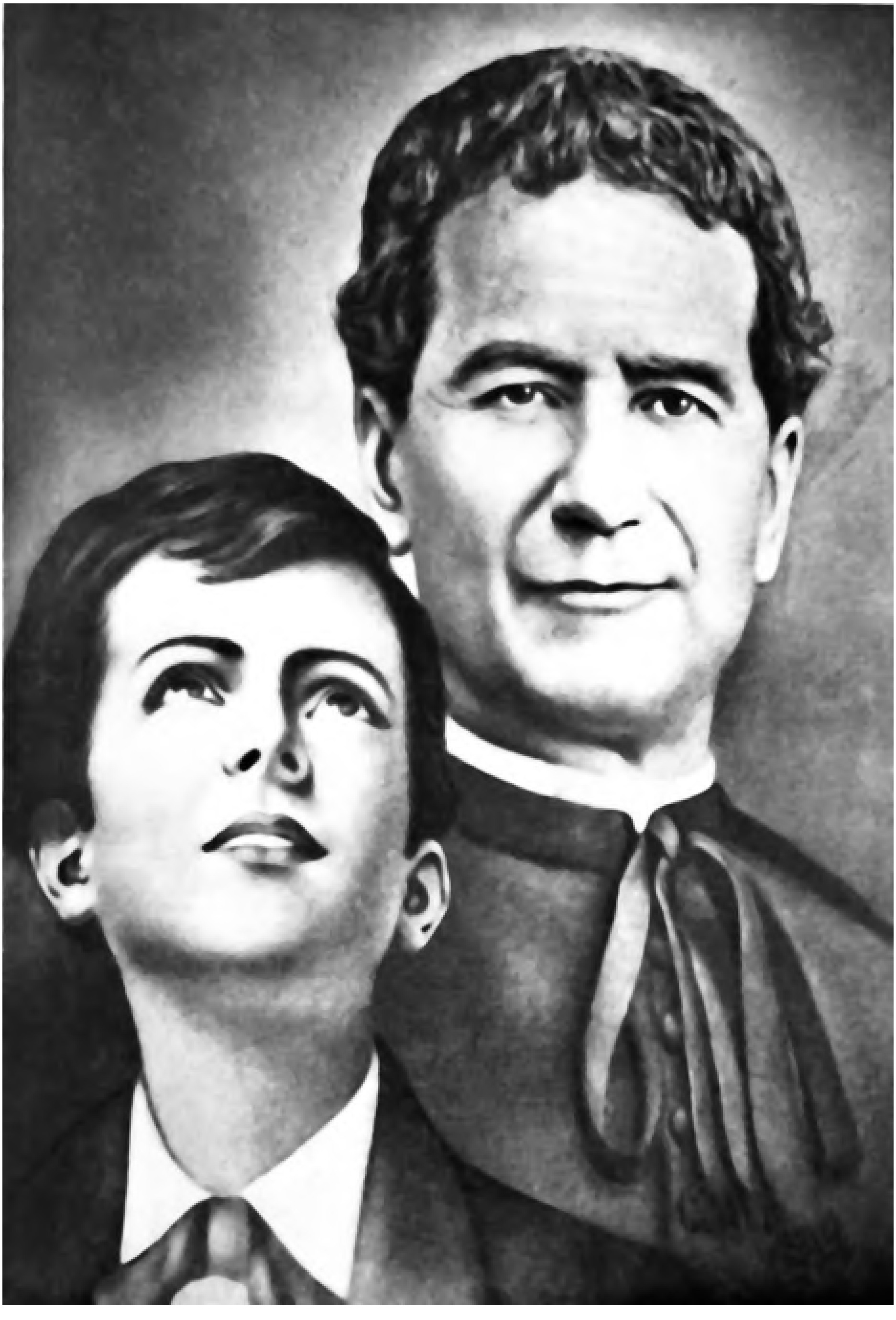

القدّيس المعلّم دون بوسكو والقدّيس التلميذ دومينيك ساڤيو

القدّيس دومينيك سافيو، تلميذ دون بوسكو

الكنيسة التي أشادها للعذراء المساعِدة في تورينو

في سنّ الخامسة والستين

شفيع العمّال والمتدرّبين

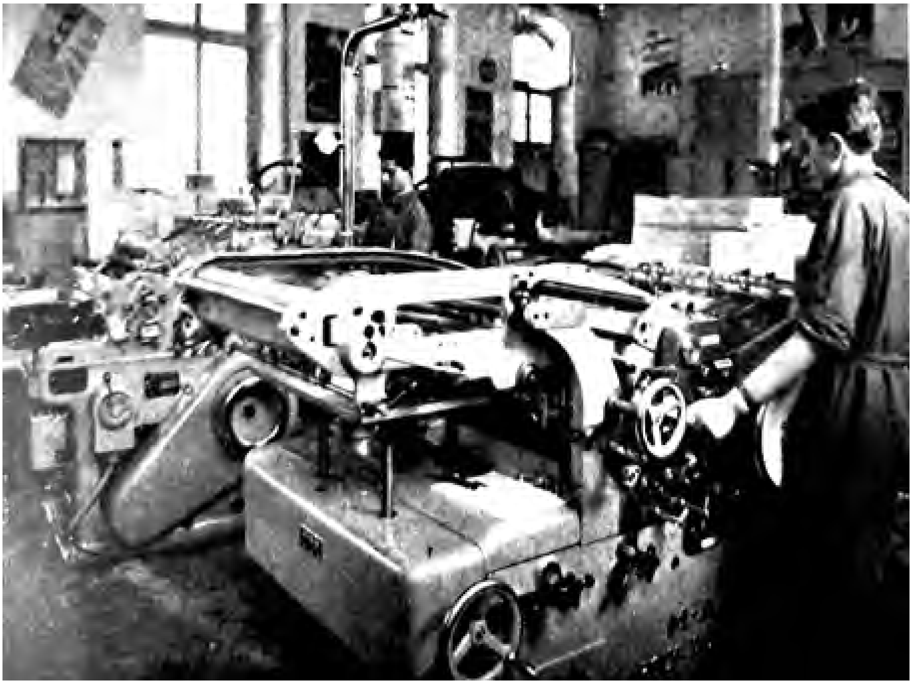
المطبعة الأولى التي أسّسها خارج إيطاليا

المقرّ الساليزيّ الرئيس حاليًّا

الدفعة الأولى من المرسلين الساليزيّين مع القنصل الأرجنتينيّ في الوسط.
وعلى يمينه دون بوسكو يسلّم كالييرو كتاب النظام الساليزيّ

جان كالييرو من أوائل الساليزيّين، وقائد رسالة أميركا الجنوبيّة، ممسكًا بيد أسقفٍ أرجنتينيٍّ

في السنة السابقة لوفاته

في الشهر السابق لوفاته

الغرفة التي توفّي فيها

الجموع المحتشدة في ساحة كنيسة مريم المساعِدة أثناء جنازة دون بوسكو، عام ١٨٨٨

الجموع المحتشدة في ساحة كنيسة مريم المساعِدة أثناء جنازة دون بوسكو، عام ١٨٨٨

مثواه في كاتدرائيّة العذراء المساعِدة

الفَصْلُ السَّابِعُ

دون بوسكو المربّي

دون بوسكو المُربّي

من أبرز صفات دون بوسكو، أنّه مبتدع نظامٍ تربويٍّ فريدٍ، آتى معجزاتٍ، انطلاقًا من يقينه بأنّ سعادة المجتمع والكنيسة، وسلامتهما تقومان على تربية الشبيبة تربيةً صالحةً. وفي سبيل ذلك، لم يضنّ بجهدٍ ولا بتضحيةٍ، كما جاء في حديثٍ له مع تلاميذ أوراتواره، أكّد لهم فيه: "من أجلكم أدرس، وأعمل، ومن أجلكم سأبذل حياتي".

وشعورًا برسوخ هذه المسؤوليّة في نفسه، أعلن: "أرسلني الله من أجل الشبيبة، وأنا مستعدٌّ لكلّ تضحيةٍ في سبيل الشبيبة من أجل خلاصهم".

وقد أثبت أوراتوار ڤلدوكّو، أنّه مختبرٌ تربويٌّ فذٌّ، يلبّي مقتضيات مختلف الظروف، ففيه أكملت الممارسة العمليّة دقائق هذا النظام، وصقلته.

مبدأ ذلك النظام الأوّل هو تجنّب القمع. فدون بوسكو الذي طالما أرشد مساجين، قد لمس عواقب القمع الوخيمة. فالفتى الذي يُسجن إثر ارتكابه الجنحة الأولى، ويُحشر وسط مجرمين متمرّسين، تحت أنظار حرّاسٍ فاقدي الشعور الإنسانيّ، غالبًا ما يظلّ طول حياته، يجترّ حقده تجاه المجتمع، وقرفه من ذاته.

هذا المشهد المريع عينه رآه دون بوسكو، ولو على شيءٍ من الاختلاف، في مدارس تمارس صرامةً مفرطةً، حيث المدرّسون والمراقبون مغلقو الوجوه، فولاذيّو النظرة، يفرضون سلطتهم الجائرة على تلاميذهم، متمترسين خلف جدران اللاشعور واللامبالاة، ولا ينأون عنها إلاّ من أجل ممارسة المزيد من القمع والطغيان، والترهيب.

وكان دون بوسكو قد لاحظ أنّ الذين يودَعون في أماكن الإصلاح والتقويم، بسبب ارتكابهم هفواتٍ زهيدةً، كانوا غالبًا ينـــزلقون إلى الانحراف والإجرام.

ومنذ طفولته في قرية "بيكّي"، كان دون بوسكو يسعى إلى استمالة أترابه ببهلوانيّاتٍ، وبسرد رواياتٍ طريفةٍ عن قدّيسين، للتأثير عليهم بهدف إصلاحهم، وصرفهم عن السوء. وعندما كانت والدته تحذّره من عواقب اختلاطه برفاقٍ قليلي التربية، كان يؤكّد لها أنّ قربه منهم كفيلٌ بتغيير سلوكهم. وفي مدرسته أسّس "جماعة الفرح"، بهدف نسج أواصر صداقةٍ وتعاونٍ، من أجل سوق حياةٍ إنجيليّةٍ فُضلى.

هذه المبادرات جميعها، قادته إلى اليقين، بواجب نبذ النظام القمعيّ في التربية الوقائيّة التي انتهجها، وبمواكبة الفتيان مواكبةً قائمةً على ثلاثة عُمُدٍ:

المودّة، والعقل، والدين.

واسترشادًا بمثال شفيعه القدّيس فرنسيس السالبزيّ، كان يردّد شعاره القائل: "ملعقة عسلٍ تجتذب من الذباب ما لا يجتذبه برميل خلٍّ". ومن ثمّ لطالما أكّد أنّ كل إنسانٍ يستطيع أن يكون مربّيًا ناجحًا، شرط امتلاكه مَرَح القدّيس فرنسوا السالبزيّ ووداعته.

فاعتمدَ وسائل الرقّة والثقة، مؤمنًا بنصيحة شفيعه: "إذا شئتَ اكتساب ثقة شابٍّ فعامله برقّةٍ. إنّ الرقّة في الأقوال، والأفعال، والنصائح، تكتسب كلّ شيءٍ، وتكتسب الجميع".

ومن ثوابته، أيضًا، أنّ التربية هي عمل القلب، والله وحده هو سيّد القلوب. وما لم يعطنا الله مفاتيح القلوب، لن نقوى على فعل شيءٍ. وكان مؤمنًا أنّ ثقة الفتى بالمربّي هي مفتاح إقناعه، وإصلاحه. والثقة تُكتَسب بالقدوة والرقّة.

منذ البدء، اختار دون بوسكو نموذج القدّيس فرنسوا السالبزيّ، الذي دعا إلى فعل كلّ شيءٍ بحبٍّ، وتجنّب كلّ إكراهٍ، فنصح تلاميذه ألاّ يقتصروا على محبّة

الفتيان، بل على إشعارهم بحبّهم لهم، وبحثّهم على المكوث أطول وقتٍ ممكنٍ معهم، كي يكتشفوا الكنوز الثاوية في قلوبهم، وينمّوها، ويستثمروها لصالح الفتيان والمجتمع أجمع.

وبما أنّ الحياة في ڤلدوكّو كانت تسير على وقع حياة الأسرة، التي يسودها جوّ المودّة، والأخوّة، فقد كانت الحواجز تسقط بين المربّين وتلاميذهم، وتولد بينهم ثقةٌ ومودّةٌ متبادلتان. ولكي تؤتي المحبّة أُكُلَها، كان عليها الالتزام بالشروط التالية:

- أن تكون عفيفةً، أي منزّهةً من كلّ رغبة إخضاع التلميذ، أو إكراهه على محبّة مربّيه، بل أن يحرص المربّي على استقلاليّة مشاعر التلميذ وحرّيّته.
- أن تكون ثابتةً، عصيّةً على التبدّل، فلا تضعف لدى أوّل هفوةٍ، أو خطأٍ من قبل التلميذ، بل على المربّي السعي إلى اكتشاف أسباب اعوجاج سلوك الشابّ، والمساعدة على تحريره منها، وتؤكّد له عزمه على البقاء، دائمًا إلى جانبه.
- أن تكون إنجيليّةً، نابعةً من وصيّة الربّ: "أحبّوا بعضُكم بعضًا، كما أنا أحببتكم"؛ وأن تكون منفتحةً على الجميع. فيسوع لم يقصُر محبّته على تلاميذه فقط، بل شمل بها المرضى، والمسكونين بالأرواح الشرّيرة، ونساءً سيّئات السمعة، وحتّى أعداءه، والذين ناصبوه، وناصبوا تلاميذه العداوة والكراهية. وعلى هذه المحبّة أن تكون متبادلةً، ما أمكن، ووفيّةً حتّى الممات، وقادرةً على المضيّ حتّى التضحية بالذات، أي حتّى إثبات الدليل على الحبّ الأقصى والأكثف.
- وعلى المربّي أن يكون له حضورٌ أبويٌّ، إلى جانب التلميذ، يرسّخ بينهما

روح الأسرة، ويُضفي على السلطة طابعًا إنسانيًّا، ولكنّه لا يقوّض السلطة... فعلى المربّي والمدير والمعلّم أن يقوموا بدور الأب الساهر على أبنائه، الذين يسهر على صحّتهم الروحيّة والجسديّة، مثلما كان دون بوسكو ساهرًا على كلّ فردٍ في جمعيّته وأوراتواره، مساهمًا في إشاعة مُناخ ثقةٍ مبنيّةٍ على المودّة.

وحرِص دون بوسكو على إتاحته لكلّ فردٍ، إبرازَ مواهبه كي يزداد ثقةً بنفسه، ويجهد في إنماء هذه الثقة من خلال نشاطاتٍ جماعيّةٍ، كالمسرح، وجوقات الترتيل، وكان ينشر مواسم الاحتفالات على مدار السنة، معزّزًا الفرح والتضامن.

وتميّز النظام التربويّ الساليزيّ بليونةٍ فريدةٍ، فكان النظام في خدمة التربية، ولم تكن التربية في خدمة النظام. ولم تكن الحدود المفروضة، التي يُمنع تخطّيها، لتستهدف سوى حماية حقوق الآخرين. ولم يُكرَه العمّال المنطلقون إلى أعمالهم في مواعيدها، ويعودون منها، أو يخرجون للنزهة، ملزَمين بالسير في صفوفٍ منتظمةٍ، صامتين، بل كانوا يتحرّكون كما يرغبون، ويتبادلون الأحاديث ما بينهم، ومع مراقبيهم. وفي صفوف الدروس كان النظام سائدًا، ولكن لم يكن الطلاّب ملزمين بالجمود، بل كان متاحًا لهم التعبير عن آرائهم، وطرح الأسئلة، واستيضاح ما لم يفهموه.

هذا النظام التربويّ الوقائيّ، يستبعد التأنيب عن هفواتٍ طفيفةٍ، والعقابات الجسديّة العنيفة، الناتجة عن غضبٍ، فَشِلَ المربّي في السيطرة عليه، والعقابات الجماعيّة التي تحمّل جماعةً بريئةً وِزر مذنبٍ واحدٍ، فتفضح فَشَل المربّين، وتشيع شعور الظلم بحقّهم. وإذا وُجدت مبرّراتٌ لطرد مذنبٍ خالف النظام قاصدًا، أو سلك سلوكًا يعرّض آخرين للخطر، أو يعرّض المؤسّسة للفضيحة، فيُبلَّغ بها المذنب بفطنةٍ وكتمانٍ.

– الإقناع بالعقل: فالمقيم في بيتٍ ساليزيٍّ يعلم أنّه محبوبٌ، وأنّ جميع المحيقين به، لا يعملون إلاّ ما يؤتيه خيرًا، حتّى إذا عاقبوه. فهو كلّما بذل جهدًا في أداء واجبه، أداءً جيّدًا، يهنّئونه، ويبيّنون له الخير الذي أسداه لذاته وللمحيطين به. وحين يقوم بعملٍ يؤذي أيًّا من رفاقه، يبيّنون له العواقب الوبيلة عليه وعلى الآخرين. ومن ثمّ فهو يجهد ليكون عامل خيرٍ لنفسه وللمربّين.

هذه الدعوة إلى إعمال الفكر، والتحذير من المخاطر لا تحتاج إلى عنفٍ، فحسبها همسةٌ متبّلةٌ بالمودّة، أو نظرةٌ معبّرةٌ، أو ملاحظةٌ مكتوبةٌ تودَع تحت الوسادة. فقد لاحظ فتًى، ذات ليلةٍ، أنّ زميله الراقد على مقربةٍ منه، يبكي في سريره وينتحب بمرارةٍ، فاستفسره عمّا به، فأجاب:

- "لقد نظرني دون بوسكو هذا المساء.
- وماذا يعني ذلك، فأنا أيضًا نظر إليّ.
- ولكن هل لاحظت طريقة نظره؟"

لقد كان دون بوسكو، بعينيه، يوقظ وعي الموكلين إلى عنايته على أخطائهم، ومكامن وهنهم.

– بناء التربية على ركيزة <u>الدين</u>. فبعد أن أسّس دون بوسكو التربية السليمة على المحبّة والثقة، دعم أُسسها بالإيمان المسيحيّ. فمعظم الذين لجأوا إلى بيتٍ ساليزيٍّ، لم يكونوا يملكون عن الدين سوى معلوماتٍ مبهمةٍ واهيةٍ. فتعذّر على المربّين تربية أولادٍ يتامى، مُهمَلين، أو قادمين من أسرٍ مفكّكةٍ، رمت بهم في الشارع، ولم يعهدوا يومًا شيئًا من الله والحبّ، إلاّ بعد مساعدتهم على اكتشاف الله، وحبّ الله لهم، من خلال إحاطتهم بالحبّ، وإظهارهم لهم معجزات السلوك المبنيّ على الإيمان.

لقد تعذّر على دون بوسكو ورفاقه التحدّث للأولاد الذين يتبنّوهم، عن إلهٍ أبٍ محبٍّ، ساهرٍ، وهم لم يعرفوا، قطّ، معنًى للحبّ الأبويّ، لأنّ آباءهم كانوا غائبين، أو متوفّين، أو كانوا فاقدين الشعور الإنسانيّ، فرموهم في الشارع غير عابئين بهم، وتركوهم لمصيرهم البائس. إلى أن نعموا بعطف دون بوسكو وأعوانه، الذين عدّوهم أبناءً لهم وسهروا عليهم، ووقوهم من صروف الحياة القاسية، ومخاطرها، ووفّروا لهم مناخًا يعرف كلّ فردٍ فيه أنّ حقوقه مصانةٌ، واحتياجاته مؤمّنةٌ، وشخصه جديرٌ بالتقدير والمحبّة.

وقبل أن يحدّثهم المربّي عن يسوع، الذي جاء كي يخلّصنا من خطايانا، كان عليه أن يثقّف ضمائرهم، ويرشدهم إلى التمييز بين الخير والشرّ، ويبيّن لهم أنّ ذنوبهم ليست شرًّا لا يُغفَر، ولا يُصلَح، بل هو قضيّةٌ بينهم، هم الخطأة، والله الجاهز دائمًا للصفح عنهم عند طلبهم، ويفهمهم أنّ الخطيئة المميتة هي القول "لا"، بقصدٍ واعٍ، لمن يحبّنا.

وعندما يشعر الفتى أنّه محبوبٌ، يصبح له رفاق الدراسة أو العمل إخوةً، يتبادلون المساعدة في كلّ أمرٍ، ويسيرون إلى جانبه، يدًا بيدٍ، نحو النضوج. وحينئذٍ يضحي إيمانه بإلهٍ أبٍ، عادلٍ، وعطوفٍ، تلقائيًّا، وتولد في نفسه الرغبة في الإيمان به، مثلما يتمّ كلّ شيءٍ في الأوراتوار بدافع المحبّة، وتمثّلاً بحياة يسوع الذي جاء ليقدّم حبّه للعالم، وقدّم له ذاته. وحينئذٍ، تضطرم في نفس الفتى الرغبة في تلقّي التعليم المسيحيّ، والظفر بعزاء نِعَم المخلّص، والسلام النابع من أسراره. ولا يُكرَه على الاعتراف في مواعيد محدّدةٍ، كما كانت العادة ساريةً في بعض المدارس الكاثوليكيّة؛ بل يختار الاعتراف تلقائيًّا، أثناء الطقوس الدينيّة، عندما يكون عدّة كهنةٍ في كراسي الاعتراف. أو يختار هو الوقت، ويطلب من كاهنٍ الاستماع إلى اعترافه، أو عندما يحرّضه دون بوسكو على ذلك، بفضل حَدسه الحادّ، الذي يلمس ضرورة إراحة ضمائر أبنائه، واستعدادهم فرح الله.

ذات يومٍ، زار دون بوسكو رجلُ أمنٍ، فوجده يراجع لائحة شبّانٍ، يسبّب سوء سلوكهم القلق والاستياء والاضطراب، واستفسره عن العقاب الذي سيفرضه عليهم، فأجابه:

- ما من عقابٍ على الإطلاق: هذا هو أعتاهم، وهو صاحب قلبٍ طيّبٍ، ولكنّ طبعه مريعٌ. وأنا سأنزل بعد لحظاتٍ إلى الباحة، وسأسأله عن صحّته، فيقول إنّها ممتازةٌ. وحينئذٍ سأغرس عينيّ في عينيه وسأسأله: "هل أنت كامل الرضى عن ذاتك؟" وسيحار، مدى لحظاتٍ في ما يجيب. ثمّ سيُطرق إلى الأرض، وسيحمرّ خجلاً، وسيصمت ضيقًا وخجلاً.

هكذا كان دون بوسكو يحلّ القضايا العويصة، التي تنتهي بسرّ المصالحة، والتصميم على الجهد في سبيل عيش الإنجيل على نحوٍ أفضل، واستعادة سلام النفس.

أمّا الإفخارستيّا فكان كلٌّ من أبنائه الروحيّين يتلقّاها عندما يرغب فيها، وبالوتيرة التي يريدها، وبمعزلٍ عن شروط السنّ ومستوى التعليم. فإله دون بوسكو يهب ذاته بحرّيّةٍ للجميع.

والإيمان يُدعَم بالتوغّل في التعليم المسيحيّ، الذي حرص دون بوسكو على تحريره من كثرة الكلام، وباعتماده أقوالاً موجزةً، نابضةً، ممتعةً، وعمليّةً.

وهو، كلّ مساءٍ، وفي ما لا يزيد عن ثلاث دقائق، كان يُسمِع نزلاءه الصغار عباراتٍ موجزةً تنطوي على فكرةٍ نفّاذةٍ، ترافق نومهم، وتصبح موضع تأمّلٍ، وحافزًا على مواجهة يومٍ جديدٍ مثمرٍ.

أمّا تعليم السلوك القويم، فلم يكن يتمّ من فوق المنابر، بل من استخلاص عِبَر الأحداث اليوميّة، حيث تتبيّن حسنات التفاهم من خلال الأضرار التي تنتجها

الصدامات والخصومات، التي تصيب الجميع بأضرارها، في حين أنّ ضبط النفس، والحرص على العلاقات الأخويّة الودّيّة، يُضيفان على الجميع السكون والفرح والوئام.

والمدرّب الرياضيّ يستخلص من ربح فريقٍ عبرة فوائد توحيد الجهود وتضامنها، اللذَيْن يقودان إلى النصر، ويدعو الفريق الخاسر إلى التدليل على قوّته بقبوله الخسارة برفعةٍ، وحرصٍ على عدم الشعور بالانكسار، وبالتصميم والتخطيط من أجل تحويل الهزيمة إلى انتصارٍ قادمٍ.

والمدرّس يغتنم مناسبة فرض نصٍّ إنشائيٍّ، يتناول موضوعًا إنسانيًّا بإظهار حسنات أن تخصّص كلّ أسرةٍ قسطًا من دخلها من أجل الإحسان والتفريج عن ضيق المحرومين، واقتسام الخيرات معهم، ومن أجل الدعوة إلى احترام الاختلافات بين الأفراد، والإصغاء المتبادل، ومن أجل دعوة الجميع إلى الإعلان عن رأيهم في الإيمان والروحانيّة، ومتعة العمل المُتقَن، والراحة النفسيّة التي يؤتيها عمل الخير.

وكان دون بوسكو يرسّخ تعليمه في الأذهان، من خلال تجريده من الإسهاب المفرط، واعتماده قولاً موجزًا، نابضًا، ممتعًا، وعمليًّا، وكان قلبًا يخاطب قلوبًا.

ودأب دون بوسكو على التأكيد، أنّ الصلاة هي من عناصر الإيمان الأساسيّة. وقد حدّدت المؤسّسات الساليزيّة مواعيد صلواتٍ جماعيّةٍ ثابتةٍ، وفي الآن عينه شجّعت الصلوات الفرديّة، وهي توثّبات قلوبٍ نحو الله، أو حوارٌ معه. فكان يطيب للفتيان زيارة الكنيسة، المزدانة دائمًا بالزهور، والغرق في صمت العبادة، والاستعانة بالربّ على مشقّات الحياة، وعلى متابعة السير على دروب الخلاص والكمال، ويغشاهم الشعور بأنّ بيت الله هو، إلى حدٍّ ما، بيتهم، وهو الملجأ المشرع دائمًا لاستقبالهم، والإصغاء إلى أدعيتهم.

وكان دون بوسكو يدعو أبناءه إلى متابعة الطقوس الكنسيّة، التي رغب في الحدّ من تماديها، وفي جعلها حيّةً، نابضةً، مُنكّهةً بالتراتيل والموسيقى.

وبما أنّ معظم الفتيان المقيمين في البيوت "الدون بوسكويَّة"، كانوا محرومين من أمّهاتٍ، قدّم لهم أمّ الله سندًا وملجأً، كي يبوحوا لها بكلّ ما يتعب نفوسهم من قلقٍ، وأجسادهم من متاعب، وكان يحرّضهم على التوغّل في تكريمها. فهو نفسه كان قد دأب على هذا التكريم منذ نعومة أظافره. وكان يدعو أترابه إلى تلاوة المسبحة قبل إمتاعهم ببهلوانيّاته. ولاحقًا، كان يستصحبهم إلى مزارات العذراء في كييري، وفي تورينو، لمشاركتهم في تكريمها. وكانت مناسبة الاحتفال بشهر المسبحة الورديّة، في مزرعة أخيه جوزيف، فرصةً لإمتاعهم بأجمل عطلةٍ صيفيّةٍ. وكان قد أطلق اسم "مريم المساعِدة"، على الكنيسة التي أشادها في أوراتوار ڤلدوكّو. وإليها كانت تهفو قلوب الفتيان، ملتمسةً جمًّا من النعم، وموجّهةً آيات التكريم. وكان معظمهم قد انضووا إلى جمعيّة "المنـــزهة من الدنس"، التي أسّسها تلميذه "دومينيك ساڤيو"، وبدعمها كانوا يصعّدون على دروب الروحانيّة.

وكان دون بوسكو يتوقّع أرفع نسبة نجاحٍ لأسلوبه التربويّ هذا، فهو يراعي جميع المقتضيات الإنسانيّة: الروحيّة، والأخلاقيّة، والفكريّة، والاجتماعيّة، والجسديّة، وهو يؤتي نتائج حميدةً في المدرسة، والمصنع، وفسحات النقاهة، واللهو، والصلوات، والأسرار المقدّسة، والالتزامات الفرديّة والجماعيّة. ويوجّه الفتيان بحبٍّ وعطفٍ، وتبصّرٍ، ويؤهّلهم، في مراحل نموّهم، لتولّي مصيرهم بأنفسهم، ولتحقيق حياة إنسانٍ يسكنه يسوع، تحقيقًا كلّيًّا.

تلك كانت أمنيّة دون بوسكو، وذاك كان هدفه. وما زال هذا الهدف محطّ سهر خلفائه على إبقاء تلك التربية حيّةً، وعلى تزويدها بديناميّةٍ دائمة التجدّد.

ملخّص أسلوب دون بوسكو التربويّ

استبدال النظام القمعيّ المتّبع في الدولة، بأسلوبٍ وقائيٍّ يمنع الوقوع في الخطأ.

فالنظام القمعيّ يقوم على معاقبة المخالفين لقوانين، لم يتسنّ لهم، غالبًا، الاطّلاع عليها. والنظام القمعيّ يشدّد على إصدار قوانين صارمةٍ، ويحظر على المسؤولين عن تنفيذها، كلّ أُلفةٍ أو اختلاطٍ مع مخالفيها.

أمّا النظام الوقائيّ الذي انتهجه دون بوسكو، فهو يعتمد على العقل، والدين، والمودّة، وينبذ العقاب القاسي، بل يقتضي من المربّين التعامل مع المذنبين معاملة آباءٍ محبّين، يرشدون، وينصحون، ويُصلحون برقّةٍ. فلا يُهان التلميذ أبدًا، بل يصبح صديقًا، ويكتشف في المربّي محسنًا، يبتغي تحسين وضعه، لكي يقيه من الخيبات والعقوبات والإهانات. والمربّي الذي أفلح في اكتساب قلب ربيبه يستطيع متابعته عندما يكبر، ويظلّ ينصحه، ويُصلحه.

هذا النظام مقتبسٌ، جوهريًّا. من نشيد المحبّة للقدّيس بولس، ومن ثمّ، فإنّ من يعمل بفحوى هذا النشيد هو وحده قادرٌ على تطبيقه بنجاحٍ. وعليه أن يكرّس كلّ ذاته لمن هو مسؤولٌ عنهم، وأن يواكبهم في كلّ حينٍ.

وعليه أن يكون للصغار مثالاً وقدوةً، ومنــــزّهًا من كلّ شائبةٍ. وعليه التعامل بالتساوي مع الجميع، وبحرصٍ شديدٍ على تفادي كلّ صداقةٍ خاصّةٍ مع أيٍّ ممّن هو مسؤولٌ عن تربيتهم. وعليه السعي، بكلّ استطاعته، إلى سبقهم إلى أماكن الاجتماعات، وعليه أن يشغل وقتهم كلّه، ولا يفسح لهم أيّة بطالةٍ.

وعليه أن يطلق حرّيّة القفز، والجري، والصخَب، بقدر ما يشتهون. فالرياضة،

والموسيقى، والخطابة، والمسرح، والنـــزهات هي الوسائل الأكثر جدوى من أجل إقرار النظام، وحفظ سلامة الأخلاق، وتأمين الصحّة الجسديّة. ولطالما ردّد دون بوسكو قول القدّيس "فيليب نيري": "افعلوا ما تشاءون، طالما لم ينطوِ فعلكم على خطيئةٍ".

ومن مقوّمات هذا النظام الأساسيّة حرصه على سلامة الروح، ومن ثمّ فهو يدعو إلى الاعتراف المتواتر، والمناولة المتواترة، وحضور القدّاس، يوميًّا، فهذه كلّها عوامل أساسيّةٌ للتربية السليمة، مع مراعاة تلافي الإكراه عليها، واحترام حرّيّة كلّ فردٍ.

المربّي إنسانٌ مكرّسٌ لهذه المهمّة المقدّسة، ولذلك عليه التأهّب لتحمّل كلّ الأتعاب والتضحيات من أجل بلوغ هدفه. وعليه السعي إلى الظفر بمحبّة من هو مسؤولٌ عنهم، والنأي عن جعلهم يخشونه.

لا للضرب قطعًا، فهو استفزازٌ للتلميذ، وتردٍّ معيبٌ للمربّي، وعواقبه، غالبًا، وخيمةٌ. فيجب الاستعاضة عن العقاب بإظهار الاستياء، والحزن، والتظاهر بفتور المودّة.

وعلى المربّي أن يشيد بكلّ عملٍ جيّدٍ، ويكافئه. وعليه أيضًا أن يلوم عن الخطأ، ولكن على انفرادٍ، وبعيدًا عن الرفاق، وبالتزام الحذر والصبر، لكي يفهم المذنب ذنبه بالعقل والمنطق.

وجديرٌ بالتنويه، أنّ المربّين هم، غالبًا، كهنةٌ مشبعون بروح القدّيس فرنسوا الساليزيّ، يسعون إلى اكتساب محبّة الأطفال، فالطفل ينـــزع إلى الإحجام عن فعل ما يُغضب أو يحزن الذين يحبّونه، وهو يحبّهم.

والمربّي يقصد قلب الطفل، ويجهد في وقايته من الخطأ، من خلال علاقاتٍ تقوم فيها المحبّة مقام الضغط والتخويف من العقاب، وحيث همسة عتابٍ، أو نظرةُ لومٍ تكفيان للردع، وتجعلان التوبيخ القاسي نافلاً.

وتتميّز التربية الساليزيّة بدعوة الأطفال، باكرًا، إلى الكمال المسيحيّ، وما ينجم

عنه من خيرٍ لنفوسهم. ومن ثمّ يُعَدّ الأطفال للمناولة الأولى، وينالونها في سنٍّ مبكّرةٍ جدًّا، أي منذ قدرتهم على التمييز بين الخير والشرّ، وبين خبز الطعام، وخبز الإفخارستيّا، ويسعدون بإقامة ربّ السماوات في نفسهم الطاهرة البريئة. ومن ثمّ يعتاد مَن يقدم عليها، مرّتين أو ثلاث، أو أكثر في خلال الأسبوع، ومنهم من يواظب على المناولة يوميًّا.

وأمتن وسيلةٍ لإلغاء الخطأ والعقاب، كامنةٌ في الاعتراف المتواتر والقدّاس اليوميّ.

وفي البيوت الساليزيّة لا يُترَك الفتى لشؤونه، وحيدًا، بل في كلّ مصنع يُراقَب العامل من قِبَل كاهنٍ، أو إكليريكيٍّ لا تمنعه هذه المواكبة من متابعة دروسه.

وساحات اللعب هي، أيضًا، مراقَبةٌ، ولكن بكتمانٍ ولطفٍ، وغالبًا ما يشارك المراقبون الشبّان في ألعابهم. وحتّى دون بوسكو، في شبابه، لم يتوانَ عن اتّخاذ مكانٍ بين الفرقاء المتنافسين.

وتعلّم الثقافة الساليزيّة حبّ العمل اليدويّ، وتقديره، فالربّ يسوع نفسه مارسه ومجّده. وبذلك كان المصنع المسيحيّ يتحوّل موئلَ سلامٍ وفرحٍ، لأنّ العمل فيه يُنظر إليه نظرةً صحيحةً، ويُحَبّ ويبارَك.

والشبّان الذين يتزوّدون بتقوًى متينةٍ، يتهيّأون لمواجهة مصاعب الحياة بجرأةٍ، ولسلوك السبيل القويم، سبيل النجاح الأمثل والأكثر ضمانًا.

وقد قُدِّر عدد الذين تلقّوا هذه التربية، في عهد دون بوسكو بنحو ثلاث مئة ألف شابٍّ، كانوا في صغرهم مرميّين في الشوارع، تائهين، وضحايا لكلّ المخاطر، ومعرَّضين لكي يصبحوا حثالة المجتمع، أو للسجن في الإصلاحيّات، فأنقذتهم المحبّة

وحوّلتهم، وجعلت منهم مواطنين صالحين مفيدين، وعناصر خيرٍ، ورجال علمٍ مرموقين. ربّما كثيرون منهم ظلّوا عمّالاً وموظّفين متواضعين، غير أنّ بعضًا منهم ارتقوا إلى أسمى المراتب، في شتّى الميادين.

وقد انتشروا في مختلف أرجاء المعمورة، ومع ذلك، ظلّ يجمعهم حبّهم للبيت الذي ربّاهم، وما انفكّ القادرون منهم يختلفون إلى البيت، الذي زوّدهم بالتجدّد الروحيّ، وما برحوا يبجّلون مربّيهم، ويكنّون لهم عرفان جميلٍ بلا حدودٍ.

صورةٌ للساليزيّ

"الساليزيّ" هو رجل الزهد والتواضع، يعيش مدفونًا، ولا يفكّر بذلك، يفعل الخير وهو يتخيّل أنّه لا يفعل شيئًا، يضحّي بذاته وهو يجهل هذه التضحية. إنّه عامل الساعة الأولى، ويعدّ نفسه الأخير بين خدّام الكنيسة.

يمضي إلى حيث يؤمَر، ويأخذ الأشياء كما تعطاه، ويرضى بها، يبني عشّه بين أوراق غُصنٍ مزهرٍ، كما يبنيه على أعلى صخرةٍ برّيّةٍ جرداء.

فضائله المميّزة هي عدم التوقّف، لأيّ سببٍ، حتّى إذا عاكسته الظروف كلّها. لا ييأس، أبدًا، ولا يفقد ثقته بالعناية الإلهيّة.

بطاقاتِه وسموّ فكره وسعة نظرته، وبصموده في وجه كلّ صعوبةٍ يحاكي اليسوعيّ، وبشعبيّته يحاكي الكبّوشيّ؛ وهو بخشوعه، وبحياته الدائبة على العمل، راهبٌ. وبالإجمال، يشارك جميع الأُسَر الروحيّة ميزاها، ويبقى نمطًا جديدًا فريدًا.

مَلامح

ملامح جسديّة

في طفولته، كان جان بوسكو صبيًّا أسمر لون البشرة، له شعرٌ أسود مجعّدٌ، ووجهٌ قرويٌّ لوّحته الشمس، محمرّ الخدّين، عصبيًّا، قصير القامة، أكثر ميلاً إلى التوثّب والجري من السير البطيء، وكأنّه سنجابٌ.

رداؤه كان قميصًا وبنطالاً قصيرًا، يضيف إليهما يوم الأحد شبه سترةٍ، وجوارب وحذاءً. أمّا في أيّام الأُسبوع العاديّة، فهو حافٍ، تغوص قدماه في التراب. قسماته مشرقةٌ فرِحةٌ، يداه نحيفتان، ولكنّ البهلوان الصغير أثبت متانتهما، وخفّتهما.

جبينه عالٍ ينمّ عن العناد والتصميم.

عيناه المليئتان فرحًا وألقًا، وجاذبًا، وتصميمًا، فقدتا، في الكِبَر، بريقهما بسبب الجهد والأسهار، وفقدت إحداهما البصر من جرّاء ضربة صاعقةٍ، وشحّ نظر الأُخرى، ولكنّهما لم تفقدا ذرّةً من نفاذهما إلى الأعماق، ومن جاذبهما الآسر. حاجباه الكثيفان كانا يُضفيان على وجهه حركةً ومهابةً.

بعد سنّ الأربعين أعملت فيه الحمّيات المتعاقبة تحوّلاتٍ، وتشوّهاتٍ، ونشرت على محيّاه بثورًا.

ومع أنّ أسنانه قد تلفت باكرًا، لم تفقد بسمته شيئًا من نضارتها، وسحرها التلقائيّ.

خُيِّل لكثيرين أمامه أنّهم أمام نبيٍّ. ولكنّ الرسوم التي أُخذت له زخرت بالمتناقضات. فمنها ما يؤكّد بساطته وطيبته، وأُخرى أبرزت قداسته وهيبته. وهذا التناقض يؤكّد غنى شخصيّته.

خلافًا لخوري أرس، الذي رفض دائمًا الجلوس أمام رسّامين، كان دون بوسكو، يرى في رسمه ضربًا من الدعاوة لرسالته ولأعماله.

لم يتحرّج من ارتداء أزياء الشعوب الغريبة التي يزورها. ولكنّه كان حريصًا على التلفّع بجلباب الكهنة الأسود، أكثر من حرص الضابط والجنديّ على ارتداء الزيّ العسكريّ.

وطالما قُصّت معاطفه السوداء الفضفاضة، ولا سيّما في أثناء زيارته لباريس، حيث عملت المقصّات بنشاطٍ في انتزاع قصاصاتٍ منها، بمثابة ذخائر فكان لا بدّ من أن يؤتى له بعدّة بدائل عنها، كلّ يومٍ.

أمّا في الأيّام العاديّة فكانت جبّته السوداء باهتةً، مغسولةً مرّاتٍ ومرّاتٍ، ومن كثرة إعمال الفرشاة، فيها، لنــزع اللوثات كانت قد بهتت، وفقدت لونها الأصليّ.

باكرًا انحنى ظهره، ولو هو عاش ثمانين عامًا، لالتصقت ذقنه بركبته.

ملامح روحيّة

إنّ نظرةً شاملةً إلى إنجازات دون بوسكو تُدهِش بعظمتها وتنوّعها، ولا سيّما أنّها تحقّقت في خلال سنواتٍ قليلةٍ بموارد شديدة الضآلة.

وبذلك يتجلّى بوضوحٍ عمل يد الله، وكون الإنسان مجرّد أداةٍ. ولكم من معجزاتٍ تألّقت من خلال السبيل البسيط المثمر، الذي انتهجه ذلك الكاهن المتواضع باستسلامه المنـــزّه من كلّ تحفّظٍ أو قيدٍ، للعناية الإلهيّة، وباستمداده القوّة والعزيمة من أمّه العذراء المساعِدة!

قد يُتّهم بجرأةٍ مفرطةٍ، تلامس المجازفة والتهوّر، مع أنّ المشاريع التي أقدم عليها، كان يروزها بدقّةٍ وبحرصٍ أقصى، غير أنّه، بعد توطين عزمه عليها، لا شيء كان يثنيه عن المضيّ فيها إلى غايتها، مع شحّ موارده. فقد كانت الأُمّ السماويّة هي التي توحي إليه هذه المشاريع، من خلال أحلامٍ، كانت تختمر في باله، وحالما تفرض عليه تنفيذها احتياجاتٌ إنسانيّةٌ أو روحيّةٌ، كان ينبري لتحقيقها، ولو كان مفلسًا.

وكان شعاره الدائم:

"**فلنبدأ بإلقاء الحمل على كاهلِنا، وكلّما سرنا به يهون علينا ثقله، ويتصاغر**".

وكان يبدأ، دائمًا، بدايةً متواضعةً، بسيطةً، فقيرةً، مكتفيًا بإيجاد ملجأٍ وضيعٍ له ولكهنته، وللأولاد الذين ينتشلهم من الشارع، سعيدًا بتأمين الخبز والحساء والمأوى لهم، ثمّ كانت العناية الإلهيّة تُعنى بتوفير كلّ شيءٍ آخر.

وقد أرسل أحد كهنته، يومًا، للعناية بمركزٍ جديدٍ يضمّ أولادًا مهملين، ضائعين انتُزعوا من مخاطر الشارع. أرسله مثلما أرسل يسوع تلاميذه، بلا شيءٍ: لا مالٍ،

ولا موردٍ. وسأل ذلك الكاهنَ صديقٌ له، كيف له أن يُطعم أولادًا مشحوذي الشهيّة. وأدهش هذا السؤال الكاهن الذي استهجنه، فرفع إصبعه وعينيه إلى السماء، قائلاً: "هذه هي العناية الإلهيّة". فدون بوسكو كان قد حرّر أذهان جميع كهنته من كلّ ظلّ شكٍّ في سهر العناية الإلهيّة على سداد احتياجات أبناء الله، ورسّخ هذه العناية في قلوبهم.

وفضلاً عن ذلك، كان دون بوسكو يتمتّع بخصال إدارةٍ ممتازةٍ. وهو، قبل إقدامه، مثلاً، على توسيع مكانٍ، أو بناء بيتٍ جديدٍ، كان يتحقّق من ضرورة هذا التوسيع، ويتأكّد من عجز البيوت القديمة عن قدرتها على استيعاب المزيد.

وكانت ذاكرته الجبّارة تحتفظ بأدقّ التفاصيل عن بيوت جمعيّته، وملامح كهنته وخصالهم، وإكليريكيّيه، ومدرّسيه، وأبنائه ومساعديه، وحتّى ملامح الأشخاص الذين سمع عنهم أو التقاهم لقاءً خاطفًا.

وهو لم يقصر عنايته على الأولاد المحتاجين إلى تعليمٍ أساسيٍّ، بل شملت محبّته الشبيبة جمعاء. وكانت تحزنه مخازي المجتمع الحديث التي كان يعزوها إلى التربية السيّئة التي كانت تُزوّد بها الأجيال الناشئة، بطرُقٍ وثنيّةٍ، والمبنيّة على مبادئ وثنيّةٍ. فهذا النمط من التربية عاجزٌ عن تكوين مسيحيّين حقيقيّين، فدأب على تصحيح كتب التعليم المسيحيّ، وقد وضع كتُبًا لهذا الغرض تتوافق مع الروح المسيحيّ الحقّ، ومنها كتاب "التاريخ المقدّس" لاستخدام المدارس المسيحيّة، فضلاً عن نشرة "قراءات كاثوليكيّة"، وكتاب الشبيبة المثقّفة الذي تُرجم إلى لغاتٍ عديدةٍ، وأُعيد طبعه مئات المرّات.

ومع جسامة إنجازاته، كان دائم الوفاء لشعاره الذي لم يحِدْ عنه، قطّ، وهو إتقان العمل، بلا تسرُّعٍ، وأداؤه في وقته.

وما سرّ ضخامة إنجازاته إلاّ تضحيته بمعظم ساعات نومه. وقدّر مطّلعون أنّه كان ينام، في كلّ يومين، ليلةً واحدةً، وهكذا استطاع إنجاز ما تعجز عنه جماعةٌ غفيرة العديد.

وكان يقوم، يوميًّا، بنشاطاتٍ مرهقةٍ، ففي كلّ مساءٍ كان يجمع في غرفته قسمًا من مساعديه، ويعقد معهم لقاءاتٍ حميمةً، يبثّ من خلالها روحه للفتيان الذين سهر على تربيتهم، وأصبحوا كهنةً في جمعيّته. وهكذا تلقّى جميع كهنته ورؤساء فروع جمعيّته كنوز تعليمه التي تعكس صورة المؤسّس وروحانيّته، وفي انتهاء هذه الجلسات كان يفرض الراحة على الجميع، وهو يبدأ يومًا جديدًا، ويكبّ على تدبيج مؤلّفاته، التي ما زال غنى محتواها سرًّا، يحيِّر من يعرفون كثافة مهامّه اليوميّة.

ولا غروَ أنّ جسده لم يقوَ، طويلاً، على تحمّل هذا النظام المرهق الذي لا يُهادن، ولا يرحم، وأنّ كلّ ما مُني به من عِللٍ في عموده الفقريّ، وما لحق به من عجزٍ قبل الأوان، وقصّر سنوات حياته، ناجمٌ عن الإرهاق الذي طبع حياته، ولولاه لكانت بنيته المتينة قد أتاحت له، ربّما، عشرين سنة حياةٍ أُخرى.

وكان القدّيس، بالفطرة، حادّ الطباع، ميّالاً إلى العنف، ولكنّه، بضبط ذاته ولجم انفعالاته، انتصر على فطرته، وتوصّل إلى هدوءٍ لا يزعزعه شيءٌ. ومع أنّ حجرته كانت دائمًا مزدحمةً بزائرين لا يتوقّف سيلهم، ومع ضيق وقته، وتراكم مهامّه الملحّة، كان الزائرون يتمادون بتبديد وقته، وبطلبهم نصائح جوهريّةً أحيانًا، وتافهةً أحيانًا أخرى، كان هو مصغيًا دائمًا إلى أسئلتهم وشكاواهم بعطفٍ ومحبّةٍ وصبرٍ.

يمكن القول إنّ حياته الكهنوتيّة كانت صراعًا متّصلاً مع الصعوبات المادّيّة، التي تبدو لسواه مستحيلة المواجهة، فألوف الأفواه الجائعة كانت تنتظر منه قوتها اليوميّ. وكان عليه تسديد فواتيرها الباهظة، يوميًّا، ومواجهة احتياجاتٍ ملحّةٍ، في كلّ ساعةٍ. وكانت هذه النفقات كفيلةً بإرهاق ميزانيّة دولةٍ صغيرةٍ. وميزانيّته

كانت خاويةً باستمرارٍ، ومع ذلك لم تضعف، لحظةً، ثقته المطلقة بالعناية الإلهيّة، ولم يفتر يقينه، بأنّ الأمّ العذراء لن تتخلّى أبدًا عن أبنائها.

وفي الواقع، كان كلّ ما يبدو مدعاةً لليأس، يُنقَذ في اللحظة الأخيرة، وكانت الموارد تهطل في اللحظة المطلوبة، من حيث لم يُحتَسَب، على نحوٍ غير متوقّعٍ، وفائقٍ للطبيعة.

وعلى خطّ متوازٍ كانت دعواتٌ غير متوقّعةٍ، تنبثق، وكان نسغٌ جديدٌ، خصبٌ يُسرّع نموّ عمل دون بوسكو المذهل.

ومع ذلك كان دون بوسكو يعدّ نفسه، دائمًا، أداةً طيّعةً بين يدي العناية الإلهيّة، ولم يعْزُ قطُّ، إلى قواه الخاصّة، أو إلى عبقريّته الإداريّة أيّ إنجازٍ. كان تواضعه سحيقًا، مطلقًا، ولطالما أكّد: "إنّ مريم المساعِدة هي التي تعمل بواسطة دون بوسكو. ولولاها لكان دون بوسكو كاهنًا مغْفَلاً، نكرةً، مدفونًا في أصغر رعيّةٍ".

وكان يقول لزملائه: "لو وَجد الله كاهنًا أصغر وأضعف منّي ويفوقني عدم جدارةٍ وكفاءةٍ، لكان أوكل إليه هذا العمل بلا ريبٍ. فأنا لا أستأهل أن أكون أكثر من خادم رعيّةٍ تائهةٍ في دسكرةٍ جبليّةٍ خفيّةٍ".

وكان من أكثر الكهنة اجتذابًا لمحبّة الآخرين، وكان الإجلال الذي يوحيه يمتزج بسحرٍ سرّيٍّ، وبمحبّةٍ بنويّةٍ تلقائيّةٍ.

وكان نظره الصافي يخترق كمائن القلوب. وقد لاحظ أحدهم، يومًا، أنّ لا سرّ كان يخفى عن إحاطته علمًا به، مع أنّه كان يبقي عينيه مطرقتين، وسئل عن تلك المفارقة، فأجاب: "إنّي أرى على نحوٍ أفضل عندما لا أنظر".

وكان بالفطرة مرحًا فرحًا، يمزج خطابه بالنكتة الطليّة الناعمة، مثبتًا أنّ التقوى لا تفقد شيئًا من جوهرها عندما تلبس مظهرًا ممتعًا.

وقد أوجز صورته واحدٌ من أبنائه، أصبح لاهوتيًّا مرموقًا، فقال: "سيعجز التاريخ عن تفسيره، وعن كشف كوامن حياته الداخليّة، وتضحياته المتواصلة، الهادئة، الوديعة البطوليّة، الرقيقة؛ وعنايته بنا، ومحبّته لنا، نحن أبناءه؛ وما كان يوحيه لنا من ثقةٍ، وتقديرٍ، وإجلالٍ.

"وسيتعذّر على التاريخ رسم ملامح رقّته العذبة، ونظرته. ولن يعرفه، حقًّا، إلاّ من رآه، وعايشه، واختبره.

"كان يتخطّى كلّ العقبات. ولطالما حوّل من كانوا يجهلونه، أو يعرفونه معرفةً سطحيّةً، والذين كانوا يزدرونه، ويفترون عليه، ويضطهدونه، إلى مُعجَبين، ومحسنين.

"وهو، فضلاً عن بثّنا مبادئ الدين والدرس والعمل، كان يشيع فينا البهجة... وكان شعاره الدائم: "اخدموا الله بفرحٍ". فكان الفرح هو روح حياة الأوراتوار، وقد كلّل الفرح المقدّس كلّ أعمالنا.

ولطالما ردّد على مسامعنا: "ظلّوا فرحين". وكان لهذه العبارة على شفتيه، مفعولٌ سحريٌّ، يطرد كلّ غمٍّ، وكلّ همٍّ. وكلّ فتًى كان يأتيه حزينًا مكفهرّ المحيّا، كان يغادره مشرقًا، مشعًّا فرحًا، ويجري رشيقًا إلى أداء واجبه.

وكان المثلَ الأعلى في تربية فتيانٍ تائهين، وجَعْلهم قادرين على التحلّي بأجمل وأسمى الفضائل، جامعًا، بتناغمٍ، تمرّسهم بالدين والفرح بالعمل معًا.

كان عطفه يفرض على كلّ فتًى يأتي إليه احترامه والثقة به. وكانت نظراته تخترق كلّ واقفٍ أمامه، وتستشفّ طباعه، وطاقاته، ومكنونات قلبه، واستقرّ لدى الجميع اليقين بأنّه كان يمتلك، في هذا المضمار، موهبةً فائقة الطبيعة.

ومع أنّه حصل لآخرين على أشفيةٍ عجيبةٍ مذهلةٍ، لم يُحصّن نفسه دون عِللٍ

دمّرت صحّته، ولا ضدّ حوادث أوهنته. فقد ضربته، يومًا، صاعقةٌ أوقعته أرضًا، وحرقت إحدى عينيه، وأصابت عينه الأخرى إصابةً بالغةً.

وقد واكبته سلسلةٌ من الأمراض والعلل، من كلّ صنفٍ، سحابة حياته، وكانت سنواته الأخيرة سنوات عجزٍ، ضاعف مرارتها حسر بصره، وحوّلتها نوباتُ الروماتيزم المؤلمة، وأوجاع مفاصله، واحديدابُه المفرط، إلى جحيمٍ.

ولكنّه حتّى في لجّة عِلَله وأمراضه المزمنة، وأزماته الماليّة التي كانت العناية الإلهيّة تتلكّأ أحيانًا، في حلّها، لم تزعزع ثقته بالله.

وقد واكبته الاضطهادات الحكوميّة، بلا هوادةٍ، ومع ذلك لم تفلّ له عزيمةً. وحتّى العقبات التي كان يذلّلها، لم تكن تلبث أن تنهض بأشكالٍ أخرى، أحيانًا، وتتكاتف مع أخرى، وتتألّب عليه. فقد تعرّض أوراتواره لأحد عشر تفتيشًا أمنيًّا. من المؤكّد أنّ هذه الاضطهادات، لم تنقِص ذرّةً من الاحترام الشعبيّ العامّ الذي كان يُحاط به، ولم يَنَلْ من نقاء وجدانه، ولكنّها كانت توجعه، لأنّها كانت تسعى إلى إظهاره بمظهر المواطن السيّئ، المجرم في عيون تلاميذه، والمجتمع الذي أحبّه وأجلّه.

وفي حين كان يسهر الليالي على تدبيج منشوراتٍ، تنمّي صلاح العالم وجماله، وتشيع فيه اسم الربّ وسلامه، كان لاهوتيّون متحذلقون جالسون مرتاحين على مقاعدهم الوثيرة، ينبشون هفواتٍ تبرّر إدانته، وكأنّهم يبحثون عن قملٍ في رأس أصلع.

وحتّى كتبه القديمة التي كانت قد نالت موافقة الأُسقف، وثناء الحبر الأعظم، كان المتحذلقون، عند إعادة طبعها يدأبون على نبش كلمةٍ أساءوا تأويلها، كي يطالبوا بحظر الكتاب. صحيحٌ أنّ الحبر الأعظم كان يرفض طلبهم، وكأنّه غبارٌ وقع على يده، ولكنّ هذه الحملات كانت تجرحه، وتستدرّ دموعه أحيانًا.

وكان، حينئذٍ، يجتاز أوجع أيّام حياته.

وبالإجمال، كان دون بوسكو، في المقام الأوّل، رجل الله. ومن المحقّق أنّه كان يحظى، على غرار معظم القدّيسين، بموهبة الاستبصار التي تخترق حجب الضمائر، وخوافي المستقبل.

وكان الربّ يرشده، من خلال الأحلام على مستقبله ودعوته. ولكنّه لم يكن هو يفصح عن رؤاه هذه، إلاّ بتحفّظٍ شديدٍ.

وفي أواخر أيّامه، عندما تساءل كثيرون عن مصير مؤسّساته، التي اتّسعت اتّساعًا عالميًّا كان يردّد، واثقًا:

"كانت مسيرتنا، دائمًا، واثقةً. ولا يمكننا أن نتيه أو نضعف، لأنّ مريم هي التي تقودنا. وستستمرّ جمعيّتنا لأنّ الله قائدها، ومريم العذراء حاميتها".

وقد خلفه على رئاسة الجمعيّة الساليزيّة أعزُّ أبنائه، الذي رافق القدّيس، مذ كان في التاسعة من عمره، ووعده باقتسام كلّ شيءٍ، دون ميشيل روا، الذي أَلِف دون بوسكو القول عنه: "لو شاء لحقّق معجزاتٍ".

وتميّز جميع رؤساء الجمعيّة من بعده، برقّةٍ عذبةٍ مقترنةٍ بصرامةٍ لا تُقهَر، وبأسمى الفضائل المزدانة بأعمق تواضعٍ، وبأشدّ استقامةٍ، مقترنةٍ بأسلس الأساليب.

خوارق وكرامات

كثيرةٌ هي المعجزات التي حصلت عليها صلوات دون بوسكو. ومن استقراء روايات شهود عيانٍ، يسوغ الاعتقاد بأنّ الموت والحياة والأبالسة والطبيعة كانت تستجيب لتوسّلات ذلك القدّيس. ويؤكّد كاتب سيرته، الأب "أوغستان أوفّري" (A. Auffray): "كان دون بوسكو من أعظم صانعي العجائب في القرن التاسع عشر، إن لم يكن أعظمهم".

ولكنّ القدّيس لم يقرّ، قطّ، بهذا الواقع. فهو كان يدعو طالب الشفاء إلى التماس المعجزة من السيّدة العذراء المساعِدة، ويباركه، ويُهديه إيقونتها، ثمّ يصلّي طالب الشفاء، مؤمنًا بصدقٍ وعمقٍ، أنّ كلّ ما يحدث، بعد ذلك هو عمل العذراء المساعدة، وحدَها،ولا شأن فيه، ولا فضلَ للكاهن.

وقد صرّح دون بوسكو، قُبَيْل وفاته، لمجموعةٍ من تلاميذه وكهنته:

"يشاع، منذ بعض الوقت أنّ دون بوسكو يجترح معجزاتٍ. يا له من خطأٍ جسيمٍ! فدون بوسكو لا يصنع معجزاتٍ، بل يصلّي، ويدعو الآخرين إلى الصلاة. هذا كلّ ما يفعله. أمّا الشفاءات المعجزة فهي من عمل السيّدة العذراء، التي تعرف أنّ دون بوسكو يحتاج إلى أموالٍ وفيرةٍ، من أجل إطعام آلاف الأطفال، وتربيتهم تربيةً مسيحيّةً، فتبعث إليه بمحسنين، وتغدق عليهم وعليه نِعَمها".

بيد أنّ معظم الناس كانوا مؤمنين أنّ مكانته لدى السيّدة العذراء هي التي كانت تدفعها إلى أن تنــزع، من ابنها المعجزات التي كان يطلبها لهم، بغزارةٍ وسخاءٍ.

وربّما كانت كبرى المعجزات التي تحقّقت بواسطته، أنّ صبيًّا أشفى على الموت،

وألحّ كي يؤتى إليه بدون بوسكو، لا بأيّ كاهنٍ آخر، كي يعترف. وتلكّأ ذووه باستدعاء دون بوسكو، فتوفّي الفتى، قبل أن يعترف، وأقرّ طبيبٌ بوفاته.

وبعد لأيٍ، أُخطِر دون بوسكو بالأمر، فحضر، ومثلما قال يسوع لذوي فتاةٍ ماتت، قال قدّيسنا لذوي الفتى، إنّه لم يمتْ، بل هو نائمٌ. وناداه: "شارل، شارل، انهض!". حينئذٍ مزّق الفتى كفنه، وفتح عينيه، وهتف:

– أهذا أنت يا دون بوسكو. لطالما طالبتُ بمجيئك كي أعترف لك بخطيئةٍ لم أجسر على الاعتراف بها لكاهنٍ آخر. ومُتُّ، وخُيِّل إليّ أنّني منحدرٌ إلى جهنّم. ولكنّ سيّدةً جميلةً ردعت الشياطين قائلةً: "دعوه وشأنه، فهو لم يُدَن بعدُ". فأفلتوني، وجئتَ أنت".

حينئذٍ اعترف لدون بوسكو بخطيئته. وبعد ساعتين من عودته إلى الحياة، سأله الكاهن: "هل تفضّل البقاء على الأرض، أو الذهاب إلى الفردوس؟" فأجاب:

– إلى الفردوس!

– إلى اللقاء، إذن، يا بنيّ!

ومن الكرامات التي تماثل بها قدّيسنا مع قدّيسين آخرين: القدرة على قراءة كمائن الضمائر والقلوب، ورؤية الغيب، والتواجد في مكانين مختلفين بآنٍ واحدٍ. مثال ذلك أنّ رئيس الفرع الساليزيّ في برشلونة (إسبانيا) سمع، وهو نائمٌ، صوت دون بوسكو يوقظه لأمرٍ خطيرٍ، وهو كان يعلم، يقينًا، أنّ دون بوسكو كان آنذاك في تورينو. فعاد إلى نومه. وبعد ثمانية أيّامٍ سمع الصوت عينه، فنهض وشاهد دون بوسكو، حيًّا، أمام سريره، مع أنّ دون بوسكو كان في ذلك الوقت عينه، في تورينو أيضًا، فارتدى ثيابه وخرج، فوجد دون بوسكو ينتظره خارج غرفته، وأحاطه علمًا

بأنّ ثلاثةً من تلاميذه، ارتكبوا خطأً مميتًا يقتضي طردهم، وأنّ آخر ارتكب خطأً، يستأهل إنذارًا فقط. ولّما همّ الكاهن بالعودة إلى غرفته توارى القدّيس، وجلس حائرًا متسائلاً، هل هو ضحيّة هلوسةٍ، أم أنّ ما حدث كان واقعًا.

وكانت الساعة الرابعة صباحًا، فأشعل شمعةً، غير أنّه تلقّى، بعد فترةٍ قصيرةٍ رسالة من نائب دون بوسكو، دون ميشيل روا، يستفسر عن تنفيذه الأمر الذي وجّهه له، منذ أيّامٍ، دون بوسكو، شخصيًّا. ثمّ في أثناء احتفاله بالقدّاس سمع صوت دون بوسكو غاضبًا، منذرًا، فعاد إلى غرفته، واستدعى المذنبين الثلاثة، الذين أقرّوا بفداحة ما ارتكبوه، وتمّ طردهم.

وكان الجميع يعرفون قدرة دون بوسكو على قراءة خفايا النفوس، فكان المذنبون يتحاشون النظر إليه مواجهةً.

أمّا قدّيسنا فلم يكن يولي لهذه الكرامة شأنًا، كما أنّه لم يتباهَ، يومًا، بالمعجزات التي كانت تجري على يده، ولم ينسب لنفسه، فضلاً في أيٍّ منها.

وبالإجمال، زخرت سيرة دون بوسكو بأمورٍ عجيبةٍ، فائقة الطبيعة. وهي من الكثرة بحيث لو سردتُها كلّها، حدثًا حدثًا، وهي جديرةٌ بالسرد، لجفّل حجمُ هذا الكتاب قرّاءً كثيرين، ينفرون من مجرّد رؤية كتابٍ ضخمٍ. فآثرت إفراد كتابٍ خاصٍّ ملحقٍ بهذا، بعنوان "أزاهير من رياض سيرة دون بوسكو". وأرجو أن يستمدّ منه القرّاء عِبَرًا، ومتعةً.

أيّام دون بوسكو الأخيرة ووفاته

واكبت سنواتِه الأخيرةَ طائفةٌ من الأمراض الموجعة، ولكأنّ ذلك القلب الكبير، الذي طالما خفق حبًّا، أمسى فاقدًا لنوابضه. وتورّمت ساقاه اللتان اقتادتاه إلى شتّى أصقاع العالم، وتيبّستا جاعلتين سيره مؤلمًا، قبل أن تتحوّلا إلى مثل عجينٍ طريٍّ عاجزٍ عن سند جسده الهزيل.

غير أنّ تلاشي قوّة أعضائه، لم ينلْ من صفاء ذهنه الذي ظلّ نيّرًا، خلاّقًا، هتّاكًا لحُجُب المستقبل، فقد كان يرى بوضوحٍ ساعة رحيله، والكاهن الذي سيُسدل جفنيه على عينيْه المنطفئتين؛ وكان يتوقّع العقبات التي ستواجه جمعيّته العزيزة، ومع ذلك ظلّ محتفظًا بإيمانه الصلب بغلبة جمعيّته، وثباتها، ومستقبلها المتوهّج.

وقد حرص على إنهاء أيّامه في أوراتوار ڤلدوكّو، الذي طالما أحاطه بحبّه، بين كهنته وأبنائه.

وقد أكسبت آلام سنواته الأخيرة روحانيّته كمالاً وتألّقًا. فالآلام قد تقود النفوس الضعيفة إلى التمرّد، والحقد، والانهيار، أو إلى لامبالاةٍ وَقحةٍ. ولكنّ أتّونها يصهر معدن النفوس القويّة بإيمانها، ويستنبط منها ذهبًا خالصًا.

واتّضح لجميع من عايشوه آنذاك أنّه، مع استمرار المقاومات الشخصيّة، والحكوميّة، ونصبِ الفخاخ والعقبات في دربه، كان، هو، ينمو رقّةً ومودّةً، وتفاهمًا مع الآخرين.

وفي عام ١٨٨٣، زاره كاهنٌ شابٌّ تتجلّى عليه أمارات الجدّ والروحانيّة الراسخة، فتحدّثا نحو نصف ساعةٍ، وأطلعه دون بوسكو على كلّ المعلومات التي رغب في الاطّلاع عليها، ثمّ قال له: "اعتبر نفسك، الآن، سيّد هذا البيت، وجُلْ

فيه كما ترغب، وراقب كلّ ما تودّ مراقبته. أنا كنت أتمنّى مواكبتك، ولكن، لديّ، الآن، مشاغلُ ومهامّ لا يسعني إرجاؤها أو إهمالها. ففي ذلك الحين كان مديرو المراكز الساليزيّة ينتظرون حضوره في ڤلدوكّو. وبعد الغداء، فيما كان لا يبرح واقفًا مستندًا على منضدةٍ، شهد الكاهن الشابّ الزائر، كيف كان قاطنو الأوراتوار يأتونه، بلا توقّفٍ، وكلٌّ منهم يبسط بين يديه المصاعب التي يواجهها.

ذلك الكاهن الزائر الشابّ، المدعوّ "أكيلّي راتّي" (Achille Ratti)، أصبح، بعد تسعٍ وأربعين سنةً، البابا پيّوس الحادي عشر. وكان يطيب له رواية ذكرى تلك الزيارة إلى إكليريكيّين في روما، وكيف كان القوم يأتون إليه بلا انقطاعٍ، ولكلٍّ منهم قضيّته. وكيف كان يصغي إلى كلٍّ منهم بيقظةٍ واهتمامٍ، ويرشد كلاًّ منهم إلى الحلّ المناسب، مع أنّه كان واضحًا أنّ فكره كان يسرح في مكانٍ آخر، فقد كان مع الله، مستخلصًا أنّ تلك كانت حياة القداسة الحقّة: الصلاة المستمرّة التي كان دون بوسكو يمارسها، وسط اهتماماتٍ لا تهادن ولا ترحم.

وفي شهر نيسان من عام ١٨٨٥، دعته سيّدةٌ إلى الغداء مع معاونه الشابّ "دون ڤيلييتّي" (Viglietti). وفيما كان يسير، على مهلٍ، في حديقة البيت توقّف أمام حوض زهورٍ، واقتطف زهرة "زنبقة الثالوث"، واسمها بالفرنسيّة "فكرة" (Pensée)، وأهداها لمضيفته قائلاً:

- "لقد تكرّمتِ، يا سيّدتي، ودعوتنا على الغداء، وأنا أودّ أن أهديك هذه الزهرة وهذه الفكرة.
- أيّة فكرة، يا أبتِ؟
- "فكرة الأبديّة، الفكرة التي ينبغي أن ترافقنا دائمًا، فكلّ شيءٍ يعبر، في هذا العالم. ووحدها الأبديّة تدوم. فلنسعَ إلى جعل أبديّتنا سعيدةً!"

ففكرة الموت، ولقاء الله لم تكن تغيب قطّ، عن ذهنه، وكانت تدفعه إلى التوغّل في التفكير الجادّ. وذات يومٍ من عام ١٨٨٥، طلب من رجلٍ التقاه أن يصلّي من أجله، فردّ الرجل:

"أنت لستَ بحاجةٍ إلى صلاتي، يا دون بوسكو".

وكان كاهنٌ حاضرًا، وشهد كيف أمعن دون بوسكو في التفكير الجادّ، واغرورقت عيناه بالدموع، وكرّر، عدّة مرّاتٍ بلهجةٍ صدقٍ عميقٍ: "أنا بحاجةٍ قصوى إلى صلواتكم".

وفي شهر آب من السنة عينها، مضى إلى مدينة "نيتْسا مونفرّاتا" (Nizza Monferrata)، من أجل حضور حفل إلباس بنات "مريم المساعدة" الثوب الرهبانيّ. وكان من الوَهَن بحيث لم يتمكّن من منح المناولة، إلاّ لعددٍ ضئيلٍ منهنّ. وحضر الاحتفال جالسًا، وأحبّ أن يلقي كلمةً، ولكنّ صوته كان خافتًا ولا يمكن سماعه، فتولّى مساعدٌ له جالسٌ إلى جانبه، أن يكون له "مكبّر صوتٍ"، مردّدًا عباراته بصوتٍ عالٍ.

قال دون بوسكو، إذن: "أنتنّ تُرِدْنَ أن أقول لكنّ بضع كلماتٍ. ولو كان بوسعي الخطابة لقلت الكثير ممّا أرغب في قوله. ولكنّي شيخٌ هرمٌ متداعٍ كما ترينَ، وكلّ ما أستطيع قوله هو أنّ السيّدة العذراء تحبّكنّ حبًّا جمًّا، وهي، الآن، هنا وسطكنّ". وكرّر مساعده بصوتٍ عالٍ:

- يقول لكنّ دون بوسكو إنّ العذراء هي أُمّكنّ، وأنّها تحميكنّ، وتقيكنّ من كلّ مكروهٍ".

فاعترض دون بوسكو متمتمًا:

- لا، لا، بل أريد أن أقول إنّ السيّدة العذراء هي، حقًّا، هنا، في هذا البيت، وأنّها مسرورةٌ بكنّ".

ومرّةً ثانيةً أساء معاونه التفسير، وقال:

– **يقول لكنّ دون بوسكو إنّكنّ، إذا كنتنّ صالحاتٍ، فسترضى العذراء عنكنّ".**

حينئذٍ، جمع دون بوسكو كلّ ما تبقّى له من قوّةٍ، وفتح ذراعيه، وهتف:

– **"لا، لا، أريد أن أقول إنّ العذراء هي، حقًّا، هنا، بينكنّ، تطوف في هذا البيت، وتغمره بمعطف حمايتها".**

منذ ١٨٨٧/٥/٢٥، غاب دون بوسكو عن اجتماعات مجلس الجمعيّة، موكلاً هذه المهمّة لنائبه دون روا، ولكنّه حضر المجلس الذي عُقد في نهاية شهر آب ١٨٨٧، في مدينة "لاڤلساليتْشِه" (LaValsalice) ، الجاثمة على تلّةٍ مطلّةٍ على تورينو، حيث كانت تقام رياضاتٌ روحيّةٌ، لطالبي الانضمام إلى الجمعيّة الساليزيّة. ووضع نفسه بتصرّف الراغبين في الاعتراف.

وفي منتصف شهر أيلول ساءت حاله الصحّيّة، واعترته نوبات حمّى، ورعشاتٌ، وأوجاع رأسٍ عنيفةٌ، حتّى بات عاجزًا، في بعض الأيّام، عن الاحتفال بالذبيحة الإلهيّة، ومع ذلك حافظ على فرحه، واستمرّ يعمل ويكتب، ويستقبل الزائرين. ومع أنّه كان في أمسّ حاجةٍ إلى المواساة كان يواسي الآخرين.

وذات مساءٍ من نهاية شهر أيلول كان يتناول عشاءه، في حجرته برفقة مدير مركزٍ زراعيٍّ، فباح له:

"لم يبقَ لي سوى قليلٍ من وقتٍ للعيش. رؤساء الجمعيّة لا يريدون الاقتناع بهذا الواقع، ويتخيّلون أنّه ما زال على دون بوسكو أن يعيش أيّامًا طويلةً. أنا لا يزعجني الموت، ولكن تشقّ عليّ الديون الباهظة التي التزمتُ بها من أجل بناء كنيسة القلب الأقدس. وكان "دون دلمازّو" رجلاً طيّبًا، ولكنّه لا يحسن

المحاسبة والإدارة... وماذا سيقول أبنائي عندما سيتبيّنون ثقل هذه الديون التي ركّبتها على أكتافهم؟... ففي السنة القادمة لن يكون لي وجودٌ، حتّى في الرياضات الروحيّة السنويّة."

وشقّت على دون بوسكو رؤيةُ بعاد المقرّبين منه، الدائبين على مهامّهم الخاصّة بعيدًا عنه، ومرارةُ الشعور بالوحدة. وقد رآه مفتّش المراكز الساليزيّة، يبكي بصمتٍ، شاكيًا الوحدة الآخذة بالإطباق عليه من كلّ جانبٍ، وحاول الاعتذار منه لاضطراره إلى النأي عنه، بمقتضى وظيفته، فأجابه دون بوسكو: "أنا لا ألومك، فأنت تقوم بواجبك... ليرافقك الله، وأنا سأصلّي من أجلك".

وقبل عودته إلى ڤلدوكّو، تحدّث بضع دقائق مع مدير مركز "فلزاشي"، ولبث عدّة دقائق محدّقًا إلى درجه الكبير، الذي قد سبق له طلب دفنه في أسفله، وباح بهدوءٍ: "من هنا سأتولّى حماية هذا الدار".

عاد دون بوسكو إلى ڤلدوكّو، يوم ١٨٨٧/١٠/٢٠، فرحّب به نزلاء الأوراتوار بحماسٍ، وواكبوه على امتداد الباحة، حتّى الدرج الصاعد إلى غرفته، وساعده الكبار منهم على صعوده درجةً درجةً. ومن أعلاه أطلّ من الشرفة، ولوّح بيده للفتيان في الباحة، فردّوا عليه تلويحًا بأيديهم، وهتافًا من حناجرهم: "يحيا دون بوسكو!".

فهل خطر لهم أنّهم كانوا يودّعون شمعةً تنطفئ على مهلٍ؟

كان يقيم القدّاس، آنذاك، في كاپيلاّ صغيرةٍ داخل غرفةٍ ملاصقةٍ لغرفته، مستعينًا بكاهنٍ شابٍّ. وكان يعاني مشقّةً في التكلّم والتنفّس، ويمازح زائريه، قائلاً: "إنّي أبحث عن منفاخٍ، يعوّضني عن رئتيّ اللتين أضربتا عن العمل".

يوم الرابع من كانون الأوّل، زاره "دون شيروتّي"، المسؤول عن الشؤون العامّة في الأوراتوار، وبعد مراجعتهما معًا هذه الشؤون، قال دون بوسكو لمحاورِه:

– "أراك شاحب المحيّا. كيف هي حال صحّتك؟ اعتنِ بنفسك، مثلما ترغب العناية بدون بوسكو".

– "تشجّع، يا أبتِ، فسترى كيف سنسعد، معًا، في الفردوس!"

وقدّم له أُمناء سرّه رسائل واردةً، كي يُسجّل على طرفها فحوى جوابه عليها. وكانت إحدى الرسائل قادمةً من محسنةٍ، فكتب عليها بيده: "لنُعْطِ بوفرةٍ، إذا كنّا راغبين في التلقّي بوفرةٍ. ليباركك الله، ولِيُنر طريقَك".

ولّما عجز عن النـــزول إلى الكنيسة وطبقة البناء السفلى، جيء إلى غرفته بأريكةٍ، غدت له، مرقدًا ومجلسًا، ومنه كان يملي رسائله ويستقبل زائريه، ووُضِع في الغرفة الملاصقة لغرفته هيكلٌ، كي يقيم عليه قدّاسه، عندما يستطيع.

وكان باستمرارٍ يستعجل المسؤول الماليّ في إتمام تدابير دفنه، ولّما لمح تباطؤَه، هدّد بتوصية دفنه داخل غرفته، عند مماته.

يوم ٦ كانون الأوّل، أُنزل بمشقّةٍ، وبمساندة كاهنين مساعدَين إلى كنيسة السيّدة العذراء المساعِدة، كي يبارك ويودّع مجموعةً من المرسلين الموفدين إلى الإكوادور. ولّما مرّ المرسلون أمامه، من أجل تقبيل يده، ونيل بركته، أجهش بالبكاء، وشاركه البكاء المرسلون والحضور.

وفي اليوم التالي، تذوّق عزاء عودة ابنه الأُسقف كالييرو، الذي سارع إلى الإبحار عائدًا، حالما تلقّى برقيّة نائب الرئيس دون رُوا. وكان الأسقف كالييرو قد اجتاز على عجلٍ فناء الدار، تحت هتاف مئات الأولاد، وارتقى السلّم، مجتازًا كلّ أربع درجاتٍ بخطوةٍ واحدةٍ. وهبط راكعًا عند أقدام معلّمه دون بوسكو، الجالس على

أريكته، والذي ضمّه بشدّةٍ إلى صدره، وبادر إلى الاطمئنان عن ضلوعه، التي كانت قد تحطّمت نتيجة سقوطه عن حصانه، على صخور جبالٍ شاهقةٍ في الأرجنتين. ثمّ روى له كالييرو بإسهابٍ، ما حقّقه الساليزيّون في الأرجنتين وجوارها.

وقد سجّل الأُسقف نصائح رئيسه كي يحملها إلى المرسلين، كالتالي:

- "أرغب في أن تبقى (كالييرو) هنا، حتّى تسوية كلّ ما يجب فعله في الجمعيّة بعد موتي.

"قل لجميع الساليزيّين أن يعملوا بغيرةٍ وحميّةٍ. العمل ثمّ العمل.

"تحابّوا كإخوةٍ، وتعاونوا، وتحمّلوا بعضكم بعضًا".

وقد تحدّث دون بوسكو إلى كالييرو في الأيّام التالية. وبغتةً، قال له، ولكأنّ قلقًا قد انتابه: "أنا بلغتُ نهاية حياتي. وقد آن عليك أن تعمل من أجل إنقاذ الشبيبة. وعليّ أن أبوح لك بهاجسٍ: أخشى أن يؤوّل البعضُ تأويلاً خاطئًا محبّتي للفتيان، وبذلك يبرّرون مودّاتٍ خاصّةً طائشةً نحو أيٍّ كان.

يوم ١٨٨٧/١٢/١٧، بدأت قواه تهجره هجرًا تامًّا. وكان يوم سبتٍ. غير أنّه لمح نحو ثلاثين شابًّا، متجمّعين خارج غرفته وراغبين في الاعتراف بين يديه، فأسرّ لمساعده: "في الحقيقة ليس لديّ طاقةٌ". ولكنّه بعد لحظاتٍ وجيزةٍ، عاد فقال له: "ومع ذلك هذه هي المرّة الأخيرة، التي أستطيع فيها استماع اعترافاتهم. وقد يتعلّق مصير دعوات بعضهم على نصيحةٍ أو إرشادٍ منّي، فدعوهم يدخلون فردًا فردًا".

ويوم ١٨٨٧/١٢/١٨، لحظ مساعده أنّ دون بوسكو ينعم بشيءٍ من الراحة، فجاءه بمجموعة صورٍ، ورجاه أن يكتب عليها بضع كلماتٍ، كي ترسَل إلى المتعاونين مع الجمعيّة. ولبّى الكاهن القدّيس رغبته، وأنهض ظهره قليلاً، على

أريكته، وأسند الصور على لوحةٍ خشبيّةٍ، ودوّن على ظهرها عباراتٍ بطعم الأبديّة، إليكم نماذج منها:

- يا مريم احصلي لنا من يسوع على صحّة الجسد، إذا كانت لصالح نفسنا. واضمني لنا الحياة الأبديّة.
- استعجلوا في فعل الخير، فقد لا يتسنّى ذلك، في وقتٍ آخر.

وبعد لحظاتٍ، قال دون بوسكو لمساعِده: "هل تعلم أنّني لم أعُدْ أعرف الكتابة؟ أنا متعبٌ جدًّا". فرجاه مساعده أن يُلقي القلم جنبًا، ويظفر بشيءٍ من الاستراحة، فردّ الكاهن:

- لا، بل ينبغي أن أتابع. فهذه هي المرّة الأخيرة التي تتسنّى لي فيها الكتابة.

واستمرّ في تدوين أقوالٍ مثل هذه:

- هنيئًا لمن يهبون ذواتهم لله، إلى الأبد، منذ صباهم!
- من يتردّد في وهب ذاته لله، يخاطر بفقدان نفسه.
- يا أبنائي الصغار، لا تهدروا وقتكم، لكي لا يهدركم الله.
- من يغرس أعمالاً صالحةً، يجنِ ثمارًا يانعةً.
- الخير الذي نعمله، نجده في هذه الدنيا وفي الآخرة.

حينئذٍ رجاه مساعده أن يكتب أقوالاً أكثر دعوةً إلى الفرح، كتب:

- فليباركنا الله ويحمِنا من كلّ شرٍّ.
- أعطوا كثيرًا للفقراء، فتغتنوا.
- أعطوا، تعطَوا.

- **فليباركنا الله، ولتكن السيّدة العذراء مرشدتنا ودليلنا، خلال مخاطر الحياة.**
- **الأولاد الصغار هم متعة يسوع ومريم.**
- **فليبارك الله ويكافئ جميع المحسنين إلينا!**
- **يا مريم، كوني أنتِ خلاصي.**

وبغتةً، عاد القدّيس يدوّن أقوالاً جادّةً، مثل:

- **من أنقذ نفسه، أنقذ كلّ شيءٍ. ومن فقد نفسه فقد كلّ شيءٍ.**
- **من يحمي الفقراء، سيكافأ بسخاءٍ من قِبَل العدل الإلهيّ.**
- **ما أعظم المكافأة التي سننالها عن كلّ الخير الذي تحقّق في حياتنا.**
- **من يفعل الخير في حياته يجده في مماته.**
- **في الفردوس سننعم بكلّ الخيرات أبديًّا.**

وفي ذلك اليوم عينه، لم يعزف عمّا اعتاد عليه منذ أربعين سنةً، إذ كان يخصّص فترة ما قبل الظهر لمنح النصح، والبركة للراغبين في نيلها، ومواساهم وغوثهم وتشجيعهم. وكان آخر لقاءٍ له في الساعة الثانية عشرة والنصف.

ومساء ذلك اليوم أوصى طبيبه بإخراجه في نزهةٍ، تتيح لرئتيه الامتلاء بنسيمٍ جديدٍ منعشٍ. غير أنّ الطبيب تبيّن، عند عودته من النزهة، أنّ حالته تفاقمت سوءًا. فأوعز بإرقاده في سريره. وسأله كاهنٌ، كان يزوره، عن حاله، فأجاب: "لم يبقَ لي، الآن، إلاّ أن أنتهي نهايةً حسنةً".

وقدّر الجميع أنّ رحيله محتّمٌ، قبل نهاية عام ١٨٨٧، وشهد الكاهن الذي سهر عليه ليلاً: "إنّه يتألّم صامتًا. حرارته ترتفع باطّرادٍ، وتنفّسه لا ينفكّ يتصاعد صعوبةً". ونصح الطبيب بتغذيته. وإذ كان مساعده يحاول تلقيمه جرعات حساءٍ،

مدّ دون بوسكو يده، ساعيًا إلى إمساك ملعقة الحساء، فأبقاها مساعده بعيدةً عن متناوله، خوفًا من أن يسكبها على ذاته. فقال له القدّيس مازحًا: "لقد فهمت قصدك... إنّك تريد تناول الحساء كلّه".

ففي هذه الأثناء، كان يسود فناءَ الدار صمتٌ مهيبٌ خاشعٌ. فقد كان الجميع حتّى الصغار، شاخصين بأبصارهم إلى النوافذ، التي يحتضر خلفها صديقهم الكبير الحبيب.

يوم ١٨٨٧/١٢/٢٣، خُيِّل للجميع أنّ النهاية قد حُمّت. فهمس المحتضر: "ليتأهّب أحدكم لمسحي مسحة المرضى".

وكان إلى جانبه أحد مساعديه المقرّبين، فأمسك بيده، وأوصاه:

"كن، دائمًا، السند المنيع لدون رُوا"!

ولّما دخل الأسقف كاليرو، العائد من الأرجنتين، وجلس بقربه جمع دون بوسكو بقايا قواه، وأوصاه: "بلّغ البابا أنّ الساليزيّين، حيثما وُجِدوا، وحيثما نشطوا، هدفهم الأساسيّ هو مساندة سلطة الحبر الأعظم. بحماية البابا ستذهبون إلى أفريقيا، وإلى آسيا، وإلى مناطق أخرى. آمنوا، وثقوا".

وفي هذه اللحظات الوداعيّة فاض قلبه بكلّ ما كان يخفق به من عطفٍ ورقّةٍ على مساعديه وأبنائه، واتّفق أن كان رفيق الساعات العصيبة "جوزيف بوزيتّي" إلى جانبه، بلحيته الحمراء المهيبة، ولحظ ما يلقى معلّمه دون بوسكو من صعوبةٍ بالكلام فحاول مواساته، وتسريب شيءٍ من الفرح والمرح إلى نفسه، فحيّاه تحيّةً عسكريّةً، وتمتم دون بوسكو:

- "آه، يا صديقي، أنت دائمًا صديقي الأمين العزيز!"

وفي المساء زاره المُرسَل "دون كسّيني"، الذي كان رافق الأُسقف كاليرو العائد من الأرجنتين، فهمس في أذنه:

- **"أعلم أنّ والدتك فقيرةٌ، فبُحْ لي بهمومك، واحبسها عن الآخرين. وأنا سأعطيك كل ما تراه ضروريًّا لها".**

وهمس في أُذن "پيترو أنريا"، الذي كان يقدّم له خدماتٍ وضيعةً: "يا پيترو العزيز، كن صبورًا". فردّ الشابّ:

- **"يا دون بوسكو، سأعطي حياتي مقابل شفائك. وأنت تعلم أنّ كثيرين آخرين يحبّونك، وهم مستعدّون لمثل هذه التضحية".**

وبصعوبةٍ ردّ عليه دون بوسكو:

- **إنّ أكثر ما سيشقّ عليّ، عند موتي، هو انفصالي عنكم".**

وفي ساعةٍ متأخّرةٍ من مساء ذلك اليوم زاره الكردينال "أليموندا"، وقبّله، وبجهدٍ، قال له دون بوسكو:

- **"يا صاحب النيافة، صلّي لي كي أخلّد نفسي!"**
- **ولكنّك نصحتَ كثيرين ألاّ يخافوا من الموت، وأن يتأهّبوا له.**
- **"أجل... والآن أنا بحاجةٍ أن يُقال لي ذلك!".**

ويوم ١٢/٢٩، جاء تلميذٌ قديمٌ مستصحبًا ابنه كي يباركه القدّيس، ولم يكن قد خطر بباله، أن يرى دون بوسكو على هذه الحال، من الوهن الأقصى. فخرّ أمام سريره منتحبًا، وبمشقّةٍ استطاع التلفّظ بهذه العبارة:

"آه! يا دون بوسكو! آه، يا دون بوسكو".

وما إن خرج الرجل، حتّى استدعى دون بوسكو نائبه، وهمس في أذنه: "إنّه فقيرٌ، وفي أزمةٍ، فادفع له، باسمي، تكاليف سفره".

وفي ذلك النهار، عينه جاءته رئيسة بنات جمعيّة "مريم المساعدة" طالبةً، بركته

لجميع راهباتها. فقال: "أُبارك جميع فروع بنات مريم المساعدة، وأبارك رئيستهنّ العامّة، وجميع الأخوات... إِسعينَ إلى خلاص نفوسٍ كثيرةٍ".

وأوصى الطبيبُ الكاهنَ المحتضرَ بصمتٍ كاملٍ، فأمضى النهار في شبه سُباتٍ.

وفي مساء يوم ١٢/٢٩، استدعى دون بوسكو كلاًّ من الأسقف كالييرو، ونائبه دون رُوا، وأمسك بيديهما، وبهدوءٍ قال لهما: "تحابّا، تحابًّا أخويًّا، وتعاونا، وليتحمّل أحدكما الآخر، ولن يضنّ عليكما الربّ ومريم المساعِدة بعونهما، واسمحا لي أن أُحبّكما، أخويَّ".

أثناء الليل طلب من بيترو أنريا جرعة ماءٍ، وقال له: "يجب أن نتعلّم كيف نحيا، وكيف نموت".

وفي حين بدا أنّ كلّ شيءٍ قد انتهى، أظهرت الفترة الممتدّة بين الأوّل والعشرين من شهر كانون الثاني ١٨٨٨، تحسُّنًا مدهشًا وغير متوقّعٍ، في صحّة دون بوسكو، ولكأنّ الجذع عاد يزهر، ولكأنّ مهلةً جديدةً فُسحت له. ولكن سرعان ما اضمحلّ هذا الأمل. فيوم ١/٢١، دخل الأُسقف كالييرو إلى غرفته، وقال له: "يبدو أنّ الخطر الذي كنّا نخشاه قد زال، وأنا مدعوٌّ لمنطقة "لو" (Lu) ، من أجل الاحتفال بعيد شفيعنا. وهذه المنطقة قد جادت علينا بالعديد من خيرة مرسَلينا وراهباتنا القدّيسات، وسأزور أعضاء جمعيّتنا".

- "امضِ. هذا يسعدني، ولكن أسرع في العودة.

صباح ١/٢٢، تبخّر كلّ أملٍ، وتفاقم وضع دون بوسكو الصحّيّ، بسرعةٍ مقلقةٍ، وسيطر عليه السبات مجدّدًا، وكانت تتخلّله نوباتُ هذيانٍ فقد شوهد يُصفّق، بغتةً، ويقول بصوتٍ خافتٍ: "أسرعوا، أسرعوا في إنقاذ الفتيان. أيّتها القدّيسة مريم ساعديهم، يا أُمّي، يا أُمّي!"

يوم ١/٢٦، رجع الأسقف كاليرو، وهرع إلى سرير رئيسه، فأدرك مدى خطورة حاله، وحاول استفساره عن مهلةٍ أخرى، فقال له: "إنّهم يستدعوني من روما، فهل أستطيع الذهاب؟".

- **سنذهب إلى روما، ولكن ليس الآن.**

وأصبحت آلامه لا تطاق، وتحوّل صوته الجميل إلى نسمةٍ خافتةٍ. واقترح كاهنٌ كان على مقربةٍ منه:

- **فكّر بيسوع على الصليب. هو أيضًا، كان يتألّم، ولا يستطيع حركةً.**

وكلّف المحتضر أحد كهنته بتبليغ أصدقائه وتلاميذه، بأنّه ينتظرهم في الفردوس، ويذكّرهم بضرورة المثابرة على المناولة، وعلى تكريم السيّدة العذراء.

يوم ١/٢٩، احتفلت جميع البيوت الساليزيّة، بعيد شفيعها القدّيس فرنسوا الساليزيّ. ولكنّ هذا العيد، في ڤلدوكّو، اتّسم بالحزن والقلق. فقد كان جميع الفتيان يستفسرون، دقيقةً فدقيقةً، عن صحّة أبيهم الحبيب، وكانت عيونهم شاخصةً إلى نوافذ الغرفة التي يرقد فيها.

في ذلك اليوم تلقّى القدّيس المناولة الأخيرة، وحاول الطبيب طمأنة الحاضرين، وإيحاءهم الأمل بأنّ الغد قد يكون أفضل. ومع أنّ نظر المحتضر كان غائمًا إلاّ أنّ ذهنه كان ما برح صافيًا، فأجاب: "بل غدًا سأقوم برحلةٍ بعيدةٍ". ثمّ هتف: "پاولينو، پاولينو، أين أنت، ولِمَ تأخّرت بالعودة؟". وكان يعني أحد تلاميذه، "پول ألبيرا"، الذي كان قد كلّفه بتفتيش الفروع الساليزيّة في فرنسا. وما استخدامه الودّي لاسمه المصغّر، إلاّ الدليل على التزامه الدائم بالعطف والرقّة.

يوم الثلاثين من كانون الثاني، قاسى دون بوسكو صعوبةً في التنفّس، وكانت

الحمّى تلتهمه، وإلى جانبه اثنان من كهنته الساهرين عليه، جاهدين في خفض وطأة الحمّى، مرطِّبَيْن جبينه بمناشف مبلولةٍ، وساكِبَيْن قطرات ماءٍ باردٍ على شفتيه الملتهبتين. ولحظ دون بوسكو وجودهما وخدماتهما، بين نوبتَيْ سباتٍ، فابتسم لهما. وبما أنّ شلل جانبه الأيمن قد تفاقم، فقد حيّاهما بيده اليُسرى، وهما لم يستطيعا حبس دموعهما.

بعد ظهر ذلك اليوم، وصل العديد من رؤساء الأوراتوارات الأُخرى، الذين كان "دون رُوا"، قد أنبأهم بأنّ حال رئيس الجمعيّة، باتت لا يؤمل معها شفاءٌ، فطافوا، صامتين في حجرة رئيسهم، وتبعهم فتيان ڤلدوكّو، التوّاقون إلى إلقاء نظرةٍ أخيرةٍ على أبيهم الحبيب، وتقبيل يده. وكان هذا يمرّ بميداليّةٍ، وهذا بصليبٍ، وآخر بمسبحةٍ على جسم ذلك القدّيس، الذي دلّهم إلى درب السماء، ووعدهم باللقاء فيها.

عند الساعة الواحدة والنصف من صباح ١٨٨٨/١/٣١، تجلّت على الكاهن أمارات الاحتضار الفعليّ، فاضطرّ الكاهن الساهر عليه إلى استدعاء جميع الذين كانوا ساهرين في حجرةٍ مجاورةٍ، جالسين على كراسٍ، وفي غضون دقائق تجمّع حول سرير القدّيس نحو ثلاثين ساليزيًّا: كهنة، وإكليريكيّين جاثين أو واقفين حول سريره. وخلع نائبه، دون رُوا البطرشيل، وأسبله في عنق الأُسقف كاليرو، الذي همس في أذن دون بوسكو بجرْسٍ يفصح عن تأثّره: "نحن، أبناءك، هنا، نسأل صفحك عن كلّ ما قد نكون قد سبّبناه لك من همٍّ ومتاعب. وتعبيرًا عن صفحك وعطفك الأبويّ، هبنا، مرّةً أخيرةً، بركتك. وأنا سأمسك يدك وأتلو صيغة الصفح".

كان على دون رُوا أن يقوم بهذه المهمّة. ولكنّه لم يملك السيطرة على حزنه، والإمساك بيدٍ حبيبةٍ مشلولةٍ، ويبارك بها جميع الساليزيّين الموجودين والمنتشرين، في كلّ أصقاع المعمورة. فكلّف أخاه الأُسقف.

ثمّ أصبح تنفّس القدّيس قصيرًا، قبل أن ينطفئ، وصدرت منه ثلاث حشرجاتٍ شاقّةٍ، رافق الأسقف كاليرو كلاًّ منها، بما علّمه الأب في صغره:

"يا يسوع ويا مريم أنتما نفسي وحياتي.

يا يسوع ويا مريم أعيناني في نزاعي الأخير.

يا يسوع ويا مريم إنّي أموت برفقتكما العذبة".

وحينئذٍ خلع الأُسقف البطرشيل، وألقاه على دون بوسكو الذي كان قد ولج إلى عالم النور.

غادر دون بوسكو هذه الدنيا، في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين، من صباح الحادي والثلاثين من شهر كانون الثاني ١٨٨٨، إلى حيث استدعي، كي ينال مكافأة حياةٍ زاخرةٍ بالنضال والمحبّة والخير والقداسة، امتدّت على اثنتين وسبعين سنةً، وخمسة أشهرٍ وخمسة عشر يومًا. وما لبث أن وردت برقيّةٌ من البابا لاون الثالث عشر، يبكي فيها صديقًا وقدّيسًا.

ونُقل الجثمان بزيّه الكهنوتيّ، معتمرًا قلنسوته، وممسكًا صليبًا بيده إلى كنيسة القدّيس فرنسوا الساليزيّ الصغيرة، التي كان الراحل قد بناها عند تأسيس جمعيّته، تكريمًا لشفيع الجمعيّة.

وفي الحال، تداعى جميع سكّان تورينو وجوارها لوداع قدّيسهم، ومربّي أجيالهم، والمحسن إليهم. وكلٌّ منهم كان طامحًا في طبع ملامح ذلك الوجه الحبيب، في ذاكرته وفي قلبه، وكان معظمهم راغبين في تبريك أشيائهم التقويّة من مسابح، وميداليّاتٍ، وصلبانٍ بمسّ تلك اليد التي أمست عاجزةً عن الحركة، ولكنّها ما انفكّت تفيض بركاتٍ.

ولم تكن ڤلدوكّو قد شهدت، قطّ، مثل هذا الحشد، الذي ضمّ، كتفًا إلى كتفٍ جميع طبقات المجتمع عمّالاً وفلاّحين وشحّادين وأرستقراطيّين وبورجوازيّين.

وجال سكّان الأوراتوار حول كرسيّ اعترافه، حيث طالما تخفّفوا من أثقال نفوسهم، وظفروا بالنور والعزاء.

ولّما ضاقت الكنيسة الصغيرة بقاصديها، الذين ما انفكّ سيلهم يتدفّق، نُقِل الجثمان إلى كنيسة السيّدة مريم المساعدة، حيث تكثّف تقاطر حشودٍ لم يفتر لها انسيابٌ. وبما أنّ معظم سكّان الجوار والضواحي، لم يستطيعوا تفويت فرصة وداع قدّيسٍ منهم، أضافت إدارة سكّة الحديد إلى العربات المخصّصة لخدمة تورينو أضعافًا من العربات، التي امتلأت حتّى الفيض.

أقيمت، إذن، الجنازة في كنيسة السيّدة مريم المساعدة، وارتدت شكل انتصارٍ متوهّجٍ، تكريمًا لكاهنٍ قدّيسٍ، كان منبع خيراتٍ وبركاتٍ لكلّ أبناء تلك المنطقة، وكان اندفاع حبّهم وتقديرهم له لا يُقاوَم، فملأوا الشوارع على جانبيها، كي يواكبوا موكب دفنه، موكب رجلٍ فقيرٍ صديقٍ للمتواضعين والصغار. وقُدِّر عددهم بما يفوق مئة ألف شخصٍ.

وأُودِع الجثمان في الحفرة، التي كان قد طلب إعدادها في أسفل درج دير لاهوت جمعيّته في "ڤلزاليتشه"، ذلك المكان الذي أمعن في التحديق إليه، واختاره مدفنًا لأربعة أشهرٍ خلت. وبهذه المناسبة ألقى الأُسقف هذه العبارة:

"مثلما انحنى المسيحيّون الأوّلون، في مدافن الشهداء الذين بذلوا حياتهم، دفاعًا عن إيمانهم، ومثلما تعلّم القدّيس فيليپ نيري أن يصبح رسول روما، بانحداره إلى دياميس أولئك الشهداء، هكذا سيؤتى إلى هذا المدفن التماسًا للنور والقوّة، ولنظام عملٍ، ومحبّةٍ للأخوة، والتفاني في سبيل كلّ القضايا الكبرى".

ولبث جثمان القدّيس في ذلك المدفن، حتّى نقله المجيد إلى كاتدرائيّة مريم المساعِدة في تورينو، يوم ١٩٢٩/٦/٩.

إثر دفن القدّيس جان بوسكو في الحفرة التي هو اختارها، أثناء حياته، عاد أبناؤه إلى أوراتوار تورينو، حيث ساد فراغٌ رهيبٌ. ولكنّهم فوجئوا بهدوءٍ مبهمٍ يغزو نفوسهم عجزوا عن فهمه، وخجلوا من إبرازه والتعبير عنه، ولكأنّهم كانوا يلومون ذواتهم بشأنه. ولكنّهم لم يلبثوا أن تبيّنوا نبع هذا السلام، وهو يقينهم بأنّ أباهم الذي سكن السماء، قد بات لهم حارسًا يملك من القدرة على حمايتهم ومساعدتهم أكثر، بلا قياسٍ، ممّا كان يستطيعه على الأرض.

يوم وفاته، لم يكن أوراتوار ڤلدوكّو، يملك ثمن الخبز اليوميّ. غير أنّ تَرِكة دون بوسكو، كانت منقطعة النظير في وفرتها، وتمثّلت في:

- الجمعيّة الساليزيّة واسعة الانتشار.
- ثلاثة آلاف ولدٍ، انتُزِعوا من الشارع ونالوا العلم، والتربية الصالحة.
- ثمانين ألف متعاونٍ.
- معهد راهبات مريم المساعِدة.
- مؤسّسة مريم المساعدة، من أجل توفير دعواتٍ كنسيّةٍ.
- العديد من الكنائس التي بناها في شتّى الأماكن.
- مئتين وخمسين أوراتوارًا، وميتمًا، ومأوًى، ومدرسةً ثانويّةً.
- إكليريكيّة في أوروپّا، وأُخرى في أميركا الجنوبيّة.
- رسالات في پاتاغونيا وأرض النار.
- عشرين ألف نسمةٍ من العشائر نالوا المعموديّة.
- كلمة الله التي دوّت حتّى أقاصي المسكونة.

كلّ ذلك حقّقه ابن فلاّحٍ إيطاليٍّ صغيرٍ وفقيرٍ، بفضل إيمانه الراسخ بالربّ وثقته اللامحدودة بالعناية الإلهيّة، ومعونة أمّه العذراء المساعِدة.

لوحة قدّيسٍ

دون بوسكو تحفةٌ إلهيّةٌ، غنيّةٌ بالألوان، يتعذّر وصفها إلاّ بالقداسة الشاملة. فهو رجل إيمانٍ راسخٍ، وعملٍ دائبٍ، ومربٍّ حكيمٌ، وهو معلّمٌ، وبنّاءٌ، وإداريٌّ حاذقٌ، وهو مؤسِّس جمعيّةٍ مشبعةٍ بروحه، انتشرت شرقًا وغربًا، على رحب المعمورة.

منجزاته الجبّارة التي تحقّقت في سنواتٍ معدوداتٍ، كفيلةٌ بإدهاش العمالقة، والملائكة أنفسهم.

استنار في عمله وسيرته، بنصائح أمّه الطوباويّة مرغريتا بوسكو ودعمها، فهي التي صاغت شخصيّته بغياب أبيه، وحرّرته من كلّ هوًى دنيويٍّ، وغرست فيه بذور القداسة، ورسّخت فيه سجوًّا فرحًا، واكبه حتّى رمقه الأخير. وهي علّمته الصبر، والحزم، والنأي عن البذاءة، والتقشّف حتّى أقصى حدود التقشّف، تقشّفٍ يخفّف وطأته إيمان أمٍّ قدّيسةٍ.

واستنار، أيضًا، بأحلامٍ سماويّةٍ، واكبته منذ سنّ التاسعة، ومن خلالها كان يسوع وأمّه يدلاّنه على الطريق التي تقضي دعوته سلوكها، ويبشّرانه بالثمار اليانعة التي ستؤتيها مشاريعه.

وقد تمثّل بروحانيّة شفيعه القدّيس فرنسوا الساليزيّ، وبمسالمته ورقّته، وبعملانيّة ڤنسان دي پول، وباعتماد زميله وأخيه الأكبر، القدّيس جوزيف كتُّلينغو، على العناية الإلهيّة، لتحقيق ما يستحيل تحقيقه على القدرات البشريّة المعتدّة بقواها الذاتيّة.

وعاش في جوٍّ عابقٍ بالقداسة، وسط كوكبةٍ من القدّيسين المختارين، فالتقط عدوى قداستهم، ونقل إليهم عدوى قداسته، بدءًا بوالدته القدّيسة مرغريتا، وسابقه وشريكه

في تحويل ڤلدوكّو من مستنقع رذيلةٍ إلى منبت قداسةٍ، القدّيس جوزيف كتُّلينغو؛ ومرشده القدّيس جوزيف كافاسّو، وتلميذه القدّيس دومينيك ساڤيو، والراهبة القدّيسة ماريّا مزّاريلّو، التي أسّست، بدعمه وإشرافه، جمعيّة مريم المساعِدة، والأب القدّيس ليوناردو موريالدي مؤسّس جمعيّة القدّيس يوسف، الذي دعم دون بوسكو، ونهج نهجه في الذود عن حقوق العمّال؛ والقدّيس ميشيل رُوا، الذي حضنه مذ كان يتيمًا في الثانية عشرة، ووعده باقتسام كلّ ما يملكه معه، إلى أن أصبح أوّل كاهنٍ ساليزيٍّ، ثمّ نائبًا له في أواخر أيّامه، فخليفتَه الأوّل على رئاسة الجمعيّة الساليزيّة؛ ولا ننسينّ الطوباويّ فيليپو رينالدي الذي فرّ من الأوراتوار، وظلّ دون بوسكو يتابعه، لأنّه كان قد توسّم فيه خادمًا لله مختارًا، حتّى أقنعه بالعودة إلى الأوراتوار، وأوصله إلى الكهنوت، وأمسى خليفته الثالث على رئاسة الجمعيّة الساليزيّة؛ ولا ننسينّ أيضًا، رفيقه في الإكليريكيّة "لويجي كومولّو"، الذي حماه، هو، من تعدّيات رفاقٍ مشاغبين مزدهين بقوّة عضلاتهم، وزوّده كومولّو بروحانيّته السامية. ولكنّ المنيّة قصفت عوده، وهو في ميعة الشباب. فظهر لدون بوسكو، بعد مرور أسبوعٍ على وفاته، وبلّغه أنّه بات من سكّان السماء، وظلّ يتواصل معه عبر خطٍّ سماويٍّ خاصٍّ.

ولا جرَم، أنّه من خلال تواصله مع تلك الكوكبة، تمكّن من كلّ الفضائل التي تصنع قدّيسين.

فقد سكن في الله، فكانت حياته بأكملها صلاةً، ونسجت الصلاة حياته. وقد شهد خليفته الأوّل على رئاسة الجمعيّة القدّيس ميشيل رُوا: "إنّ ما لم أكفّ عن ملاحظته هو اتّحاده الدائم بالله. وكان يُظهر مشاعر حبّه لله، بتلقائيّةٍ تدلّ على تفجّرها من نفسٍ ومن قلبٍ غائصين، دائمًا، في تأمّل الله".

وأثناء دعوى تطويب دون بوسكو، طُلِبَ من أحد الشهود أن يذكر عملاً، كان يقوم به وهو يصلّي. فأجاب: "وهل مَن يستطيع ذكرَ وقتٍ لم يكن فيه يصلّي؟".

وهذا ما لاحظه الكاهن الشابّ "أكيلّي راتّي"، الذي أصبح البابا پيّوس الحادي عشر، الذي زار الأوراتوار، وراقب دون بوسكو، عن كثبٍ، وفي أثناء حبريّته، شهد أمام إكليريكيّين في مدينة روما:

"لقد كانت حياته، في كلّ لحظةٍ، تضحية محبّةٍ، وخشوعًا مستمرًّا، وصلاةً. ذلكم كان الانطباع الأشدّ وقعًا الناجم عن الحديث معه. كان متيقّظًا لكلّ ما يدور حوله، وكان القوم يأتونه من كلّ صوبٍ، ولكلٍّ منهم هاجسٌ أو طلبٌ. وهو كان، دائمًا، واقفًا على رجليه، وكأنّه أمام قضايا عابرةٍ تُحَلُّ في لحظاتٍ. كان يُصغي إلى كلّ شيءٍ، ثمّ يجيب على كلّ استفسارٍ أو مطلبٍ، ولا يحيد عن خشوعه العميق.

"كان يبدو أنّه لا يولي اهتمامًا لشيءٍ، ممّا كان يُقال من حوله، وأنّ فكره كان في مكانٍ آخر، متّحدًا بالله. غير أنّه، بعدئذٍ، كان يجيب على كلّ شيءٍ الإجابة الصحيحة! في الواقع، كان بادئًا، يُدهش، ثمّ كان يُذهل".

تلك هي حياة القداسة والخشوع والمثابرة في الصلاة التي كان يسوقها في ساعات الليل، كما في ساعات النهار المزدحمة باهتماماتٍ لا تهادن ولا ترحم".

ربّما في غمرة اهتماماته الضاغطة، لم يكن يتسنّى له الانقطاع للصلاة ساعاتٍ طويلةً، ومع ذلك، كانت الصلاة هي رفيقةَ كلّ عملٍ من أعماله، ولم تكن التنهّدات التقويّة القصيرة، تفارق قلبه وشفتيه. ولكنّه عندما كان يتفرّغ للصلاة، ويركع، كانت الصلاة تأخذه بأكمله، وكان يغوص في حوارٍ مستمرٍّ مع الله.

ومع ذلك، كان متيقّظًا لمقتضيات مجتمعه الملحّة، ودائم السهر على تلبيتها وتوفيرها. وكان ذلك يتطلّب منه عملاً دؤوبًا، لا يفتر لحظةً واحدةً.

ولم يشكُ يومًا من تعبٍ. فمنذ صغره، لم تخشَ والدته تكليفه بأعمالٍ متعبةٍ. فالتعب عندها، وفي مجتمعها القرويّ عمومًا، مقدّسٌ، وهو الذي يصوغ الأقوياء.

وفي هذا السبيل ضحّى بصحّته وبراحته. ومع كونه مكرّسًا لله، ومثابرًا على الصلاة، في كلّ لحظةٍ، كان يقود عمله، يومًا فيومًا، كما يقود متعهّدٌ مشاريعه، أو رئيسٌ مؤسّستَه. كان يبتدع المشاريع التي يراها ضروريّةً، وينفّذها بحرصٍ شديدٍ على إتقانها، وبموهبة إداريّةٍ فذّةٍ، خبيرةٍ بتوزيع المهمّات على رجاله، واستنباط خير ما في كلٍّ منهم، وبقدرةٍ فريدةٍ على استقطار المال اللازم بواسطة العذراء المساعدة، واتّكاله على العناية الإلهيّة، وبهداية الأحلام السماويّة التي كانت تبيّن له الطريق والغايات، وتحثّه على المضيّ قُدُمًا، وتشجّعه، وتُمِدّه بالثقة والإقدام. والملفت أنّ رؤيته للأحلام، قد اتّسمت بدقّةٍ فوتوغرافيّةٍ مذهلةٍ، وبتأثيرٍ يتعذّر مقاومته. فعندما كان يُقدم على قراراتٍ خطيرةٍ، غالبًا ما كان آخرون يرون فيها مغامراتٍ متهوّرةً، كان هو يُقدم عليها بلا تردّدٍ، لأنّه شاهدها بعينيه وأدرك عواقبها الخيّرة. مثال ذلك ما حدث بشأن بيت "پيناردي". فكأنّه كان ينفّذ مخطّطاتٍ، رسمتها الأحلام في ذهنه بوضوحٍ مدهشٍ.

أحلامه كانت صورًا رسمها الشعر والهوى، وهي لو لم تُلهِم قدّيسًا عظيمًا، لكانت ابتدعت شاعرًا فذًّا، مجلّيًا.

إنجازاته المدهشة التي تمثّلت في تأسيس مئات الأوراتوارات في شتّى بقاع العالم، وبناء العديد من الكاتدرائيّات الكبرى، حتّى التي عجز الڤاتيكان عن إنجاز بنائها، وعشرات المدارس والثانويّات، والملاجئ. هذه، كلّها، تشهد على نشاطٍ لم يعرف هوادةً ولا هدنةً. وكان من شأنها القضاء على ثلاثة رجالٍ في مقتبل العمر.

لقد زار روما تسع عشرة مرّةً، من أجل إنجاز شؤونٍ تتعلّق بجمعيّته ومشاريعه، ودأب على زيارة فروع جمعيّته بوتيرةٍ يتعذّر لجمها.

من كلّ مكانٍ كان يُستدعى، لم يكن يتوانى عن تلبية النداء، ولطالما استضافته مقطورات السكك الحديديّة، من الدرجة الثالثة، بمقاعدها الخشبيّة القاسية.

وتميّز دون بوسكو بتواضعٍ مذهلٍ. فمع كلّ ما حفلت به الصحف والخطابات من إشادةٍ وثناءٍ، وتعظيمٍ، وتكريمٍ، لم تتسرّب إلى نفسه ذرّة غرورٍ. وحتّى في عزّ المجد الذي أُحيط به في قصور باريس وليون، حيث تنافس عظماء القوم على الظفر بحديثٍ قصيرٍ معه أو بمجرّد تحيّته، لم يكن يُخفي فقر نشأته، ولا التعريفَ بنفسه أنّه "فلاّح بيكّي" الصغير الفقير، وأنّه، بسبب فقر ذويه، عمل في صباه أجيرًا يرعى ماشية قرويّين ميسورين.

لم تغب، قطّ، عن باله نشأته البائسة، ولكنّه لم يشكُ، ولم يخجل منها، بل من عمق فقره، توسّم دعوته إلى أن يكون لأمثاله راعيًا، يرشدهم إلى مراعي العلم والتربية السليمة، والاستقامة. ولم يقتصر حلمه على تثقيفهم وتنقيتهم من القذارة الجسديّة والنفسيّة، ووقايتهم من الجوع، والبطالة، والرذيلة، والإذلال، بل توخّى تسريب الرجاء إلى نفوسهم، مع انعدام أسباب الرجاء، ظاهريًّا. فوفّر لهم حياةً فضلى تليق بأبناء الله، وأحاطهم بمحبّته.

تطلّعاته كانت أسمى من مطامع الزاحفين على الحضيض، ومن كثيرٍ من الكهنة الذين يكتفون بالحدّ الأدنى من الجهد. فلم تعرف جهوده كللاً، بل عهدت استمرارًا غير مألوفٍ. وعدّه بعض زملائه الكسالى مجنونًا، وحاولوا إيداعه في مصحٍّ عقليٍّ. وغاب عن وعيهم أنّ جنونه كان من نمط جنون الراعي الصالح، الذي خاطر بنفسه في أشواك الوديان الموحشة في سبيل استعادة شاةٍ ضالّةٍ.

لقد تجرّع كأس الفقر حتّى الثمالة، ولكنّه حاربه، بضراوةٍ، لدى الآخرين. وحوّل معاناته الفقر، إلى خدمةٍ. كان يُنفق بلا حسابٍ على إطعام الجياع وإيواء المشرّدين، وعلى بناء بيوت الله، ولكنّه قتّر على ذاته بلا رحمةٍ.

عشق الفقر المقدّس، فقر التطويبات، وتقشّف حتّى أقصى حدود التقشّف في طعامه، ولباسه، وسكنه، ومات فقيرًا، وأوصى تلاميذه بالتزام الفقر، كي تلتزم العناية الإلهيّة بهم.

ذات يومٍ كان يهمّ بالسفر إلى روما، وشاهدته سيّدةٌ فقالت له:
"أرجو ألاّ تذهب إلى روما بهذه الثياب الرثّة". فأجابها:
"ليس لدينا أفضل منها. وهذه الثياب استعرتها أنا من كاهنٍ آخر".

كان يقطع عشرات الكيلومترات، سيرًا على الأقدام. وإذا استقلّ قطارًا، فكان يستأجر الدرجة الثالثة الأرخص أجرًا، والأقلّ رفاهيّةً. وأتقن فنّ التسوّل، بفرحٍ، وبوجهٍ مشرقٍ، فأمسى تسوّله جذّابًا، وفتح له القلوب والمحافظ. وقد شهدت سيّدةٌ أنّها، حالما كان يدخل دون بوسكو بيتها، كانت تقرّر المبلغ الذي ستتبرّع له به، ولكنّها لا تستقرّ، ولا يطمئنّ لها بالٌ حتّى تضاعف المبلغ.

فقد أباه وهو في الثانية من عمره، ففتح أبواب مؤسّساته للأيتام، وكان لهم الأب، وكانت والدته لهم الأُمّ. وكانت والدته قد علّمته فتح الباب لكلّ قارعٍ سائلٍ، مع أنّه ليس للفقراء ما يعطونه من نافلهم، بل يُعطون من أَوَدهم الأساسيّ.

وشهِد ولع الصغار ببراعة البهلوانيّين، فتفوّق عليهم في هذا الفنّ. وبتفوّقه اجتذب زرافاتٍ من الشبّان إلى الله.

في سنّ التاسعة أرشدته أمّ الله إلى دعوته، فسلك الطريق التي رسمتها له بعنايةٍ ووفاءٍ، وظلّت تهديه من خلال الأحلام إلى المسالك الجديدة نحو الفتوحات الروحيّة، والتزم هو بتوجيهاتها، فغزا القلوب والأقطار.

راز مخاطر الجهل فجهد في سبيل محوه.

سَبَر عمقَ أثر إهمال الآباء لأبنائهم، فجمع الأبناء المهمَلين في أُسرةٍ، تعيش بالمحبّة المتبادلة، وكان لهم الأب العطوف، وكانت أمّه لهم الأُمّ والخادمة.

كفّر عن فشل مجتمعٍ، أهمل واجب حماية جيلٍ مُهمَلٍ، فأخذ على عاتقه إنقاذه من منـــزلقات الهلاك، وانتزاعه من براثن أعوان إبليس.

لمس مخاطر ترفّع المربّين عمّن عُهِدت إليهم تربيتهم، بحجّة الحفاظ على الهيبة، فانثلمت علاقة الثقة بينهم، وهُدر الأثر التربويّ، وحلّ الجفاء مكان الثقة. أمّا هو فكان لجميع من تولّى تربيتهم، الرفيق دائم الحضور، والنجيَّ المؤتَمَن على كلّ سرٍّ، وكلّ شيءٍ، فأنجب أبناءً صادقين وأوفياء.

ضحّى في سبيلهم، فضحّوا في سبيل الآخرين، وغزوا بخدماتهم العالم؛ نالوا الحبّ مجّانًا فأغدقوه بلا حسابٍ.

وقد تميّز دون بوسكو بالفرح. ومذ كان طالبًا إكليريكيًّا، أسّس "جماعة الفرح"، وحمل شعار "كونوا فرحين"، وكان فرحه نابعًا من نقاء نفسه، وتجرّده من كلّ همٍّ أرضيٍّ، ومن ثقةٍ مطلقةٍ بالعناية الإلهيّة.

وعندما كانت تتجلّى عليه أمارات الفرح، كان المقرّبون منه يدركون أنّه يجتاز مرحلة ضيقٍ ماليٍّ. وقد شهد أحد أقدم تلاميذه، وألمع الساليزيّين، "جوڤانّي كالييرو"، الذي قاد الحملة الرسوليّة إلى أميركا الجنوبيّة، ثمّ أضحى رئيس أساقفة في الأرجنتين، ثمّ كردينالاً: "أثناء الخمس والثلاثين سنةً التي أمضيتُها إلى جانبه، لم أرَه، دقيقةً واحدةً، قلقًا أو محبطًا. ففي الأمسية التي كان فيها الطعام زهيدًا، كان يقول لنا: "يا أبنائي، كلوا، فغدًا سيكون لدينا كفايتنا من الطعام".

لقد قضى حياته في غمرة ثوراتٍ وحروبٍ، وبطالةٍ وجوعٍ. وربّما نزف قلبه حزنًا، ولكنّ عينيه كانتا تشعّان فرحًا، لأنّه لم يشكّ، لحظةً، بالعناية الإلهيّة، التي وثق بها ثقة القدّيسين. وحتّى عشيّة نهاية مطافه الأرضيّ، وقد أنهكه الجهد، ما انفكّ يرقص على حبلٍ مشدودٍ موازنًا الهموم بالهموم.

ولم يغيّر، يومًا، شعاره، ونصيحته لصغاره: "كونوا فرحين".
فأيّها القدّيس جان بوسكو أعطِنا شيئًا من فرحك.

ولا ريب أنّ أحد عوامل فرحه كان تجرّده من كلّ مطمعٍ أرضيٍّ. وقد دفعه تجرّده إلى نزاهةٍ مطلقةٍ. فقد كان يعدّ نفسه مسؤولاً أمام الله، عن كلّ ليرا تُعطاه، ويخشى هدرها في غير محلّها، ويحرص على حصر إنفاقه على الفقراء والأشدّ حاجةً إليه. فاستعان بجيشٍ من المحاسبين وأمناء السرّ من أجل ضبط كلّ فلسٍ يأتيه، وتدوين اسم المتبرّع، وغاية التبرّع به، وكيفيّة إنفاقه بالتفصيل. والتزم بالردّ على كلّ رسائل المتبرّعين التي كانت تهطل من كلّ صوبٍ، حتّى قيل إنّ بريده كان أكثف من بريد الملك.

ودفعه تجرّده، وتحرّره من كلّ قيدٍ عاطفيٍّ بشريّ، المقترنان بغيرةٍ تبشيريّةٍ، كانت تلتهمه، إلى بذل ذاته في سبيل حبّ النفوس وخلاصها، محتفظًا بالأولويّة لحبّ الله، وجاهدًا في تمجيده، وصولاً إلى السلام النفسيّ والسعادة الأبديّة.

وحرصه على أن ينال كلّ إنسانٍ، أوكلت إليه العناية به الطعام اللازم، لكي لا يفقد إنسانيّته، ولكي يزدهر جسدًا وروحًا تحت شمس الربّ، أكسبه حضور ذهنٍ يقظًا، ورقّةً دائمةً في كلّ ظرفٍ، قارنًا الموهبة المُعطاة بالخبرة المكتسبة.

ومع ذلك، لم يهمل شيئًا من واجباته الدينيّة، فقد واجه ببسالةٍ أعداء الدين، حتّى الذين كانوا يتبوّأون، منهم، مقاليد السلطة. وعلى غرار خوري أرس، كان يُمضي الكثير من أيّامه سجين كرسيّ الاعتراف، الذي كان يدخله في الساعة الخامسة صباحًا، ويخرج منه، ظهرًا، كي يتناول شيئًا من الطعام، ثمّ يعود إليه، في الثانية بعد الظهر، ولا يبارحه حتّى الحادية عشرة ليلاً، كي يتسنّى له تناول عشاءٍ زهيدٍ، قبل الصوم الذي كان مفروضًا منذ منتصف الليل على كلّ راغبٍ في المناولة.

وقد اكتنـــز في ذاته كلّ وجوه العبقريّة الإيطاليّة المعقّدة، والمليئة بالمفارقات، فكان المتسوّل السخيّ، والساحر الجادّ، والتراجيديّ المبتسم. وكان خليطًا من رهافة إحساسٍ، وتفجّر طاقاتٍ، ورقّةً عذبةً.

وبالإجمال، كان قدّيسًا.

والله يرسل فئةً من القدّيسين، كما يرسل الأنبياء، في حقبةٍ معيّنةٍ، كي ينبّهوا من خطرٍ داهمٍ، ويدرأوا أزماتٍ مجتمعيّةً مدمّرةً، ويرشدوا إلى دروب الخلاص، ويصلحوا ما يسعهم إصلاحه، وينقذوا نفوسًا من الهلاك، وعقولاً من الجهل، ويصدّوا الأخطار التي تهدّد أبناء الله الأبرياء.

وقد أرسل الله دون بوسكو، كي يواجه مخاطر الثورة الصناعيّة في وطنه، وفي البقعة التي كان يخدمها. فقد جرفت تلك الثورة جموعًا من فقراء الأرياف إلى المدن سعيًا إلى عملٍ، يضمن لهم استقرارًا، يقيهم من غدر المواسم، وقسوة الطبيعة، ويوفّر لهم عيشًا أفضل، ولا سلاح لهم في مواجهة التحوّل الجوهريّ الذي اندفعوا إليه سوى الجهل والعوَز، والسذاجة المعرّضة لكلّ شباك الاستغلال، وألاعيب الجشع. ورأى دون بوسكو أنّ واجبه هو تزويدهم بالتوعية، والإيواء، والرعاية، ومحو الأُمّيّة، وفي تعليم الراغبين في العلم. أمّا الذين لا رغبة لهم فيه، فتدريبهم على مِهنٍ تسلّحهم ضدّ البطالة والتسكّع والسجون، وإيجاد عملٍ لهم، وحماية حقوقهم بعقود عملٍ مُلزمةٍ لهم ولأرباب عملهم، تصون كرامتهم، وتضمن حقوقهم المادّيّة، فكان من روّاد المصلحين الاجتماعيّين في هذا المضمار.

وأولى اهتمامًا خاصًّا بصغارهم الأكثر تعرّضًا للعطب، وأشاع بينهم روح الأُسرة، خالقًا مناخًا دافئًا، تزدهر فيه النفوس، وتقوّى، وتتعلّم المحبّة والعطاء.

ولم يقتصر عمله على أبناء وطنه. بل انتشرت مؤسّساته في معظم المدن الأوروبّيّة، واشتهرت مدارس جمعيّته في كلّ أرجاء العالم، وأُنشئت أماكن رعايته في شتّى مواطن الفقر، والتشرّد، والحاجة إلى علمٍ متين الأركان، وإلى مساعدة المحبّة السمحاء، سخيّة العطاء، وروح القداسة.

ولا ريب أنّ مصير البناء القائم على صخر الإيمان، ومشيئة الله، وروح التطويبات، هو الثبات والنموّ والانتشار.

وها إنّ مشاريع دون بوسكو التي غزت العالم، والتي تتكنّى باسم شفيع جمعيّته القدّيس فرنسوا الساليزيّ، وتفخر باسم دون بوسكو، تفيض خيرًا في كلّ أرجاء المعمورة.

مسيرة تطويب دون بوسكو

فور وفاة دون بوسكو، أوعز البابا لاون الثالث عشر إلى دون رُوا الذي خلف الراحل على رئاسة الجمعيّة، بمباشرة دعوى تطويبه.

وفي ١٨٩٠/٦/٣، أنشأ الكردينال "ألموندا" الذي كان يتولّى رئاسة أسقفيّة تورينو المحكمة الراعويّة. واستغرق التحقيق في سلامة مؤلّفات دون بوسكو، عقيديًّا ولاهوتيًّا سبع سنواتٍ، واستلزم ٥٦٢ جلسة نقاشٍ واستماعٍ إلى شهودٍ، وانتهى بتأكيد قداسة الفقيد، ونزاهة كتاباته كلّها من كلّ عثرةٍ أو هفوةٍ عقيديّةٍ.

وحينئذٍ وقّع البابا القدّيس پيّوس العاشر قرار الشروع بالدعوى الرومانيّة، التي شهدت الكثير من الأخذ والردّ، والسجالات، بعد أن حشد الكرادلة الذين دعموا الأُسقف غاستالدي ضدّ دون بوسكو طائفةً من الشهود، وحرّضوا محامي الشيطان الذي عيّنوه، على تضخيم ما عدّوه عيوبًا وأخطاءً، تدين دون بوسكو، واتّهموه بنوايا خفيّةٍ، تتعارض مع كلّ أعماله. ونجح الكرادلة المدافعون عن قداسة دون بوسكو، بدعمٍ من البابا پيّوس العاشر. وبعد عشرين سنةً من النقاشات الحامية اختتمت الدعوى الرومانيّة.

ويوم ١٩٢٧/٢/٨، أكّد البابا پيّوس الحادي عشر، الذي كان قد خلف عام ١٩٢٢، البابا پيّوس العاشر، أنّ دون بوسكو هو من فئة المختارين الرائعين، ومن عمالقة فاعلي الخير، وأنّ زبدة النقاشات المستفيضة المتعلّقة بفضائله الأكيدة وعيوبه المزعومة، تبرز وجهًا جميلاً وعظيمًا، لم يُفلح تواضعه الجمّ في إخفائه وتمويهه.

وفي العظة التي ألقاها البابا في الأوّل من نيسان ١٩٣٤، أعلن الحبر الأعظم، رسميًّا أنّ دون جان بوسكو، قد مارس ممارسةً بطوليّةً الفضائل اللاهوتيّة الثلاث: الإيمان، والرجاء، والمحبّة، والفضائل الرئيسة: الفطنة، والعدل، والقوّة، والقناعة. ووصفه برسول الشبيبة، الذي كرّس حياته لمجد الله وخلاص النفوس، متميّزًا بجرأة أساليبه التي استخدمت طرقًا مُبتدعةً، من أجل تثقيفٍ إنسانيٍّ كلّيٍّ.

وجديرٌ بالتذكير أنّ ذلك البابا كان قد زار أوراتوار ڤلدوكّو، لّما كان كاهنًا شابًّا، وعاين بإعجابٍ أسلوب إصغائه للزائرين ولأبنائه والترحيب بالجميع، حتّى إنّه كان يدعو الإكليريكيّين في روما إلى التمثّل به.

أثناء الدعوى الرومانيّة كان الكرادلة المناوئون لدون بوسكو، قد أصدروا قرارًا سلبيًّا، عام ١٩٢٦، فأعيد النقاش وانتهى بقرارٍ إيجابيٍّ في شباط ١٩٢٧، وحينئذٍ أصدر البابا پيّوس الحادي عشر بيانًا، أكّد فيه بطولة ممارسته للفضائل.

وبما أنّ الأشفية العديدة العجيبة التي حدثت في أثناء حياته لم تخضع، في وقتها، للمعايير التي تبرّر التطويب، اقتضى أعجوبتين مؤكّدتين تتحقّقان بشفاعته، بعد مماته.

وقد نعمت بالأعجوبة الأولى راهبةٌ ساليزيّةٌ تدعى "نيغرو پروڤينا" (Negro Provina)، في الثلاثين من العمر، كانت مصابةً بقرحٍ في معدها، وحدّثتها رفيقاها عن المعجزات التي تتحقّق بشفاعة دون بوسكو. ولما انفردت بنفسها، تناولت من فوق منضدها صورةً للقدّيس، كانت قد اقتصّتها من مجلّةٍ ساليزيّةٍ، ووجّهت للقدّيس صلاةً حارّةً. واستفاقت ليلاً فوجدت على منضدها حبّة دواءٍ، ومع أنّ الأطبّاء كانوا قد حذّروها من تناول أيّ دواءٍ لم يصفوه لها، أخذت الحبّة وابتلعتها. وفي الحال اعتراها شعورٌ بالشفاء، فنهضت من سريرها، وانطلقت تروح وتجيء،

داخل غرفتها، فرحةً بشفائها، وشاكرةً للربّ، ولشفيعها دون بوسكو. وفي الساعة السابعة والنصف تناولت إفطارًا عاديًّا، واستعادت عملها.

وعدّ الأطبّاء شفاءها فوريًّا، كاملاً، نهائيًّا، لا يمكن تفسيره علميًّا.

الأعجوبة الثانية حدثت لفتاةٍ، عمرها ثلاثٌ وعشرون سنةً، في تشرين الثاني من عام ١٩١٨، كانت مبتلاةً بالتهابٍ رئويٍّ حادٍّ، وفيما كانت تتعافى منه أصيبت بالتهاب مفاصل إنتانيٍّ مُعدٍ. وذات ليلةٍ، قبل نومها التمست من دون بوسكو نعمة الشفاء. وعند الساعة الرابعة فجرًا، رأت كاهنًا يضع يده على جبينها، ويستفسر عن صحّتها، ثمّ يأمرها بالنهوض، فاعتذرت محتجّةً بعجزها عن النهوض، ومع ذلك أمرها بتحريك ساقها، فنهضت وكان شفاؤها كاملاً، فابتسم لها الكاهن وتوارى.

أُعلِن، إذن، دون بوسكو طوباويًّا. وكان إعلان قداسته يستوجب أعجوبتين أُخريين. وجرت الأعجوبة الأولى للمدعوّة "أنّا مكشيليني" (Anna Maccelini)، لها من العمر أربعةٌ وسبعون عامًا، كانت قد أُصيبت بالتهاب قصباتها الرئويّة، ثمّ بالتهاب وريد ساقها اليُسرى. فأقامت ثلاثيّة صلواتٍ لدون بوسكو، في تورينو، حيث صلّت بحرقةٍ أمام ذخائر الكاهن القدّيس، وبعد عشرين دقيقةً، شعرت بما يدفعها للركوع، وشفيت في الحال.

الأعجوبة الثانية حدثت للمدعوّة "كاترينا پيلينغا" (Caterina Pilenga)، التي كانت قد أُصيبت عام ١٩٠٣، بالتهاب مفاصل عطّل عمل ركبتيها وقدميها. فتوسّلت إلى العذراء أن تشفيها بشفاعة دون بوسكو.

واشتركت في حجٍّ إلى تورينو، وأُنزلت بمشقّةٍ من العربة التي أتت بها، وصلّت بحرارةٍ أمام ذخائر دون بوسكو. وبعد عشرين دقيقةً شعرت بما يدفعها إلى الركوع،

ولم تكن تستطيع إلى الركوع سبيلاً، من قبل، فركعت أمام إيقونة العذراء، وشفيت في الحال، فوريًّا ونهائيًّا، حسب تقريرٍ طبّيٍّ موثّقٍ.

وحُدِّد موعد إعلان قداسة دون بوسكو يوم عيد الفصح الموافق الأوّل من نيسان ١٩٣٤، وعُيِّن موعد عيده السنويّ في الأوّل من كانون الثاني، مطلع كلّ عامٍ.

المراجع

- Françoise BOUCHARD: Don Bosco: par la force du cœur
  Ed. Salvator, Paris 2008
- A. AUFRAY: Un grand Éducateur, St Jean Bosco
- Henri GHEON : St Jean Bosco,
  Flammarion, Paris, 1935
- Francis DESTAMUT: La vie de Don Bosco,
  Ed. Don Bosco, Paris 2006
- Teresio BOSCO: Don Bosco
  Cerf, Paris, 1981.
- Charles d'ESPINEY: DON BOSCO
  Librairie Salésienne, Nice 1888
- Johannes JOERGENSEN: DON BOSCO, Ses amis, son Œuvre
  Ed.G. Beauchenne, Paris 1931
- Jean de la VARENDE: Le dix-neuvième st Jean
  Ed. via Romana, Versailles 2015
- Jos BIESMANS: DON BOSCO, un homme de cœur
  Ed Don Bosco, Paris 1998
- DON BOSCO: Souvenirs autobiographiques
  Mediaspaul, Paris 1987

الفهرس

إهــداء ٥

تقديم – الأب الياس زحلاوي ٧

الفَصْلُ الأَوَّلُ

نشأة فقرٍ، ويُتمٍ، وكفاحٍ ١٣

جان بوسكو ١٤

مربّيةٌ مثاليّةٌ ١٨

دعوةٌ تتّضح معالمها ٢٩

الفَصْلُ الثَّانِي

مسيرةٌ شاقّةٌ صوب الكهنوت ٤٣

الطالب في كييري ٤٤

محنةٌ قاسيةٌ ٥٥

الفَصْلُ الثَّالِثُ

جان بوسكو الكاهن وأوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ ٦٧

الكاهن الجديد ٦٨

بدء تحقيق حلمٍ ٧٤

ثلاث غرفٍ في بناء "موريتّا" (Moretta) ٨٥

التعب ينال من صحّة دون بوسكو ٩٠

تطوّراتٌ في أوراتوار القدّيس فرنسوا الساليزيّ ١٠٢

معاناة مرغريتا بوسكو، وشراء بناء پياردي ١٠٧

شراء بناء پيناردي بأكمله ١١١
مشاريع بناءٍ جديدةٌ ١١٥
وفاة مرغريتا بوسكو.. ١١٩
رقعة الأوراتوار تتّسع، ودون بوسكو يُنهك صحّته ١٢٣
دون بوسكو والنوم ١٢٥
تميّز أوراتوار دون بوسكو ١٢٦
تأسيس الجمعيّة الساليزيّة ١٣١
الساليزيّ الأوّل.. ١٣٥
دومينيك ساڤيو (D. SAVIO) ١٣٨
يانصيب عام ١٨٥٧ .... ١٤٥

الفصل الرابع

من روائع المحبّة.. ١٤٧
يوم حرّيّةٍ للمساجين ١٤٨
في مواجهة الكوليرا ١٥١

الفصل الخامس

نضالٌ إيمانيٌّ.. ١٥٥
دون بوسكو و"الڤوديّون" ١٥٦
المُدافع عن البابويّة.. ١٦٣
مصائب متعاقبةٌ.. ١٦٦

الفصل السادس

الجمعيّة الساليزيّة.. ١٦٩
نشوء الجمعيّة الساليزيّة ١٧٠
تأسيس جمعيّة القدّيس فرنسوا الساليزيّ ١٧٣

اكتشاف عناصر ثمينةٍ ١٧٦
مرحلةٌ ساليزيّةٌ جديدةٌ ١٧٨
كنيسة مريم المساعدة.. ١٨٠
إكليريكيّةٌ صغرى ١٨٧
انهيار دون روا ١٩٠
فرع الأوراتوار النسائيّ ١٩٢
محنةٌ صحّيّةٌ قاسيةٌ عارضةٌ.. ٢٠٠
الساليزيّون المساعدون ٢٠١
مُولِّد دعواتٍ، ومُوجِّه مصائر ٢٠٤
الجمعيّة الساليزيّة تترسّخ وتمتدّ ٢١٤
حضُّ كهنةٍ على العمل المنتج.. ٢١٦
إلى أقاصي المسكونة، ملحمة رسالة أميركا الجنوبيّة.. ٢١٨
باتاغونيا: أرض الميعاد ٢٢٦
دون بوسكو يتجرّع سمّ استقلال جمعيّته عن سلطة رؤساء أساقفة تورينو ٢٣٦
أوراتواراتٌ ساليزيّةٌ في فرنسا ٢٤٦
حملات جمع أموالٍ مرهقةٌ ٢٥١
إعدادٌ للخلافة.. ٢٦١
كالييرو أُسقفًا.. ٢٦٣
وداع الأسقف كالييرو لدون بوسكو.. ٢٦٥
مقابلةٌ صحافيّةٌ ٢٦٧
إصلاح أضرار هزّةٍ أرضيّةٍ، وتدشين كنيسة قلب يسوع الأقدس.. ٢٦٩
كيف كان دون بوسكو يشكر الأغنياء.. ٢٧٢
اعترافٌ لا يُنسى ٢٧٦

الفصل السّابع

دون بوسكو المربّي ٢٧٩
دون بوسكو المربّي ٢٨٠

ملخّص أسلوب دون بوسكو التربويّ ٢٨٩
صورةٌ للساليزيّ ٢٩٣
ملامح ٢٩٤
ملامح جسديّةٌ.. ٢٩٤
ملامح روحيّةٌ.. ٢٩٦
خوارقُ وكراماتٌ.. ٣٠٣
أيّام دون بوسكو الأخيرة ووفاته ٣٠٦
لوحة قدّيسٍ.. ٣٢٣
مسيرة تطويب دون بوسكو ٣٣٣
المراجع ٣٣٧
الفهرس.. ٣٣٩
صدر للمؤلّف ٣٤٣
أوّلاً. منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان ٣٤٣
ثانيًا. دور نشر أخرى.. ٣٤٥

صدر للمؤلّف

أوّلاً. منشورات المكتبة البولسيّة - جونية - لبنان

- سلسلة النوابغ

١. السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – ١٩٩٢

٢. فرنسيس... أصلح كنيستي – ١٩٩٢ و ٢٠٠٨

٣. صوت من لا صوت لهم: الأب پيير – ١٩٩٧

٤. حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – ١٩٩٨ و٢٠٠٣

٥. أنا الأخت إيمانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦. بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٧. جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣

٨. سيرة المسيح (مترجم عن جوڤانّي پاپّيني) – ٢٠٠٣

٩. البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني – ٢٠١٥

١٠. الكاهن القدّيس جان ماري ڤيانّي "خوري أرس" – ٢٠١٩

١١. عملاق المحبّة القدّيس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠١٩

١٢. معجزة العناية الإلهيّة "البيت الصغير" (القدّيس جوزيف كُتّلينغو) – ٢٠٢١

١٣. راوول فولّيرو رسول البرص ومتشرّد المحبّة – ٢٠٢١

• مؤلّفات متفرّقة

١. قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب – ١٩٩٠
٢. يسوع في إنجيله – ٢٠٠٦
٣. يسوع في حياته – الجزء الأوّل – ٢٠٠٦
٤. يسوع في حياته – الجزء الثاني – ٢٠٠٦
٥. أمّ الله أمّنا – ٢٠٠٩
٦. مختارات مريميّة – ٢٠٠٩
٧. أمّ الرحمة – ٢٠١١
٨. باقاتٌ من حدائق رابندرانات طاغور – ٢٠١٦
٩. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (١) السيرة – ٢٠١٩
١٠. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (٢) الرؤى * – ٢٠١٩
١١. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (٣) الرؤى ** – ٢٠١٩
١٢. مقتطفات من خواطر القدّيس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠٢٠
١٣. قصائد وصلواتٌ وخواطر وأقوال (راوول فولّيرو) – ٢٠٢١

• سلسلة الظهورات

١. ظهورات لورد – ٢٠١١
٢. ظهورات فاطمة – ٢٠١١
٣. ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١
٤. ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١
٥. ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريال – ٢٠١٢
٦. ظهورات كيبيهو وظهورات غوادالوپّي – ٢٠١٢
٧. ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (المدالية العجائبيّة) وألفونس راتسبون – ٢٠١٢
٨. ظهورات لوس وغيتشڤاود – ٢٠١٢

٩. لِمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢
١٠. الأمّ السماويّة تجوب العالم (١) – ٢٠١٢
١١. الأمّ السماويّة تجوب العالم (٢) – ٢٠١٣
١٢. ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو – ٢٠١٣
١٣. ظهورات في فرنسا – ٢٠١٣

- سلسلة صفحات روحيّة

١. أبانا – ٢٠٠٥
٢. كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – ٢٠٠٧
٣. العذراء في حياتنا (مترجم) – ٢٠٠٥ و ٢٠٠٧
٤. المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور وصلوات شاعر (مترجم) – ٢٠١٥
٥. على درب الحياة مع ألكسي كاريل،
الرحلة إلى لورد وخواطر مختارة (مترجم) – ٢٠١٦

- كتب مترجمة

١. يد الله – ١٩٨٨ (سلسلة الشهود)
٢. ثلاث عشرة قصة – ١٩٩٠ (سلسلة الوداع)
٣. أيدٍ ملطّخة بالدم – ١٩٩٥ (سلسلة الوداع)
٤. اذكروا الله: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة – ١٩٩٥
٥. حدّثني عن الحبّ (طبعة ثالثة) – ٢٠٠٥ (سلسلة الشباب مستقبل الغد)

ثانيًا. دور نشر أخرى

١. على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) – ١٩٨٤
٢. حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجيّ – دمشق) – ١٩٩٨ و٢٠٠٠